هنري كوريل

«رجل من طراز فريد»

عرّبه وقدّم له: كميل داغر



منشورات دار النضال للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - ص. ب: 6693 - 113

هنري كوريل

"رجل من طراز فريد"

الطبعة الأولى
1986

مقدمة الترجمة العربية

ما ننقله هنا للقارىء العربي إنما هو الفصل الأول من مؤلَّفٍ ضخم وضعه جيل بيرو Perrault حول هنري كورييل ، وتناول فيه حياته ونضاله في مصر ، ثم بعد طرده منها عام 1950 ، دوره في دعم الشعب الجزائري على طريق تحرره من الاستعمار الفرنسي ، مروراً بتضامنه العملي مع العديد من حركات التحرر عبر العالم ، ووصولاً في النهاية الى موقفه الرافض للحروب العربية ـ الاسرائيلية ، ومساعيه **لأجل سلام عادل في الشرق الأدنى*** .

ولقد اكتفينا بالفصل حول مصر ، ليس لعدم أهمية الفصول الأخرى ، ولا بسبب الخلاف العميق والجذري مع طريقة كورييل في النظر الى الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، بل لأن الحافز الأساسي الذي دفعنا لنقل النص الى العربية هو تأريخه ، عبر تركيزه على دور هنري كورييل ، للحركة الشيوعية في مصر في المرحلة التي شهدت نموها الجدي ، وإن المحدود ، واندماجها في نضالات الجماهير المصرية ، ولا سيما الوطنية منها ضد الاحتلال البريطاني والملكية ، في الأربعينات من هذا القرن ، بوجه خاص ، وصولاً الى انقلاب 23 تموز 1952. إن الفصل الذي نحن بصدده يقدم صورة مفيدة للغاية ، ومثيرة ، عن مرحلة بالغة الأهمية من حياة مصر ، تفتقر المكتبة العربية الى وفرة الكتابات الجادة حولها .

وهذا لا يعني أن بيرو استوفى الحديث عن الموضوع ، إذ ثمة الكثير الكثير الذي يمكن التطرق إليه أيضاً مما أغفله صاحبنا ، أو مما لم يكن الهدف المباشر لكتابه ، المتمحور بشكل أساسي حول إسهام هنري كورييل في الحركة الوطنية المصرية . كما لا يعني أيضاً أن المؤلف كان دائماً موضوعياً في تناوله للأشخاص والأحداث وتعليله للمواقف وحكمه عليها . فثمة رنة ذاتية

---

* عنوان كتاب صدر بعد وفاته ، وجمع كتاباته حول الموضوع .

واضحة دائماً في نص الكاتب الفرنسي ، الذي لا يخرج من مسبقات الحضارة التي ينتمي اليها ، ولا من اهتمامات وهموم مجتمعه الخاص به ، وإن كان فتح كوّة فيه يطل منها على مصر ، ورغم كل ما يبدو لديه من « حنان » تجاه شعب مصر ، يستقيه من حنان هنري كورييل وحنينه العميق إلى مسقط رأسه ، حيث عاش جزءاً أساسياً من حياته ونضاله .

الحركة الشيوعية المصرية في الأربعينيات

يركّز بيرو على دور أولاد البورجوازية اليهودية الأجنبية ، المنسلخين عن طبقتهم ، في اطلاق الحركة الشيوعية المصرية وقيادتها في العقد الخامس من هذا القرن (1940 — 1950) ، معتبراً في الوقت ذاته أن هذا الواقع كان إلى حد بعيد وراء فشل هذه الحركة . فهو لا ينفك يكرر ، إما نقلاً عن آخرين ، أو تعبيراً عن وجهة نظره الخاصة به ، استحالة نجاح حركة سياسية يقودها أجانب في قيادة جماهير بلد ما إلى النصر وتحقيق المهام الوطنية والثورية ، أو كما ينقل عن الكاتب ، والمناضل الشيوعي المصري ، رفعت السعيد : لا يمكن أن يقود أجنبي حركة شيوعية في بلد محتل .

وبيرو يستفيض في تصوير ظروف اعتناق الأولاد المدللين للبورجوازية - ومن بينهم كورييل - فكر الطبقة العاملة ، والتزامهم بالماركسية سبيلاً إلى حل مشكلات المجتمع المصري ، وانخراطهم في النضال العملي ضد الواقع القائم . فمارسيل اسرائيل شاهد بأمّ عينه المظالم المقترفة في المصنع الذي كان يملكه والده ، والاستغلال البشع لأولاد الفلاحين ، الذين كان يموت ثلثهم سنوياً بمرض السل . وهو يقول : « انطلاقاً من هذا المصنع وبسببه اخترت الشيوعية » . ويصرّح ريمون أغيون : « حين فتحنا أعيننا على بؤس الناس الذي لا يصدَّق (. . .) ، لم يكن ثمة غير موقفين ممكنين : إما القبول بهذا النظام ، بالأعمال والمال ، وإما التحوّل الى ثوريين». وديدار روسانو ، التي كانت ترى صور البؤس المخيف في الشوارع ، وأمام مداخل البنايات ، لم تمتلك الا أن تعلن : « إزاء هكذا مشهد ، لا مكان للشفقة . فإما أن يدفعك القلق الى الهرب من الجحيم وشتم الانسان ، وإمايقودك التمرد إلى أن تقرر بأنه لا شيء أهم من قلب النظام الذي يوصل الى هكذا انحطاط بشري . »

أما هنري كورييل ، الذي كان يرى هو الآخر المظالم بحق البشر في كل مكان ، وفي مزرعة والده بالتحديد ، فكان رد فعله الأول السعي مع صديقته (وزوجته لاحقاً) ، روزيت العجم ، لتخفيف ذلك الظلم عن طريق العمل الانساني . لكنه سرعان ما اكتشف عقم هذا العمل الذي يكتفي بمعالجة محدودة وقاصرة لنتائج المظالم ، ولا يذهب الى الجوهر ، أي إلى

مصدر هذا الظلم من اجل القضاء عليه . « لم تكن تلك هي الطريقة الفضلى - حسبما تقول روزيت - وكان ينبغي قلب الأمور رأساً على عقب (. . .) . لقد قرر الانخراط في العمل السياسي ، الطريقة الوحيدة ليكون المرء فعّالاً » .

ولقد اختار هؤلاء المثقفون من أبناء البورجوازية (والبورجوازية الصغيرة) اليهودية ، الماركسية خلفيةً نظرية لعملهم السياسي . فبعد أن قرأ مارسيل اسرائيل كتاب بوخارين حول الماديتين الديالكتيكية والتاريخية ، حدث لديه « الكشف والحماس » . يقول : « شعرت بأن لي جناحين . مذاك لم أعد أتوقف عن قراءة الكتب الماركسية » . وهيلل شوارتز اشتمّ « أن شبكة فك الرموز الماركسية تحل رموز المجتمع المصري بدقة مذهلة . . » وديدار روسانو التي قرأت محاضرات مطبوعة على الرونيو حول المادية التاريخية سلمها إياها رونيه فارفارا ، الايطالي المناهض للفاشية ، تقول : « تولد لدي الانطباع بأن كل ما يحيط بي وجد تفسيراً له (. . .) كنت أهتف بلا انقطاع : كم هذا صحيح ! كم هذا واضح ! كان ذلك شيئاً يشبه الانبهار » . وما حدث للمذكورين حدث أيضاً لكورييل وكان الجميع ، حسب بيرو ، « يقرأون الماركسية في كتاب مفتوح هو المشهد الاجتماعي المعروض أمامهم » . وبالطبع فإن دراسة النظرية لم تكن كل شيء . فهم كورييل بوجه خاص الأهمية القصوى للانطلاق الى العمل ، تحت تأثير الشيوعي السويسري جورج بوانتيه ، حتى ان راوول شقيق هنري يقول : « بالنسبة لنا جميعاً ، لا شك في أن بوانتيه هو الذي صنع من هنري شيوعياً » .

بمعنى آخر، كان الحافز الأساسي وراء خيارات هؤلاء ، هو مشهد البؤس الاجتماعي الناجم عن الظلم ؛ وشكلت الثقافة الفكرية والسياسية الدليل النظري لمكافحة هذا الظلم . لكن من اجل فهم الطريق التي اختارتها الانتليجنسيا المشار اليها ، يضيف بيرو عاملاً آخر ، هو انسداد الطريق أمام الانخراط في الحياةالسياسية « العادية » : « بات ذلك مستحيلاً عشية الحرب العالمية الثانية . لقد كان الوفد يستقبل في الماضي اليهود ، مانحاً إياهم حتى مناصب وزارية . إلا ان تجذر الحركة الوطنية ومزاحمة الأحزاب المتطرفة غيّرا ذلك » . ونحن لن نناقش هذا العامل ، حيث قد يكون لعب دوراً ، ولو متفاوتاً ، بالنسبة لهذا الشخص أو ذاك ، ولكنه لم يكن بالتأكيد سبباً جدياً وراء قرارات مصيرية لمعظم أولئك الشبان والشابات ، من الطائفة اليهودية ، الذين انخرطوا في الحياة السياسية المصرية تحت الراية الشيوعية .

يقول بيرو : « شيوعيون ، لكن من دون حزب . نوادٍ ، وحلقات ، ومنتديات دراسة ، في غياب أية منظمة ذات بنيان للقيام بالعمل السياسي . المصريون بالغو الندرة ، ينتمون للأنتليجنسيا ؛ والكثيرون منهم في الحركة السوريالية، وتطوروا فيها بعد إلى التروتسكية . أما الآخرون فأحياناً يونانيون أو إيطاليون ، وسرعان ما جعلهم النزاع العالمي يعيدون تركيز

اهتمامهم بوطنهم الأم . والباقون ـ الغالبية الساحقة ـ يخرجون من الطائفة اليهودية المصرية ، وللمزيد من الدقة من البورجوازية المنعزلة في الحي المسمّى الحي الأوروبي. . . » .

« شيوعيون دون حزب » . لكن سرعان ما ستظهر مجموعة من المنظمات التي ترفع راية الشيوعية ، وتضع نفسها أمام مهمة التحول الى حزب . الى الحزب . وأهم تلك المنظمات ، **الأيسكرا** التي أسسها هيلل شوارتز ، **وتحرير الشعب** ، بقيادة مارسيل اسرائيل ، **والحركة المصرية للتخرر الوطني** (حمتو) ، التي أسسها هنري كورييل بالذات في بحر عام 1943. وضمت هذه الأخيرة المئات من المناضلين ، معظمهم من الأجانب . واختار لها كورييل هذا الاسم ، انطلاقاً من اعتباره ان المهمة الأساسية المطروحة في تلك المرحلة انما هي مهمة انهاء الاحتلال البريطاني لمصر . ويذكر بيرو ان هذه المسألة ترسخت لديه بوجه خاص بعد احتجازه ، للمرة الأولى ، في سجن زيتون ، والنقاشات التي دارت هناك بينه وبين نزلاء السجن المذكور . وكان حاول كورييل الحصول على دعم السفارة السوفياتية في القاهرة ، بعد افتتاحها بقليل ، من اجل تأسيس منظمة شيوعية . لكن عبثاً ، حيث كانت موسكو لا تزال تحت تأثير الملف المثير للحزب الشيوعي الميت ، الذي كان تأسس في العشرينيات واخترقته الشرطة من القمة الى القاعدة ، قبل ان يزول من خارطة القوى السياسية المصرية . لذا رأى نفسه مضطراً لبناء منظمته من دون عون خارجي . وقد حدث ذلك في السنة ذاتها التي قرر فيها ستالين ان يدفن ، تحت الحاح حلفائه في واشنطن ولندن ، الأممية الثالثة ، حزب الأحزاب الشيوعية عبر العالم .

ويقول مارسيل اسرائيل ، الذي دعاه هنري للانضمام إلى قيادة الحركة بعد عودته من فلسطين إلى مصر في نهاية عام 1943 ، إن جميع الذين رآهم في الاجتماع الوحيد لتلك القيادة الذي كان حاضراً فيه كانوا من أصل أجنبي ، وإن كان يشير في الوقت ذاته الى انه كانت هناك لجنة قيادية أخرى لـ حمتو تضم بعض المصريين . وقد نصحه أصحابه بالانسحاب وأعاد معهم تكوين مجموعة تحرير الشعب التي كان الوحيد لحير المصري بين أعضائها .

وفي المقارنة بين الرموز الثلاثة الأساسيين ، حسب بيرو ، للحركة الشيوعية المصرية في الأربعينيات ، يقول إن شوارتز واسرائيل سمعا مصر « تزمجر في قيودها وتطالب بكرامتها الوطنية » ، وبالاستقلال ، الا انهما كانا يريان الغش في استبدال السيد الانكليزي بالمستغل المصري ويعلنان انه « لا يمكن حل الجبهة الطبقية ، تحت طائلة الخيانة ، في جبهة وطنية نجسة » . بينما ، ودائماً حسب بيرو ، « سوف تثبت الممارسة أن الجبهة الطبقية ستنهزم في كل مكان تجري فيه محاولة إرسائها ، وأن نضالات التحرر الوطني التي ستخاض في القارات الثلاث سوف تسير إلى النصر تحت راية جبهة وطنية تفرضها الارادة الشعبية » . ويقول بيرو ان

كورييل فهم هذه الحقيقة ، وتوقع ان تتدفق « موجة المطالبة الوطنيـة العاتيـة ، مازجـة النقي والنجس ، لكن عملاقة لا تقاوم ، وان من الضروري امتطاءها أو الحكم على النفس بالبقاء في الرمل » .

عام 1946 ذروة النضالات الشعبية

كان الاستعمار البريطاني قد استفاد ، مع اندلاع الحرب العالمية الثانيـة ، من مضمون معاهدة عـام 1936 ليعيد انتشـار جيشه في الأراضي المصـرية ، بـدل ابقائـه في منطقـة القناة حصراً . لكن نهاية الحرب عام 1945 لم تؤد إلى انسحاب الجيش المذكـور مجدداً إلى القنـاة ، وكان ذلك تحدياً صارخاً لكرامة الجماهير المصرية وطلائعها .

بالاضافة الى ذلك ، فإن الوضع الاقتصادي والاجتماعي كان متفجـراً ، حيث انتهت مع الحرب الأرباح التي كانت تدرها ، وفُتح البلد من جديد أمام المنافسة الـدولية ، بعـد أن كانت الحرب قد عزلته ، وحفزت بالتالي قيام صناعات كثيرة تلبي الحاجات المحلية وحاجات الجيوش المتحالفة . وقد أدى ذلك كله إلى تزايد العمال الصناعيين بنسبة 140 %.

الا أن الوضع المستجد بعد نهاية الحرب ترافق مع تغييرات واسعة في الاقتصاد والحالة الاجتماعية . مورس الصرف الجماعي بحق خمسين ألف عـامل كـانوا يشتغلون في مشـاريع باتت عاجزة عن المنافسة ، ومئتين وخمسين ألف عامل آخرين كانوا يعملون لجيوش الحلفاء . « وارتفعت الأسعار ارتفاعاً جنونياً ، وتعرض الفلاحون الصغار لصعوبات قاسية . وفي المدن كان تحالف العمال والطلاب قد مُهر بالدّم . شبكة متراصـة من اللجان القـاعديـة تمتد عبـر النسيج المديني : كان كل شيء يساهم في جعل عاصفة ثورية تهب على مصر » .

هذه العاصفة شهدت إرهاصات كبرى في الاضرابات العماليـة التي بدأت تتفجـر هنا وهناك منذ أوائل كانون الثاني 1946 . وقـد تلتها في شبـاط مظاهـرات طلابيـة ضخمة ضـد الاحتلال البـريـطاني ضمت الألـوف ، وواجهتهـا الشـرطـة فسقط العشـرات من الـطلاب بالرصاص ، أو غرقاً ، بعد فتح جسر عباس فجأة ، وكان المتظاهرون بدأوا يتدفقون عبره .

واحترقت القاهرة بعد ذلك . انتخب الطلاب لجنة من 115 عضواً لتنـظيم النضال . وتأسست لجان قاعدية في المدارس . وتحـرك العمال في شبـرا الخيمة ، حيث مئـات المصانـع الصغيرة وأقوى تركز عمالي في البلد ، جارين في إثرهم المركز الصناعي في المحلة الكبرى .

يقول بيرو : « لدى الطلاب كـما لدى العمـال ، كان الشيـوعيون في الـطليعة ، وقـد

امتزجت كل المنظمات لشدة ما كان الحماس متوقداً ، وكانوا روح **اللجنة الوطنية للطلاب والعمال** التي تأسست لتجمع مئات اللجان القاعدية وتمثلها » . ووفقاً لمارسيل اسرائيل : « يمكن القول إن الشيوعيين كانوا على رأس الحركة مئة بالمئة » .

وعلى إثر المظاهرات الدامية التي تلاحقت في شباط وآذار 1946 ، اضطر رئيس الوزراء الانكليزي اتلي لأن يعلن في مجلس العموم عن إجلاء جيشه عن وادي النيل إلى منطقة القناة الأمر الذي كان بمثابة انتصار للحركة الوطنية .

وقد تصرفت حكومة صدقي باشا على أساس منع ذلك الانتصار من التحول إلى ثورة ، ونجحت في ذلك ، عن طريق تفكيك اللجنة الوطنية بدق إسفين بين العمال والطلاب غير الشيوعيين ، وقطعها عن قاعدتها بواسطة قمع انتقائي ، وبالتالي إزالة اللجان المحلية الواحدة بعد الأخرى .

ويشرح كورييل أسباب ذلك الجَزْر ، فيقول بعد زمن طويل :

« في ذلك الحين ، يمكن القول إن الجماهير كانت مستعدة للاستمرار في اللحاق بنا . لكننا لم نكن نعرف إلى أين نقودها . كان انعدام الخبرة لدينا كاملاً . ولم نكن الوحيدين الذين ادركوا ذلك . فصدقي باشا وعاه تماماً . . . يمكن ان يؤخذ ذلك علينا ، لكن ينبغي تذكّر انه لم تكن لدينا غير ستة أشهر من التجربة في القيادة السياسية ، واننا كنا إزاء وضع داخلي يمكن وصفه بالفوضى الكلية . . . » ويضيف بيرو : « إن اللجنة التي ولدت عند جسر عباس ، في الألم والنقمة ، لم تكن تملك لا برنامجاً لأجل طويل ، ولا منظورات للمدى القصير » . بمعنى آخر ، كانت المأساة تتمثل بوجود بذور قيادة ، والافتقار بالمقابل إلى قيادة متمرسة في النضال وحاملة برنامجاً متكاملاً .

الموقف من قرار التقسيم وإعلان دولة إسرائيل

عام 1945 اندمجت ح م ت و ومنظمة **الأيسكرا** في تنظيم واحد باسم الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدتو) . هذا وقد بقي موقف شتّى المنظمات الشيوعية المصرية ، بما فيها **حمتو** ومن بعدها **حدتو** بقيادة هنري كورييل ، سلبياً تجاه الحركة الصهيونية حتى ذلك العام بالذات ، أي بالتحديد موقف العداء لهذه الحركة والتنديد بها ورفض طروحاتها والدور الذي تلعبه في فلسطين والعالم .

إلا أن قرار التقسيم الذي صدر عن الأمم المتحدة وأيدته الدول الكبرى ، ومن ضمنها

الاتحاد السوفياتي ، جاء ليشكل منعطفاً في مواقف حدتو بالأخص ، التي بدّلت خطها 180 درجة وأيدت القرار المذكور ، ومن ثم نشوء دولة إسرائيل . ويقول بيرو إن هذا الخيار من جانب هنري كورييل « لم يكن ناتجاً عن سبق إدراك سياسي خاص ، بل عن الموقف الذي اتخذه الاتحاد السوفياتي . كان اندريه غروميكو قدم بذاته مشروع التقسيم . وليس من شك في انه لو اختار الكرملين الموقف المعاكس لانحازت حدتو الى هذا الموقف » .

وبالطبع ، ليس لدينا أية نية للتشكيك بصحة هذا التحليل ، إلا إنه إذا كان يبيّن مسؤولية القيادة السوفياتية في هذا المجال ، فهو لا يعفي كورييل بتاتاً ، من تبعة موقف كان في تقديرنا قاتلاً ، ولزمن طويل ، بالنسبة للحركة الشيوعية في مصر وفي العديد من البلدان العربية الأخرى ، التي اختارت الأحزاب الشيوعية فيها ألا تكون اكثر من صدى للقرارات المتخذة في الكرملين ، أيًا تكن ، ومهما تناقضت مع المصالح التاريخية لشعوب المنطقة .

يجب الاعتراف بأن بيرو أشار ، ولو بشكل خاطف ، إلى الطابع الكارثي لقيام دولة اسرائيل حيث يقول :

« إذا استثنينا الأقلية الصهيونية ، لم يكن أحد يشعر بضرورة وجود دولة يهودية ، ولم يكن ثمة شعور بالحاجة لانشاد « العام القادم في أورشليم » ، إذ كان يكفي ركوب قطار العاشرة إلا ربعاً للذهاب إلى هناك . إن الأبعد نظراً بين يهود الشرق ، الذين هزتهم المحرقة بعنف لكنهم نجوا منها ، فهموا فوراً أن إرادة إخوتهم في الدين الأوروبيين الناجين من المجزرة ان يقيموا موطناً لهم كانت تدق نهاية الطوائف السفاردية التي عاشت منذ قرون بسلام في العالم العربي . هكذا سيكون الضحايا الأولى لخلق اسرائيل الفلسطينيون المطرودون من وطنهم، أما الثانون فسيكونون اليهود الشرقيين المحكوم عليهم في مدى يقصر أو يطول بهجرة جديدة . وقد لجأت الأجهزة السرية الصهيونية ، الواعية قلة حماس يهود القاهرة أو بغداد للالتحاق باسرائيل ، الى تسريع الحركة عن طريق حملة اعتداآت بالمتفجرات ، الهدف منها إقناع الأكثر تحفظاً باستحالة البقاء في البلدان العربية . »

إلا أنه ، في الوقت ذاته ، لا يعبر عن موقف مناهض لقيام هذه الدولة . أكثر من ذلك ، إنه يقع في أخطاء خطيرة ، سواء في سرد الوقائع أو في التحليل . يزعم مثلاً أن خلق دولة إسرائيل لم يكن مشكلة « لا بالنسبة للشيوعيين ، ولا بالنسبة لمجمل الشعب المصري . » ثم يضيف : « إذا استثنينا الأخوان المسلمين وبعض المجموعات المتطرفة (؟ !) ، لم يكن الشعب المصري يهتم بالموضوع . » ، أو « لم يكن لدى الجماهير المصرية الكثير من المبررات كي تتحمس لحرب دوافعها بعيدة كل البعد عن مصالحها » .

ونحن لا نريد أن نتهم بيرو بالكذب ، وسوء النية، لكننا نعتقد أن « معلوماته » مغلوطة تماماً ، والأرجح أن من وفروها له تعمدوا الكذب ، على خلفية نيةٍ سيئةٍ بالتأكيد ، تستسهل تزوير حقائق تاريخٍ مازال قسم كبير ممن عاصروه قيد الحياة .

فبالنسبة للشيوعيين المصريين ، وعلى عكس الصورة التي يقدمها بيرو ، لا بد من الاشارة إلى أنهم كانوا منقسمين بخصوص موضوع التقسيم|ونشوء اسرائيل . **فحتى داخل حدتو** بالذات ، إذا كانت القيادة بصمت بالعشر على الموقف السوفياتي ، فلقد كان ثمة جزء مهم من القاعدة ممتعضاً شديد الامتعاض من قرار تلك القيادة . ناهيك بأنه كان ثمة إلى جانب الشيوعيين الستالينيين في مصر شيوعيون آخرون ـ **ولو في وضع الأقلية** ـ رفضوا قرار التقسيم رفضاً قاطعاً وشهّروا به ، أي أنهم بقوا على موقفهم السابق من القضية الفلسطينية . ففي عام 1944 ، نشر أنور كامل ، التروتسكي ، كتاباً بعنوان ، **الصهيونية** ، يختتمه بالقول :

« واجب اليهود اليوم (ولا يعنينا من اليهود إلا فقراءهم) أن يتخلوا نهائياً عن المعسكر الصهيوني ، سواء في فلسطين أو في غير فلسطين ، وإلا فإن نكبة كبيرة من نكبات التاريخ قد لا يدركون اليوم مداها سوف تنصبّ فوق رؤرسهم عاجلاً أو آجلاً في قلب الشرق الأوسط ! فيا أيها اليهود في أنحاء العالم ، ابتعدوا عن فلسطين ! »

وبعد صدور قرار التقسيم ، رفضته **طليعة العمال*** (**الجماعة التي كانت تصدر مجلة الفجر الجديد** بين أيار 1945 وتموز 1946) ، كما رفضه أيضاً « **الحزب الشيوعي الثوري** » ، الذي كان ينسب نفسه آنذاك الى **الأممية الرابعة** ، وأصدر بياناً يشجب فيه التقسيم وعصابة اللصوص (الأمم المتحدة) التي أقرته . وبعد قيام حرب 1948 ، بقي الحزب المذكور على موقفه وأصدر بياناً بعنوان « لا مع سلامكم ولا مع حربكم » ، حيث أكد من جديدالموقف ضد التقسيم ، ودعا بدل حرب السلطة القائمة آنذاك (حرب حيدر ، رئيس الأركان) إلى حرب ثورية .

ولا شك أن هذا الموقف الحازم من جانب الشيوعيين الثوريين المصريين ، المعادين للستالينية ، كان يستلهم موقف **الأممية الرابعة** الواضح ضد التقسيم ، هذا الموقف الذي عبر عنه بوضوح مقال صدر في أحد أعداد مجلة « الأممية الرابعة » سنة 1947 ، بين ما ورد فيه :

« إن موقف الأممية الرابعة تجاه المشكلة الفلسطينية يبقى جلياً كما في السابق . إنها ستقف في طليعة النضال ضد التقسيم ، في سبيل فلسطين موحدة ومستقلة حيث تقرر الجماهير

* وإن كانت هذه الجماعة عادت فقبلت بالقرار بعد حرب 48.

مصيرها بكل سيادة عبر انتخاب مجلس تأسيسي . وضد الأفندية والعملاء الأمبرياليين ، وضد مناورات البورجوازيتين المصرية والسورية اللتين تحاولان حرف اتجاه النضال التحرري للجماهير إلى نضال ضد اليهود ، ستدعو الأممية الرابعة إلى الثورة الزراعية ، وإلى النضال ضد الرأسمالية والأمبريالية ، وهي المحركات الأساسية للثورة العربية . إلا انها لن تستطيع خوض هذا النضال مع امكانية النجاح ، إلا بشرط تحديد موقفها ، ودون أي ابهام ، ضد تقسيم البلاد وضد اقامة الدولة اليهودية .

« إنه لمن الضروري في الوقت نفسه وأكثر من أي وقت مضى ، دعوة البروليتاريا الأميركية ، والانكليزية والكندية والاسترالية ، وبروليتاريا جميع البلدان ، الى النضال لفتح أبواب بلدانهم ، دون أي تمييز ، إلى اللاجئين والمبعدين ، وإلى جميع اليهود الذين يودون الهجرة . إن خوض هذا النضال فعلياً وبنجاح هو الشرط الذي لا يمكن دونه ان تشرح لليهود الأسباب التي يجب من أجلها ألا يذهبوا الى الأرض الفلسطينية . وإن التجربة الرهيبة التي تنتظر الجماهير اليهودية في « الدويلة » ستخلق في الوقت نفسه المقدمات لانفصال شرائح أوسع عن الصهيونية المجرمة . أما إذا لم يتم هذا الانفصال في الوقت المناسب ، فإن « الدولة اليهودية » ستغرق في بحر من الدماء » .

هذا بخصوص الشيوعيين المصريين ، أما بخصوص الجماهير المصرية فهل من السهولة بمكان الموافقة مع بيرو على أن قيام دولة اسرائيل لم يكن يشكل مشكلة بالنسبة اليها ؟ ! وأنه ، « باستثناء الاخوان المسلمين وبعض المجموعات المتطرفة ، لم يكن الشعب المصري يهتم بالموضوع » ؟ إذا كان هذا صحيحاً ، فلماذا شكلت الهزيمة العربية في حرب فلسطين ذلك الزلزال الهائل الذي زعزع أسس أكثر من نظام ، ومن بينها النظام المصري بالذات ، الذي لم ينتظر أكثر من سنوات أربع بعدما سمي بالنكبة ليسقط سقوطاً عظيماً وإلى غير ما رجعة ؟

إن الأستاذ بيرو يتحدث من بعيد جداً ، ولا يفقه شيئاً ، على ما يبدو ، من حقيقة الجماهير المصرية ، والشعب المصري ، وموقع القضية الفلسطينية من اهتماماتها . ولهذا فهو لم يستطع ان يحاكم هنري كورييل باسم القضية الوطنية بالذات ، التي أوْرد ان المذكور كان من أوائل الذين رفعوا شعاراتها ووضعوها على رأس اهتماماتهم ، إلى حد ربط اسمي المنظمتين (حمتو ، وحدتو) اللتين قادهما كورييل على التوالي بقاسم مشترك هو التحرر الوطني . إن هزيمة هنري كورييل ، والحركة التي قادها ، لم تكن ناجمة عن اسمه الأوروبي ، ولا عن أصله الأجنبي ، بقدر ما كانت ناجمة عن غربته العميقة عن إحدى أهم مهمات الثورة في مصر ، كما في المنطقة العربية كلها ، عنينا مهمة تحرير فلسطين . فليست نزعة العداء للسامية (وبيرو يعترف بأنها لم تكن موجودة لدى الجماهير المصرية بخاصة ، والعربية والاسلامية عموماً) ،

ولا دسائس الحكومات الملكية في مصر ، هي التي قضت على الشيوعيين المصريين ، رأسهم قياديوهم ذوو الأصل اليهودي ، الذين جرى طردهم من مصر ، بل موقف المفرط في الانحطاط والبؤس تجاه موضوع التقسيم ومن ثم موضوع قيام دولة اسرائيل . الموقف الذي سمح بعزلهم عن الجماهير المصرية الواسعة ، وأتاح للملك فاروق وأركان ضربهم وإخراجهم من الحياة السياسية المصرية . ولو انهم وقفوا على العكس موقفاً صحيح ذينك الموضوعين ، لكانت أمور كثيرة أخذت منحى آخر ، وليس في مصر وحسب ؛ بل كانت تبدلات جذرية طرأت على المنطقة العربية بأكملها ، كي لا نقول على العالم بأسره .

الأسباب العميقة لفشل الحركة

حددنا اعلاه أحد أهم الأسباب التي تقف وراء النهاية الكارثية التي عرفتها الش المصرية حوالي منتصف هذا القرن ، والفشل الذريع الذي حصدته بدل السير بخطى حثي النصر . عنينا الموقف المدان والمشؤوم الذي اتخذته حيال القضية الفلسطينية . وهو موقف أن أشرنا الى ان بيرو يرجعه الى انحكام كورييل وحركته بموقف الاتحاد السوفياتي من الت ومن تأسيس دولة اسرائيل . بمعنى آخر ، فهو يرجعه الى ستالينية الحركة المذكورة وقيادتها

وبالفعل ، فقد كان كورييل ستالينياً حتى العظم ، في شخصيته ، كما في أفكاره و السياسية والتنظيمية . ولن نتوقف بالتأكيد عند الجوانب الحميمة في الشخصية التي نحن نضالها ، مكتفين بتقويم أحد أصدقائه ، مارسيل ماسيكا ، الذي يقول : « كان يمكن أن يبدي عناداً غير معقول . كنت أحبه كثيراً ، لكن الحقيقة انه كان ستالينياً . أعني ستالينياً . » ؛ وبالتقويم السريع الذي يورده لطف الله سليمان (في الملحق الذي وضعنا الفصل عن مصر من كتاب جيل بيرو) . فسليمان يفسر شخصية كورييل الستالينية بـ « إنه لم يكن يستطيع الامتناع عن الخلط بين التاريخ وزعامته الخاصة به » .

الا ان بيرو إذا كان يعتبر ستالينية كورييل هي التي حكمت موقفه من الق الفلسطينية ، فهو لا يضعها في خانة الأسباب التي قضت على حركته بالموت وأقصته عن السياسية في مصر ، وحتى عن الحياة العادية فيها . بل كثيرة هي المقاطع ، على امتداد ال الطويل عن مصر ، التي يعيد فيها سوءطالعه وطالع الحركة الشيوعية الى أصله الأجنبي . أمر سوف نبيّن قصوره الكبير عن تحليل التاريخ المصري بطرح السؤالين التاليين :

أ ـ إذا كان هذا الحكم سلبياً ، فلماذا توصل الشيوعيون المصريون أثناء أحداث

1946 العاصفة ، بقيادتهم « الأجنبية » ذاتها ، الى فرض أنفسهم قيادةً حَصرية تقريباً ، لا مجادلة في أصالتها ، رغم عددهم الضئيل ، إلى حد قول بيرو بالذات استناداً لمارسيل اسرائيل : « كان الشيوعيون على رأس الحركة بنسبة مئة في المئة » ؟ ولماذا كانت الجماهير تستجيب لدعواتهم إلى التظاهر والإضراب وتعريض النفس لرصاص الشرطة والاعتقال ، سائرة خلفهم وتحت راياتهم بحماس ، لا بالألوف وعشرات الألوف فقط بل بمئات الألوف ؟

ب ـ إذا كان الأصل الأجنبي لتلك القيادة هو السبب في اخفاقاتها ، فلماذا لم تتمكن القيادة المصرية مئة بالمئة ، التي خلفتها على رأس الحركة الشيوعية في مصر ، من ان تتجاوز تلك الاخفاقات ، وتفتح الطريق نحو بناء حركة شيوعية جماهيرية أصيلة ؟ علماً أن العكس هو الذي حصل ، حيث فاقت هذه الأخيرة سابقتها في الهزائم ، ولم تحقق بالمقابل ولو نزراً يسيراً مما كانت الأولى حققته من النجاحات ؟ !

إننا نعتقد أن الأسباب الأساسية التي تقف وراء هزائم الحركة الشيوعية المصرية تتلخص بما يلي :

1 ـ الارتهان بمواقف الكرملين ، وغياب القرار الذاتي الثوري المتماسك

ولم يظهر ذلك فقط في موضوع قرار التقسيم ، كما بيّنّا أعلاه ، بل في جملة من المواقف الأخرى ، نكتفي بأهمها :

أ ـ اللهاث خلف اعتراف القيادة السوفياتية

وبيرو يتكلم بالتفصيل على سعي كوربيل الحثيث ، لا بل على تهافته ، للحصول عبر مسؤول في المخابرات السوفياتية في سفارة موسكو بالقاهرة ، المدعو سلطانوف ، على دعم سوفياتي لجهوده من أجل بناء منظمة شيوعية في مصر . ثم استمراره في المساعي النشطة ، بعد تأسيس حركته ، وبكل الوسائل ، للحصول على اعتراف سوفياتي بهذه الحركة ، سواء مباشرة أو عبر واسطة الحزب الشيوعي الفلسطيني ، المقرب من موسكو آنذاك .

ب ـ الموقف من انقلاب 23تموز 1952

هذا الموقف الذي تشاركت فيه مختلف المنظمات المصرية الستالينية ، باستثناء حدتو في مرحلة أولى . حيث حذت تلك المنظمات حذو الاتحاد السوفياتي والكتلة الشرقية في إدانة الانقلاب على انه فاشي ورجعي على الطريقة الأميركية اللاتينية . الا أن حدتو وبموجب ارشادات كوربيل المنفي في فرنسا ، تبنت في فترة أولى موقف الدعم للانقلاب والدعوة للتظاهر تأييداً له . لكنها سرعان ما تراجعت عن هذا الموقف تراجعاً كاملاً ، تحت تأثير الموقف

السوفياتي ، ومواقف الأحزاب الشيوعية الموالية لموسكو عبر العالم ، وشاركت في الحملات ضد عبد الناصر والضباط الأحرار ، سواء داخل مصر او في الخارج ، مع ما أدى اليه ذلك من ردود فعل قاسية من جانب القيادة المصرية تجاه الشيوعيين المصريين الذين زُجَّ ألف منهم في السجون وتعرضوا لأبشع أنواع التعذيب .

ثم حين قرر الاتحاد السوفياتي ، فجأة ، وبعد مؤتمر باندونغ ، العودة عن موقفه السابق حيال عبد الناصر ، دار الستالينيون المصريون ، ومن ضمنهم جماعة حدتو وكورييل على رأسهم ، 180 درجة لينسجم موقفهم مجدداً مع الموقف المستجد للقيادة السوفياتية . وذلك بطريقة أقل ما يقال إنها غير عقلانية بتاتاً ، إذا لم نقل مخزية .

ج ـ قرار حل الستالينيين منظماتهم والاندماج بالاتحاد الاشتراكي

وهو القرار الذي تم اتخاذه عام 1964 تحت ضغط خروتشوف ، وانسجاماً مع نظرية التطور اللا رأسمالي المفضي برأي الفقهاء السوفيات الى الاشتراكية ، وقامت بموجبه المنظمات الستالينية المصرية بحل نفسها والاندماج في حزب النظام الناصري ، الاتحاد الاشتراكي ، مع ما يعنيه ذلك من خلط للرايات وقبول أناس كانوا يرفعون راية الشيوعية بأن ينخرطوا في تنظيم بورجوازي سلطوي ، متخلين عن أحد أبسط مبادىء الماركسية ، وهو الاستقلال الطبقي ، الفكري والسياسي والتنظيمي .

2 ـ الارتباط بنظرية المراحل

وهي النظرية المنشفية بامتياز ، التي تبناها ستالين وفرضها على الكومنترن ، وبعد حل الأخيرة ، على الأحزاب الشيوعية عبر العالم . وتقول هذه النظرية بتقسيم المسيرة نحو الاشتراكية الى مراحل ، وبالأخص إلى مرحلتين تاريخيتين متمايزتين : تكون الأولى منها بقيادة البورجوازية ، ويتم خلالها إنجاز المهام الديمقراطية ، قبل التفكير بالانتقال الى الثورة الاشتراكية مع ما يفترضه ذلك من قيادة الطبقة العاملة . وذلك على نقيض ما كانت تدعو إليه الأممية الثالثة أيام لينين ، أي عدم الفصل الميكانيكي بين المهام الديمقراطية البورجوازية والمهام الاشتراكية ، والحرص على استقلال الطبقة العاملة .

وضمن تطبيق هنري كورييل لنظرية المراحل ، اعتبر أن المهمة الأساسية التي يجب التركيز عليها في مصر في مرحلة أولى هي التحرر الوطني ، مع ما تتطلبه من جبهة وطنية واسعة تضم الجميع بمن فيهم الاخوان المسلمون وحزب الوفد ، والامتناع عن تأجيج الصراع الطبقي وطرح مطالب العمال والطبقات المفقرة الأخرى .

ويمكن اعتبار ان الاسمين المتتاليين اللذين اختارهما لمنظمته، الحركة المصرية للتحرر الوطني ، ثم الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني ، (بعد اندماج 1947 مع الايسكرا) يلخصان برنامجه المرحلي : التحرر الوطني والديمقراطية .

تقول إيميه سيتون ، في معرض حديثها عن أول لقاء لها مع كورييل :

« وجدته في البدء بالغ الذكاء وشديد الخبث ، لكنه اقنعني في النهاية ، وأثار حماسي مع منظور العمل الديمقراطي الجماهيري . كانت الفكرة المسيطرة لديه هي المسير وفقاً للمراحل . وكان يردد : « كيف نتحدث عن الثورة في حين لا يزال الجيش الانكليزي في مصر . »

ويروي لطف الله سليمان (انظر الملحق) ذكرياته عن أحداث 1946 التي تعارض خلالها خطا حمتو من جهة ، و« الحزب الشيوعي الثوري » ، الصغير جداً ، من جهة أخرى ، فيقول :

« كان الوضع آنذاك عبثياً . فمن جهة ، المظاهرات « الوطنية » المؤلفة عموماً من الطلاب الذين كانوا ينطلقون من جامعة القاهرة ويتجهون الى عابدين (القصر الملكي) ، هاتفين « ليَحْيَ الجلاء » ، « عاش الاستقلال » . ومن جهة أخرى ، المظاهرات العمالية التي كانت تنطلق من شبرا الخيمة ، غير متمكنة أبداً من اقتحام حواجز الشرطة والوصول إلى وسط العاصمة ، وتطالب بشكل أساسي بـ « ضمان العمل » .

« في ذلك الحين بالذات ، بدا لنا من المفيد ، لا بل المُلِحّ ، أن نوجّه نداء إلى الطلاب : « لا إلى عابدين بل إلى شبرا الخيمة* » . وقد لقي نداؤنا تأثيراً أكيداً في جامعة القاهرة ، لا سيما انه حظي بالدعم الحماسي للطليعة الوفدية .

« بعد ظهر اليوم ذاته الذي أطلقنا نداءنا خلاله ، تلقيت زيارة أحد مساعدي هنري كورييل (الذي سيلعب فيما بعد دوراً مهماً في السودان) ، وكانت المقابلة صاخبة . فبحجة انه لا يمكن الاخوان المسلمين القبول بأن يجري « حَرْف » الحركة الوطنية ، جرى اتهامي بـ « الخيانة في خدمة الامبريالية » ، وتهديدي بالتعرض لـ« العقوبة** » نفسها التي تعرض لها « عرّابي » تروتسكي ـ الخائن . . . »

---

* أي لنتوجه الى شبرا الخيمة تضامناً مع العمال ، لا الى عابدين ، حيث قصر الملك .

** قبل ذلك التاريخ بست سنوات (1940) كان عميل ستاليني قد اغتال تروتسكي في المكسيك بضربة فأس شقت رأسه .

وبالطبع ليس مجالنا هنا الاستفاضة حول طريقة الستالينيين في التعامل مع حرية الرأي داخل الحركة الشيوعية بالذات ، ونحن نكتفي بالتالي بالتعقيب حول الموقف من دمج النضالين الوطني والاجتماعي ، فنقول إن مطالب الطبقة العاملة ، بدل أن تكون مهمازاً ورافعة للنضال الوطني ضد الاحتلال ، يجري النظر اليها عند « الكوربيليين » ، كعقبة مرفوضة أمام التحالفات الفضفاضة مع القوى الطبقية الأخرى ، ولا سيما البورجوازية . ويجري بالتالي الفصل الميكانيكي بين النضالين الوطني والطبقي ، بدل ان يتلازما ويتعاضدا ويخدما معاً العملية الثورية غير المنفصمة ، في المجتمع .

3 ـ التشرذم وذاتية القيادات

لقد نبتت في الأربعينيات مجموعة واسعة من المنظمات (عشر أو أكثر) ، التي ترفع كلها راية الشيوعية ، متنافرة ومتزاورة ، ومنشغلة بتبادل الاتهامات واغتياب بعضها بعضاً . يقول بيرو : « سرعان ما تولد لدى القياديين الأجانب انطباع بأن الشيوعيين المصريين ليسوا غير حفنة من البورجوازيين الصغار أو الكبار ، المنخرطين في معارك ديوك لا تغتفر ، تنتمي الى العمل السياسي المبتذل أكثر مما إلى النضال الثوري . » والعمل الوحدوي الوحيد ، الذي تم عام 1947بين حمتو والايسكرا لم يعمّر طويلاً . هكذا فإن التشرذم هذا لعب دوراً مهماً في الابقاء على المنظمات الشيوعية المصرية في وضع الشُلل ، وفي الحيلولة دون تحولها إلى حزب جماهيري قادر على قيادة المجتمع قيادة مظفرة باتجاه التغيير الثوري .

ونادراً ما كان هذا التشرذم ناجماً عن خلافات نظرية (كان الحزب الشيوعي الثوري ـ التروتسكي ـ الوحيد بين تلك المنظمات الذي لا ينتمي للفكر الستاليني) ، وكان وراءه في معظم الاحيان طموح القيادات وذاتيتها وتنافسها البائس .

يتحدث بيرو بالتخصيص عن ثلاثة من القياديين البارزين للحركة الشيوعية المصرية في الأربعينيات : كوربيل ، وشوارتز ومارسيل اسرائيل ، فيقول :

« ثلاثة تماسيح في الخليج المصري . لماذا إنكار لعبة الطموح البشري ؟ كانوا على يقين بأن مصر تنتظر لينينها ، وكان كل واحد يقدم ترشيحه . »

الا انه في غياب الكومنترن التي حلها ستالين عام 1943 ، لم يكن هناك مرجع يقوم بالتنصيب ، بحيث يدفع المنظمات الأخرى لحل نفسها والانضواء تحت لواء المنظمة سعيدة الحظ . وهكذا بقيت الساحة الشيوعية المصرية مقطعة إلى مربعات ومستطيلات . . . متفاوتة الحجم لكن متقاربة نسبياً ، يتبارى فوقها ديوك عاجزون عن الحسم .

كلمة ختامية

يبقى أن نشير أخيراً إلى انه رغم العديـد من الأخطاء* التي وقـع فيها بيـرو ، سواء في عرض الوقائع أو في تحليلها ، خلال دراسته الطويلة والشيّقة بصدد « الرجل من طراز فريد » ، هنري كورييل ، فإن كتابه يبقى عظيم الفائدة لمن يود الاطلاع على دقائق مرحلة حاسمة من حياة مصر ، بالغ الاثارة بالطريقة التي يعرض فيها مسار تلك القبضة الشجاعـة من الرجـال والنسـاء الناقمـين على طبقتهم والمنسلخـين عنها ، والملتحقـين بالمصـالح الآنيـة والتاريخيـة لكادحي مصر ومعذبيها ، وبرسمه القدر المأساوي لرجل وضع حياته بكاملها في خدمة الأفكار التي آمن بها ، وكانت أمنيته الأَعَزّ « ألا يموت على فراشه » .

---

* يمكن الاشارة ايضاً ، على سبيل المثال ، الى ظلمه لطف الله سليمان الذي يلمّح اليه في ص 175 دون ذكر اسمه ، معتبراً انه لما كان التروتسكي الوحيد المعروف في مصر ضخّم دوره للتعويض من ضآلة العدد ، فكـان آخر من اخـلي سبيله . والحقيقة انه ابقي في السجن لأن اجهزة الأمن عرفت بطلبه الى رمسيس يونان المجيء من باريس للمشاركة في الأحداث ، ففسّرت ذلك بمسؤوليته عن تنظيم .

كما نشير الى تبني بيـرو قول جوزف هازان إنه لو جرى اعتماد تحليل كورييل لحركـة الضباط الأحـرار ، واتخاذ مجمـل الحركة الشيوعية المصرية الموقف الذي اتخذته حدتو في البداية ، « لبات لدينا في مصر كاسترويـة نـاصريـة . كان قـدر الشرق تغير بالكامل » . وهو تحليل لا يأخذ بالاعتبـار التباين الـواسع بـين حالتي كـوبا ومصر ، لا سيما ان الضباط الأحـرار ، الذين كـان معظمهم ينتمي الى الجنـاح اليميني ، كانـوا يركبـون ، عدا ذلـك ، وكأداة للسلطة ، جيشـاً بورجوازياً جاهزاً ، الهاً يكن الواقع الطبقي لجنوده وضباطه الصغار ، بينما جرت في كوبـا تصفية جيش باتيستا وحله بالكامل على يد الملتحين القادمين من السييرا مايسترا ، المستندين لجيش من العمـال الزراعيـين والفلاحـين المفقرين والمثقفين الثوريين .



كان يردد أمام امرأته وأصدقائه : « نحن محظوظون للغاية ، نسكن أجمل حي في أجمل مدينة في العالم . » هذه الجملة وحدها كانت تعبر عن طويّة ابن الستين المولود خارج فرنسا : فلم يعد ثمة غير الأجانب الذين بلغوا حَداً معيناً من العمر يجدون أن باريس عيد لا مثيل له . ولم يكن هنري كورييل ليغير رأيه في هذا الصـدد . أكثر من منـاضل أجنبي وصـل لاهثاً من أطراف العالم كان يجد نفسه راكباً زورقاً للحج على امتداد نهر السين ، مع تعليقات تاريخية ـ معمارية مفصّلة حـول النُّصُب التذكـارية عنـد ضفتي النهر . وكـان يحق للمناضـلات ذوات الطلعة البهية ان يقمن بزيارة لمتحف اللوفر بصحبة دليل . كانت نوتردام تستثير عـلى الدوام استهلالاً حماسياً بصدد الروائع التي أوحى بها ايمان جمـاعي . وحين كـان يعود كـورييل من جـولة المـواعيد التي تقـوده من الصباح إلى المسـاء من مقهى إلى مقهى ، كان يفضـل أن يمـر بالسين ، ولو اقتضى منه ذلك دورة ، وكان يسعده أن يسلك من جديد المسار الذي طالما اعتبر انه لا يضاهى . حين يصل إلى أسفل جبل سانت جونفييف ، ينخرط في الشوارع الصغيرة في الدائرة الخامسة ـ أحد الاحياء الشعبيـة النادرة التي نجت من الغـزو العقاري ـ إلى ان يصـل لشارع رولين حيث استقر عام 1972 مع زوجه روزيت . كان قد جرى تجديد البناية رقم 4 ، لكن حجراً منحوتاً ، تحت سقيفة المدخل ، كان يشْهد على قِدَم المكان : **في ظل حكم لويس الثالث عشر ، وَضَع هذا الحجرَ الأولَ جيهان هوبير ، ابن ايرها هوبير ، المعلم الصيدلي في باريس** . كان الزوجان كورييل يقطنان مسكناً من طابقين في السابع والثامن من مبنى حديث في آخر الحوش (غرفة جلوس ومطبخ في الطابق السابـع ، وغرفتـان في الثامن) ، بحيث كـانا يستمتعان بإطلالة رائعة على المدينة المحبوبة .

كان هذا الشغف غريباً بعض الشيء ، لأن باريس كانت بالنسبة لهنري كورييل مكان النفي والكبت قبل أن تغدو مع الوقت نوعاً من السجن الذي يحتجزه فيـه وضعُه كـإنسان لا

وطن له ولا جواز سفر . لكن في سن الرابعة والستين ـ من ضمنها 27عاماً في باريس ـ ما كان ليجحد الحوار الذي تم في الماضي ، في بوليفار سان ميشيل ، على بعد خطوتين من شارع رولين ، بين صديقه وخصمه السياسي ، مارسيل اسرائيل ، المولود هو أيضاً في مصر واستاذٍ سويسري كان يدرّس في القاهرة . كان ذلك عشية الحرب العالمية الثانية ، وكان أي من الناس يتوقع أياماً قادمة حزينة ، لكن ذلك أيضاً هو الوقت الذي كان يعيش فيه الشبّان من طرازهما وهم على قناعة علمية بأن الأيام التي ستلي ستكون جميلة . كانا يتحدثان عن سيادة المساواة القادمة حين توقف الأستاذ فجأة ، ووجهه قد اكفهر ، ليقول : « لا تنخدعنّ . فنحن لن نبلغ المساواة التامة في يوم من الأيام . سيكون ثمة على الدوام من يسكنون باريس ، من جهة ، والآخرون ، من جهة اخرى » . وقد هز مارسيل اسرائيل رأسه موافقاً .

كان هنري كورييل يجاهر أيضاً بأن مسكنه يضمن له حماية نسبية ضد الاعتداءات على حياته . ومما لا شك فيه أنه كان يريد تبديد قلق أصدقائه ، الذين كان الكثير منهم يحثونه على الانتقال لمسكن آخر مذ جرى اتهامه بصورة مفضوحة بأنه على صلة بالارهاب الدولي . إن شارع رولين ، القصير والضيِّق ، يصل شارع مونج بساحة لاكونترسكارب ولا تدخله السيارات الا انطلاقاً من لاكونترسكارب ، لأنه يَنْفَذ إلى شارع مونج ، من أعلى إلى أسفل بواسطة درج من 30 درجة . أما المبنى رقم 4 فهو على بعد عشرة أمتار من الدرج. إن هذا الشارع ، الذي لا يصلح لمرور السيارات ، والمحاط بمبان سكنية ، هو بالتأكيد أحد أهدأ الشوارع لا بل أكثرها إقفاراً . وكان هنري كورييل محقاً حين اعتبر ان هكذا هدوءاً يجعل من الصعوبة بمكان أن يتمكن قَتَلةٌ محتملون من استخدام المكامن التي يحتاجون للبقاء فيها وقتاً طويلاً وهم يرصدون عاداته : فأي حضور غريب كان نبَّه سريعاً فضول البوابين ومدبرات البيوت في المنطقة . لكن في حال تم التغلب على هذه الصعوبة (وسيتم البرهان دائماً على أن تقنيات التجسس الحديثة توفر الوسائل لذلك) ، فإن المبنى رقم 4 ، في شارع رولين ، كان يقدم تسهيلات خارقة لعصابة من القَتَلة . إن المرحلة الأشد خطورة بين مراحل اعتداءٍ ما هي دائماً مرحلة الانكفاء ، حين يكون ضجيج الطلقات النارية قد أثار الشعوربالخطر ، لا بل أثار ذعراً ينتشر بالتدريج : يمكن ان يسجِّل شهود عيان أوصافالقَتَلة ، ويدوِّنوا نوع سيارتهم ولونها ، وأن يبلغوا الشرطة بسرعة ، فتعمد هذه في الحال الى إخطار سيارات الدورية التابعة لها . لكن إذا كانت الرماية على الهدف ستمزق هدوء شارع رولين ، فلقد كان القَتَلة متيقنين من أنه لن يراهم سائقو سيارات وهم يخرجون من المبنى ، كما كانت لديهم فرص كبرى لعدم الالتقاء بأي راجل ؛ كان يكفيهم ، بوجه خاص ، أن يخطوا عشرة أمتار وينزلوا ثلاثين درجة كي يفلتوا من البلبلة التي تكون أثارتها إغارتهم الدموية : إن شارع مونج العريض ، وبالغ

الحيوية ، الذي يشهد سيراً كثيفاً ، لا يرى ولا يسمع ما يحدث على بعد ستة أمتار فوقه ، في شارع رولين الريفي . إنه عالم آخر . ما أن يهبط القتلة الدرج حتى يصبحوا خارج امكـانية ملاحقتهم .

يمكن ألّا يكون هنري كورييل لاحظ هذه المخاطر (لم يمسك يوماً سلاحاً نارياً ولا شارك في عمل عنيف) لكن من المرجح أنه لم يجد في ذلك سبباً كافياً لمغادرة شقة ممتعة . كـان يردد أمام أصدقائه الحميمين أن أي احتياطات لا تنفع على المدى الطويل في وجه إرادة الاعتداء على حياة انسان . عدا ذلك ، فمنذ ثلاثين عاماً وضعته حياته النضـالية خـلالها في مـرمى أجهزة الاستخبارات الأكثر استعجالاً ، كان قد رفض على الدوام أن يضحي بفعاليته لصالح أمنه . كانت طريقته في الحياة ـ مع أنه لم يتحدث عنها يوماً ، لأنه كان وجد ذلك غير ملائم ـ طريقة رجل جعل من حياته قرباناً ، مرة وإلى الأبد .

في ذلك اليوم ، الرابع من أيار 1978 ، كان غداؤه شطيرة من الجامبون وفنجان قهوة ؛ فقد كان سيأخذ درس اليوغا بعد الظهر مباشرة ، ولم يكن يريد إثقال معـدته بـالطعـام . في الثانية تماماً ، غادر شقته تصحبه امرأته روزيت على قرص الدرج ، كما العادة . كان يرتـدي طقماً كحلياً ، وصدرية رمـادية وكنـزة بيضاء ذات طـوقٍ مقلوب . تطلعت اليـه روزيت وهو يدخل المصعد ، وحين غابت الكابينة عادت الى الشقة وتمددت عـلى سريـرها لقضـاء بعـد الظهر في القراءة .

حين كان هنري كورييل نازلاً ، أخرج من جيبه مفـاتيح سيـارته ومفكـرة ذات غلاف أسود . أمسك هذه الأشياء بيده اليسرى ، وأخذ بيمناه قلم الحبر وراجع المفكـرة التي فتحها عـلى تاريـخ 16 أيار . كـان يكتب ، أو يستعد للكتـابة ، حـين وصلت الكابينـة الى الطابق الأرضي ، بحيث ربما لم يلاحظ الرجلين الكامنين في الردهة . في كل حال ، لم يعد في وسعه القيام بأي شيء للافلات منهـما . كان القـاتل يسـدد مسدسـه من نوع كـولت 45 . أما دور شريكه ، فمما لا شك فيه أنه كان فتح باب المصعد الذي كان يمكن هيكله المعدني وتشبيكه أن يعيقا الرماية ؛ وقد وُجِد مفتوحاً قليلاً . أطلق القاتل النار عبر زجاج المأطورة الشمالية لباب الكابينة ذي المصراعين . وقد انهار هنري كورييل ، وهو لا يزال يمسك بمفاتيحه ومفكرتـه ، وسبابته اليسرى على صفحة السادس عشر من أيار .

أعلن أحد عشر شاهداً أنهم سمعوا دويَّ طلقات ثلاث . كان أحدهم صحفيـاً مختصاً بالسينما وكان يتناول الغداء عند صديقة له ، في الطابق الثالث من المبنى المطل على الساحة . وقد فكر على الفور في هنري كورييل . كان قد التقاه قبل أيام وقال لصديقتـه : « سوف يتم

تفجير شقة كورييل ، في يوم غير بعيد » . نظر إلى ساعته (كانت الثانيـة ودقيقتين) ، في رد فعل فوري لرجل المهنة . وقد أوضح للمحققين الأوائل أنه لما كان اشتغل خلال حربِ الجزائر كمدرب على السلاح ، فهو متأكد من أنه لم يخطىء بصدد عدد الطلقات . أضف إلى ذلك أن رجال الشرطة جمعوا ثلاث خرطوشات من أمام باب المصعد . فقط شاهد واحد سمـع أربع طلقات . كان مدرساً يعمل في الجزائر ، وقد جاءإلى باريس لبعض الوقت . سمع الطلقات من غرفة فندقه ، في الرقم 54 من شارع مونج ، أي من مكان أبعد بكثير من الأمكنة التي كان فيها الشهود الآخرون . ومع ذلك ،فهو الذي كان على حق . لقد استقرت ثلاث رصاصات في جسم هنري كورييل ، لكن التصوير الشعاعي للجثمان بكامـل الثياب سمـح باكتشـاف رصاصة رابعة في بطانة سترته . وقد اكتشف الطلقة الفارغة الرابعة ، بعد ثلاثـة أسابيـع في حفرة المصعد ، الاختصاصي الذي جاء لاصلاح الكابينة .

توفي هنري كورييل دون أن يستعيد وعيه ، بعد دقائق من حصول الاعتداء ، بنتيجـة نزيف داخلي أحدثته جراح في الرئة والكبد . بعد أن تمت المعاينات المعتادة ، نُقِل جثمانه الى البراد ، على حافة نهر السين ، قرب كنيسة نوتردام .

****

قال لي شحاتة هارون ، المحامي في القاهرة ، قال لي وهومتسمِّر أمـام شبّاك مكتبـه : « انهض . هيا بنا ! فأنت لم تر بعد كل شيء . . . »

كنت قـد مررت لأصـطحبه إلى مسكنـه ، في قلب ما كـان يُسَمّى في السـابق المـدينـة الأوروبية . وهو يقطن مع امرأته شقة من خمس غرف لا يزيد ايجارها عن 42 فرنكاً في الشهر ، بفضل التثبيت المفروض منذ عقود . والبناء ، الذي كان في الماضي يليقبالنبلاء ، بات يتفتت صفائح مبقعة . ولما كانت المياه قليلة الجريان قد أضحت تنفر من تسلق الطوابق ، فقد ركَّب كل مستأجر مضخة لاستخدامه الخاص ؛ ثمة دائماً عائلة مستعدة لأن تضخ كثيراً وتمنع المـاء عن الآخرين . كل شيء يتفسـخ . أما المصعـد القديم فحينـاًيكونشغّـالاً وحيناً آخـر يكون معطلاً .

(في الثلاثينيات ، كانت ديدار روسـانو البـالغة آنـذاك 12عامـاً ، والتي كانت عـائلتها تسكن في الطابق العاشر ، كانت تتطلع بهدوء ، في هذه الكابينة بالذات ، إلى البواب ـ عامل

المصعد وهو يستمني أمامها ـ كان يصعد إلى الطابق السادس قبل أن يعود فينزل الى الثاني كي لا يستعجل أمره ـ وكانت تدهشها فقط الرائحة القوية للمني والعرق وقد امتزجا . كان البوابون في المدينة الأوروبية يأتون من النوبة ، في صعيد مصر . كانوا شديدي السواد ، شديدي الفقر ، يبقون سنوات من دون أن يروا عائلاتهم ، التي كانوا يرسلون اليها أجورهم الزهيدة . كانت ديدار تحب البواب ، ولم يخطر ببالها يوماً أن تفضحه .)

كان مكتب شحاتة هارون على بعد مئات الأمتار لا أكثر . ولقد سلكنا أرصفة منقوبة ، واجتزنا شوارع شعثاء ، وحاذينا أبنية متشققة ،منهكة ، قربها قاذورات كريهة الرائحة . في كل مكان ، كنا نرى حشداً كبيراً من الناس ، لم يعد يُرى في أوروبا الا عند تشتيت مظاهرات كبرى سياسية أو رياضية . كان هناك عبور كثيف ووحشي للسيارات ، ولا يبدو على أي سائق أنه يهتم بالمشاة أكثر مما نهتم بالحشرات التي ينتظرها السحق على واقية الريح . وكانت تطفو فوق موج السيارات عناقيد بشرية ضخمة تئن تحت ثقلها حافلة كهربائية ـ في الأيام الأولى ، يتم إغماض العينين لتحاشي رؤية الأولاد البهلوانين يقعون.(وهم لا يقعون) . هنا خنادق تصدأ فيها قنوات : وهنالك ورشة مفتوحة منذ خمس سنوات أو عشر ، نسي من فتحوها أن يعيدوا إغلاقها . مناضد يعرض عليها الباعة بضائعهم ، تتجاوز الرصيف ، وبائعون على السريع ، وعربات محمّلة بالكثير من الخضار تتعرج بين الأوزان الثقيلة . وترى كُتْعاً ومُقْعدين ، وعُمياناً ، ومحدودبين ؛ وأولاداً كما لو كانت السماء تمطر منهم ، لكثرة عددهم . لكن السماء لا تمطر أبداً ، بالطبع ، والغبار الدِّبق يدهن المدينة بصباغ رمادي . كل شيء رديء ، منحط ، مخلَّع . فالمنخران يغتاظان من الروائح النتنة ، والعينان تنصدمان عند كل منعطف ببشاعة جديدة . والأذنان الموقورتان تصابان بالهلع من أصوات متنافرة عجيبة حيث يسيطر النغم الدائم لمنبهات السيارات (تبقى كف كل سائق ضاغطة على الزمور) على خلفية مدوِّية من المنادَيات ، والشتائم والضحكات وأنواع الموسيقى المتناقضة التي تخرج من حلق مئات الترانزستورات المتدلية من الذراع .

وبالنسبة للأحياء الأخرى ، لقد تم الرضوخ سلفاً : فهذه آسيا ـ وفي الأخير ، أفريقيا . قَضَّةٌ هائلة من القرى التي تساوي كل منها مقاطعة فرنسية . حتى إذا كان الزائر على علم مسبق فهو يندهش مع ذلك إزاء الحشود البشرية المنتشرة في الشوارع ، الجالسة على الأرصفة ، والمنصرفة للعطالة عن العمل في سراويل النوم المضلَّعة . حتى أن المرء ليساوره الاعتقاد بأنه جرى إنذار الناس بقرب وقوع هزة أرضية فاحتاط كل واحد بمغادرة مسكنه لكن ليس ثمة شيء من ذلك ، إذ إن البيوت مكتظة بالنساء والأولاد والشيوخ . البيوت التي لا تزال منتصبة . حيث لا تُعد ولا تُحصى المباني المقوّضة ، المهدمة ، إلى حد أن السائحين قليلي المعلومات

يتخيلون عمليـات قصف اسرائيلية عنيفة . لكن حين يفيد القرش الأخير في تحاشي الموت جوعاً ، أين يمكن ايجاد المال لتدعيم بيت مزدحم ؟ يحفر الناس مغاور لأنفسهم في الانقاض ، أو يتكدسون أكثر قليلاً في الأكواخ المجاورة . ان ثلاثمئة متر من الشوارع الصغيرة تضم عدداً من الأنفس يزيد عن عدد سكان كانتوني النورماندي . والقبور تثير الذهول . فلنتخيـل 30 ألف شخص في مدفن بير ـ لاشاز الباريسي ، وخمسة آلاف في مقبرة مونبارناس ، وقد استقرت في كل جناح عـائلة كبيرة العـدد ، وازدهرت الأكـواخ بين القبـور ، بينما الغسيـل يتطايـر في الريح ، والمطابخ تنتشر في الهواء الطلق ، وجماعة من الأطفال يثرثرون وهم يلعبون بالعُظَيْمات فوق رميم الأموات . . .

لكن كل هذه الأشياء الغريبة ما كانت تتوصل لابتذال المـدينة المسمّـاة أوروبية . حتى التمازج الخرافي بين الموتى والأحياء كان يثير ذهولاً أقل مما تثيـره المفارقـة بين الـديكور الأنيق للجميلة العجوز ، الواجهـات العابسـة لواحـدةٍ بورجـوازيةٍ تحـدَّرت نحو مهـاوي البؤس ، والجمهور القادم من مكان آخر الذي يتكدس على ارصفتها . كان يبدو على المدينة الأوروبية السابقة كما لو أنها أخطأت الفيلم .

قال لي شحاته ، الذي كنت قد انضممت اليه عند نافذة مكتبي : « انظر ، هذا الكوخ الصغير ، الى اليمين ، بُنِيَ حديثاً . أول من امس لم يكن موجوداً بعد » .

كنا نشرف من علٍ على السطوح الترابيـة للمباني المجـاورة ، وكنت أكتشف فوق ظهـر المدينة النبيلة مدينة أخرى جاثمةً تتراوح بين مخيَّم البدو ومدينة الصفائح ، أكداساً من البيوت الحقيرة ، والأكواخ الصغيرة ، والملاجىء ، والخيام ، التي كانت بدت بشاعتها لو لم يستخدمها عدد كبير من الأولاد كما لو أنها علبة جواهر .

قال شحاته : « هكذا الأمور في كل مكان . يستقرون صدفةً . قريباً سيكون هناك أناس على السطوح اكبر عدداً من الناس في البيوت . في الصباح ، حين اخرج من بيتي ، ألتقي على الدرج سيلاً من الأولاد الذاهبين الى المدارس . . . » .

كان قد رأى مدينة صباه وقد ابتلعها بحر بشري ، على طريقة جزيرة الأطلنطيد . حين ولد عام 1920 ، لم يكن أي مصري يذهب الى المدينة الأوروبية اذا لم يكن مقاولاً أو خادماً ؛ وحين بدأ شحاتة تدرجه كمحام بعد ذلك بخمسة وعشرين عاماً ، لم يكن شيء قد تبدل بعد . كان الحي الكبير المبني على ضفة النيل اليمنى ، مقابل جزيرة الزمالك ، ذلك الحي الذي لا تعينّ حدودَه تخومٌ مادية ، كان قطعة من أوروبا ترضِّع القاهرة . كانت تسُود جالياتٌ ثلاث ، أكبرها وأقواها الجالية اليهودية ، تتبعها من بعيد الجالية الايطالية ومن ثم الجالية اليونانية . في ذلك

الزمان ، كانت الشوارع محاطة بالأشجار وكان الكناسون يجمعون ، وهم يحلمون ، روث البهائم التي تجر العربات ؛ وكان الرجال ينصرفون لأعمالهم في سيارات يقودها سائق ، بينما كانت النسوة يتبضّعن بصحبة خادمة تتولى حمل الرزم . وكانت الفتيات يذهبن الى صفوفهن وهنّ يتحقّقن من ترتيب لباسهن في حين يتمتم الصِّبْيَة بلائحة المحافظات الفرنسية ؛ وكان يجري الالتقاء مجدداً في الخامسة مساء لتناول الشاي أو تذوّق البوظة لدى غروبي .

ثم تبددت الجاليات الأجنبية تحت الرياح العاصفة للخمسينيات واكتسح الأحياء الأوروبية وباقي المدينة موْج عالٍ مفاجىء لا مثيل له في تاريخ المدن .

القاهرة 1940 : مليون نسمة .

القاهرة 1980 : عشرة ملايين نسمة .

اليوم ، هي المدينة الأشد اكتظاظاً بالسكان في افريقيا ، وربما في آسيا (الارقام غير أكيدة ؛ لسنا أمام فرق مليونين أو ثلاثة ملايين. . .)

كرر شحاتة وهو يضحك : « سيل من الأولاد ، كما لو كانوا يهبطون من السماء ! » .

كان يجد ممتازاً أن تغمر الحياة المدينة الأوروبية مثلما تغمر القبور الأخرى .

لكنني كنت أتيت لأتقفى في القاهرة آثار هنري كورييل ، وقد محاها طوفان بشري هائل .

هذه القصة تبدأ إذن قبل الطوفان .

* * * *

كانت روزيت كورييل ممددة على سريرها منذ نصف ساعة تقريباً حين أخرجها من غفلتها رنين الجرس ، فذهبت لتفتح . كان على الباب جيرانها الساكنون في الطابق ذاته . وكان الرجل ، ابن الخامسة والثلاثين تقريباً ، اُستاذاً في الحقوق وقاضياً في المحكمة الادارية . أما زوجه ، طويلة القامة وضامرتها ، والجميلة جداً فكانت تربي ابنتيهما . وكانا يقطنان المبنى منذ ما قبل مجيء آل كورييل إليه ، لكنهما حتى ذلك الحين لم يكونا استحصلا على هاتف ، وإن كان في ذلك ما يثير الدهشة ؛ وعند الحاجة كانا يستخدمان جهاز آل كورييل .

قالت رزيت كورييل : « كانا زائغين ، ولا سيما هو . فقد كان يرتجف ، وترتجف

. شفتاه . ففكرتُ بأن مصيبة حلت بابنتيهما وبأنهما يريدان استعمال الهاتف . أمسكني بكتفيَّ وقال لي : « يلزمك الكثير من الشجاعة » . لم أفهم في البداية لماذا قال لي ذلك طالما أن أمراً حدث لابنتيهما . ثم فكرت في هنري ، في حادث سيارة . لكن لم يكن ذلك ممكناً ، فلا بد أن يكون هنري وصل منذ وقت طويل الى حيث يمارس اليوغا . تطلعت الى امرأته التي كانت شديدة الاضطراب . قال لي : « لقد حدث اعتداء على زوجك » . ففكرت على الفور : «إنه جريح ، جريح فقط . » قال لي : « تعالي ، هو في الأسفل » .

« نزلت معهما الطوابق السبعة وأنا لا أنفك أسأل : هل هو حيٌّ يُرزق ؟ » إلا أنهما لم يكونا يجيبان . فقلت لنفسي : « إنهم الفلسطينيون أو الصهاينة . سيارة مفخخة . كم مرة قلت له : « سوف تعرّض نفسك للاغتيال ! » لكن ما الفائدة ؟ حتى لو عرف أنهم سيقتلونه ، فقد كان سيواصل طريقه . سألته عندئذ : « متى ستتقاعد ! » فأجابني ضاحكاً : « ليس هذا وارداً . حتى إذا أصبت بالشلل وتسمَّرت في كرسي متنقل ، فسوف أستمر . وآمل أن أعيش الى سن متقدمة جداً » . كان يتمتع بصحة جيدة جداً ، فمنذ 25 عاماً ونحن في فرنسا مرض ثلاث مرات فقط ، أصيب بالزكام .

« كان هناك تجمُّع في البهو ، يضم عشرين شخصاً تقريباً . رجال شرطة وممرضين . سدَّ أحد رجال الشرطة طريقي ، فقلت له : دعني أقترب منه ، فهذا يقوي معنوياته . » فهز رأسه وقال لي بلطف زائد في صوته : « كلا ياسيدتي ، يجب الا تذهبي اليه » .

« أتاني أحدهم بكرسي . لم يكن في وسعي حتى أن أرى هنري بسبب كل هذا الجمع . في إحدى اللحظات ، رأيت ممرضاً يمر ومعه زجاجات دم وفكرت بأنهم سوف ينقلون دماً اليه . »

كانت النجدة قد وصلت بسرعة ملحوظة . فالقاتل أطلق النار في الثانية ودقيقتين . وقد تلفنت البوّابة لرجال الاطفاء وللشرطة في الثانية وخمس دقائق . ووصل رجال شرطة كانوا في سيارة دورية في الثانية وست دقائق ، بعد أن تمَّ تنبيههم بواسطة الراديو ؛ أما رجال الاطفاء فوصلوا بعد ذلك بثلاث دقائق . أزاح العريف أول في الشرطة خمسة مستأجرين أو ستة كانوا قد تجمعوا أمام المصعد . كان هنري كورييل جالساً في عمق الكابينة ، مرفوع الركبتين ، ورأسه منحنٍ على صدره . كان الدم يسيل من أنفه وفمه . ومن المرجح أن رجال الشرطة اعتقدوه ميتاً لأنهم اكتفوا بجمع الرصاصات الفارغة الثلاث بعد أن ميزوا أمكنتها بواسطة الطبشور ، ثم عاد رئيسهم الى السيارة ليبلغ بما رأى بواسطة الراديو. وقد دنا منه في الساحة الصحفي الذي سمع ثلاث طلقات ودوّن لحظة سماعه اطلاق النار بدقة . أخبره الرجل بأن

الضحية هنري كـوربيل ، وهـو « متطرف يسـاري » . بالنسبـة اليه ، كـانت الجريمة جريمـة سياسية .

وصـل الاطفائيـون في ذلك الحـين وتدخلوا بفعـالية فـظة علّق عليها رجـال الشـرطـة الحـاضـرون ، فيـما بعـد ، بتعـابـير تنـطوي عـلى مـرارة . كـان الـرقيب أول الـذي يقـود فـريـقـاً من سـبـعـة اطـفـائـيـين قـد أدرك عـلى الـفـور أن الـضـحـيـة مـا تـزال تتنفس . فانتزع بابي الكابينة الزجـاجيين (كـانا ينفتحـان مبدئيـاً باتجـاه الداخـل لكن ركبتي هنـري كوربيـل كانتـا تحولان دون ذلـك) ، وسحب من اليدين المتصلبتـين المفكرة وعـلاقة المفاتيح ، واستعاد قلم الحبر المضغوط بين ورك الجريح والجدار ، ووضع هنري كوربيل على جنبه في « وضع جانبي أمني » وركـز على فمه قناع أوكسيجين . في غضون ذلك ، كان أحد الاطفائيين يقص الثياب لتحديد مكان الجروح . وقد تمَّ وضع كمادات معقمـة عليها . أمـا العريف أول فأبدى أسفه الشديد ، لأنه بالرغم من توصياته فقد سلّمه الاطفائي المفكرة مغلقة وليس مفتوحة . الا أنه تمَّ مع ذلك تحديد الصفحة المطلوبة ـ صفحة 16 أيار ـ بفضل بقع الدم التي كانت تلطخها .

وصل طبيب السامو SAMU الذي بلّغه الاطفائيون وهم قادمون ، وصل بعد دقائق من وصولهم هم . فأمـرهم باخـراج هنري كـوربيل من الكـابينة . وقـد تمت الاستجابـة لطلب العريف أول بتحديد وضع الجسم بواسطة الطبشورة . كان الطبيب لاحظ من أول وهلة حالة « موت ظاهر » ، من دون نشاط للقلب ، لكنـه باشر مـع ذلك الأعمـال التقليديـة لانعاش الجريح . وكانت هذه الأعمال مستمرة دون جدوى منذ 15 دقيقة قبل وصول روزيت كوربيل .

سألت روزيت كوربيل . الجالسة على كرسيها ، مفصـولة عن زوجهـا المحتضر بحاجـز رجال الشرطة ، سألت مستأجراً في الطابق الأرضي إذا كان في وسعها استخدام الهاتف . وقد خابرت جوزيف هازان ، أحد أقدم أصحاب زوجها . كان يسكن في شارع مالو ، قريباً جداً من شارع رولين . قالت له : « لقد تم اغتيال هنـري » . فصرخ وأغلق جهـاز الهاتف عـلى الفور . ولم تمر دقيقتان حتى كان هناك هو وامرأته . إلا أن رجال الشرطة لم يدعوهما يقتربان من الجثمان وبقيا قرب روزيت ، الجالسة من جديد على كرسيّها .

في الثالثة إلا ثلثاً ، نهض الطبيب واتجه نحو روزيت، كان شاباً ذا هيئة جذابة ، وقد بدا شديد التأثر . قال لها : « آسف جداً ، لم يعد في وسعي أن أفعل شيئاً لزوجك » . شعـرت روزيت كما لو أصيبت بضربة قاضية . بدا لها أنها تعيش كابوساً ، وقد نهضت بشكـل آلي . قال أحدهم ، ولا ريب أنه هازان : « لا يمكنهـا أن تتسلق كل هـذه الطوابق ، فهي مصـابة

بالقلب . » كانت روزيت كورييل صغيرة القامة ، نحيلة ، مغضنة الوجه ، وكـانت صحتها شديدة العطب . عام1975 ، أي قبل ثلاث سنوات ، أصابتها نوبة قلبية تلازمت مع نـزيف داخلي سدّ الكليتين وتمّ نقلها يومذاك الى مستشفى بروسيّ Broussais وكانت تلك هي المـرة الأولى في حياتها التي ترى زوجها فيها يبكي . كان يردد عند مخدتها : « لا تتركيني » . أما الآن فقد كان هو الذي يتركها .

عرض الطبيب الشاب مساعدته . وقد صعدت إلى الطابق السابـع ، تسندهـا جارتهـا وامرأة جوزيف هازان . وما كادت تدخل حتى كان مفتشو المفرزة الجنائية يقرعون على الباب . كانوا يـريدون اصـطحابهـا الى رصيف أور فيڤر لاستجـوابها . ولمـا كانت في أقصى درجـات الانهاك ، فقد رجتهم أن يتركوها وشأنها ، لكن إزاء إلحاحهم رضخت في نهاية المطاف ونزلت معهم من جديد . وقد قرر جوزيف هازان مرافقتها .

عند الثالثة بعد الظهر ، تلقت وكالة فـرانس برس مخـابرة هـاتفية من مجهـول بادر إلى القول : « اليوم ، في السـاعـة الثانية تماماً ، أوْقَفَ عميل الكا . جي . بـي . هنري كورييل ، المناضل لأجل القضية العربية ، وخـائن فرنسـا التي تبنته ، أوقف نشـاطاتـه نهائياً . لقـد تمّ إعدامه عربوناً لذكرى كل أمواتنا . خلال عمليتنا الأخيرة ، كنا قد وجّهنا تحذيراً . دلتا . » .

*

* *

جرى إعلام راوول كورييل عن طريق مخابرة من جوزيف هازان . وقد ظن في البدء أن الأمر يتعلق بجرح بسيط ، لكن حين علم بوفـاة أخيه ، رزح تحت الألم الشـديد . قبـل أن يمضي الى شارع رولين ، خابر جويس بلو : « هل بلغك الخبر ؟ ـ خبر ماذا ؟ ـ حصل اعتداء عـلى حياة هنـري . لقد مـات . » أطلقت جويس بلو صـرخة ، وقـالت : « إلى اللقاء » ثم أغلقت الهاتف . كانت قد انتظرت عبثـاً هنري كـورييل أمـام المبنى الذي تُعـطى فيه دروس اليوغا ، ثم عادت إلى بيتها ، حائرة لكن دون قلق . وللحال مضت إلى مسكن آل كورييل .

كان ريمون أغيون ذاهباً إلى بيت الصحفي ـ الكاتب كلود بورديه . فتحت إيدا بورديه الباب له وأخبرته أن إذاعة طرفية أعلنت في نبأ خاص أن ابن خاله هنري تعرَّضَ للاغتيال . فبقي عند عتبة الباب ، مصعوقاً وذاهلاً (لدى التفكير ، بدا له الخبر مؤلماً أكثر منه مفاجئاً) ، ثم رجع أعقابه وهرع إلى شارع رولين .

كان شحاتة هارون استقلَّ في الصباح ذاته الطائرة إلى باريس . في القاهـرة ، علمت امرأته من صديق التقط الخبر فيما كان يستمع إلى الاذاعة الانكليزية . وقد انفجرت بالبكاء ؛ قالت لابنتها التي كانت تجتهد كي تعزيها : « لا يمكنك أن تفهمي ، فثمة أشخـاص لا يمكن تخيّلهم أمواتاً » .

كان ريمون اسطمبولي في بيته ، في حي الانڤاليد ، حيث أوردت الاذاعة النبـأ الخاص الذي يعلن اغتيال صديقه . وقد شعر بأنه يتلقى ضربة على معدته ، وهرع للحال في سيارة إلى شـارع رولين . فيـما كان يمضي مسـرعاً في الشـوارع المقفرة ، بعـد ظهر ذلـك اليوم ، يـوم الصعود ، تذكرَّ محادثة جرت بينه وبين هنري كورييل حين تلقيا نبأ شنق عبد الخالق محجوب ، الأمين العام للحزب الشيوعي السـوداني وصديقهـما الحميم ، في الخرطـوم . كان هنـري قد قال : « في يوم من الأيام ، سأنتهي بهذه الطريقـة ، بموت عنيف . وهكـذا بالضبط أتمنى أن انتهي . إنه الموت الأجمل ، موت الجندي . » أما قَتَلَتُـه ، فقد كـان لدى ريمـون اسطمبـولي حدسٌ غامض بأنهم من « رجال الشرطة اليمينيين » .

تلقت ليـديا ألـوني مخابـرة هاتفيـة إلى بيتها من صحفي قـال إنه يتكلم من قِبَـل جـان لاكوتور . كانت صديقة آل لاكوتور منذ إقامتهـم خمس سنوات في مصر ، في الخمسينيـات . وقد سألها الصحفي إذا كان في وسعها أن تعطيه بعض التفاصيل المتعلقة بهنري كورييل . وإذ أصيبت بالحيرة ، اقترحت على محدثها أن يوجّه إليها أسئلته مباشرة . وران صمت في الجـانب الآخـر من خط الهاتف ، ثم جـاءت هذه الجملة المـرتبكة : « . . . ألا تعلمـين أنه تعـرض للاغتيال ؟ » ـ « أتمزح ؟ » ـ كلا ، لقد سقط قتيلاً قبل ساعة من الآن . » كانت قد باشـرت جمع ذكريـات هنـري حـول عمله في مصر ، وكـانـا يمضيـان مـرة في الأسبـوع إلى حـديقـة اللوكسمبورغ حيث كانت تسجل ما يقوله على شرائط . وقد قطع رحلته في المـاضي، ليقول لها قبل خمسة عشر يوماً أو ثلاثة أسابيع : « أشعر بأني مهدَّد . » كانت تلك هي المرة الأولى التي يكلمها فيها بهذه الطريقة . وإذ تأثرت بالحزن الذي كان يخالط صـوته ، تصنعت عـدم أخذ كلامه على محمل الجد ، قائلة : « دعك من هذا ! أنت تستسلم للاثارة . هنالك أناس أهمّ منك بكثير . . . » وقد تمتم : « أشعر بالكثير من الأحقاد تحوم حولي . . . »

كانت ايميه سيتون في الريف ، قريباً من باريس . وقد اعتقدت في البدء أنها تسمع مزحة سمجة حين قالت لها ليـديا ألـوني على الهـاتف : « لقد اغتـالوا هنـري » . وحين اقتنعت في الأخير ، قررت العودة إلى باريس في أول قطار .

إلا أن الشرطة كانت قد منعت الوصول إلى البناية رقم 4 في شارع رولين . وحتى راوول

كورييل لم تنفعه القرابة انني تذرَّع بها . فالأوامر كانت تقضي بعدم السماح لأحد بالدخول . كان قد بدأ التحقيق ، ولم يكن وارداً عرقلته وإفساده بالرواح والمجيء من جانب عائلة القتيل وجمهور المصريين .

*

* *

كان الشاهد الأكثر إثارة للاهتمام مساعدُ مباشرٍ بالوكالة في مقتبل الشباب لا يزيد عمره عن 17 عاماً ، يسكن مع أمه في الطابق الأول من المبنى المطل على الشارع . كان ينتظر صديقة له ، وهو منحنٍ من النافذة ، حين رأى رجلين يصلان عبر الدرج الذي يصل شارع مونج بشارع رولين (تقع نوافذ الشقة بين هذا الدرج وسقيفة مدخل المبنى) . وقد نبهت فضوله حركة أحد الرجلين ، اللابس معطفاً أزرق غامقاً ، والذي سحب من جيبه قفازين وأدخل كفَّيه فيهما : كان النهار حاراً بحيث لا حاجة إطلاقاً لوضع القفازات . واختفى الرجلان تحت سقيفة المبنى .

كانت امرأة في زيارة صديقة لها ، وقد أشرفت على الانتهاء من الغداء ، في الطابق الأرضي للمبنى المطل على الشارع . رأت الرجلين من نافذة غرفة الطعام ، التي كانت تنفتح على الساحة ، يسيران في اتجاه المبنى الكائن في عمق الشارع . شاهدت أحدهما من الخلف ، فبدا لها في الخمسين من عمره ، قوي البنية ، متوسط القامة ، مرتدياً ثياباً قاتمة . أما الآخر الذي كان يمشي خلفه قليلاً ، فكان طويلاً ورقيقاً ، يلبس سروالاً بلو جين وبلوزة من الجلد الكستنائي . وقد لفت انتباهَها أمرٌ ثانوي : كان شعره غزيراً جداً ، طويلاً بما فيه الكفاية لأنه كان يغطي عنقه ، وكان معقوصاً ، ذا لون كستنائي فاتح . كان عمره يتراوح بين الخامسة والعشرين والثلاثين . وقد أعلنت أمام مفتشي المفرزة الجنائية : « ما أن وصلا إلى مدخل المبنى المطل على الساحة ، حتى سمعت ثلاث طلقات ، كما لو أنهما كانا يقرعان على التول* أو على شيء معدني . وقد تعاقبت الطلقات الثلاث بسرعة خاطفة . في تلك اللحظة ، وبما أني كنت لا أزال أمام النافذة ، نظرت ورأيت أحد الرجلين يخرج راكضاً ، وبالتحديد صاحب الشعر الكستنائي الفاتح ، الذي كان يلبس البلوجين والبلوزة الكستنائية ، وذلك في اللحظة التي تلت الطلقة الثالثة . ومع أني رأيته مواجهة ، الا اني لا استطيع إعطاء أي وصف لوجهه » .

* صفيحة من الفولاذ (المعرب)

أما المباشر بالوكالة ساكن الطابق الأول فهرع إلى نافذة تطل على الساحة ، ورأى الرجلين يغيبان وهما راكضان تحت سقيفة المدخل . وحين انتقل إلى غرفة مطلة على الشارع رآهما يسيران بسرعة باتجاه الدرج المؤدي إلى شارع مونج . وحين مرّا تحت نافذته ، سمع الرجل المرتدي المعطف يكلم الآخر ، لكنه لم يفهم غير الكلمات التالية : « . . . خمس أوست ساعات » . وبما أن الرجل صاحب المعطف بدأ يتطلع إلى الخلف ، فقد تراجع المباشر بشدة مخافة أن يلمحه .

لم يكن يعرف هنري كورييل إلا بنتيجة تبادله معه أحاديث بين الجيران لا أهمية لها . كان بالنسبة إليه رجلاً « لطيفاً ، ودوداً ومبتسماً » .

وقد أوضح لمفتشي المفرزة الجنائية أنه ربما أمكنه التعرف على الرجل ذي المعطف والقفازين ، لكن بالتأكيد دون التعرف على مساعده . وقد أعطى عن الأول علامات دقيقة بما يكفي : ثلاثون عاماً تقريباً ، قامة تقارب المتر وثمانين سنتم ، شعر غامق وطويل يغطي الأذنين ، جسم متوسط السمنة ، معطف ترواكار واسع ، وقفازان كستنائيان غامقان . وكان مساعده من عمره تقريباً ، لكنه أكبر ، وأثقل ، وأكثر هدوءاً ، وذو مشية رياضية ؛ كان مرتدياً ـ على الأرجح ـ بلوزة من الجلد القاتم وسروالاً من نوع الجين . كان الرجل صاحب المعطف لا يزال واضعاً قفازيه لدى خروجه من المبنى .

بفعل الصِّدْفَة المدهشة ، كانت البوّابة وزوجها مصريين مثل الزوجين كورييل . لم تكن العائلتان تقيمان أكثر من علاقات تافهة بين مستأجرين وحرّاس مبنى . في لحظة الاغتيال ، كان الزوج يأخذ القيلولة (كان محاسباً ويتابع دروساً في الاقتصاد بالسوربون) وكانت امرأته تستعد للخروج . وكما الحال في أيام الآحاد والاعياد ، كان الباب الزجاجي لمسكنهما ، المطل على السقيفة ، مسدوداً بمصراع خشبي ، بحيث لم تر البوّابة القاتلين يمران . سمعت فجأة دوي انفجارين وفتحت نافذة تطل على الساحة . كان رجل يجتاز هذه الساحة راكضاً ، آتياً من المبنى المواجه . وقد تولد لدى البوابة انطباع واضح بأن رجلاً آخر سبقه ، لكنه بات تحت السقيفة ولم تره . وإذ أصيبت بالذعر ، وخنقت صرخة في حلقها ، قررت ألا تخرج . كان الهارب في عمر يتراوح بين الخامسة والعشرين والثلاثين . وكان طويل القامة ، غامق الشعر ، مجعَّده ، وقد قصَّه قصة قصيرة ؛ وعلى عينيه نظارات للنظر . يرتدي قميصاً سماوية من دون ربطة عنق ، وسترةً فوقها . ولم تكن البوابة تتذكر نوع النسيج المصنوع منه سرواله ، ولا لونه .

في حين كان زوجها يرتدي ثيابه بسرعة ، خاطبت بالاشارة مستأجرة واقفة على نافذة بيتها ، في الطابق الثاني من المبنى المطل على الساحة ، وتلقَّت تأكيداً بأن رجلين قد هربا للتو .

كانت هذه المستأجرة قد سمعت الطلقات الثلاث . وقد فكرت في صدمات على صفيحة من الفولاذ قبل أن تفهم بأن الأمر يتعلق بطلقات نارية . وتحت تأثير الخوف ، ترددت في الاقتراب من نافذتها ، ثم قررت ذلك . وقد كان الوقت كافياً لترى رجلين يغيبان تحت السقيفة . كان يغطي وجهَ أحدهما غصنُ شجرة ، بينما بدا لها الآخر معتدل القامة ، رقيقاً ؛ شعره متوسط الطول ، كثٌّ ؛ وكان يرتدي قميصاً رياضية غامقة .

هكذا فإن أربعة شهود لمحوا القاتلَيْن لكن لم يكن أحد منهم قادراً على اعطاء وصف لهما يمكن الاستفادة منه حقاً . فالميزة البدنية الوحيدة ظلت الشعر الغزير والمعقوص لأحد الرجلين : وهي ميزة تكفي عدة ضربات مقص لتزيلها . كما أن القامة الكبيرة والبنية القوية شائعتان . وقد كانت بعض التوضيحات متناقضة . فالمباشر الشاب كان رأى شعراً كثيفاً ومتوسط الطول لرجل يرتدي معطفاً أزرق ؛ أما الشاهدان في المبنى المطل على الساحة فأشارا على العكس الى أن القاتل لابس الجين والقميص الرياضية القاتمة هو الذي كان شعره طويلاً ؛ وقد كانت البوّابة هي الوحيدة التي أشارت إلى أن الرجل صاحب القميص الرياضي كان يضع نظارات . وأعلن المباشر الذي رأى القاتلين ثلاث مرات ، أعلن بشهامة أنه قد يتعرف على الرجل لابس المعطف لكنه لن يتعرف بالتأكيد على زميله .

لكن الافادات كانت مثيرة بمقدار ما تكشف الدقة الخارقة التي تمَّ تنفيذ الاعتداء بها . فلقد دخل القاتلان المبنى بخطى ثابتة وهادئة ، كما لو كانا موقنين بأنهما سيجدان ضحيتهما على الموعد تماماً . لقد سمعت المرأة ، التي كانت تراقبهما من نافذة قاعة الطعام المطلة على الساحة ، طلقات النار تدوّي « مذ وصلا إلى مدخل المبنى المطل على الساحة » . كان القاتلان قد وصلا إذن إلى أمام قفص المصعد في اللحظة بالذات التي أنهت فيها الكابينة نزولها . كانت المزامنة دقيقة بشكل كامل .

لا شك أن هنري كورييل كان صاحب عادات ، كما ستشير إلى ذلك زوجته روزيت أمام مفتشي رصيف أورفيڤر . كان يغادر شقته صباحاً بين الثامنة والثامنة والنصف ، ويعود عادة للغداء حوالي الساعة الثانية عشرة والنصف ، ثم يمضي من جديد قرابة الساعة الثانية ليعود مساء حوالي السابعة والنصف . لكن مهما تكن مواقيته منتظمة ، فهي لم تكن بالطبع مضبوطة على الدقيقة ، وهذا الانتظام لم يكن وارداً ، بوجه خاص ، إلا في أيام العمل . حيث في أيام الآحاد والعطل كان هنري كورييل يقطع الروتين ، على غرار غيره من الناس . فبعد الظهر ، كان يبقى في أغلب الأحيان في بيته ، بصحبة امرأته . لقد كان ذلك الرابع من أيار 1978 خميس الصعود . وفي شكل عادي ، لم يكن يمكن أحداً أن يتوقع أنه سيغادر مسكنه

كباقي الأيام ؛ ما كان يمكن أحداً أن يعرف متى سيخرج ، وخاصة بدقة تسمح للقتلة بأن يبلغوا مدخل المبنى في اللحظة بالذات التي يصل فيها المصعد .

كان بالامكان التفكير إذن بأن يسعى التحقيق البوليسي بادىء ذي بدء لاكتشاف كيف أمكن القاتلَيْن أن ينجزا أحد الاغتيالات الأكثر دقة في حوليات الجريمة .

* * * *

البعض تبعوا سيف بونابرت ، والآخرون عادوا إلى ضربة معول ليسيبس* .

التآريخ تقريبية ، أما خطوط السير فغير أكيدة . يتسلق راوول كورييل ، شقيق هنري البكر ، وهو عالم أثريات مرموق ، يتسلق بسهولة شجرة الأنساب لسلالات فارسية دهرية لكنه يبلغ الأوج في شجرة العائلة عند فرع الجد نسيم . أبعد من ذلك ، تتبدد الأوراق غير القابلة للّمس ، الخاصة بالذاكرة الأسطورية . لقد بدأ كل شيء في أسبانيا ، حيث ثمة قريةٌ في مقاطعة فالا دوليد لا تزال تدعى كورييل . بلغت العائلة ازدهاراً عظيماً لأن شعارات النبالة الخاصة بها تضم شعار الثروة والغنى ، لكن عهد التفتيش يشقها ويشتتها . بعض آل كورييل يعتنقون المسيحية ويبقون في أسبانيا (ما يزالون الى الآن فيها) ، بينما يذهب الآخرون الى البرتغال ، الملجأ المؤقت ضد التعصب . وسوف يغدو أحد أبناء عائلة كورييل سفيراً لملك البرتغال في هولندا . وحين التقت الملكة جوليانا راوول كورييل خلال زيارتها إيران ، قبل عدة سنوات ، هتفت قائلة : « نحن أيضاً لدينا حصتنا من آل كورييل ! » (أحدهم ، وهو منتج أفلام ، جاء يقدم أعماله في باريس عام 1981) . إلا أن الدياسبورا الهولندية كانت قليلة العدد ، حيث انتقل القسم الأكبر من العائلة الى توسكانة ، التي كانت العائلة المالكة فيها عظيمة التسامح إزاء اليهود .

لا أحد يعلم ما فعله أصحابنا من آل كورييل في توسكانة خلال ثلاثة قرون ، ولا في أي تاريخ بالضبط قرر أحدهم السفر إلى مصر . يفترض راوول أن هذا مضى بمعية بونابرت ، الذي كانت حملته تَعِد بتحريك الأعمال . ويروي اندريه فايل - كورييل ، المحامي في باريس ، وهو ابن عم راوول وهنري ، أن الجد عاد بالفائدة على بونابرت إلى حد أنه استحصل منه على منحة دراسية في فرنسا لصالح أولاده . لكن ريمون أغيون ، بائع اللوحات في باريس ، وهو ابن خال يتحدَّر عن طريق أمه من الجد المشترك نسيم كورييل ، يؤكد أن جده

* فرديناان دي ليسبس ، مهندس قناة السويس (م)

من آل أغيون هو الذي قام بالمعجزات في تموين الحملة واستحصل جزاءَ ذلك على إرسال ابنته إلى مؤسسة باريسية ـ في رحلة كادت تتعرض فيها المسكينة للاغتصاب من جانب بحارة فرنسيين . موافقون يا بونابرت !

كان عمره 29 عاماً . نحيلاً ، ومحتدماً ، وممتلىء الرأس بالأخيلة ؛ كان يحلم بأن يصبح الاسكندر ، ولم يكن ينظر إلى نفسه بعد على انه نابوليون . وكان ضباطه على صورته ومثاله : فِتْيَةً ومحتدمين ، ومتمرسين كفاية باللعب بحيث لا يبدلون رهانهم بسهولة مقابل قارة . بفضل أولاد الثورة هؤلاء ، لم تكن الحملة الاستعمارية لعام 1798 مذبحة إجمالية وحسب ، وقمعاً آلياً ، فرضاً للخوّة على شعب مستعبد ، بل كانت أيضاً فِعْل شعر سوريالياً في الغالب وطبعت بطابع السحر والفتنة كل المشاريع الفرنسية في مصر منذ فجر القرن التاسع عشر وحتى أواسط القرن العشرين ، أي حتى الحماقة القذرة المتمثلة بالهجوم على السويس عام 1956 .

كانت مصر تنتظر مَنْ يلتقطها . لم يجد فيها فولني ، الذي زارها قبل وصول بونابرت ، غير « فوضى سياسية ، وانحطاط اجتماعي ، وجمود فكري » . إن الأرض التي ولد عليها التاريخ ، كما تقول وكالات السفر ، كانت تئن تحت هرم من النهّابين يسمّى السلطة . على رأس هذه السلطة الباشا العثماني ، وهو مشرَّفٌ* يحمل معه الخراب . ثم أوليغارشية المماليك ، وهم سلالة أجنبية اجتازت خلال ستمئة عام منحنىً سياسياً خيالياً ، لأن الأوائل من بينهم كانوا قد وصلوا من القوقاز في القرن الثالث عشر وهم تحت نير العبودية ، ولأن المتحدرين منهم حكموا البلد من القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر ، معطينه أمراء رائعين قبل أن يخضعوا للسلطة العثمانية ويعملوا خلال قرنين كحراس فظّين وجباة ضرائب لحساب القسطنطينية . لم يكن لجشعهم حدود . وكان الباشوات العثمانيون على عداء تاريخي شديد مع المماليك الشركس ؛ ولا هؤلاء ولا أولئك كانوا يتكلمون لغة البلد . وهو ما كان يرهق الفلاحين . كان التهاون معمّماً . وكان الانحطاط يهدد حتى نظام الري . والحال إن مصر صحراء يجتازها شريان مغذٍّ وحيدٍ ، هو النيل ، الذي يفرِّق فيضانه كل عام بين الحياة والموت . كل سطل ماء يساوي حياة بشريَّة . إذا ذهب الذهب السائل إلى البحر من دون اجباره على أن يروي قطعة أرض خصبة مهما تكن صغيرة ، فإن المجاعة تحل . ولقد كان الفلاح اليائس يستسلم لهذا النوع من الانتحار الجماعي .

لا أدنى دولة ؛ لا أدنى شعور وطني ؛ وكان ثمة مجابهة شرسة بين أحقاد أهلية .

---

* شخص ممنوح مركز شرف ، دون عمل يقوم به (المعرب) .

لكن الاسلام كان يشكل مِلاطاً لكل ذلك ،

وهو ما فهمه بونابرت ، الذي رفع منذ بلوغه اليابسة ملصقات تعلن بكل صفاقة : « ان الفرنسيين مسلمون حقيقيون » . هل هذا مكْرٌ نابع من جانب فاتح مهتم بالسخرية من السكان الأصليين ؟ لا يكون فتح مصر عندئذ غير حملة استعمارية عادية . إذا كان يفلت من التفاهة فعبر باب الحلم . كان بونابرت يشعر بالانجذاب تجاه الاسلام ، وهو ما سيتحدث عنه أيضاً على صخرة القديسة هيلانة ـ وكان أتى حاملاً مشروعه الجميل القاضي بـ« أن يقترن الهلال بالقبعة الحمراء » . وقد مرَّ في باله ، في ضرب من الوقاحة غير المعقولة ، أن يجعل أفراد حملته يعتنقون الاسلام بجملتهم ، وأجرى مفاوضات مع رجال الافتاء في القاهرة . الا أن نقطتين حالتا دون ذلك : الختان والاقلاع عن شرب الخمر . لقد أدى موضوع الخمر إلى قطع المفاوضات . كان الكورسيكي يتقن فرنسيته .

الأربعون قرناً من أعالي الأهرام ، الانتصار على المماليك ـ المهزومين لكن غير المقضي عليهم ـ ، المطاردة في سوريا ، المصابون بالطاعون في يافا ، الفشل أمام عكا ، الانسحاب الى الدلتا المصرية ، القائد العام الذي يعمد إلى الفرار ، اغتيال خليفته كليبير ، الجلاء النهائي لأفراد الحملة ، وكل ذلك في ثلاث سنوات : لقد كان الاخفاق مشهوداً . إن مصر ، التي أذابت أحقادها الداخلية في المصهر الاسلامي ، طردت الكافر من ظهرانيها . لكن صوراً سوف تبقى ، تُدَوّن في ذاكرة الشعوب وقتاً أطول مما هي الحال مع البيانات العسكرية . صورة الجنرال مونو Menou الذي اهتدى الى الاسلام وغدا عبدالله مونو حبّاً بفتاة مصرية . صورة فيفان ـ دونون ، الرسام الذي اصطحبه بونابرت معه ، ابن الخمسين البدين ، والأب فونويار البطولي الذي كان يتقدم الصفوف دائماً كي يتسنى له نهب الآثار القديمة خلال المعركة ؛ صورة دوزيكس Desaix اللاهي عن المعركة بتأمل هيكل دنديراه؛ صورة الشوارع العشرة الباريسية فيما بعد وأجمل ما أعطته فرنسا من عقول (مونج ، برتوليه ، لاري ، جوفروا سان هيلير. . .) تضع جردة بالبلد العجيب وهي في ارتعاشات نشوة فكرية حقيقية ؛ وأخيراً في فرنسا صورة العمل الصبور على المنهوبات التي جلبها مغامرو العلم والفن هؤلاء ، ذلك العمل الذي أدّى بعد مرور خمس وعشرين سنة الى نشر **وصف مصر** ،ذلك النص التذكاري العظيم . أولئك الفرنسيون فعلوا أفضل من فتح مصر : لقد أعادوا اختراعها . (هل هذا إفراط في الغرور الشوفيني ؟ فلنقرأ عبد الناصر من جديد ، عبد الناصر غير المشبوه كثيراً بحب فرنسا ، الذي كتب عن مغامرتنا العسكرية ـ الثقافية ما يلي : « كانت تلك بداية النهضة . »)

في الظاهر ، لم يتغير شيء . بقيت مصر ذلك الهرم المتسمر في نعاس القرون . لكن

المغامرين الفرنسيين كانوا قد أحدثوا شقاً سوف يتسرب عبره هواء الحداثة الذي لا يقاوم .

ولقد وصل في الوقت ذاته الذي وصل فيه بونابرت قائد مرتزقة عبقري ألباني ، هو محمد علي ، بائعٌ لتبغ بلده ، فأجهز على البنى المهترئة التي كان قد هزّها الجنرال الكورسيكي بعنف . طرد الباشا التركي ، ودفع لاغتيال خمسمئة من قادة المماليك أثناء تناولهم الحلوى ، وكان دعاهم لتناول الطعام معه ؛ واحتكر كل السلطات ، وأخذ ملكية كل أرض مصر ، على غرار الفراعنة القدماء ، وخلق جيشاً وطنياً سوف يقاتل وينتصر في ميادين القتال في الشرق الأوسط . لقد ولدت الدولة . لأنه حتى إذا بُقيت مصر من حيث الشكل تابعة للأمبراطورية العثمانية وظلت تدفع الضريبة لاسطمبول ، وحتى اذا اكتفى المتحدرون من محمد علي بلقب نائب الملك كي لا يخدشوا كبرياء السلطان ، فلقد أرخى البلد مراسيه .

أيضاً وأيضاً فرنسيون . لقد اكتشف المهندس جوميل غرسةَ قطن تتفوق أليافها ، الطويلة والمرنة ، تفوقاً كبيراً على الانتاج الوطني . وفرض محمد علي « قطن جوميل » . وهكذا في غضون خمسة عشر عاماً تضاعف انتاج القطن 250 مرة . واكتشف عالم الأثريات شامبوليون سرّ الكتابة الهيروغليفية ، معيداً لمصر ذاكرة ماضٍ يمتد سبعة آلاف سنة إلى الوراء . أما سان سيمون ، أفضل حالم في القرن (التاسع عشر*) ، فكان أول من طلع بفكرة قناة السويس ، وقد مات قبل أن يطأ أرض مصر لكن دفع فريقاً من المجانين اللطفاء بقيادة بروسبير آنفانتين إلى اجتياز البحر المتوسط . وقد وصل الفريق وهو ينشد الأناشيد ، مرتدياً الزيّ الموحد الذي تخيله آنفانتين : سروال أبيض ، لون الحب ؛ صدرية حمراء ، لون العمل ؛ جلباب بنفسجي ، لون الايمان . كانوا خمسة وخمسينَ ، رجالاً ونساءً مختلطين ـ مختلطين جدا بحيث كان لا بد أن يصدموا الأخلاق الاسلامية المتعالية . كان الرجال ذوي تكوين علمي ، تخرَّج العديد منهم من مدرسة البوليتكنيك . وكانت النساء ممرضات أو مدرسات . الرأس في الغيوم لكن القدمين على الأرض . وقد قام مهندسان من المجموعة الرائعة ، فورنيل ولامبير ، ببناء أول سد على النيل لمحمد علي ، وأوحيا إليه بفكرة حفر البرزخ ، وألهبا لأجل المشروع حماس نائب قنصل فرنسا في القاهرة ، فرديناند دي ليسبس ، وهو أيضاً من أنصار سان سيمون .

هل هي صدفة أم دعوة؟ إن فرنسا، التي أنتج بطنها الاستعماري الخصيب ذلك العدد من وحوش الحرب، والاداريين المحدودين، ورجال الاعمال الجشعين، والمرسَلين المخبَّلين، فرنسا التي شوّهت ثقافات، ونزعت شخصية شعوب، وجعلت البرنس والتنورة يعرقان ـ إن

* التحديد من وضعنا (المعرب)

فرنسا هذه أعارت مصر على امتداد قرن بكامله أفضل ابنائها: من فيفان دونون إلى آنفانتين، مروراً بشامبوليون، أناس عجيبون، مؤثرون، علماء، متجردون، ماهرون، كانوا يأتون ويرحلون دون أن يستقروا أبداً، لكن أياً من مشاريعهم كان يوقظ الماضي، ويحسّن الحاضر، ويخترع المستقبل.

إن قناة السويس، التي تمَّ تدشينها خلال حكم حفيد محمد علي، إسماعيل باشا، هي موضوع آخر. موضوع. لم يتم حفرها لصالح مصر، حتى وإن عادت عليها بمردود وفير، بل لوضع المستعمرات الاسيوية في متناول أوروبا بشكل أفضل. لقد جعلت القناة من مصر رهاناً استراتيجياً من الدرجة الاولى، وسوف تدفع جزاء هذا الرهان من حريتها. رفعتها أخيراً، هي التي كانت تخرج لتوها من عصر وسيط طويل للغاية، إلى قمة موجة القعر الاقتصادية لنهاية القرن التاسع عشر.

كان كل شيء يساهم في ذلك. لقد تضاعف عدد السكان في ستين عاماً. وحرب الانفصال التي قطعت إمدادات القطن الاميركية عن أوروبا فتحت سوقاً لا حدود لها عملياً أمام الانتاج المصري: فالصادرات التي بلغت مليوناً ونصف مليون ليبرة عام 1861، وصلت إلى 14 مليوناً بعد ثلاث سنوات. وُلدت صناعة تستخدم عشرات الألوف من العمال. وقد أسكر ذلك اسماعيل الذي اخترع شعار «مصر جزء من اوروبا» وانطلق بحماس منقطع النظير في التحديث مهما يكن الثمن. فامتلأ البلد بالورش. جرى بناء خمسة آلاف مدرسة رسمية ـ لم يكن ثمة غير مئتين ـ ومرافىء أيضاً، وسكك حديد، وخطوط هاتف، وقنوات، ومبان عامة، ومتحف القاهرة ومعاهد. كان ينبغي التعجيل في العمل والإفراط في التعجيل. ثمة حاجة لمعماريين، ومهندسين، وعلماء، ومموِّلين، ورجال قانون. كان يتم الحصول على اليد العاملة المتخصصة بأجور عالية للغاية، ولم تكن اسعار القطن تتوقف عن الارتفاع. كل شيء ممكن.

مصر تستيقظ.

*

* *

كان جد ريمون اسطمبولي لأبيه يدعى ليفي، لكنه لما كان قد اضطر للبقاء وقتاً طويلاً في اسطمبول لأجل دعواه، فقد ركِبَتْه كنيةُ اسطمبولي («الذي يذهب الى اسطمبول») وغدا اللقب اسماً للعائلة. كان ذلك في نهاية القرن الماضي. كانت الامبراطورية العثمانية، الديناصور المنهوك، تتخلص بفتور من الكلاّبات القوية المربوطة إلى خاصرتيها. وخلال تدشين قناة السويس، عام 1869، كانت لا تزال تضم جزءاً كبيراً من البلقان وتمتد حتى تونس غرباً،

والكويت شرقاً، وزغرب شمالاً، وعدن إلى الجنوب. وفي دمشق، عاصمة الاقليم السوري، كان بيت اسطمبولي يشبه خان قوافل ضخماً مع 40 غرفة حول ساحة كبيرة وغرف الخدمة منتشرة حول متاهة من صحون الدار. (اشترت البيت عام 1943 الطائفة اليهودية في نيويورك لإقامة مدرسة يهودية ـ عربية فيه. وآخر الأخبار تقول إن المدرسة لا تزال تعمل، والأرجح أن تكون باتت يهودية أقلّ وعربية أكثر، لكن البيت هو نوع من المتحف حيث يقع الزائرون على المسكن النموذجي للبورجوازية الدمشقية في القرن التاسع عشر.) كان الجد اسطمبولي يغادر إذن مبنّاه ـ السفينة مع حاشية وفيرة قاصداً اسطمبول لينكّد محاميه الذين يمكن أن نتخيلهم متسمرين خوفاً لأن خصمه القضائي لم يكن غير السلطان شخصياً الذي لم يكن يستجيب بسهولة فيدفع ديناً كبيراً في ذمته لصالح المصرفي اسطمبولي.*

هذا الأخير ربما كان تعرَّض لحادث طريق أو لحالة عسر هضم مشؤومة لو لم يكن من الرعايا البريطانيين، وبهذه الصفة تحت رعاية قنصل صاحب الجلالة (كان اسطمبولي ذاته قنصلاً للنروج والدانمرك، وكان يرفع شعارات النبالة الخاصة بهذين البلدين فوق مدخل بيته)، هذا القنصل الذي كان يفعل المستحيل لأجل تَحْمِيِه ويُتعب إبلاط السلطان بمساعيه غير المنقطعة. كان العجوز اسطمبولي (طريقة في الكلام، حيث أنه توفي في سن الثامنة والاربعين) يملك فرادة كونه مواطناً انكليزياً لم تطأ قدماه يوماً ارض انكلترا ولم يتفوه بكلمة انكليزية واحدة. كانت العربية هي لغته الأم وكان يتلو صلواته اليهودية بالعبرية أو العربية، سواء بسواء. لما كانت تفوح من الامبراطورية العثمانية رائحة تحلل وشيك، فقد كانت الدول الكبرى تتهيأ لنهش الجثة القادمة. وكان ثمة اسلوب كلاسيكي يقضي بتجنيس مواطنين عثمانيين، يُفضَّل أن يكونوا اغنياء، بحيث يصبحون معتَمَدي نفوذ في المكان، هكذا كان اليسوعيون يصنعون نتاجاً فرنسياً بكل قواهم من أجل منافسة الانتاج الانكليزي. وكان يهود بغداد قد غدوا بصورة جماعية رعايا بريطانيين، في حين توزع يهود دمشق بين المواطنيات الفرنسية والانكليزية والايطالية. كان لعمليات التجنيس هذه الملفقة تلفيقاً ميزة مهمة ـ لا سيما بالنسبة لمن يكون رفع دعوى ضد السلطان ـ حيث تضع المستفيدين منها في حماية نظام الامتيازات الاجنبية. هذا النظام، الذي كان عمره ثلاثة قرون، كان يضمن لرجال الأعمال الأوروبيين المقيمين في الامبراطورية العثمانية حق المحاكمة، في حال حصول خلاف بينهم وبين السكان الأصليين، أمام محكمة مؤلفة من مواطنيهم هم. وفي الفترة التي كانت الامبراطورية قوية فيها، كانت تلك حماية ممنوحة لأجانب مبلبلين قليلاً بما يخص التشريع الاسلامي، وبالتالي حضّاً على ممارسة التجارة. أما مع انحطاطها، فقد باتت الحماية امتيازاً مبالغاً فيه.

والحالة هذه إذن، فإن الجد اسطمبولي ربح في الاخير دعواه ضد السلطان، لكنه ربحها بعد أن كان نصيبه الدمار، وتوفي في البخور المسموم لهذا النصر* ، تاركاً ارملة و12 يتيماً، من بينهم ست بنات كنّ ينتظرن الزواج. ولقد جرى إدخال والد ريمون لاحقاً إلى معهد اليسوعيين في بيروت، حيث أمضى عشر سنوات وتشبّع بالثقافة الفرنسية. حين كان يعود في الفرص إلى بيته، كانوا يسمونه «الولد الذي كان عند المسيحيين»، او «الأوروبي». هذا وقد جعلته المعركة القانونية التي خيضت ضد السلطان يحزم أمره على أن يصبح محامياً.

عندما بلغ العشرين، قالت له أمه: «اذهب إلى القاهرة. فهنالك المستقبل».

كان جد جوزيف هازان، هو الآخر، من عائلة غنية في دمشق (متفاهمة مع آل اسطمبولي) متمرسة بالثقافة العربية ومرتبطة بكل ما كان ذا أهمية في المقاطعة العثمانية السورية. ولقد اضطرتها مأساة مالية للتشتت، فذهب إخوة الجد الى البرازيل وأسسوا هنالك مصرفاً لا يزال مزدهراً إلى الآن. أما الجد فهاجر الى مصر، وصعد النيل وصولاً إلى السودان، حيث أثرى ثم أفلس في التسليف لقاء رهونات، ثم انكفأ إلى القاهرة مدمَّراً تماماً. وقد عاش عندئذ وليس لديه من هاجس غير تأمين دروس جامعية لولديه اليافعين اللذين عمد إلى تسجيلهما في مدرسة الأليانس اليهودية. ولما كان فقره مدقعاً ، لم يكن يستطيع دائماً دفع التكاليف المدرسية وغالباً ما كان يتلقى إنذارات بأن المدرسة مضطرة آسفةً لفصل ولديه، فكان يسارع عندئذ إلى المدير، حاملاً بيده هراوة ومهدداً إياه بتحطيم رأسه إذا هو وضع تهديده موضع التنفيذ. وكان الولدان يذهبان للدراسة في الشارع مع حلول الليل، عند أسفل احد المصابيح ، بهدف توفير الإنارة المنزلية. كان الجو العائلي قاسياً لكن مقوّياً وحتى منعشاً.

وصل جَدَّا شحاته هارون إلى مصر على متن المركب ذاته. وكان أحدهما آتياً من دمشق، والآخر من حلب، المدينة المنافسة. ولما كان كلاهما من منشأ متواضع، فقد كانا يُعدّان نفسيهما لممارسة التجارة الصغيرة حين دمّر حفر قناة السويس آمالهما وفي الوقت نفسه ازدهار دمشق وحلب، حيث كانت القوافل الآتية من أعماق الشرق، عبر سهوب آسيا الوسطى تُنْزِل بضائعها الثمينة التي كان التجار المحليون يصدِّرونها من جديد الى اوروبا محققين بذلك ربحاً عظيماً: بات كل شيء بعد الآن يمر عبر القناة الملعونة.

دون أن يكون الجدّان على معرفةٍ الواحد بالآخر، قررا في الوقت نفسه تجريب حظهما في

* ورد في النص الفرنسي victoire à la Pyrrhus ، النصر الدموي جداً ، على طريقة انتصار بيروس ، ملك Epire ، ضد الرومان (المعرب) .

البلد مسبِّب البؤس. اشترى والد الأب بطاقة وسافر الى مصر، وعلى كتفه حزمة سجاد شرقي. أما والد الام، المعدم لكن عظيم الذكاء، فسافر سراً. بعد ذلك بثلاثين عاماً، كان الأول لا يزال يبيع سجاداً في شوارع القاهرة. بينما ابتسم الحظ للثاني وغدا سمسار أوراق مالية، يعيش في بذخ عظيم، متنقلاً في القاهرة على عربة فاخرة، ومسافراً كل صيف عبر اوروبا. إلا أنه أصيب فيما بعد بالإفلاس واضطر للتخفيف من ترفه، لكنه ظل ينظر الى الحياة بإقبال وحسن التفات.

كان جد ليديا ألوني، في اسطمبول، الطبيب الشخصي لذلك السلطان الذي كان اسطمبولي العجوز يسعى للتغلب عليه. وقد ارسل ابنه ليدرس الحقوق في باريس، ثم بعث به الى القاهرة ليستقر فيها. فهنالك كان المستقبل.

كان جد روزيت كوربيل يعيش على حافة الإملاق في بلغاريا، وكانت هذه مقاطعة عثمانية حتى عام 1878 . ولما كان أحد أولاده يُبدي مقدرة نادرة في الدراسة ، فقد موّلت الطائفة اليهودية سفره الى فرنسا، حيث تسجل في مدرسة الاليانس اليهودية، في أوتوي. كانت لديه غرفة صغيرة في حيّ الجمهورية. ولما كان غير قادر على دفع اجرة الباص، فقد كان يجتاز باريس راجلاً مرتين في اليوم. وبعد أن حاز الباكالوريا نجح في امتحان الدخول إلى المدرسة الزراعية في غرينيون. بعد ذلك بثلاث سنوات ـ عام 1905 ـ شرَّف نائب ملك مصر المدرسة بزيارة خلال جولة رسمية في فرنسا، وطلب أن يُقدِّموا له أفضل تلميذ. فأشار المدير إلى والد روزيت. فاقترح عليه نائب الملك ان يأتي للعمل في مصر، وهو ما قبله الشاب بحماس: كيف لا يعتقد بأن المستقبل في مصر حين يكون نائب الملك هو ذاته الذي يقدم له مفاتيحه؟ لكن الفتى كان يحلم بالزواج، وكانت اليهوديات المصريات ذوات سمعة سيئة في اوساط يهود بلغاريا. فكتب الى والده، الذي اختار له فتاة شريفة من القرية كانت تعمل مدرِّسة في اسطمبول. وقد تلاقيا في بيروت وأعجبا أحدهما بالآخر، وعمدا فوراً إلى الخطبة فالزواج ثم سافرا الى مصر.

ولد جد جويس بلو لأبيها في فالاكيا، رومانيا لاحقاً، وقد أرسله أهله إلى باريس، وحين أنهى دروسه في السوربون تلقىّ من الحكومة المصرية عرضاً مغرياً بالعمل، وكان جدها لأمها في تونس، يعمل مدرّساً متواضعاً، لكن إحدى المدارس الخمسة آلاف التي أسّسها اسماعيل باشا كانت بحاجة اليه، وهكذا سافر الى القاهرة.

كان جد أيميه سيتون وسيطاً ماهراً في حلب، ماتت امرأته بعد أن ولدت له عشرة اولاد، توفي ثمانية منهم في سن مبكرة. وقد جمع ما استطاع توفيره من مال، وحزم أمتعته ومضى مع ولديه الباقيين على قيد الحياة إلى القاهرة، لان الجميع كانوا يؤكدون أن القرن العشرين سوف

يختار لنفسه مقاماً بين النيل والقناة الجديدة. كان عمر والد أبيه لاحقاً أحد عشر عاماً لكنه لن ينسى أبداً المدينة التي ولد فيها. كان يردد حتى وفاته: «ما القاهرة؟ لو أنك رأيت حلب لعرفت أي مدينة هي!» ولقد تزوج شابة يهودية كان جَدُّ جَدِّها من المدينة ذاتها التي ولد فيها محمد علي، باني الدولة المصرية من جديد. كان هذا الجد الأقدم وصل في عربات قائد المرتزقة واستقدم في إثره حمولة من الأعمام، والأشقاء، وأبناء الأخ، وأبناء العم وأولاد أبناء العم، وكلهم مهندسون ومعماررن، ومتعهدون، وأطباء، كان البلد العريق الخارج من سباته بأقصى الحاجة إليهم.

وهكذا دواليك.

يهود الشرق!

يا يهود الشرق الذين كان إخوتكم الأوروبيون وصفوكم لي فظين، مبتذلين، عديمي الثقافة، نسّائين، بخلاء، قليلي النظافة، بدينين، شرقيين متزلفين، والذين أكتشف أنكم مدهشون، لم يلحق بكم شيء من تقوقعهم في الغيتو، لأنكم كنتم وسط الشعوب كالأسماك في الماء، منفتحين على كل الثقافات، هذا نصير شعراء عرب، وذاك محاور حكماء الإسلام، مستقين من كل المصادر، متذوقين كلَّ الثمار، خالصين من التقوسات والاحديدابات التي يتسبب بها الاضطهاد والبصاق والضرب والمحرقة والمذابح لليهود، لأن التسامح الإسلامي المدهش وفرّ عليكم الشهادة التي كان المسيحيون يوصلونكم إليها بكل تلك الشهامة، بحيث كنتم تمضون أحراراً ورائعين، مقرَّبين لدى العظماء، ومنجدين في الغالب للضعفاء، متبارين مع الحظ، مستعدين دائماً لمضاعفة الربح أو خسارته بكامله، جسورين في النصر، شامخين في حالة الدمار، لا تطولكم الكآبة (اللازمة التي يرددها أودلاكم وأحفادكم هي: «كانت الحياة شديدة المرح في البيت»)، مع هذه القدرة التي لا نظير لها على العودة من جديد، على الضرب صفحاً، تمحون كل شيء وتنطلقون مجدداً من الصفر، تأخذون مركباً الى القاهرة، في مقاعد الدرجة الأولى أو في الأنبار، لأنه هناك بالذات سوف يتمُّ ذلك، لكن دون اليأس القاتم للجماهير البائسة التي كانت تذهب في الوقت ذاته لتختبيء تحت التنورة البرونزية لتمثال الحرية ـ كانت لديكم شهيةُ غول فرحةً حين كانت تلك الجماهير تعاني من المجاعة المحزنة ـ وهذا هو السبب في أنكم تجسدون بصورة ممتازة تلك اللحظة الشاسعة التي كانها القرن التاسع عشر، الغول هو ذاته، والرهيب، مخرِّب القارات، ومهجرٌ الشعوب، المكدّس بحركات كبيرة سمجةٍ حشوداً بروليتارية في مناجم ثورته الصناعية ومصاهرها، المفترس أطفالاً فُرضت عليهم عبودية المصانع، لكن الغول لينُ العريكة الذي كان يرتكب الشر وهو يعتقد الخير، والمتفائل ـ ربما آخر قرن متفائل ـ لأن فكرة التقدم لم تكن قد دُفنت بعد، جثة موثقة بأسلاك المعسكرات

الشائكة، في أعماق مقابرنا التي لا مثيل لها، ولأنه كان لا يزال بالإمكان الإقدام ببراءة الفجر الأول، والمواظبة في الاغبرار المذهَّب لوعد الانوار وهو لم يُلغَ بعد، في حين نسير سيراً آلياً باليقين السرطاني أن خطانا تعيدنا دائماً إلى الوحشية الأصلية، ونتقدم في الغسق حتى الفطر النهائي الذي سينبثق من هذا العفن الذي اعْتَقَد أنه الانسان، في ظرف خفقةٍ من هدب الخلود.

*

* *

لقد ابتلع الغول مصر :

ليس أغوالنا الصغار اللطفاء الذين يجذّفون بقوةٍ انطلاقاً من كل مرافىء الامبراطورية العثمانية، بل الغول الرأسمالي المفرِّق بين نهّابيه الكبار: الدول، والشركات، والكونسورسيومات الكبرى . لم يكن الخديوي اسماعيل، قيصر بيروتّو ضفاف النيل، بحاجة حقاً لاختراع شعاره ذي النزعة الإدارية «مصر في اوروبا»: كانت أوروبا تأتي الى مصر، بموجات متزاحمة من رجال الأعمال، والمضاربين، والنشالين والمحتالين ـ وكان الأكثر جشعاً والأقل توسوساً بينهم من يتولّون وظيفة قنصل او سفير. معاهدات اقتصادية جائرة. قروض بفوائد ربوية، مضاربات وقحة: كانت جيوب البلد البائس كقروي ثمل في حاضرة، كانت تجري تسلية الخديوي بمقارنته بلويس الرابع عشر، وبلاطه ببلاط فرساي، في حين كان النهّابون ينهبون خزائنه.

جرى إعلان إفلاس مصر عام 1878 ، اي بعد سبع سنوات من تدشين قناة السويس. وقد فرضت اوروبا خلق صندوق للدَّين العام تحت رقابتها، وهو ما يضمن لها التحكم المطلق بالمالية. بعد سنة من ذلك التاريخ، ذهل المصريون وهم يرون الأوروبيين يفرضون عليهم مجلس وزراء مدهشاً حتى بالنسبة لشعب لمس خلال سبعة آلاف سنة كل غرابات التاريخ : كان المجلس مؤلفاً من انجليزي وفرنسي ومصري. . . وقد كان الإذلال قوياً لدرجة حفز تمرد قاده ضابط هو العقيد عرابي، الذي أعلن الانتفاض على التدخل الأجنبي وعلى بيع بلاده بالمزاد. لم يكن محمد علي، ولم تكن الدولة التي انتفض ضدها هي السلطنة العثمانية المنخورة التي كان مؤسس السلالة قد هزَّ توازنها بدفعة. منذ ضربة المعول الأولى لفرديناند ليسيبس ، كانت انكلترا تنتظر حجة للجلوس عند ضفة القناة التي باتت الطريق الى الهند تمر بها مذاك. وهكذا دخلت قواتها مصر، وهزمت عرابي وأسرته، وركزّت في مصر «قنصلاً» سوف يغدو سيد البلد رغم هزال لقبه.

وستبقى مصر انكليزية لمدة سبعين عاماً.

أدهشت المفرزة الجنائية روزيت. فبعد ان تمَّ نقلها الى رصيف أورفيفر في حين كان جثمان زوجها ما يزال راقداً أمام كابينة المصعد، استجوبها طوال ساعة ونصف شرطي مشورب، في الأربعين من عمره، كان يبدو على علم تام بشخصية هنري ونشاطاته. كان يطرح أسئلته بصوت حيادي، لا عدوانية فيه، لكن الاستجواب كان يتم في جو يجعل روزيت، المختنقة، لا تنفك تردد: «لكن اخيراً، زوجي هو الذي جرى اغتياله، وهو الضحية!» كانت تحس بالمعاناة في الوضع غير المتوقع المتمثل بالاضطرار للبرهان على أن زوجها لم يكن يستحق الاغتيال. وقد أدّى ذلك إلى أن تأتي أجوبتها محروفة. ما كان يمكن احداً أن يأخذ عليها تأكيدها أن هنري «كان رجلاً ذا مشاعر نبيلة بحيث يندر وجود مثلها»، ولكن كان بالامكان اعتبار تحديد نشاطاته مقتضباً بعض الشيء: «منذ جاء زوجي الى فرنسا، كان يهتم بترجمة مؤلفات أطفال من الايطالية الى الفرنسية». وقد خلصت الى القول: «أنا لا أعرف أي شيء عن الحافز، او الحوافز، التي دفعت القتلة إلى القتل.»

أعادها ثلاثة رجال شرطة إلى بيتها بالسيارة. تعرفت بين المتسكعين والصحفيين المتجمعين أمام المبنى على ريمون أغيون، وليديا آلوني، وريمون اسطمبولي وأصدقاء آخرين من أصل مصري. وقد عانقتهم وصعدت مع رجال الشرطة، الذين كانوا سيعمدون للتحقيق. هذا وقد حصلت ليديا ألوني على الإذن بمرافقتهم.

خرج راوول كورييل، الذي استمع اليه باقتضاب المحقق ذاته الذي استمع الى روزيت، خرج بانطباع مزعج من طريقة التحقيق معه. بدا له ان الشرطي كان يتخبط بصورة مزرية. لما كان يجهل نشاطات اخيه، ما كان في وسعه المساهمة إطلاقاً في تنوير الشرطة.

كان جوزيف هازان على اطّلاع أكثر. لما كان رئيساً ومديراً عاماً لدار نشر تُصدر كتباً وكراسات دعاوية ومطبوعات شتى، فقد كان مفترضاً استخدامه لهنري كورييل، ورسم لوحة غامضة قليلاً لهذا «القائم بعلاقات عامّة» الذي «كان يمر بالمكتب بمعدل مرة كل اسبوع، حسب الحالات»، وقد أثبت التحقيق الذي تم في اليوم ذاته في مركز الشركة أنه لم يكن له فيه «اي مكتب، أو أثاث، أو خزانة». لكن هازان اختصر سيرة سياسية لهنري كورييل، منذ سنواته في مصر حتى وفاته، سيرة لم تكن تُخفي شيئاً عن التزاماته المتعاقبة. وقد أشار بوجه خاص إلى جهوده المحمومة للوصول إلى «حل سلمي وعادل في الشرق الاوسط».

كانت جويس بلو، المناضلة المنضبطة بدقة، قد احترمت طيلة حياتها واجب التحفظ حيال الشرطة. كانت في سن الخامسة والأربعين، ولا تبدو أكبر من ذلك أو أصغر، لكنها تعطي الانطباع بسرعة العطب، صوتها رخيم على بعض الحموضة، وهي تُكثر في حديثها من استخدام عبارة «بشرفي!» هذه العبارة المجلوبة من القاهرة دون أن يكون ثمة ما يستوجب استخدامها، ولها أخيراً هيئة سيدة صغيرة يسهل على رجال المفرزة الجنائية قضمها (لكنها كانت قبل 15 سنة قد تحايلت على زملائهم في جهاز الـ DST، صعبي المراس. إذ قادها رجال الشرطة العاملون في شارع رولين إلى رصيف أورفيفر، تعاملت معهم برصانة وقحة، رافضة مثلاً أن توضح كيف علمت بالاعتداء. أعلنت أنها لم تر هنري «منذ عدة ايام» مع انه كان قد زارها في الصباح ذاته وكانا سيلتقيان في الثانية والنصف في درس اليوغا. وقد قالت إن الحملة الصحفية التي أثيرت قبل ذلك التاريخ بعامين كان لها ضلع كبير في عملية الاغتيال: «كانت تلك المقالات تشكل دعوة حقيقية لاقتراف جريمة القتل. كنت قلقة على حياته. وأنا لا أعرف لماذا هوجم هكذا. كان هنري عاجزاً عن الإساءة الى أي من الناس. انظروا إلى وجهه: لقد كان لطيفاً» .

هذه الأجوبة المبلبِلة، والمحبِطة، لا بل الاستفزازية، كان من شأنها على الأرجح أن تدفع مراقباً حيادياً لإمساك جويس بلو من كتفيها وهزِّها، محرِّضاً إياها على أن توقف هذيانها: لم يكن رجال الشرطة خصومها لأن مهمتهم كانت اكتشاف قَتَلَة الرجل الذي أحبته. لكن يأس جويس لم يكن السبب الوحيد وراء سلوك منحرف في الظاهر. كانت حساسة، مثل روزيت، حيال افتقار المحققين للود. ربما كان ذلك انطباعاً خاطئاً ناجماً عن الفرق في التوتر بين الدراما التي كانت تعيشها والاهتمام المهني الصرف لدى رجال الشرطة، لكن كان ذلك كافياً في نظرها كي تحتفظ برد الفعل النضالي القديم المتمثل بالحذر والتحفظ.

الا أنها كانت أقلّ تحفظاً في اليوم التالي وأفشت خلال جلسة طويلة التفاصيلَ غير المهمة التي اعتقدت في العشية أن من الأفضل كتمانها. . لكن دخولاً مفاجئاً أغرقها في الحيرة. دلف أحدهم الى المكتب، وتيقنت من الطريقة التي استقبله بها رجال الشرطة الآخرون أنه ليس من دائرتهم. وقد طرح عليها سؤالاً واحداً، قائلاً: «من هو الدكتور؟» فأجابت جويس أنها لا تدري إلى من يلمِّح. فنفد صبر الرجل، وقال: «كان كورييل على أهبة أن يلتقي دكتوراً، فمن هو هذا؟» أكدت جويس أنها ليست على علم بذلك. فغضب الآخر وهدّدها بالسجن إذا أصرَّت على الكذب. وقد بدا رجال الشرطة الجنائية مشدوهين قليلاً حيال فظاظة الاستجواب. اما جويس، فبعد التفكير، أشارت الى إنه لا بد أن يكون الأمر متعلقاً بالدكتور جيرالد دو فانجن، وهو صديق حميم لهنري كورييل. فسخر رجل الشرطة وغادر القاعة وهو

يقول لزملائه: «إنها تكذب!».

في اليوم السابق، وخلال زيارة هنري كورييل لها في الصباح، كانا قد تحدثا عن استخدامها للوقت. كانت جويس قد سألته:

«في اية ساعة سترى الدكتور؟» وكان هنري قد أجاب: «في الحادية عشرة». كان الدكتور هو عصام السرطاوي، وهو فلسطيني قريب من ياسر عرفات، يكلفه هذا الأخير بمهمات دبلوماسية، كان من الجناح المعتدل في منظمة التحرير الفلسطينية، وكان يناضل منذ سنتين مع هنري كورييل وآخرين لأجل حل سلمي للنزاع الاسرائيلي ـ الفلسطيني.

جرت المحادثة في ستوديو جويس. وكانت الأسئلة الفظّة التي طرحها رجل الشرطة المجهول تعني أن ذلك الحديث قد تمَّ تسجيله بواسطة جهاز داخلي. أن يكون هاتف المرء موصولاً بجهاز تنصُّت شيء ـ وكان كل مناضل يأخذ هذا الاحتمال بالحسبان ـ بينما وضع ميكروهات لاقطة ـ مرسلة في بيت للسكن شيء آخر. كان يتم الخروج بذلك من روتين الرقابة العادية لدخول ميدان الاستخبار الهجومي.

إلا أن جويس لم تربط بين هذا الاكتشاف المذهل والتوقيت الخارق الذي سمح لقتلة هنري كورييل بتلقيه في اللحظة بالضبط التي وصلت فيها كابينة المصعد إلى الطابق الأرضي.

*

* *

كان التنقيب في منزل روزيت كورييل طويلاً وبالغ الدقة. جرى تفتيش كل الغرف، بما فيها القبو. وقد اهتم رجال الشرطة بفتح علب البسكوت وإفراغها، وتصفُّح كل الكتب، والتحقُّق من كل الأثاث. وقد تساءلت ليديا ألوني إذا كانت العادة في فرنسا تقضي بقلب شقة ضحايا الاغتيال رأساً على عقب. وحين سألت روزيت الرجال الثلاثة حول ما يبحثون عنه، أجابها أحدهم بجفاف: «عليكِ أنتِ أن تقولي لنا ذلك!» هذا وقد حملوا معهم بعض الملفات ودفتر الهاتف. وبما أن روزيت قد تحتاج لهذا الأخير من أجل إبلاغ بعض الأصدقاء بموعد الجنازة، فلقد وعدوها بتسليمها صورة عنه لقاء مبلغ 75 فرنكاً. لكن الزمن سيمر على تلك اللحظات الصعبة، وفيما بعد حين ستتذكر روزيت الساعات التي كانت فيها شبيهة بإنسان مسلوخ حياً شديد الحساسية تجاه أدنى صد، سوف تستنتج بصورة عادلة ما يلي: «لقد تصرفت الشرطة كما يجب».

وصلت أيميه سيتون بعد قليل من رحيل رجال الشرطة، قادمة من منزلها الريفي في

رامبوبيه . ووصلت بعدها بقليل ديدار روسانو . وقد تحادثت النساء الأربع حتى منتصف الليل . كنّ عشن معاً عشرين عاماً في الفردوس المفقود ، وناضلن مع هنري كورييل لأجل الثورة المصرية ، وها هن يجتمعن في خريف حياتهن في المنفى لذرف الدموع على وفاته . كان ألمهن أقوى أو أخف ـ لا فرق ـ لمعرفتهن بأنهن يتقاسمن مع هنري ماضياً جعله ساطورُ التاريخ نضسراً لا يـذبل . لم يتغير شيء لأن كل شيء توقف ؛ لم يعد يوجد الديكور والأشخاص إلا في ذاكرتهن ، متجمدين كما في متحف شمع . كان الآخرون يبكون صديقاً ، أو رفيقاً . لقد فقد جماعة مصر الشاهد الرمزي بصورة رفيعة على عصر وبلد باتاعصيينٌ على التخيّل الى حد أنهم توقفوا عن روايتهما لأولادهم .

عند منتصف الليل ، انسحبت أيميه وليديا . فتمددت روزيت ، التي بقيت وحيدة مع ديدار ، دون أن تتمكن من النوم . أما الدموع التي حبستها طيلة اليوم فكانت تنهمر الآن على وجهها . كانت تعزيتها الوحيدة قناعتها بأنه لا شيء كان قادراً على أن يحرف زوجها عن حياة النضال . لكنها لم تكن تتوصل لتقبُّل فكرة أنه مات ، وأنها لن تراه بعد اليوم أبداً . فمنذ 38 عاماً كانت تشعر نحوه بشغف هادىء ، وعنيد ، وحصري .

في حين كانت شقتها تتعرض للتفتيش ، كان تنقيب لا يقل دقة يتم في محلات جوزيف هازان ومسكنه . ومن المثير للفضول أن من كانوا يتـولون ذلـك هم رجال مفـرزة المخدرات والدعارة . ولا شك أن السبب في ذلك افتقار المفرزة الجنائية للرجال في خميس الصعود . وفي اليوم التالي ، جاء دور مسكن جويس بلو الصغير لتفتيشه . ولم تكشف التقصيات أي مؤشر يميل لاثبات أن أحد أقدم أصدقاء هنري كورييل وامرأةً كان قريباً منها للغاية في لحظة موته أمكن أن يتورطا في اغتياله .

وجويس ، من جهتها ، لم يكن بالامكان أن تقترح على المحققين بأن يبحثوا بصدد ما إذا كان قد تمّ وضع جهاز تنصت لديها (وهو بحث كان تطلّب استخدام وسائل تقنية مناسبة) لأنه لم يتم إلا بعد انتهاء التحقيق بالضبط اقتيادها الى رصيف أورفيفر ومواجهتها برجل الشرطة المهتم بمعرفة هوية ذلك « الدكتور » .

في 6 أيار ، اليوم الثالث للاغتيال ، أعلنت روزيت أمام رجـال الشرطـة الذين كـانوا يستجوبونها في مسكنها : « لقد تذكّرتُ حادثاً جرى عشية اغتيال زوجي . حين كنا نغادر المبنى معاً ، حوالي الساعة الثانية (بعد الظهر) ، التقينا في أسفل الدرج ، وفيما كنا نترك المصعد ، رجلاً رأيناه يتظاهر بصعود درجتين أو ثلاث ، أو أكثر . وفي حين كنا نجتاز الرواق ، انعطف

إلى الوراء ، وتجاوزنا في الساحة وخرج . وقد كان واضحاً أنه لم يكن لهذا الرجل شأن في المبنى ، وهو لم يكلمنا .

« لو جرى تقديم هذا الرجل ، أو تقديم صورته إليَّ ، سوف يكون في وسعي التعرف إليه . أما أوصافه فهي التالية : عمره ثلاثون إلى خمس وثلاثين عاماً ، طوله متر و 75 سنتم تقريباً قامته قامة مصارع ، مع بعض البدانة ؛ شعره متوسط الطول أسود اللون ، مفروق ، ووجهه مستدير . كان يرتدي سترة من الجلد الأسود بسحّاب وبنطلوناً غامقاً . وكان يُمسك شيئاً من نوع توكي ووكي يعلوه هوائي بمقدار عشرين سنتم تقريباً ، يمسكه بيده اليمنى ، مطويّ الذراع ، كما يحملون هذا النوع من الأجهزة .

« لفت انتباهي بقوةٍ حضور هذا الرجل ، وتساءلت عما كان يفعله في المبنى وهو يحمل هذا الجهاز . لم أتحدث عنه مع زوجي ، ولا أعرف إذا كان لاحظ حضور هذا الرجل » .

« لم أتحدث عنه مع زوجي . » وهو صمت مذهل ، غير مفهوم طالما أن روزيت قاسمت حقاً الرجل الذي اتهمته جريدة فرنسية كبرى بأنه « زعيم شبكات مساعدة الارهاب » حياته . وهو صمت مدهش حتى بالنسبة لأولئك الذين ردّوا الاتهام العنيف بهزة كتف . كان هنري كوريبل في أي من الأحوال رجلاً مهدَّداً ـ إذا لم يكن لشيء فبسبب المقالات التي استهدفته ـ وكان بالامكان توقع المزيد من اليقظة من جانب امرأته . لكن روزيت كانت قد توقفت عن النضال منذ أكثر من 15 عاماً . كانت تعرف ما يفعله زوجها من دون الاطلاع على التفاصيل . فهنري لم يكن يستقبل أي مناضل في بيته ، ولم يكن يستخدم هاتفه الخاص لأموره السياسية ، وكان يمتنع عن الحديث بشأنها مع امرأته . وهي بالذات كانت حريصة على أن تجعل من مسكنهما الملجأ الذي يشعر هنري فيه بأنه بمنجى من الضغوط والهموم . وفي التقاسم الضمني للأدوار فيما بينهما ، لم يكن على روزيت أن تنبه زوجها للأخطار التي تنتظره ، وإلا لكان عليها أن تقوم بذلك من الصباح إلى المساء .

والحالة هذه ، اعتقدت روزيت بوجود رقابة بوليسية .

كانت أوصاف الرجل حامل التوكي ووكي متوافقة مع الأوصاف التي أعطاها شهود الاعتداء بخصوص أحد القاتلين : قامة مصارع ، شعر طويل بما يكفي ، سترة من الجلد الغامق . كان واقفاً في المدخل ، أمام المصعد ويمكن الاستنتاج من ذلك أن اغتيال هنري كوريبل كان مُقيَّضاً له أن يتمّ في ذلك اليوم لكن وجود روزيت غير المتوقع حال دون تنفيذه . كان الرجل لوحده . فهل كان القاتل الآخر قد اختفى ؟ المفترض أنهما دخلا المبنى المطل على

الساحة ، لكن تبادلاً محتملاً للكلام بين الزوجين كورييل ، في اللحظة الأخيرة ، أفهم الأشخاص المكلّفين بالتنصت أن روزيت ترافق زوجها ، فجرى توجيه الأمر بالانسحاب فوراً إلى القاتلين بواسطة التوكي ووكي . ضمن هذه الفرضية ، لماذا بقي الرجل حامل التوكي ووكي في محله ، ولم يصعد الدرج إلا في اللحظة الأخيرة مجتذِباً هكذا انتباه روزيت ؟ صحيح أن هذا الشخص لم يكن يفتقر إلى رباطة الجأش لأنه رجع في الحال ، وتجاوز الزوجين كورييل في الساحة ، ثم خرج في شارع رولين ، أمامهما بالضبط . ومن السهل أن نفهم أن روزيت اعتقدت أنها إزاء شرطي يمكن ، عند الاقتضاء ، أن يبرر وجوده بالطريقة الأكثر رسمية .

بالنسبة للمفرزة الجنائية ، وبعد أربعة أيام ، وفيها جثة هنري كورييل في البراد ، لم يكن مسموحاً بالشك : إن الرجل حامل التوكي ووكي على علاقة بالاغتيال . وكان جهاز البث الخاص به يحيل إلى المعطى الأكثر إثباتاً والأشد إذهالاً في القضية : تلك الدقة القصوى في التنفيذ .

بالرغم من ذلك ، لم يتمّ أي تحقق تقني لاكتشاف أجهزة الميكرو التي أتاحت توقيتاً بمثل هذه الدقة ، سواء لدى آل كورييل أو في الشقق المجاورة .

إلا أن التحقيق في الجوار كان شاملاً . فلقد أعطى المستأجرون في المبنيين رقم 4 ، في شارع رولين ، وفي عدة مبان مجاورة ، شهادتهم ، وكان مجموع الشهود75 شخصاً . لم يتردد رجال الشرطة في العودة وقرع الأبواب التي لم تنفتح خلال زيارتهم الأولى . وقد توسع التحقيق ليشمل المباني والمحلات في شارع مونج ، على بعد عدة عشرات من الأمتار عن مكان الجريمة : جرى الاستماع إلى 52 شخصاً . وهو عمل ممتاز ، حتى وإن كانت النتائج صفراً تقريباً .

لكن بفعل واحدة من حالات سوء الحظ المذهلة ، التي تدعو للرثاء بما يخص الشرطة ، فلقد نسيت المفرزة الجنائية شاهداً . وهذا أمر يصعب فهمه لأن هذا الشاهد كان يسكن الطابق ذاته الذي يقطن فيه الزوجان كورييل ، في شقة تطل نوافذها على غرفة الجلوس الخاصة بهما . ذلك مدعاة للأسف لأنه كانت لديه قصة مهمة ليرويها ، قصة تخص الميكروهات بالضبط .

* * * *

كان الجَدُّ ، نسيم كوربيل ، مرابياً . وكان ابنه دانييل قد ارتقى إلى رتبة مصرفي ، لكن أعماله لم تتبدل من حيث طبيعتها . كنت ترى في المكاتب البائسة في شارع شواربي باشا ارتال الفلاحين الدائمة والمثيرة للشفقة وهي تمر لترهن قطع أرضها الصغيرة بعد موسم سيىء لأجل الحصول على مبلغ من المال تشتري به بذوراً . وإذا كان الموسم اللاحق مخيباً مرة أخرى للآمال ، كانوا يفلسون ، وكانت المكاتب تدوي عندئذ بالتوسلات ، وبالتهديدات الصادرة عن مدينين في حالة ضيق شديد . كل أرياف مصر كانت تنزف من جرح الربا . لكن دانييل كوربيل كان يملك أيضاً حقيبة أعمال مهمة ، حيث كان يضارب في البورصة ، وينصرف لعمليات صرف : وكلها نشاطات أكثر تناسباً مع صورة مصرفي حديث .

كانت المكاتب بائسة ، شبه منفرة ، لأن صاحب المكان قليلاً ما كان يهتم بالديكور : كان قد عمي في الشهر الحادي عشر من عمره بعد حادث ما أو مرض ألمَّ به . لم يكن يتكلم أبداً على الماضي . وكان ولداه يعرفان أنه ترمَّل إثر زواج أول لكنهما كانا يجهلان حتى اسم زوجه الأولى . كان رجلاً متكتماً . والصور التي بقيت عنه تظهره ضخماً ، مستدير الرأس ، متحصناً وراء نظارتين غير شفافتين ، ذا هيئة مسالمة ، مع شبه ما بشارل فانيل في الستين من عمره .

كان فناناً إلى حد بعيد ، وكانت الموسيقى موضوع شغفٍ لديه منذ حداثة سنه . لا بل جال بباله حتى أن يتقن مهنة عازف بالرغم من عماه ، وكان يقضي ساعات أمام البيانو ويتردد دائماً على أوبرا القاهرة . وكانت له هواية أخرى هي علم المسكوكات ، وكانت مجموعته من القطع والمداليات ، التي كان يلامس نتوآتها بالتذاذ ، تقدَّر قيمتها بخمسين ألف ليرة مصرية ، أي حوالي ثلاث إلى أربعمئة مليون سنتيم من عملتنا المحلية . والأغرب من ذلك أنه كان يولي اهتماماً شديداً للرسم ـ وعموماً للألوان . كان قد كوَّن تصوُّراً نظرياً للألوان ، وخلال سفرته السنوية للاصطياف في أوروبا ، كان لا ينفك يزور المتاحف مستقصياً ؛ كانت امرأته زفيرا تحدثه عن اللوحات مفصِّلة فروقها الأشدَّ ضآلة ؛ كما أنها كانت تقرأ له كل مساء ، وكان يفضل بيير لوتي وأناتول فرانس .

كانت زفيرا بيهار من عائلة يهودية في اسطمبول ظلت غنية حتى وفاة الوالد ، حيث سرعان ما بذَّر الأبناء البكور ثروة مهمة جرى الحصول عليها من تجارة السجاد الشرقي . وكان أهلها أدخلوها دير نوتردام دوسيون ، حيث هدتها راهباته إلى الكاثوليكية . هي الأخرى كانت قد عانت من المشاكل الصحية وتمَّ استئصال أحد ثدييها . ويصورها أصدقاء العائلة كامرأة تفتقد إلى الفتنة وإلى الجمال . والصور المأخوذة لها في شتاء حياتها تبيِّن عجوزاً ذات وجه متين

البنيان ، وهيئة تدل على الطيبة ،ونظرة حارة . كانت شخصاً صوفياً إلى أقصى الحدود . وثمة إجماع في الرأي على أنها كانت ترهَّبت وما تزوجت دانييل كورييل أبداً لولا عماه . كان الزواج بأعمى بالنسبة إليها قرباناً واكتمالاً . وفي حين لم يكن زوجها يبدي أي اهتمام بالدين ، بقيت حتى نهاية حياتها شديدة الورع والتقوى ، ومسكونية تماماً ، توزع زياراتها وتقادمها بين الكنيسة والكنيس والأمكنة المقدسة لدى المسلمين . ولم يكن ثمة حدود لحدبها وحسن التفاتها . فحين سرق أحد الخدم مجموعة من السجاد الثمين من بيتها ، رفضت تقديم شكوى . وكان ثمة من هذا السجاد ما يعادل ثروة صغيرة .

كانت العائلة سعيدة . ولم يكن هنالك من اعتقد العكس غير هنري كورييل بالذات ، الذي تذكر قبل عام من اغتياله حياة زوجية شوهها « الميل إلى التدمير الذاتي » الذي عانى منه أهله حسب رأيه . أما راوول وكل من تآلفوا مع العائلة ، فكانوا يعتبرون أن التفاهم بين دانييل وزفيرا كان مثالياً . فراوول لا يتذكر مناكفة حقيقية واحدة . والغمامة الوحيدة كانت من أصل موسيقي : فزفيرا ، عازفة البيانو الممتازة كزوجها ، أصيبت بالتهاب مؤلم في أعصاب الكفَّين ؛ وهو ما اضطرها للتخلي عن العزف على البيانو مع ما عناه ذلك من عذاب بالنسبة اليها ؛ أما دانييل فآلمه هو الآخر أن يُحرم الاستماع لعزفها . مهما يكن ، فقد كتب هنري كورييل عام1977 : « لا شك أن حماس الأمومة وعاهة أبي قد طبعا طفولتي ، بالاضافة الى المأساة التي مثَّلها بالنسبة لأهلي موت شقيقة صغيرة تستحق العبادة ، بنتيجة حادث » . والصورة الوحيدة لهذه الطفلة ، المأخوذة لها مع أخويها الكبيرين ، تُظهر بُنَيَّةً مفعمة بالحياة والروعة . إلا أنها لم تمت « بنتيجة حادث » بل بفعل التهاب في العظام والنخاع العظمي قضى عليها في الرابعة والنصف من عمرها .

كانت تُطلَق على منزل العائلة في القاهرة تسمية « ڤيلا كورييل » . وينبغي أن نفهم الكلمة بمعناها الروماني . وحسب القواعد الحالية ، فهو بالأحرى نَـزْل خاص كبير أو قصر صغير ، ضخم بما فيه الكفاية ، لكن يخففه نوعاً ما لوناه الأمغر والأخضر اللذان ينسجمان تماماً مع سماء القاهرة . ثمة بالاضافة إلى غرف الاستقبال والخدمة سبع عشرة غرفة . يحيط به بصورة ممتعة متنزَّه فسيح ترتفع فيه أشجار النخيل وشجيرات أخرى . وهو مبني في أقصى شمال جزيرة الزمالك ، بين ذراعين لنهر النيل ، على مقربة من نادي الجزيرة الرياضي المشهور ، محراب المحتل البريطاني ، مع ملعب الغولف الخاص به ، وملاعب التنس ، ومسبحه ، ومنتداه الفخم (حين مُنح مصري للمرة الأولى شرف الانتساب اليه قبل الحرب العالمية الثانية ـ كان قريباً للملك فاروق ، لكن مصرياً مهما يكن ـ جرى بفارق بسيط تجنب

استقالة جماعية للجنتلمانات المغتاظين .) كانت جزيرة الزمالك آنذاك الحيَّ الأكثر ترفاً في القاهرة ، وكون دانييل كورييل ولد فيه يشهد على قِدَم غنى العائلة . فالمهاجرون اليهود المعدمون كانوا يحلّون في البدء في حي حارة اليهود القديم ، حيث كان يعيش في بؤس شديد عشرات الآلاف من اليهود الذين كانت عائلاتهم تقطن مصر منذ الأزمنة التوراتية . كانوا يتكلمون العربية ، ولا يميزهم شيء ، ما عدا الدين ، عن الجمهور المصري ، ومعظمهم لم يكونوا يواصلون الحياة الا بفضل المعونات الكريمة من جانب الموسرين من أبناء دينهم . وكان الطور الثاني يقود إلى الحي الأوروبي ، على ضفة النيل اليمنى ، بمواجهة جزيرة الزمالك . والأغنى كانوا يستقرون أخيراً في الزمالك بالذات أو في غاردن سيتي ، الحي الذي تهيمن عليه سفارة انكلترا الفخمة ، مركز السلطة الحقيقي في مصر .

كان دانييل كورييل قد وضع هو بذاته تصميم بيته ، لكن مهندس الديكور الشهير جانس هو الذي كان سينفذ ترتيبه الداخلي . إلا أن أزمة 1929 جعلته يلغي تنفيذ المشروع ، الذي كان بالغ الفخامة . ربما كانت تلك حجة : فعماه كان منعه في شتى الأحوال من تثمين الديكور ، ولم تكن زفيرا الطيبة لتشعر بالحماس والشغف إزاء هذه التفاهات . هكذا كانت صالة الاستقبال الكبرى قاعة واسعة جدرانها مغطاة بالأوبوسون ، فيما السجاد المشرقي يغطي أرض القاعة ، التي ليس فيها من الأثاث غير مقعدين وديوان كان سيد البيت يعقد جلساته عليه . وكان ما تبقّى على منوال ذلك : أشياء قديمة حيث يتجاور أثاث من طراز لوي سيز مع بشاعات من الطراز الحديث ؛ كما أن الجدران لم تكن حتى مطليَّة . كان آل آغيون يسخرون سرّاً (إحدى شقيقات دانييل اقترنت بواحد من آل أغيون) ، لكنهم كانوا يطيلون ألسنتهم بحق آل كورييل . فلقد كانوا من طبقة أرقى . كان هناك الجَدُّ القديم أغيون ، مموِّن بونابرت ، ثم جَدٌّ آخر من آل أغيون ، وزير للمال مستور أثناء حكم الخديوي اسماعيل ، كان قد نبَّه إلى الخطر إلى حد التعرض للنفي ، لكن جرى استدعاؤه مجدداً بكل احترام وتوقير بعد أن أكد الافلاس توقعاته المتشائمة . كان آل أغيون قد أسسوا مصارف ـ مصارف حقيقية ـ ، وانطلقوا في مجال الصناعة وظلوا يقدمون الاعانات لمدارس يهودية أسسها أجدادهم . كانوا يعيشون بأبَّهة وترف في الاسكندرية . فحين كان جان أغيون ، ابن خال هنري كورييل ، يذهب من الاسكندرية إلى القاهرة ، كان يستأجر مقطورة فخمة بكاملها كي يأخذ راحته . ولقد عرف اندريه ـ فايل كورييل ، وهو ابن عم ايضاً (كانت شقيقة أخرى لدانييل تزوجت بواحد من عائلة فايل في باريس) ، عرف مع آل أغيون ما بدا له لوقت طويل قمة الترف : ففي ناديهم ، نادي السبورتنغ في الاسكندرية ، كان خَدَمٌ يقومون بجمع طابات البينغ بونغ

أثناء المباريات بين الأولاد . أما نمط حياة آل كـوربيل فكـان أكثر تـواضعاً : « البـورجوازيـة البسيطة الطيِّبة ـ حسب تقدير راوول ـ . كان لدينا عشرة خُدَّام ، الأمر الذي لا يمكن اعتباره فاحشاً . » وكل أولئك الخُدّام تقريباً كانوا من الرجال . كان طباخ ومساعده يعملان في الطابق تحت الأرض ؛ وكان ثلاثة يخدمون على المائدة ؛ وسـائق تحت تصرف دانييـل كوربيـل ؛ أما الباقون فكانوا يتوزعون المهام المنزلية . كانت المائدة تستقبل دون توقف . فالناس يصلون دون كلفة ويأخذون أماكنهم . وقد كانوا ينتمون للجـالية اليهـودية ، إلا في حـالات نادرة . وكلما يوضع الطعام كنت تجد عشرة على الأقل من أولئك الضيوف غير المتوقَّعين . وكان الأكل وفيراً وشهياً . قسم من الخضار يأتي من ممتلكات العائلة الواسعة في المنصوريـة . وقد كـان نصف الأراضي يُستثمَر استثماراً مباشراً بإدارة مهندس زراعي ، بينما يخضع الباقي للمزارعة . كان دانييل كوربيل شَغوفاً أيضاً بالأرض .

*

* *

بخصوص الآخرين ، الأكثر حداثة والأقل غِنىً ، فقد كانوا يعيشون بيُسر .

كان ابن المصرفي اسطمبولي قد بدأ في القاهرة بالتجارة ، ثم تسجَّل في نقابة المحامين ، مستجيباً للدعوة التي أيقظتها في نفسه المحن القضائية الوالدية . كان تزوج ابنة مصرفي دمشقي آخر ، مكلف بجباية الضرائب الريفية في الريف السوري ، وكان هذا قد اشترى من جديد خان القوافل العائلي بعد وفـاة العجوز اسـطمبولي . وكمتخصص في القـانون التجـاري وفي الأحوال الشخصية لليهـود في مصر ، كان لـدى الاستاذ اسـطمبولي مكتب محـاماة مـزدهر ، ومسكن جميل في القاهرة وخدم . وكانت امرأته تعود الى دمشق في كل مرة تحبل فيها ، بحيث ولد ريمون عام 1923 في خان القوافل الخاص بأجْداده .

أبصرت ليديا ألوني النور بعد ذلك بعام في المعـادي ، نويي* القـاهرة . وكـان جدهـا طبيب الباشا العثماني ؛ وغدا والدها محامي ملك مصر ، فؤاد ، والد فـاروق المشؤوم . كان الأستاذ ألوني ، الحاصل على لقب الشرف باشا ، يسكن بيتاً فخماً محاطاً بجنينـة رائعة ، مـع أقبية فسيحة إلى حد إقامة حفلات راقصة فيها . كان يعبد القانون والزهور ، مكرساً لدراسة الأول نهاراته والجزء الأكبر من لياليـه ـ كانت تكفيه ثلاث سـاعات نـوم . وكانت امـرأته ،

* Le Neuilly Cairote ، ونويي تجمُّع سكني في منطقة باريس (المعرب) .

المتحدرة من عائلة يهودية في جنوبي فرنسا ، عازفة بيانو ماهرة عزفت في حفلات موسيقية قبل زواجها . وقد احتفظت ليديا من طفولتها بالصورة المفعمة بالحنين لانسجام كامل : والدتها أمام البيانو في المنزل الصامت الكبير ، ووالدها الذي زاغت عيناه لكثرة ما قرأ في مجلدات الاجتهاد يتنزه في الجنينة بين الزهور الكثيرة للغاية التي كان يكنّ لها حناناً ممزوجاً بالمعرفة .

أما الجَدّ الرهيب هازان فكان قد أوصل ولديه تحت التهديد بالعصا إلى الدراسة الجامعية التي كان مهووساً بها . وقد استقر أحدهما في فرنسا ، حيث أصبح نائب مدير ال PLM ، ومدير كازينو ايفيان ، وعميلاً للشعبة الثانية . وكان الآخر مهندساً زراعياً وشغل منصب مدير في بنك التسليف العقاري المصري ، المنبثق من مصرف الهند الصينية . كان ثمة ثلاثة خدم في المنزل ، وما تُقدَّم وجبة إلا وعليها ما لا يقل عن خمسة طباق . هكذا فإن ابنه جوزف ، المولود عام 1917 ، لم يكن بحاجة للدرس حتى منتصف الليل على الضوء الأصفر للمصابيح العامة .

كان والد روزيت ، الذي دعاه الخديوي شخصياً للمجيء والاستقرار في مصر ، كان قد أصبح مديراً لمختبر الكيمياء في وزارة الزراعة . وكان يكرس وقته لتحليل مياه النيل والأراضي المصرية . وبالتوازي مع ذلك ، كانت لديه مصالح في الاستيراد المُجْزي لنيترات السودا التشيلي . وكان في خدمته سائق وخادمان . وحين كانت تذهب الصبيّة روزيت لقضاء الصيف في فرنسا ، على غرار كل شبيبة القاهرة المنعّمة ، كانت ترافقها بالطبع مربيتها .

بما يخص الجد سيتون ، الوسيط التجاري في حلب ، والأرمل المبكر ، كان وصل إلى القاهرة مع ولدين بقيا على قيد الحياة من أصل عشرة أولاد . ولقد أتمَّ والد أيميه دروساً سريعة ، ودخل المصرف لكن لينتقل سريعاً الى تجارة القطن . وكان لا يُجارى في الكريب الثخين ، والباتِسْتَة* والعنبركيس** . كان رجلاً سعيداً . ولقد احتفظت أيميه بذكرى لطيفة إلى حد التأثر للوجبات العائلية التي لم تكن تجمع يوماً أقل من أحد عشر مدعواً (الاقارب ، وستة أولاد ، وثلاثة خدم) ، والتي كانت تقطعها ضحكات الوالد المعدية ، وتضيئها ابتسامة الأم . كان يجري كسب الكثير ، ليتمّ إنفاق كل شيء على طريقة أهل حلب .

كان جد شحاتة هارون لأبيه قد باع سجاده في شوارع القاهرة دون أن يحوّل ذلك إلى دراما ، لأنه لم تكن لديه طموحات . وقد دخل ولده في سن العاشرة إلى المخزن الكبير

---

* قماش قطني أو كتاني باسم صاحبه (م) .

* * نوع من النسيج الهندي (م) .

سيكوريل ، حيث اشتغل 48 سنة ووصل في الأخير إلى رتبة رئيس فرع ∴ فضمن كل مفرزة نفر يقف في المؤخرة .

*

* *

هاكم أناساً لم تكن جذورهم الغارزة هنا أو هناك صلبة الى حد مقاومة جاذبية مغامرة جديدة يتم ركوبها ، إعادةٍ للكرَّة تتم محاولتها ، لكن كانوا قد وجدوا ، في نهاية محن طويلة ، المكان الملائم لاتحاد وثيق نادر مع الوسط المحيط ، وذلك في الضفة الشرقية للبحر المتوسط ، في السلطنة العثمانية العجوز . كانوا يعيشون كالسكان الأصليين ، ويشاركونهم ثقافتهم ، واذا كانوا يُصلّون لاله آخر فغالباً ما كان ذلك بلغة أولئك السكان . كان الأجداد مندمجين كلياً في السياق البشري للشرق الأدنى . وقد استقر أولادهم على ضفاف النيل ، ومجرد واقع الانخراط في صفوف البورجوازية ، من النموذج الأوروبي ، سوف ينجز ما لم يحدِّدْه العِرق يوماً ، أو ما يسمونه هكذا ، ولا الدين : قطعاً جذرياً مع الشعب المحيط . ليست الشجرة المصرية هي التي رفضت المطعوم اليهودي ، بل العكس . كان الجد يستقبل أفضل شعراء دمشق أو حلب ، أو يعاشر نخبة اسطمبول المثقفة ؛ أما الحفيد فيقول « العرب » بغطرسة لأن الوحيدين الذين يعرفهم من هؤلاء إنما هم خدمه .

في بيت آل كوهين ، كانت الجدة لابسة مثل امرأة مسلمة ، تقضي نهاراتها خلف المشرَّبيّة ولا تتكلم غير العربية . فيما الأم تتقن العربية لكن تستخدمها أقلّ ما يمكن . وحين بلغ ابنها ألفرد سنته الثالثة ، منعته من التكلم بها منعاً باتاً . وفي بيت آل أربيه ، كانت الأم تستشيط غيظاً حين ترى الأب ، المولود في اسطمبول ، يصرّ على معاشرة مصريين ، فتقول : « إنه عربي ! فهو لا ينفكّ مختلطاً بهم ! » لكن لن يجتاز أحد منهم عتبة البيت إلا إذا كان خادماً أو صاحب مهنة ، وسوف ينشد الفتى ألبر هو وزملاؤه : « نحن الجراميز ، صغار الذئاب الفرنسيون » . ولا يختلف الأمر لدى آل كوربيل ، وآل أغيون ، وآل سيتون ، وآل ألوني ، وآل اسطمبولي . لا أحد من رفاق هنري كوربيل فيما بعد سوف يدخل متحف القاهرة ؛لا أحد منهم سوف يجتاز النيل صُعُداً ليلقي نظرة على كنوز وادي الملوك أو أسوان . إن « الغرباء » المتحصنين في الغيتو البورجوازي الخاص بهم (ما من لافتة واحدة بالعربية في الحي الأوروبي) ، لهم مصالح مع المصريين لكن ليس لديهم أي اهتمام بمصر .

إنها اهانة قصوى للبلد : لا أحد يلتمس الانتماء إليه ، فهذه الفكرة تبدو مضحكة . حتى آل كوربيل ، المقيمون منذ أكثر من قرن والذين تستريح رفات آبائهم وأجدادهم في مقبرة

القاهرة ، تحاشوا أخذ جواز السفر المصري . إنهم من الجنسية الايطالية مثلما كان العجوز اسطمبولي من رعايا بوكنغهام بالاس ، وللسبب ذاته : نظام الامتيازات . إن امتياز القضاء الفاحش الممنوح للأجانب يدفع كل عائلة للسعي بكل الوسائل للحصول على جواز سفر أوروبي . وقد كانت مدينة ليفورن الايطالية ملائمة من وجهة النظر هذه، لأن حريقاً اجتاح فندقها البلدي وأتلف محفوظاتها : بسبب غياب وسيلة مراقبة ، لم تكن تتردد في تسليم شهادات الميلاد ، وبهذه الطريقة غدا آل كوربيل ايطاليين على غرار مجموعة من العائلات اليهودية في القاهرة التي لم تكن تتلفظ بكلمة ايطالية واحدة . (لكن كل القاهرة كانت تعرف أن تحسب حتى العشرة في لغة دانتي لأن عاملات الهاتف كن إيطاليات أصيلات . . .) وكان مع آل هازان جوازات سفر فرنسية ، حيث أنهم عثروا على جد مَرَّ بالجزائر . وكان هناك سعي وراء جواز السفر النمساوي بسبب سعره الزهيد ، لكن سوف يظهر الاقتصاد فيما بعد كارثياً لأن حائزي جواز السفر المذكور من اليهود سوف ينظر اليهم المحتل الانكليزي خلال الحرب العالمية الثانية على أنهم رعايا هتلريون. كلا ، لم نصل إلى هذا الوضع . ففي الوقت الراهن، يتسلى الفتى ريمون اسطمبولي في تكسير المصابيح العامة هو وعصابته من الزعران الصغار ، ويصيح بسخرية في الشرطي المصري الذي يهرع رافعاً عصاه : « لا تلمسني ! ليس ذلك من حقك ، فأنا محميّ . » كانت تلك هي الدرجة الأولى من الامتياز ، يليها وضع التابع ، ثم شرف المواطنية . لدى أدنى صعوبة مع الشرطة المحلية ، كان يكفي إعلان المرء أنه محميّ فرنسي ، أو يوناني أو ايطالي ، وسرعان ما كان بوّاب القنصلية يأتي ، بعد إبلاغه ، لتثبيت ذلك وإنهاء القضية . وعلى حدِّ قول أولئك بالذات الذين أمضوا عشر سنوات في معسكرات الاعتقال المصرية ، فإن الشعب المصري هو الأطيب والأكثر صبراً بين شعوب الأرض (1) .

هكذا كانوا قد جلسوا على مصر مستريحين فيما هم ينظرون شطر غيرها .

---

(1) يروي جاك حسون باستمتاع في كتابه يهود النيل عملية تجنيس جماعية غير عادية . بما أن قنصل ايطاليا في القاهرة اكثر من نفخ عدد أفراد عصابة القمصان السوداء الفاشية في صفوف الجالية الايطالية ، وذلك لأسباب مالية ، فان الإعلان عن زيارة تفتيش قام بها الماريشال بادوغليو عام 1938 ، كان يجب أن يدفعه للهرب أو للانتحار . إلا أن القنصل كان آتياً من بلد الكوميديا ديلارتي ويحيا على أرض ألف ليلة وليلة . جنّد عدة مئات من المتطوعين من بين بؤساء اليهود في حارة اليهود ، ووزع عليهم جوازات سفر إيطالية وقمصاناً سوداء ، وعلّمهم أن يمروا في استعراض موقَّع وهم يهتفون : « تحيا ايطاليا ! » اندهش بادوغليو من عدد أفراد القمصان السود القاهريين وحماسهم الحربي لكنه غادر مجدداً بعد أن ترك تعليمات جعلت وجه القنصل المستبشر يكفهر . في اليوم التالي ، دعي اليهود الفاشيون الى القنصلية ـ وكانوا يعتقدون أن عقدهم قد انتهى ـ وهناك علموا انه قد جرى استنفارهم وسوف ينطلقون في الأسبوع التالي ليقاتلوا في اثيوبيا . فتلت ذلك فتنة حقيقية فالقمصان السود من حارة اليهود لم ينطلقوا ، وهو ما جعل الحكومة الايطالية تكرمهم عام 1945 كفارين من القتال شجعان مناهضين للفاشية .

شطر فرنسا.

كيف السبيل اليوم الى افهام الاندفاع العاطفي ، والشغف الطويل لدى أولئك الناس الذين كانوا يخرجون من الأسواق السورية أو من قرية بائسة في بلغاريا ، من دسكرة في فالاكيا أو من ضاحية تركية ، والذين اختاروا كوطن لهم فرنسا التي كان معظمهم يحبونها قبل أن يطأوا أرضها ؟ كانت بلد الثورة العظمى ، بلد الأنوار ، وبلد حقوق الانسان ؛ جوهرة الثقافة الكونية ؛ الحَكَمَ في مواضيع الظرف والأناقة . كانت بالنسبة اليهم أيضاً « الأمة العظمى » لغوته ، وإذا لم تعد كذلك تماماً في الحقيقة ، فهم لم يكونوا يخاطرون باكتشاف ذلك في أحياء باريس الجميلة ومدن الماء التي كانوا يترددون إليها مفضلين إياها على ضواحيها السوداء . كانوا يعشقون فرنسا كتبها فيكتور هوغو ، ورواها ميشليه ، ورسمها فراغونارٌ كان دولاكروا ينتزع منه ريشته حين تسوء الأمور . كان أمراً رائعاً بالنسبة إليهم أن تعيد الاعتبار لدرايفوس ، متناسين أنها سبق أن أدانته . كانوا يرونها باختصار على منوال شارل دوغول الصغير ، معاصرهم ، « شبيهة بأميرة الحكايات أو المادونا على اللوحات الجدارية ، كما لو كانت معدَّة لمصيرٍ رفيع واستثنائي » .

لم يكن ذلك شغفاً سطحياً أو مجرد إعجاب بما هو شائع . في حين كانوا يتقوقعون في غيرية أنانية ضمن البلد الذي استقبلهم ، فلقد كانوا مستعدين لبذل الكثير من التضحيات لصالح بلد الاختيار ، إلى حدود بذل الذات . كانت قد تمت رؤيتهم في بوربول أو في فيشي : وُجد منهم عددٌ في فردان وفي شومان دو دام . هكذا انخرط عمّان لروزيت وعمٌّ لهنري مع كثيرين آخرين في الجيش الفرنسي منذ عام 1914 ، في حين لم يكن يجبرهم شيء على التخلي عن رخاء الحياة المتوسطية لصالح الملحمة الدامية في منطقة شامباني الفرنسية . ومن تبقوا هم فرنسيون بالكامل . فالعم أغيون ، المصري عملياً منذ أكثر من قرن ، والايطالي على صعيد جواز السفر ، يحمل اسم موريس ديروليد بسبب شوفينيته الغاليَّة الشرسة (فيما بعد سمَّى ابنه ريمون احتراماً لبوانكاريه) . وكان دانييل كورييل يتذكر دائماً ولادة هنري ، في 13 أيلول 1914 ، موضحاً : « لقد ولد في اليوم ذاته الذي علمنا فيه بانتصار المارن » . وحين تقدم راوول وهنري فيما بعد بدورهما ، في 3 أيلول 1939 ، إلى قنصلية فرنسا في القاهرة من اجل الانخراط في الجيش الفرنسي ، لم يكن لديهما الشعور بالقيام بعمل نموذجي بل بإنجاز واجب بديهي . قبل عام من اغتيال هنري كورييل ، كتب ما يلي : « كانت فرنسا هي الوطن الوحيد الذي شعرت بالارتباط به » .

على امتداد جيل ، باتت فرنسا المرجع الأول ، إذا لم يكن الوحيد ؛ لقد كان الأستاذ

ألوني ـ وهو ابن طبيب أحد سلاطين تركيا ، ومحامٍ للملك مصر ـ يعلّق أهمية على لقب الشرف الـذي يحمله كباشـا مصري أقـلّ مما عـلى رتبته كضـابط رفيـع الـرتبـة في كتيبـة الشـرف . وكـان والـد روزيت ، الموظف رفيـع الـرتبـة في وزارة الـزراعـة المصريـة ، يُحس بـالمعـزَّة تجـاه مداليـة الاستحقاق الـزراعي الفـرنسي التي كـان حـاصـلاً عليهـا . أمـا والـد جـوزف هازان فكان لا يزال يعتمر الطربوش ، ويقرأ صحيفة عربية إكراماً لذكرى دمشق ، لكنه كان مشتركاً ككل الآخرين في صحيفة فرنسية . وكل مساء ، كان دانييل كورييل يستمع الى زفيرا الطيبة تقرأ له جريدة لوتان . ولقد كان البيت المنيف في الزمالك مفتوحاً على مصـراعيه أمـام الفنانين الفرنسيين القائمين بجولة ، وكان الموسيقيون يَلقون بالطبع أكبر قدر من الاحاطـة . وعلى صعيد الكتب ، كان آل كورييل مرتبطين بعقد مع صاحب مكتبـة باريسي يـزوِّدهـم بها مرسلةً في صناديق : كانت مكتبة العائلة تضم عدة آلاف من الكتب . وكـل صيف ، كانت كل عائلة تقفل حقائبها وتسافر إلى فرنسا . وسوف يحتفظ الأولاد من تلك الرحلات بـذكرى أيام لا تنتهي أمضوها في الحدائق العامة لمدن الماء تحت السيطرة الصارمة لمربيات ذوات أطواق منشّاة . بعد قضاء أسابيع المعالجة الثلاثة ، كان يمضي راوول وهنري ،هما والأب والأم اللذان لا يتعبان ، في سباق لا ينفك يبدأ من جديد من متحف لمتحف ، مع تعريجات على بلجيكـا وانكلترا وهولندا ، حيث شُغِف هنري برامبراندت .

بـالطبـع كانت التـربية فـرنسية . لم يكن الخيـار ممكناً إلا بـين التعليم الـديني ، لـدى الراهبات واليسوعيين ، ومعهد الارسالية العلمانيـة الفرنسيـة . كانت الارسـالية العلمـانية ـ التابعة في مصر لوزارة التربية الوطنية ـ تشغِّل عقداً بعد عقد معلمين لا مثيل لهم ، مشغوفين بعمل يعيشونه كرسالة ، مفعمين بقناعات . كانت الامبريالية الثقافية كليَّة . ثمة مجال للخيار بين شهادتي باكالوريا ، إحداهما عربية والأخرى فرنسية ، لكن الغالبية الساحقة من التلاميذ كانت تختار الثانية . وكانت دراسة اللاتينية مفضَّلة عـلى العربيـة . يردد التـلاميذ دون عُقَـد « أجدادنا الغاليّون » ، ولا يدرسون تاريخ مصر إلا في الصف السادس ، كما الحال في رين أو رومورانتين ، وللمرحلة الفرعونية فقط . لقد كان اسـطمبولي العجـوز يعرف عن ظهـر قلب القصائد العربية الأكثر روعة وجمالاً ؛ في حين يحفظ حفيده غيباً لائحة مراكز المحافظات الفرنسية .

تحت تلك الصورة ، كانت مصر تتحرك .

لم يكن ثمة غير الانكليز يعتبرون أن استعمارهم للبلد عاد عليه بالفائدة . بالطبع ، من النادر أن يكرّس التصفيق العام امبريالية ما ، وعلى المعمِّر في أغلب الأحيان أن يكتفي بشهادة رضى عن الذات ، لكن الخبراء غير المتحيزين يعتبرون أن كشف الحساب الانكليزي في مصر

أدنى بكثير مما فعله الايطاليون مثلاً في ليبيا . كان إنجازهم الأهمُّ تركيز نـظام قنوات يسمـح بالري الدائم لدلتا النيل . أنهوا هكذا ، بصورة مرموقة ، العمل الذي بدأه مهندسو محمد علي الفرنسيون . وقد نتجت عن ذلك ثورة اقتصادية وبشرية لم يشهدها البلد من قبل . فبدلاً من الموسم الوحيد الذي كان يسمح به الفيضان السنوي للنيل ، بات ثمة مواسم ثلاثة يؤمنها الري الدائم للفلاح بفضل الجمع الملائم إلى أبعد الحدود بين رطوبة الأرض وحرارة الجو . هكـذا تضاعف انتاج القطن خلال خمسة عشر عاماً ، وأصبحت مصر المموِّن الأول لمصـانع الغـزل الانكليزية . إلا أن الجردة أكثر التباساً على الصعيد البشري . فالفـلاح بات يكسب مـا يسدُّ رمقه لكنه يُنهكُ نفسه في عمـل لا يتوقف . أي أن حـاله عـلى غرار مـا كتب جان وسيمـون لاكوتور : « هوذا قد انتقل من وضع نصف مرموط* الى وضـع قندس[1] » . وبمـا أن زراعة القطن تتطلب يداً عاملة كثيفة ، وبما أن الأولاد ينسجمون مع ذلك تماماً ، راحت العائـلات الفلاحية تنمو وتتزايد الى حد أنها أعادت طرح المشكلة المخيفة بتأمين الحد الأدنى من شروط البقاء ، مع أول هبوط في السعر العالمي للقطن .

أما بصدد الباقي ، فلقد كان السيد الانكليـزي يكتفي بالتسيير والادارة بعد أن أعـاد استتباب النظام وأصلح المالية . وليس هذا أمراً نافلاً لكنه يفتقر الى اللطافة . إنه يبدي اسوأ أنواع العجرفة : تلك التي لا تولد من شعور بالعليائية بل من شعور بالتمايز . هَوَسُه المتمثل بتنظيف اسنانه ثلاث مرات بعد مضاجعة امرإة من أهل البـلاد . وقناعتـه بأن مسبـح نادي الجزيرة الرياضي يتعرض للتلوث إذا غطس فيه جسمٌ مصري . ثمة بُعْدٌ عن حالات التشوش الصريحة . لكن الوضوح هنا يتناقض مع العمى المجنون لدى المعمِّر الفرنسي . لقد كتب لورد كرومر عام 1908 ، بعد حكم للبلد دام عشرين عاماً : « لا شيء يرجح على هذاالواقع المتمثل بكوننا غير مسلمين ، وبكوننا لا نأكل ولا نشرب ولا نتزوج مثلما يفعلون .

لقـد عززت الحـرب العالمية الأولى السيطرة الانكليـزية في البـداية ، ثم زعـزعتها في النهاية . جرى قطع رابط الولاء الأخير تجاه تركيـا ، لأن هذه الأخيـرة اصطفّت في المعسكـر الالماني ؛ لكن نظام الحماية البريطاني المنادى به رسمياً كـرس سلطة ليست رمزيـة اطلاقـاً . تمركز مليون جندي في مصر ، في حين جرى ارسال حملة من الجنود المحليين الى فرنسا . إلا أن أسعار القطن ارتفعت كثيراً ، وأدى تموين الجيوش إلى خلق مجموعة من أصحاب الملايين ،

---

* حيوان قاضم ينام كل الشتاء (م) .

(1) جان وسيمونّ لاكوتور ، **L'Egypte en mouvement** منشورات لوسوي ، ص 57.

وتأسست صناعات محلية للتعويض عن وقف استيراد المنتجات المصنّعة . ووفقاً للتقديرات الأكثر معقولية ، تضاعفت ثروة البلد خلال أربع سنوات . وكما الأمور دائماً في حالة من هذا النوع ، فإن التضخم المتنامي زاد الأغنياء ثروة والفقراء فقراً . وقد فاقم الازدهار الوقحُ لأوضاع المستفيدين من الحرب بؤسَ العدد الأكبر من الناس . وجدت شريحة المثقفين الرقابة الانكليزية المدقّقة أمراً غير محتمل . وسقطت على هذه الأمة المنشّطة لكن مختلة التوازن « النقاطُ الأربع عشرة » للرئيس الأميركي ويلسون ، ودعوات مكة إلى أن يتمرد العرب ، والاعلانات الفرنسية ـ الانكليزية المكرسة لتفتيت السلطنة العثمانية وحصول مقاطعاتها القديمة على استقلالها ، سقطت كما لو كانت أصوات نواقيس الخطر .

في 13 تشرين الثاني 1918 ، أي بعد الهدنة بيومين ، طلب ثلاثة مصريين مقابلة المفوض السامي البريطاني وطالبوا باستقلال بلدهم . كان على رأسهم سعد زغلول ، وزير التربية العامة سابقاً ، وهو رجل قومي هادىء ، وماكر ، وصعب الترويض . كان قد كبح جماحه طالما الحرب مستعرة ، متحاشياً بذلك اتهامه بأنه يطعن الحلفاء في الظهر . أما الآن فقد أزفت الساعة . قدم الثلاثة انفسهم على أنهم « الوفد » . كانت تلك لُقْيَةً رائعة ، ضربة جريئة مدهشة : قرع ثلاثة أشخاص باب السيد الانكليزي المنتصر لتوّه في ساحات الوغى الأوروبية ، والذي كانت امبراطوريته الأقوى آنذاك بين الأمبراطوريات التي عرفها التاريخ ، وقالوا بكل بساطة : « لقد أوفدَنا الشعب لنطالب باسمه باستقلال مصر . » وفي الواقع أنه لم يوكلهم أحد رسمياً ، ولم تكن لهم أية بنية تنظيمية تشد ازرهم ـ لا شيء ما عدا الأمة ، لكن الأمة بكاملها ، التي سوف تبرهن ، بعد الرد الجاف من جانب السيد الانكليزي ، انها مستعدة للموت بنيران رشاشاته . غرق البلد في الاضرابات والمظاهرات ، ولم يفلح القمع الشرس في سد الطريق أمام المد الشعبي الجارف . وهكذا لم يمض شهر على نفي سعد زغلول ورفيقيه إلى مالطة حتى كان يتم اطلاق سراحهم . وقد أعقبت الاندفاعة الشعبية الحماسية مقاومة سلبية ودعاوة ذكية لدى الحكومات الأجنبية والرأي العام العالمي . فاضطرت لندن في عام 1922 للاعتراف على الملأ باستقلال مصر . طبعاً كان ذلك الاعتراف مرفقاً بتحفظات تضيّق بصورة مزعجة من سيادتها . وقد كتب مؤلف انكليزي كتاباً عن مصر بعنوان **البلد الأعظم أهمية** . إنه بلد الأمة الأكبر عدداً في الشرق الأدنى العربي المنبثق من الحرب العالمية الأولى ، والمفتاح الأساسي لطريق الهند ، وهُري القطن الذي لا تجد مصانع الغزل البريطانية بديلاً منه . سوف تبقى لندن إذن حاضرة عسكرياً وتستأثر بمهمة حماية « المصالح الأجنبية والاقليات » ، وهو ما يترك الباب مفتوحاً على الكثير من المبادرات . لكن مبدأ الاستقلال مطروح ، هذا المبدأ الذي يعود كل شيء ، انطلاقاً منه ، ممكناً ، بل مرجحاً ، لا بل محتوماً .

للمرة الأولى منذ تكوين الأمبراطوريات الاستعمارية الكبرى في القرن التاسع عشر ، وجدت السلطة الأوروبية نفسها مضطرة للتراجع . تلك بداية وحسب .

*

* *

يا لها من بورجوازية ذكية !

تطلعوا إلى ديدار روسانو الصبيَّة والجميلة في طريقها إلى المعهد . ها هي ترتدي الزي الالزامي الموحَّد : بيريه ، وفستان وصدار أبيضان زُخرفت عليهما الحروف الأولى أ .ع .ف لاسم المعهد : الارسالية العلمانية الفرنسية ، وكل ذلك بالغ النظافة لأن المديرة ، الآنسة اندريه ، تفتش الصفوف كل صباح بعين مدقِّقة . كان والد ديدار مديراً في مصرف مصر الوطني . أصحاب الامتيازات وحدهم يستطيعون ارسال أولادهم إلى المعهد الفرنسي ، حيث رسوم التسجيل مرتفعة . لقد تعرضت كثيراً للسخرية أميرة حمود التي راحت تؤكد أنها يهودية مثلها مثل الجميع ، في حين كان والدها مصرياً وأمها ايطالية (سوف تقترن فيما بعد بالممثل دافيد نيفن) ؛ وقد حدثت بلبلة حين تمَّ اكتشاف أن تلميذة أخرى ، يهودية حسب زعمها ، ليست أكثر من فتاة كاثوليكية خجول . وهذا يعني أن العداء للسامية لم يكن وارداً . أما بخصوص عداء محتمل للأجانب ، فلأجل الشعور بمساوئه كان لا بد من وجود احتكاك حقيقي بالسكّان المحليين ؛ والحال أن المصريين الوحيدين الذين كانت ديدار على اتصال بهم هم بواب المبنى الذي تسكن فيه ، وسائق العربة الذي تستأجره أمها ، والخادم المستعد لتأدية كل أنواع الخدمات ، ونفيسة الطيّبة التي تستبسل ، بمساعدة ابنتها ، في « استعادة » البزّات الموحدة البيضاء المشبعة بغبار القاهرة . بعد ذلك بسنوات ، وبعد أن باتت ديدار فتاة حاذقة ، التقت في حفلة راقصة خاصة ضابطاً بالغ الوسامة إلى حد أنها عشقته على الفور (تزوجته فيما بعد) . ولأجل الكلام ، سألته في أية وحدة انكليزية يمارس إمرته . فأجابها الشاب ، الذي امتعض فجأة ، بأنه لا يخدم في الجيش الانكليزي ـ في أي جيش إذن ؟ ـ في الجيش المصري . ويا لدهشة الفتاة المسكينة : كانت تجهل وجود جيش مصري . وهذا أمر قاس بالنسبة لابن البلد . بالمقابل ، كيف يمكن هذا الأخير أن يشعر بالعداء للأجانب تجاه آنسة مع انها ولدت في البلد إلا أنها تعيش على السطح مثل سائحة عابرة ؟ والأمر نفسه يصح أيضاً بالنسبة لأيميه سيتون ، التلميذة في مدرسة جان دارك قبل أن تدخل المعهد ، والتي يهتز قلبها لعودة الالزاس واللورين فرنسيتين أكثر مما يهتز لقضية السودان . كما أن هذا يصح أيضاً على المصرفي دانييل

كورييل ، المهتم بالحياة السياسية الفرنسية(صدمه عام 1924 وصول اتحاد اليسار للسلطة كما لو كان كارثة : اقتنع بأن فرنسا سوف تخضع لسلطة بلشفية) أكثر بكثير من مجريات الحياة المصرية . وهل من حاجة لذريعة يخترعها ابن البلد كي يتخاصم مع العم أغيون ، الشرس في الدفاع عن ريمون بوانكاريه ، لكن الذي يبقى غير مبال بسعد زغلول ؟

لن يزعم أحد بأن الحيلة مقصودة . لقد كان الاشعاع الفرنسي يمارس تأثيره بقوة إلى حد أن البعض ـ كوالد روزيت ، ووالد ريمون اسطمبولي ـ تلقوا ذلك التأثير حتى قبل أن يصلوا إلى مصر ، وإن مَنْ سوف يشهدون لموطنهم المختار حتى في خنادق الحرب الأولى سوف يحتجون عن حق بصفاء مشاعرهم . لذا ليس وارداً الاشتباه بخصوصيات كل واحد بل ملاحظة ظاهرة جماعية لا علاقة لها بالتلاعب . إنهم مرتبطون جميعاً بالرأسمالية الأوروبية ، التي تحمي امتيازاتها أعقاب البنادق الانكليزية ، لكنَّ ارتباطهم العاطفي والعقلي بفرنسا يبرئهم من شبهة التواطؤ مع المحتل . أكثر من ذلك : أن محبة فرنسا هي في مصر طريقة لتأكيد المرء كرهه لانكلترا ، وذلك حتى حدود المفارقة . تتم تبرئة ذمة بونابرت لأن نابوليون عانى من ألبيون* الغدارة . ولقد روى انور السادات في مذكراته انه في طفولته في القرية ، في أبعد مكان من الدلتا ، كان والده يقص عليه كيف أن سجين القديسة هيلانة المسكين نجح في التحايل على خبث الحاكم الانكليزي الذي كان قد خفض باب بيته ليجبره على أن يحني رأسه : كان نابوليون يقرفص ويمر رافع الرأس. . . يا للشعوذة ! فالرجل الذي كان قصف القاهرة بالمدافع يطوبونه في القرى المصرية على انه شهيد الانكليز .

أَنْ يعلِّق المرء عربته بالنجمة الفرنسية فتلك لعبة لا تستلزم جهداً ، لأن تلك النجمة كانت تلمع في سماء مصر لمعاناً يدعو للتفاؤل وكانت ميزتها التي لا مثيل لها أنها نيزك . لقد قيل : إن حظاً سعيداً كان احتفظ لمصر بنخبة الرحّالة الفرنسيين . فالعلماء والفنانون والمهندسون وعلماء الآثار كانوا يظهرون بمظهر أفضل من مظهر التجار والجنود الانكليز ؛ لقد كانوا بوجه خاص طيوراً مهاجرة ؛ كانوا يفكون ألغاز الحروف الهيروغليفية ، يرسمون سداً ، يثوّرون القطن ، ثم يغادرون مصر ! أما الانكليزي فكان يستقر . كان نصف قرن من الاخضاع يتأمل الشعب المصري من أعالي سفارته ، وكان قد بدأ ذلك يظهر على أنه أبدي .

كانت فرنسا بالنسبة لكل واحد شغفاً أصيلاً ؛ فبالنسبة للجميع ، هي دَفْعٌ بالغيبة ، بالمعنى الأول للكلمة . كان بطنهم في القاهرة وقلبهم في باريس ؛ وكان الهضْم مناسباً هكذا .

---

* اسم اطلقه الأقدمون على انكلترا (م) .

نادراً ما استطاع عَلَمُ تهريبٍ لجنسيةٍ ما ، حتى إن كانت ثقافية ، أن يغطي بهذه الدرجة من النجاح الواقع الاقتصادي والاجتماعي الفاحش .

لذا سوف يحتفظون بذكرى مفعمة بالحنين لمرحلة صباهم في مصر ، بمن فيهم أولئك الذين أمضوا عشر سنوات في المعسكر ولا يزالون إلى اليوم مناضلين ثوريين . كانت مصر في سنوات صباهم جنة الله على الأرض لأنهم كانوا يتلذذون فيها بالثمرة الاستعمارية الطيبة دون الوقوع في خطيئة الاستعمار الأصلية . كانوا ببراءةٍ في جمال الأشياء وكانت حياتهم تبزغ كفجر على القاهرة ، في الغبار المذهَّب للضوء الذي لا مثيل له على النهر الكبير الأملس ، وهم على قناعةٍ مُطْمَئِنَّةٍ بمستقبل سعيد .

كانت مأساة هنري كورييل الأولى حرمانه من فرنسا .

*

* *

في البدء ، وُضِع هو وأخوه راوول في المعهد الصغير الذي كانت تشرف عليه الراهبات الطيّبات ، ثم التحقا بالصف السادس لدى الأخوة اليسوعيين في الفجّالة . كان بعض الأساتذة في المعهد العلماني يعبرون عن أفكار متقدمة جداً بالنسبة لدانييل كورييل ، الرجعي الحازم في موقفه ؛ ولم يكن يَسَع زفيرا إلا ان تؤيد خيار اعطاء الولدين تربية دينية .

كانت الأم تفضل الابن البكر ، راوول ، الأكثر صوفية . أما الوالد ، الذي لم يكن يفتح قلبه كثيراً ، فكان يكتفي ببعض مبادىء التربية ويولي ثقته بما يخص الباقي . وقد أثار حبه للبيانو ، المناسبة الوحيدة للخصام الزوجي ، اشمئزاز الولدين من الموسيقى الى الأبد . كان صمّم على تلقينها العزف لكنه لم يكن يتحمل أدنى نوطة ناشزة . وكان راوول وهنري يعزفان على امتداد النهار في غرفة بعيدة كي لا يجرحا اذني الوالد ، وكان واحد من الخدم ، يقوم بتأمين الاتصال ، وينبىء دانييل بما يحققه الولدان من تقدم في تمريناتها .

كانت أعمال البر فضيلة ملتزماً بها ، وكان دانييل كورييل يقدم مبالغ مهمة لهيئات الاحسان التي بفضلها كان اليهود المعدمون في حارة اليهود يبقون على قيد الحياة . وحين بلغ راوول الرابعة عشرة وهنري الثالثة عشرة من العمر ، اصطحبهما الى ميتم يهودي وقدَّم لهما ولداً اختاره أخاً لهما بالمعمودية . كان عليهما أن يخصصا له عُشْر مال الجيب الذي يتلقيانه . وكان الفتى المسكين يأتي مرة كل أسبوع الى البيت الكبير في الزمالك حيث يُمضي يوماً غير مريح بمواجهة الأخوين كورييل ، اللذين لم يكونا أقلَّ تضايقاً منه . وقد دام ذلك ثلاث سنوات .

لكن راوول سوف يحتفظ بهذه العادة ، ويبقى طيلة حياته يعطي العشر من مداخيله لأعمال الخير) .

كانت الدروس موفّقة . وكان هنري بارعاً في العلم ، ويتلقن بسهولة . وقد فقد بالطبع الإيمان لدى اليسوعيين ، مثيراً فضيحة حقيقية بطرحه ذلك السؤال المُحْزِن الصادر عن تلميذ قلوي : « انتم تحدثوننا دائماً عن السيدة العذراء ، لكن من تحقق من عذريتها ؟ ». إلا أنه لم يكن إثمة ذيول لذلك ، فلقد كان سعيداً في الفجّالة . . وفيما بعد ، سوف يتهمه خصومه بالجزويتية ، وحتى بين محبّيه سوف نجد الكثيرين ممن يغتاظون بسبب أسلوب ملتف ومخادع مناسب تماماً مع الكاريكاتور الشائع عن الرهبانية اليسوعية . خلال نقاشات مهمة ، كانت طريقته المفضلة تتمثل بأن يجيب مستعيداً باديء ذي بدء آخر جملة قالها محاوره ، كما لو كان هذا الأخير قد صاغ مسلَّمَةً لا تقبل الجدال . وهكذا فإن المعارض الآتي عاقد العزم على قول الصراحة المطلقة والمزعجة سرعان ما كان يجد نفسه بعد دقائق قليلة وقد تورط في رمال متحركة . فضلاً عن ذلك ، لم يكن هنري كورييل يخفي نزعته اليسوعية لا بل كان يستنح الفرص الأكثر غرابة ليبدي احترامه لمعلميه . حتى ان اكثر من مسؤول سياسي لم يصدِّق اذنيه . واقبل مماته بقليل ، أراد ان يستفيد من أوقات فراغه القسري الناجم عن إقامة جبرية ليكتب نوعاً من سيرة سياسية . الا انه لم يقيض للمشروع ان يتم . ولقد بدأ بالتحذير التالي : « اتمنى التوصل الى عدم التعبير عن غير الحقيقة ، لكني أعرف ـ وهذا تعلمته قبل كل شيء من اساتذتي ، الآباء اليسوعيين ـ كم يسهل تزيين الحقيقة ، كم من السهل ان يكذب المرء مع انه لا يقول غير أشياء صحيحة » . وحين التقاه راوول للمرة الأخيرة ، قبل 15 يوماً من مصرعه ، تذاكر الشقيقان أيامهما القديمة في الفجّالة ، وخلصا الى القول إنه لو كان لديهما أولاد يرعيانهم لارسلاهم حتماً لتلقي العلم لدى اليسوعيين .

تماماً كما كان قد رأى دانييل كورييل ، فالمعهد لم يكن يخاطر بأن يبذر في عقل الشابّين مراعم التخريب . كانت التربية كلاسيكية وكانت الخصومات المعاصرة تقف عند الباب . وحين أحس راوول كورييل بالألم الشديد أمام هزيمة فرنسا عام 1940 ، مضى يبحث عن تعزية لدى أحد معلميه القدامى في الفجّالة . وقد أصغى اليه هذا الأخير برفق ، وهو دكتور في اللاهوت والفلسفة ، وأجابه بصوت مطَمْئِن : « لكن لا ، ليست الهدنة مأساة ! انها العقاب العادل الذي استحقته فرنسا إذ تحالفت مع أمة بروتستانتية . »

أخرت صعوبات مالية رحيل راوول الى باريس . وبما أن أعمال دانييل كورييل قد تزعزعت ، وكانت نفسه القلقة تخشى على الدوام مداً بلشفياً يكتسح العالم ، فقد جعل ابنه البكر يبدأ بدراسة الحقوق في كلية الحقوق الفرنسية في القاهرة . ورضخ راوول على امتداد

عامين ، لكن بعد أن استقامت الأحوال سمح له والده بأن يدرس سنته الثالثة في باريس .

لكن الحكم الأبوي سقط على هنري ، حاسماً وصاعقاً : لن يذهب الى فرنسا لمتابعة دروسه الجامعية ، فطريقه مرسومة سلفاً : الحصول على اجازة في الحقوق في القاهرة والعمل في المصرف .

أُصيب هنري كورييل باليأس . فالرحيل إلى فرنسا لم يكن واحداً من تلك الأحلام التي يتعلل بها المرء وهو يخشى عدم تحقيقها . كان قدر الجميع . فمن بين أعمامه وعماته ، لم يبق في مصر غير ليندا ، قرينة الثري الكبير ، موريس أغيون . فايفلين تزوجت في باريس العالم شارل بريبان ، الذي غدا فيها بعد مديراً للمحفوظات الوطنية الفرنسية . والعمة ليوني تزوجت هي الأخرى في باريس واحداً من عائلة وايل ، وكان شقيقها ماكس يعيش هناك حياة قلقة بعد أن كان قاتل بتفوق في الجيش الفرنسي ؛ كان يعيش حياة فسق ، مدمناً على الشراب والمخدر ؛ وكان ثمة من يقول لراوول وهنري : « استمر هكذا وسوف تنتهي الى ما آل إليه العم ماكس ! » (كان عشيق ماتا هاري لكن هذه العلاقة بقيت سرية ، لذا لم يحتفظ بها مغتابو هنري كورييل ليسجلوها ضده .) ومن ناحية الأم ، فإن الخالة آنجيل ، أخت زفيرا الجميلة جداً لكن قليلة الاحتشام ، كانت تعمل في مشغل خياطة باريسي كبير . أبناء العم وبنات العم ، الأصدقاء أو الرفاق على مقاعد الدراسة ، كلهم كانوا يمضون في وقت أو في آخر إلى الوطن المختار . حتى راوول ، الذي كان يكبره بعام ، والأقلّ تفوقاً في الدروس لأنه أكثر كسلاً (سوف يستدرك تقصيره بقوة فيها بعد) ، تخلص من ورطته بعد أن كان بقي فيها عامين . وهكذا لم يبق غيره هو ، هنري ، على رصيف الميناء . . .

والأسوأ أنه كان عليه الدخول للعمل في المصرف الوالدي . لم يكن قد تصور يوماً كابوساً كهذا : أن يترك الطبقة العليا (من الباخرة) حيث لا تلتقي العين غير الأناقة والجمال ، لينزل الى ما بين السطحين ، وسط المجذفين لابسي الجلابية الوسخة الذين يدفعون السفينة الى الأمام : أن يخرج من بروست* ، الذي كان شديد الشغف به ، ليدخل في الروتين البشع للقروض الربوية الى هذا الحد أو ذاك ، مع التهديدات والتوسلات من جانب المدينين الواقعين في ضيق شديد . . .

كان الوالد أعمى ، وقد بقي هنري مراعاة له .

---

* روائي فرنسي مشهور (م) .

لم يصدق أحد ادعاءَ واحدة من مجموعات دلتـا أنها هي التي قامت بعمليـة الاغتيال . كانت الحملة الصحفية التي جرى شنها قبـل عامين قد اتهمت هنـري كوريـيـل بأنـه « زعيم شبكات مساعدة الارهاب » . وكان ذلك يعني وضعه في قلب أحداث راهنـة معذّبـة . فمع دلتا ، كان يتم الغطس مجدداً في الملابسات التي مر عليها الزمن لحرب الجزائر . فمجموعات دلتا ، المنبثقة عن منظمة الجيش السري (م .ج .س .) ، كان قـد خلقها المـلازم دوغيلدر وقادها . وكان اسمها يأتي من الحرف اليوناني ذي الشكل المثلث ، الصورة الأساسية لأي عمل سري : على شاكلة الترويكا البلشفية ، كانت كل واحدة من مجموعات دلتا مؤلفة من ثلاثـة أشخاص يتصل واحد منهم فقط بالحلقة الأعلى . وطوال شهور ، كان قَتَلة دوغيلدر قد زرعوا المـوت في مدن الجـزائر ، غـير مميزين في عمليـاتهم بين أنصـار سيـاسـة ديغـول والخـادمـات المسلمات ، ثم جرى اعتقال زعيمهم وحكم عليه بالاعدام ، وتم إعدامه في حين راحت فرق من رجال الشرطة الجمهوريين الآتين من العاصمة الفرنسية تُخْضع بالتدريج أتباعه المتعصبين . والناجون هربوا الى اسبانيا أو فرنسا عشية استقلال الجزائر . كان ذلك يعـود إلى أكثر من 15 عاماً .

كان البلاغ الذي هتف به صوت مجهول الى وكالة الصحافة الفـرنسية يجمـع اتهامـات عديدة . فلقد اعتبر ان هنري كوريـيل « عميل للشرطة السوفياتية (ال كا .جي .بي .) » : كان المشهّرون به من الصحفيين قد لمّحوا الى أنه يعمل لحساب أجهزة المخابرات السوفياتية . أما وصفه بأنه « مناضل من اجـل القضية العـربية » فكـان يمكن ان يعود الى عمله السـابق لصـالح الـوطنيين الجـزائريـين أو إلى جهوده من أجـل انجاح تسـويـة للنـزاع الاسـرائيـلي - الفلسطيني . بالمقابل ، فإن الجملة التي تقول : « تم إعدامه تذكاراً لكل موتانا » كـانت تشير إلى منظمة الجيش السري وتحيل إلى منظمة أو مجموعة متورِّطة بعمق في حرب الجزائر : لم يكن أي نزاع مدني قد أدى الى وفاة شخص ما في فرنسا منذ عام 1962 ضمن ظروف تبـرِّر هكذا تعابير .

كانت سرعـة الادِّعاء تضفي عليـه الجديّـة . فلقد تمّت المخـابرة مـع وكالـة الصحافـة الفرنسية بعد ساعة بالضبط عـلى إطلاق القتلة رصـاصـاتهم الأربـع . طبعاً كـانت الاذاعات أذاعت في غضون ذلك ، في نشرة خاصة ، نبأ الاعتداء على هنري كوريـيـل ، لكن لا يمكن تخيّل أن يكون مزّاح متعصب ارتجل بلاغاً جاءت تعابيره موزونة . أخيراً ، فإن مجموعـة دلتا بقيت الوحيدة التي أعلنت مسؤوليتها .

لم يكن التوقيع المشؤوم يظهر ، من جهة أخرى ، للمرة الأولى . فمن رجوع الصحفيين إلى وثائقهم ، أرّخوا عودة اسم دلتا للظهور على أنها في 2 كانون الأول 1977 . في ذلك اليوم ،

سقط العيد سباعي ، الحارس الليلي لرابطة الجزائريين في أوروبا ، 23 ، شارع لوي لوغران ، بفعل إصابته بست طلقات في باريس . بعد ذلك بثلاث ساعات ونصف ، خابر أحدهم المكتب الباريسي لوكالة الصحافة الفرنسية زاعماً مسؤولية منظمة دلتا عن الاغتيال . وفي اليوم التالي ، خابر مجهول فرع ليون في الوكالة ذاتها باسم منظمة دلتا أيضاً ، لكن مضيفاً : « فرع التقدم والثورة » . وجرى الاعلان عن أعمال لاحقة ، لا سيما في مدينة ليون . كانت تلك هي المرة الأولى التي يجري الكلام فيها مجدداً على منظمة دلتا منذ نهاية الحرب الجزائرية*.

بعد مرور تسعة أيام ، في 11 كانون الأول 1977 ، جرى إطلاق ثلاث قذائف مولو توف على مسكن للشغيلة المهاجرين في ستراسبورغ ، الأمر الذي تسبَّب بخسائر مادية . وقد ادَّعت المسؤولية عن هذا العمل ، في مخابرة هاتفية مع شرطة النجدة ، مجموعة تتكلم باسم منظمة دلتا .

وفي 14 كانون الأول ، حدث اعتداء مشابه على مسكن للمهاجرين في لاغارد في الفار . وقد تلقت صحيفة فار ـ ريبوبليك مخابرة تدّعي فيها منظمة دلتا مسؤوليتها عن الاعتداء .

وفي 26 كانون الأول ، انفجر جهاز من صنع حرفي أمام بيت نقابات كامبري ، إلا أن الأضرار كانت طفيفة . وقد تلقت الجريدة الشيوعية ليبرتيه بلاغاً من منظمة دلتا .

وفي 15 آذار 1978 ، انفجرت قنينتا غاز في قعر رابطة الجزائريين في فرنسا ، في مدينة طولون . وأعلنت دلتا مسؤوليتها عن العمل ، في مخابرة مع جريدة فار ـ ماتين .

وفي 24 آذار 1978 ، أعلنت دلتا مسؤوليتها عن اعتداء جديد في لاغارد . وقد وضعت المتفجرة هذه المرة أمام مركز للحزب الشيوعي .

إنها سيرورة كلاسيكية من المحاكاة الهزيلة : انطلاقاً من اعتداء مجرم أعاد إحياء دلتا ، فإن بعض العنصريين المتعصبين من أقصى اليمين يشعلون مفرقعات ناسبين انفسهم إلى الأسطورة المستنكَرة . وقد تمَّ جلب أحد المشبوهين في ستراسبورغ ثم اطلق سراحه . كما أن شاباً وتلميذاً أُلقيَ القبض عليهما في لاغارد ، ثم تمَّ إطلاق سراحهما من دون ملاحقة قضائية .

كان العيد سباعي قد قُتِل ، مثل كورييل . لكن أية علاقة تقوم بين هذا الحارس المغمور وشخصية بحجم هنري كورييل ؟ لقد قدَّر اصدقاء هذا الأخير ، والغالبية الساحقة من المراقبين ، أن القتلة نبشوا المتاع الرث والدامي لمنظمة الجيش السري كي يغطوا به دوافعهم الحقيقية .

في 12 أيار 1978 ، بعد مصرع هنري كورييل بثمانية أيام ، وقّع البروفسور سيكالدي ، وهو رئيس مصلحة السجل العدلي في باريس ، مدير مختبر الشرطة العلمية ، وقّع تقريره كخبير بصدد الرصاصات التي أطلقها القتلة في شارع رولين : « لقد تمّ إطلاق الرصاص من مسدس عيار ACP .45 كان قد جرى استخدامه في 2 كانون الأول 1977 خلال عملية اغتيال العيد سباعي . »

*

* *

بعد أن أنهى العيد سباعي ، وهو أب لسبعة أولاد ، حراسته الليلية ، خرج ليأخذ فنجان قهوة مع عضوين آخرين في الرابطة . وفي طريق العودة بين التاسعة والدقيقة 35 والتاسعة والدقيقة 38 إلى مركز المنظمة ، في شارع لوي ـ لوغران ، كان يستعد لدخول المصعد في آخر الساحة حين اندفع قتَلَةٌ من خلفه وأطلقوا النار . وقد سقط العيد سباعي ، مصاباً بست طلقات . اخترقته خمس رصاصات من سلاح عيار 7,65 ، ورصاصة من مسدس عيار ACP.45 سوف يتم استخدامه بعد مرور خمسة أشهر ضد كورييل .

جمع رجال الشرطة من مكان الاغتيال سبع خرطوشات وخمس رصاصات 11,43 . فالقاتل حامل المسدس عيار 45 . لم يصب هدفه البشري بأكثر من رصاصة واحدة ؛ لكن في شارع رولين ، وعن كثب ، سوف يكون حامل المسدس 45 . أكثر دقة . وقد أصاب شريكه الهدف خمس مرات من أصل خمس .

كان شاهدان يعتقدان بأنهما شاهَدا القاتلَيْن .

الأول ، وهو نقيب في سلاح الجو ، كان في ذلك الصباح ينظر من نافذة مدرسة برليتز . وبين التاسعة والدقيقة 27 والتاسعة والدقيقة 28 ، وفقاً لتقديره ، رأى شاباً يخرج من الرقم 23 ، شارع لوي ـ لوغران ، وكانت اليد اليمنى لهذا الشاب داخل قميص الرياضة التي يرتديها . كان يسير مسرعاً . وقد قدَّر الضابط عمره بـ 25 عاماً ، وطوله بمتر و75 سنتم . كان شعره كستنائياً فاتحاً ، وكانت قميصه الزرقاء ذات طوق من الفرو أشد زرقة ، وكان سرواله رمادياً . أما مشيته فرياضية .

وكان الشاهد الثاني بائع الصحف في الكشك الواقع عند زاوية شارع لوي ـ لوغران وبوليفار الكبوشيات . كان قد لاحظ رجلاً يصل بخطى سريعة جداً من شارع لوي ـ لوغران . كان طويل القامة ـ متر و80 سنتم ـ وربما في الثلاثين من عمره . وكان شعره طويلاً . أما ما

علق في ملاحظة الشاهد من ثيابه فهو كنزة ذات لون بيج ، لا أكثر ولا أقل . وخلال استجواب ثان ، أوضح أنه لم يشاهد الرجل إلا من الخلف ، وحدد طول قامته بين متر 75 سنتم ومتر و80 سنتم ، وأشار إلى أن لباسه كان « قميصاً لون بيج ، من نوع الزي الذي يلبسه الجنود صيفاً » .

في الساعة الواحدة وسبع دقائق بعد الظهر ، تلقت وكالة الصحافة الفرنسية المخابرة الهاتفية التالية : « لقد أعدمنا مسؤولي روابط الجزائريين في أوروبا . وهذا إنذار أول رداً على اغتيال بعض الرهائن على يد مرتزقة الجزائر . انتقام للزوجين فيشيه . نطالب بإطلاق سراح كل مواطنينا قبل يوم الأحد الساعة الواحدة بعد الظهر . فإذا مرت هذه المهلة ، سيغدو وضع الجزائريين في فرنسا لا يطاق » .

قبل سبعة أشهر ، وبالتحديد في أول أيار 1977 ، كانت قوات جبهة بوليساريو قد أغارت على مدينة زويرات في موريتانيا ، حيث كان يقيم كوادر أو مهندسون فرنسيون مع عائلاتهم يعملون في الشركة التي تستثمر الحديد . وقد قُتل الزوجان فيشيه خلال الهجوم ، وأسر صحراويو البوليساريو ستة فرنسيين . وفي نهاية الغارة ، قادهم خاطفوهم في اتجاه مجهول لكن يمكن تحديده دون خطر الوقوع في الخطأ على أنه الجزائر ، لأن هذا البلد الحامي لجبهة بوليساريو يشكل بالنسبة اليها قاعدة خلفية . أما تعبير « مرتزقة الجزائر » فقد استخدمه أصحاب المخابرة الهاتفية للاشارة إلى المقاتلين الصحراويين . وفي 25 تشرين الأول ، خُطِف في موريتانيا عاملان فرنسيان في سكة الحديد بدورهما . وقد أثارت القضية تأثراً مشروعاً في فرنسا ، وهاجم قسم من الصحف حكومة الجزائر بعنف ، محمِّلاً إياها المسؤولية عن العملية .

لم يكن ممكناً اعتبار العيد سباعي مسؤولاً في رابطة الجزائريين في أوروبا ، لكن الاستماع إلى رئيسه عبد الكريم غريّب أظهر أن الحارس الليلي المسكين راح ضحية سوء تفاهم . فلقد كانت الرابطة تعرَّضت للتفجير عام 1975 . ومذاك لم ينفك السيد غريّب يتلقى رسائل ومخابرات هاتفية تتضمن التهديد . تدخلت سفارة الجزائر لدى السلطات الفرنسية بهدف تأمين حماية له . وهو ما جرى رفضه بسبب النقص في عدد أفراد الشرطة . فاتخذ السيد غريّب إذن بعض التدابير الأمنية . هكذا كان سائقه ، وهو في الوقت ذاته حارسه ، ينزل معه من السيارة عند وصولها أمام المبنى ، في الساعة التاسعة والنصف صباحاً ، وكان أحد أعضاء الرابطة ينتظره امام الباب ، بحيث كان الرئيس يتجه نحو المصعد يحيط به شخصان . ومن الخلف ، كانت قامته تشبه قامة العيد سباعي .

رأى القتلة ثلاثة جزائريين يدخلون المبنى في الساعة بالذات التي كان السيد غريب

وحارساه يدخلون فيها في العادة ، فأطلقوا النار على الرجل الذي بدا لهم أنه رئيس الرابطة .

إن وصف القاتلَيْنْ المفترضين يتناسب مع وصف قاتِلَيْ شارع رولين دون أن نتمكن من استخلاص تماثل أكيد . هما طويلان ، في سن الشباب ، ومشيتهما رياضية . ونادرون هم أبناء الستين المتكرشون الذين يطلقون النار في الشارع بواسطة كولت 45 .

كان البلاغ المتبني جريمة اغتيال هنري كورييل ينتهي بالجملة التالية : « لقد حذَّرنا خلال عمليتنا الأخيرة . » هذه الخلاصة الغامضة هل كانت تحيل الى رسالة دلتا المتعلقة بالسباعي ؟ كانت الرسالة تشترط اطلاق سراح « رهائن » بوليساريو : هؤلاء كانوا قد اخلي سبيلهم سالمين معافين قبل ستة أشهر ، وأعلنوا جميعاً ان خاطفيهم عاملوهم معاملة حسنة .

لكن الحقد ذاته على العرب ، وبخاصة على الجزائريين : والاطار ذاته ـ مصعد ـ ، ولا سيما السلاح ذاته .

ليس ثمة مكبرات للصوت .

* * * *

عمره عشرون عاماً وفي هذا العمر نفدت جميع وسائله . إنه غندور ضجران لم يعد يعرف ما يفعله بحياته التالفة .

هناك في باريس ، يُشبع شقيقه راوول نهمه للثقافة . أنهى إجازته في الحقوق ، وهو يدرس العلوم السياسية ، وحصل على اجازة في الفلسفة ، كما أنه شغف بالألسنية وتسجل في معهد الحضارة الهندية ، في السوربون ، بهدف دراسة السنسكريتية ، وهو ما يقوده شيئاً فشيئاً الى اللغات الايرانية والسلافية والجرمانية . كل شيء يثير اهتمامه . لا أدنى همّ مبتذل يتعلق بالمستقبل يقف حاجزاً دون هذه الحالات من الغرام الثقافي الصاعق ، أو يقنّنها : « لم يكن وارداً ان تراودني فكرة الاضطرار يوماً لكسب معيشتي . » (بعد ذلك بخمسين عاماً ، سأعثر على راوول كورييل في مسكن صغير في حي بوبور ، في آخر شارع محاط بحانات مشبوهة عربية حيث تشوى حتى الاحمرار لحوم المرغيز ، لكن الترميم الاسيوي العنيد كان في حالة الهجوم ، بحيث تختلط في نوافذ راوول الروائح الجادة لشبابه في القاهرة بالروائح الأكثر حلاوة في سنواته الافغانية والباكستانية . كان الاثاث متواضعاً لكن ينم عن ذوق مرهف . وكان ببغاء أصفر وأخضر يتنقل هنا وهناك . رجل وسيم ذو قلب سريع العطب لكن محاط بهالة من الهدوء ـ

« كانت حياتي سعيدة جداً ، وأنا انتظر الموت من دون قلق » ـ ، كان راوول كوربيل ، المحال الى التقاعد منذ ثلاث سنوات ، لا يزال يتردد لأجل التسلية على مكتبه في المكتبة الوطنية ، حيث يهتم بمجموعات المداليات الشرقية . كان يخصص كذلك خمس ساعات يومياً لدراسة الكيمياء الحياتية .

أما هنري فيذبل في دفيئته في الزمالك .

كان في الماضي ولداً جميلاً مرتب الشعر « على طريقة أولاد الملك ادوار » ، بيضاوي الوجه ، ذا فم رائع الجمال ، نظرته جدية ومتأملة ، لابساً مثل بورجوازي كبير شاب من نوبي أو باسيّ . وقد طالت قامة المراهق كثيراً ولم تسمن ابداً ؛ أُصيب بتقوّس لم يشْفَ منه طيلة حياته ، ووضع نظارات ، وكان يحمل معه هيئة عابسة تزيلها فجأة بسمة مشعة .
بسمة هنري كوربيل . هذه البسمة سوف يحتفظ بها على امتداد حياته . البعض سيقولون : « كان يبتسم ، ويحس الناظر إليه بأن نفسه تذوب . ابتسامة تجول فيها شهامته ، ولطفه اللا متناهي . كانت لا تُقاوَم . » وسيقول الآخرون ، وكانوا يحبونه أيضاً : « كانت لديه هذه البسمة المغيظة ، الآسرة ، التي كان يقذفها في وجهك حين لا تكون متفقاً معه . كان هذا هو الجانب الذي يشبه فيه شخصية الكاهن ، قلبه على كفه لكن رأسه بارد ، وكنت تحس تماماً بأنه يمارس سحره عليك . » الحانقون كلهم تقريباً رجال ؛ أما النساء فيذُبْن . وهو يتفق معهن .
وقد بدأ ذلك منذ بلغ السادسة عشرة . أما راوول ، الأقل تحسساً بجاذبية الجنس الأخر ، فكان يغتاظ إذ يرى أخاه الأصغر منه يحتكر الهاتف للثرثرة على مدى ساعات مع جمهور من الآنسات اللواتي ينزههن على خطوط السير المزدوجة لبطاقة الحب . وكانت الأم ، زفيرا ، تحس بالقلق الشديد ، تحت هاجس السابقة المشؤومة التي كان يمثلها ماكس الماجن . وكان الوالد ، الطيب القلب ، يرفع اصبعه ويدمدم : «أحِبَّهن كلهن لكن لا تحبب أياً منهن » . كان يخشى الارتباط . وكان هنري يجرجر ربطة خيوط . بذلك ، كان أقل ما يكون تفاخراً ، نقيض الجندي في سلاح الخيّالة . كان يحب أن يَفْتُن النساء وأن يغزينه . في أغلب الأحيان كان ينبغي اغتصابه قليلاً . وبما أنه قاوم أحياناً ، فسرعان ما تضخمت الاشاعة ولاحقته حتى القبر : « هنري كوربيل ؟ لكنه كان عاجزاً ! » الرجال يطرحون البداهة بهدوء ، دون ان يجعلوا منها قصة ، وتتطلع اليك نساؤهم بعينين ثرثارتين . كان يحبهن جميعهن . كان ثمة بينه وبينهن معاهدة عدم اعتداء في حين كان محترساً مع الرجال ـ ما عدا الشباب . من المؤكد انه كانت لديه صداقات مع رجال ، ومن نوع نادر . كانت تنصهر على نار العمل ، وتغدو كما لو كانت محتومة ، لكن اللقاء الأول غالباً ما كان يترك الآخر محبطاً . اما مع النساء ، فكان التفاهم فورياً ، وكلياً ، ونهائياً ، وكان توافق القلوب يبقى دائماً على قيد الحياة بعد رياضة الأجساد .

كان العمل في المصرف أكد مخاوفه الأكثر سوءاً : كان منفرّاً ومثيراً للضجر . وكان يقوم من جانبه بما هو ضروري وحسب . أما أفضل ما لديه من وقت فكان يخصصه للقراءة وللبنات . وبما أنه كان شديد الشغف بـ البحث عن الزمن الضائع ، فإن بعض الآنسات اللواتي لم يكنَّ يطلبن منه الكثير ـ رأين انفسهن يقمن حصراً بنشاطات عملية بروستية* بصدد الغياب ، والغيرة ، وتقلبات الهوى ، وفقاً لسيناريوات يُخرجها هنري . كن يجدنه معقداً بشكل رائع ، مَرَضانياً بصورة ممتعة ، كان استشهاده المصرفي يؤثر في القلوب وكنَّ يتأثرن لسرعة عطبه : لما كان يكثر من أخذ المقويات والعقاقير المخدِّرة ، كان يبدو دائماً على حافة الانكسار . وكانت أجمل خبيباته تلقبه بـ « الليلكة المصعوقة » . كان عمره عشرين عاماً .

بعد ذلك بثلاث سنوات ، أدى حادث صحي أصيب به ـ داء الجنب ـ إلى اطلاق سراحه . كان مهدداً بالسل ، فأرسله أهله يتنشق هواء سافوا ؛ وقد أقام أيضاً في المكان الجميل الذي كانت تمتلكه في الواز عمته وايل ـ كورييل . كان الأطباء قد وصفوا له عاماً من الراحة . والأهم أن دانييل ، الذي كان لا شك يعي أنه يسبب البؤس لولده الأصغر بحصره قبل الأوان في المصرف ، اذن له بأن يستقر في باريس في نهاية نقاهته كي يستأنف هناك دروسه الجامعية .

مرَّ عام وجاءت ميونيخ ـ في ايلول 1938 . فتلقى راوول وهنري أمراً من والدهما بالعودة الى القاهرة حيث يجدان الملجأ . إلا أن العاصفة التي كانت تهب في أوروبا سوف يصل هبوبها حتى جزيرة الزمالك .

*
* *

لم تكن قدما راوول وطئتا أرض مصر منذ عام 1933 ؛ وكان الأهل والأقارب يلتقون في باريس حين يقصدها آل كورييل كل عام . كان في سن الخامسة والعشرين ولم يُكن يتصور مستقبلاً آخر غير متابعة دروسه العزيزة . ولا بد أن القرار الأبوي بإدخاله المصرف مع هنري ازعجه كثيراً لا سيما أنه تطور للغاية منذ وصوله الى فرنسا . حين كان في صف البروفيه ، في سن الخامسة عشرة ، كان قد تسجل في جمعية أصدقاء الاتحاد السوفياتي . وكان يطرح بذلك فعلاً بعيداً عن الامتثالية . لقد قرأ كثيراً بصدد الماركسية ، لكنه كان يقرأ حول كل شيء . وفي

* نسبة الى الروائي الفرنسي مارسيل بروست (م) .

باريس ، التزم نهائياً . فوصوله تطابق مع استيلاء هتلر على السلطة . في العام التالي ، انهزمت روابط أقصى اليمين الفرنسية بفارق قليل ، في 6 شباط . ثم قامت الجبهة الشعبيـة ، وتبعتها الحرب الاسبانية ، فالانشلوس . اختار راوول كورييل معسكره وبات عضواً في اتحاد الطلاب الاشتراكيين . واقترب من الشيوعيين بعد قرار ليون بلوم عدم التدخل الى جانب الجمهوريين الاسبان . وقد جاء ابن خاله ريمون اغيون ، الأصغر منه بسبع سنوات ، لدراسة الطبـابة في بـاريس : انخرط في الـطريق السياسي ذاتـه ، واعجب بتروتسكي ، ونـاضل في المجمـوعـة الاشتراكية الميالة إلى اليسار بقيادة مارسو بيفير ، حيث وجد بجانبه اندريه وايل كورييل ، وهو ابن عم له .

حين عاد الشقيقان الى الحظيرة ، وجداها متغيرة . كانت البورجوازية اليهودية قلقة على فـرنسا ، المحـاطة من جهـات ثـلاث ببلدان كليـانيـة . بـوجـه خـاص ، فـإن صعـود هتلر والاضطهادات العرقية الأولى كانت تعني كل يهـودي ، وإن كان مصـرفياً في القـاهرة ومـالكاً في الزمالك. فالفاشية كـانت تقرع في الأخـير أبـواب مصر لأن موسـوليني كان في ليبيـا واستولى على أثيوبيا .

كان راوول كورييل وريمون أغيون تابعا في باريس التعبئـة الكثيفة في صفـوف المثقفين المعادين للفاشية . فقررا أن يصدرا في القاهـرة جريـدة اسبوعيـة تستلهم جريـدة **فانـدرودي** Vendredi أو جريدة **ماريان** . وقد انضم اليهما الشاعر السوريالي جورج حنين صديق اندريه بريتون ، بالاضافة الى الرسامين رمسيس يونان وكامل التلمساني ، وبعض المصريين المتأوربين الآخرين . وقد اختاروا كاسم لها **دون كيشوت** ، احتراماً لذكرى غـابرييـل آلومـار ، السفير السابق لأسبانيا الجمهورية في القاهرة ، وهو شخص خارق يجمع الى ثقافة نادرة كرماً لا حدود لـه (تم دفنه في احتفـال فخم ، ونعشه مغـطى بالعلم الجمهـوري الذي كـان عقـده حـول جسمه وهو يغادر السفارة) . وقـد بات هنـري كوريـيـل عضواً في هيئـة التحريـر . وأقيمت حفلة راقصة كبرى بمناسبة إطلاق الجريدة ، في أقبية محـامي الملك فاروق ، الأستـاذ ألوني ، الذي كانت ابنته ليديا ، إحدى المؤتمنات على أسرار هنري ، عضواً هي الأخرى في الهيئـة . وقد حقق العمل نجاحاً باهراً لكن ألقت عليه الظلال خيبة أمل مالية : جرى تكليف راوول كورييل بالاهتمام بالبار ، الذي كانت مداخيله ستؤمّن تمويل الجريـدة . لكن عند الفجـر ، كان الصندوق فارغاً . ذلك ان راوول الذي يقيم علاقة صعبة دائماً مع المال ، لم يتمكن من مطالبة الحضور بالدفع مقابل ما يستهلكونه .

قـدَّمت **دون كيشوت** نفسهـا للقارىء عـلى أنها « اسبوعيـة بإدارة شبـاب » (الجريـدة المذكورة لن تعمر اكثر من ستـة اشهر) . وفي الـواقع فـإن الزاويـة المهمة المتعلقـة بالسيـاسة

الدولية ، كانت تحت اشراف ريمون اغيون ، ابن التسعة عشر عاماً . (إذا قرأنا افتتاحيات الفتى بعد مرور قرابة نصف قرن ، نجد أنها تصمد بصورة عجيبة . كانت تحليلاته تتناول ما هو جوهري ، ولقد برهنت الأحداث على صحة توقعاته . . .) وكان جورج حنين ، المكلل بهالات صداقاته السوريالية ، يشرف على الصفحات الأدبية ، التي كانت نوعيتها بديهية . في تشرين الثاني 1939 ، كانت الكتب الأربعة التي نُصِح بها القارىء هي التالية : **Au château d'Argol** لجوليان غراك ، و **Les Javanais** لجان مالاكيه ، و **Le Mur** لجان بول سارتر ، و **S'il est minuit dans le siècle** لفيكتور سيرج. ولم يكن ذلك حكماً سيئاً ، طبعاً ، يمكن ان نقدر ، في نظرة لاحقة ، أن الدونكيشوتيين الشباب في القاهرة كانوا ينخدعون احياناً بطواحين الهواء . فحين نشر جورج حنين مقالاً بالغ العنف بعنوان « بصدد بعض السفلة » ، وأنهاه باستشهاد من رونيه شار : « لا أمزح مع الخنازير » (تلت ذلك مساجلة واسعة على اعمدة الصحيفة) ، يدهشنا ان نكتشف ان السفلة ـ الخنازير هم لافونتين ولابروبير « وأمثالهما » . لكن « الاسبوعية التي يديرها شباب » لا تحصر نفسها في تصفية الحسابات الأدبية . واذا كان ثمة تعريج على السياسة الداخلية المصرية ، بصورة يخالط فيها الحذر الاحترام ، فإن المقاربة ذات البعد الانساني تتيح معالجة بعض المشكلات الاجتماعية . هكذا ينضم الفريق للحملة التي اطلقها الأب عيروت ، وهو يسوعي صدامي ، عملاق ملتح يجوب الأرياف غارساً في كل مكان اساتذة مدارس وممرضات (كان قد جنّد ليديا ألوني منذ الخامسة عشرة من عمرها ، مسبباً الضرر لأهلها ، ومصطحباً إياها في العطل المدرسية في غزواته للصعيد المصري ؛ كانا يسافران على ظهر حمار ، وينامان على القش في الأكواخ الفلاحية . تمَّ تكليف ليديا بتصوير بؤس الشعب ، كي يحرك العرض السنوي لكليشيهاتها ، في القاهرة ، لواعج القلوب ، ويؤمن الأموال اللازمة) . موضوعة من موضوعات الريف : « خمسة قروش يومياً ، الحد الأدنى الحيوي للفلاح المصري لتمييزه عن الحيوانات الأليفة التي يعيش وسطها » . كان يتم استئجار الرجل آنذاك بثلاثة قروش ونصف ، بينما يستأجرون الحمار بأربعة قروش .

كان هناك مقال واحد لهنري كورييل في الأعداد التي وصلتنا . مقال قصير ، وسطحي ، وينطوي على تحذير . كنا ننتظر من « الليلكة المصعوقة » تمريناً معقداً من النقد الأدبي او احدى تلك القصائد التي كان يلقيها بواسطة الهاتف على مسمع من صديقاته الجميلات . يبدأ المقال باستشهاد غير مألوف من صحيفتين قاهريتين ، **La Caravane** ، و **La Bourse égyptienne** ، لم يكن قراء دون كيشوت يهتمون بهما .

أعلنت La caravane ضرورة اخضاع شركة تدفع لمستخدميها بالكثير من الأريحية ، لـ« اشراف وصي قضائي » . أما La Bourse égyptienne فتطالب بحق التنظيم للصناعيين ،

وتنكره على العمال الذين تعرِّض مطالبهم الاقتصاد المصري للخطر . كتب هنري كورييل : « ما ينقص مصر كي تتقدم صناعتها بسرعة اكبر ، ليس الرساميل ولا المواد الأولية ولا المبادرات الخاصة، بل يد عاملة متخصصة . والحال انه طالما ستبقى مهنة العامل جحيماً ، فسيبقى المجبرون على ممارسة تلك المهنة على حالهم . لكن اعطوهم اجراً محترماً يحسّن وضعهم ، وأوقات فراغ تتيح لهم أن يستريحوا ويتثقفوا ، ومسكناً يكونون بمنجى فيه من الحشرات والأوبئة ، وعندئذ سيكون في متناول الصناعة أيدٍ حاذقة وقوية تنمّي في آن معاً مردودها وأسواقها » . وبالطبع فإن الخاتمة مكتوبة لقراء دون كيشوت ، الذين يمكن ان تصدمهم هذه المعالجة التجريبية لواقع كريه : « لا يفترضنَّ احد من الطريقة الهادئة التي اكتب بها أن استيائي أقلّ من استياء كل الشرفاء » هذا لا يمنع أن يكون هنري كورييل الذي سنعرفه فيما بعد قد بدأ يظهر في هذا المقال الصغير ، بقدرته على الذهاب الى ما هو جوهري ـ في الحالة التي نحن هنا بصددها ، الى علاقات الانتاج ـ وقدرته الديالكتيكية على وضع نفسه على أرض الخصم ـ هنا ازدهار الاقتصاد المصري ـ كي يبرهن ان الوسائل المنادى بها تعاكس الغاية التي تجري ملاحقتها رسمياً .

مقال واحد ، وهو مقال لا علاقة له بلهجة الجريدة . وفي الواقع فسرعان ما ضجر هنري كورييل من دون كيشوت . كانت تهمّه نزعة اتّباع الطبيعة قدر ما تهمّه السياسة . دعا الى التحكم بالجسد ، وغدا نباتياً متطرفاً ، وراح يمارس السباحة والتنس ، ويُنهك نفسه في مسيرات طويلة عبر الصحراء . يرتدي سروالاً قصيراً وصِداراً ، ويمضي حافياً رابطاً قدميه بسيور ؛ وهي طريقة مضحكة في ذلك العصر ، لا سيما في بيئته ، وتخاطر بإثارة الهزء حين يكون الأمر يتعلق بذلك الهيكل النحيل (خمسون كلغ في حالة قامة تصل الى متر و 82 سنتم) ؛ قد يقال إننا أمام فزّاعة . إلا أن نزعة اتّباع الطبيعة لا تعني التقشف .

لقد التاعت زفيرا وهي ترى ولدها الأصغر ينخرط في الطريق الجهنمي الذي سبقه اليه العم ماكس . كان هنري يرتبط برفيق له في الفحش من اصل يوناني ، هو جورج جوانيدس . كان هذا قد تابع دروساً في جراحة الأسنان في باريس لكنه فضل لدى عودته الى القاهرة ان يستعيد ملهى **Le Tabarin** ، الذي كانت تديره أمه ، وحيث تزدهر أعمال الساقيات والعواهر . وقد عشق هنري رومانية ، وباتت راقصة في نادي الكيت كات ، وقد بقي ينفق عليها طيلة سنتين . راح يتردد على مواخير القاهرة وتوصل حتى الى استئجار بيت سري ليكون مقراً لهيئة تحرير دون كيشوت . وقد هال ذلك والدة ليديا ألوني ، فجاءت تنتزعها من المكان بالكثير من العجب وتمنعها من أن تعود اليه مرة ثانية . كان هنري يدعو اصدقاءه لاصطحابه في

نزهاته الماخورية بحجة ان العاهرات هن بالنسبة للبورجوازيين أقصر الطرق الى امتلاك الوعي السياسي . بالتوازي مع ذلك ، كان يعظ البنات طوال ساعات ويحرضهن على الخروج من وضعهن كأدوات جنسية . لقد تغلب دوستويفسكي على بروست. لكن ليديا ، الرومانية ، التي اقتنعت ، تخلت في الواقع عن حياة العاهرات ، وغادرت مصر الى فرنسا ، لتعمل فيها بعد في مقر قيادة الـ **SHAPE** في فونتينبلو [سوف يبقى المشهّرون بهنري كورييل جاهلين هذا التفصيل ولن يقفوا عنده كمؤشر الى انتمائه للشرطة السرية السوفياتية (الكا.جي.بي)] ، ثم تشتغل في الأخير عاملة هاتف في فندق باريسي كبير . وقد ظل هنري كورييل يراها حتى اغتياله .

في ذلك الحين التقى روزيت العجم . صغيرة القامة ، سمراء ، بعينين سوداوين وحادتين ، ومظهر لائق جداً مع شيء ما عنيد في التعبير ، وقد كانت تسافر اكثر منه . حتى المراهقة ، درست في الليسيه الفرنسي ، وكانت تقيم صيفاً في لابوربول ولابول ، حيث كانت شديدة الضجر . حصلت على الباكالوريا في باريس ، ثم أقامت عاماً في لندن ، في نزل عائلي مخصص للشبان والشابات الأغنياء ، بهدف تحسين لغتها الانكليزية . ثم عادت الى القاهرة وحصلت على اجازة في الآداب في الجامعة الأميركية . ووقعت مريضة ، فاكتشف الأطباء « فقداناً لشهوة الطعام بسبب الافراط في ممارسة الرياضة » . بقيت ثمانية أشهر في المستشفى وتم تشخيص حالة سل لديها . فأرسلها أهلها الى سويسرا . ولدى عودتها ، تسجلت في مدرسة صغيرة للممرضات .

كان لديها إحساس بالخطأ . فالمصريون الوحيدون الذين عرفتهم كانوا خدم أهلها ، وكانت ترى أنهم يعاملونهم معاملة قاسية . كانت والدتها شخصاً طيباً مع ذلك ، لكنها كانت تتعامل مع الخدم وفقاً للقواعد الرائجة في بيئتها . كانت روزيت تحتج عبثاً وتغلق على نفسها للبكاء . وقد كانت مهنة التمريض تتيح لها ان تنكب على البؤس المصري . وبعد عام من الدراسة عملت مجاناً في مستشفى بابايوهانو . وقد لمحت هنري للمرة الأولى في حفلة شاي أقامتها صديقة لها : « رأيت شاباً كبير القامة وهزيلاً بحيث قلت في نفسي : « المسكين ، كم يبدو مريضاً » . أما هو فلم يوجّه لي الكلام . في كل حال ، لم يكن يكلم أحداً ، وكان المرء يشعر بأنه شديد الضجر . وقد وجدت ذلك غير لطيف من جانبه . ولم أكن أفكر برؤيته مجدداً لكن صديقتي كانت تهتم كثيراً به وخابرتني لتسألني تدبير موعد . وهكذا عدنا فالتقينا نحن الثلاثة في نادي البريدج والبينغ بونغ الخاص بي ، كان ذلك نادياً اوروبياً ينتمي اعضاؤه المصريون النادرون الى البورجوازية الكبرى . وقد خاب امل صديقتي لأن هنري لم يُبْدِ أي اهتمام بها . وعدنا فرأينا الواحد الآخر في النادي مرة اخرى . في تلك الفترة كان يقرأ كثيراً

حول الماركسية . كان اخوه راوول هو الذي دفعه للشغف بدراسة الماركسية . فراوول كان اكثر تسيّساً منه بكثير . ثم سرعان ما وقع مريضاً ، بمرض قريب من السل . فلقد كان يعيش بصورة تفتقر الى التعقل ، منهكاً نفسه بتمارين رياضية وبالخروج كل ليلة مع صديقه اليوناني . وصف له الأطباء إبر الكلس ، وكان هو يمقت الحقن بالابر . الا أني نجحت في اقناعه بأن يأتي لرؤيتي كل يوم في المستشفى كي أحقنه بالدواء . وكان المستشفى المشار اليه رهيباً ، ففيه يرى المرء ماذا يعني بؤس البشر . وكان هذا البؤس قد هزني بعمق . ولقد قررنا ان نمضي للاعتناء بالفلاحين الذين يعملون في أرض آل كورييل ، وهي ملكية كبرى تبلغ حوالي المئة هكتار على بعد خمسين كم من القاهرة . مئة هكتار في دلتا النيل شيء بالغ الضخامة. فالكثير من العائلات كانت تعيش على آرين او ثلاثة . ذهبنا إذن بواسطة السيارة مع ليترات من قطرة العيون وصناديق من الأدوية . كان تشخيص الأمراض سهلاً : فإما التراخوما او البلهارسيا . كل الناس تقريباً كانوا يعانون من امراض العيون وكنا نوزع القطرة . وكانت البلهارسيا تعيث هي الأخرى فساداً . وهو مرض تنقله طفيليات تكثر في قنوات الري : يمكن القول انه ما كان بوسع فلاح ان يفلت منه . هكذا امضينا اياماً كثيرة ونحن نعتني بالناس ، الذين كانوا يبدون الكثير من العرفان بالجميل تجاهنا ، لكنني كنت احس أنهم يتضايقون من وجود هنري . مهما يكن ، فهو يبقى بالنسبة اليهم ابن صاحب العمل . اما والده ، دانييل كورييل ، فكان غاضباً منه . فهو كان قادراً على الكثير من الطيبة ، وكان يعطي بكرمٍ لأعمال البر اليهودية ، لكن بالنسبة للفلاحين المصريين فذلك كان شيئاً آخر . لم يكن الناس في بيئته ينظرون بعين الرضا الى الاهتمام بهؤلاء . لا بل لم يكن يتبادر ذلك الى الذهن . كان والد هنري ينظر الى زياراتنا لمزرعته بالكثير من الاستياء، معتبراً إياها دليلاً على الانعدام التام للفروق .

« استمرت تلك الزيارات اشهراً ، ثم قرر هنري التوقف عنها . كنا منسحقين إزاء المفارقة بين البؤس الذي نلقاه والأدوية البائسة التي نأتي بها . لم تكن تلك هي الطريقة الفضلى ، وكان ينبغي قلب الأمور رأساً على عقب ، وعدم الاكتفاء بجلب القطرة . لقد قرر الانخراط في العمل السياسي ، الطريقة الوحيدة ليكون المرء فعالاً . لكنه لم ينس ابداً ما اكتشفناه في أكواخ الفلاحين . يمكنني القول انه لم يتعاف من الصدمة التي اصيب بها وهو يكتشف البؤس المصري » .

*

* *

الصدمة .
ما يتبع ينبغي طبعه بالأحمر .
الأحمر بلون الدم .
الأحمر بلون النار .

كان عيروت إبناً لمتعهد اشغال عامة في القاهرة . في احد الأيام ، وكان في الخامسة عشرة من عمره ، رأى في إحدى ورش والده رئيس عمال يقتل ولداً لم يكن يعمل بالسرعة المطلوبة . فهرب من مصر في اليوم ذاته ، ومضى الى عند اليسوعيين في بيروت ، حيث دخل الرهبنة ، ليعود بعد ذلك بخمسة عشر عاماً ويكرس نفسه للفلاحين .

يقول مارسيل اسرائيل ، رفيق النضال فيما بعد لهنري كورييل : « كان والدي يملك مصنع حلج للقطن . وقد اجبرته مشاكل مالية على بيعه ، لكنه بقي فيه كموظف كبير . كان العمال في معظمهم أولاد فلاحين تتراوح اعمارهم بين سبعة اعوام وثلاثة عشر عاماً . وكانوا يعملون ست عشرة ساعة يومياً . هذا كان يحدث في الثلاثينيات . حين ذهبت الى المصنع ، رأيت رؤساء العمال ، مسلحين بالسياط ، يتمشون بين الآلات ويضربون الأولاد ليجعلوهم يزيدون سرعتهم . كان رؤساء العمال هؤلاء ، ذوو الأصل الأوروبي ، يضعون أقنعة ليحموا أنفسهم من الغبار الخانق ، بينما لم يكن بحوزة الأولاد شيء من ذلك . وحين سألت لماذا ، أجبت : « إنهم عرب » . كان الأولاد ، القادمون من الريف ، يسكنون غرفاً يتكدسون فيها بمعدل خمسين الى ستين . وكان ثلثهم يصابون بالسل ويموتون خلال العام . انطلاقاً من هذا المصنع ، وبسببه ، اخترت الشيوعية » .

ريمون اغيون : « حين فتحنا اعيننا على بؤس الناس الذي لا يصدَّق ، ولا يسمَّى ، لم يكن ثمة غير موقفين ممكنين : إما القبول بهذا النظام ، بالأعمال وبالمال ؛ وإما التحول الى ثوريين » . بعد ان حاز على الباكالوريا في السابعة عشرة ، مضى لدراسة الطب في باريس ، ناوياً ان يقيم ، لدى عودته ، في قرية ما يعتني فيها بالفلاحين . وقد بقي شقيقه جان في الاسكندرية ، وأنشأ معمل زجاج حيث سيكتشف اندريه وايل ـ كورييل عام 1945 اطفالاً في الثامنة من العمر ينفخون عجينة الزجاج .

بالنسبة لديدار روسانو ، انكشف الهول في شارع مألوف . لقد مرت في العديد من المرار أمام الخرقة البشرية المسترخية في مدخل احد المباني ، ولن تعرف أبداً لماذا اقتربت منها في احد الأيام . كانت الحرارة الرطبة تثير جنون الذباب ، الذي راح يتزاحم على الرجل خائر

القوى ، وفي محجريه ، ولا سيما على ساقيه : « كانت ساقاه ممددتين امامه ، كما لو كانتا مطروحتين . كنت اراهما ، منتفختين ، متورمتين ، مزرقتين ، ومهترئتين في بعض الأمكنة » . وكان الذباب يتكاثر في الجراح . شعرت ديدار بأنها على وشك ان يغمى عليها . « إزاء هكذا مشهد ، لا مكان للشفقة . فاما أن يدفعك القلق الى الهرب من الجحيم وشتم الانسان ، وإما يقودك التمرد الى أن تقرر بأنه لا شيء أهمّ من قلب النظام الذي يوصل الى هكذا انحطاط بشري » . ولقد اختارت ديدار الحل الثاني ، ولن تبدّل موقفها ابداً .

جوزف هازان : « أنهيت دراستي في معهد الزراعة في غرينيون . ولدى عودتي ، دخلت في التسليف العقاري . كنت أكسب مئة ليرة شهرياً ؛ بينما كان زملائي المصريون يكسبون عشر ليرات ، حسناً ، لم يكونوا درسوا إلا في المدرسة المصرية ، التي لم تكن مدرسة غرينيون . لكن ابنة عمي البائعة في احد المخازن ، كانت تكسب ست عشرة ليرة ، بينما كانت زميلاتها المصريات يكسبن عن العمل ذاته أربع ليرات . ثم جرى تعييني مديراً تقنياً عاماً لإحدى ملكيات عائلة أنييلي ـ مصانع فيات . الف هكتار في الفيّوم ، أي في القسم الأكثر خصباً من ارض مصر . كان عمري واحداً وعشرين عاماً » .

« في اليوم الأول ، رأيت حشداً صغيراً من مئتي شخص يحيط بهم حراس يحملون بنادق لوبل من آخر طراز. سألت كبير المراقبين: « لكن من هم هؤلاء الناس ؛ وماذا ينتظرون ؟ فأجابني : هنا ، يجري استئجار العمال مياومة . كم عاملاً تريد ؟ وقد كانت خطة عملي تلحظ الحاجة الى 30 عاملاً زراعياً . فمضى على امتداد الصف وهو يضرب بعصاه على كتف من يختارهم : « أنت تبقى » أما الآخرون فذهبوا يائسين . كان انطباعي أنني حكمت عليهم . فكان العامل يشتغل بمعدل يومين أو ثلاثة في الأسبوع ، وكان يقبض في الفيوم قرشين ونصفاً . والليرة تساوي مئة قرش . لقد أرعبني ذلك . حاولت ان انفخ خطط عملي ، لكن كان هناك دائماً مرشحون يبقون في الانتظار لا بل استثمرت الصحراء ما فوق حدود ملكية أنييلي من اجل اعطاء عمل اكثر بقليل! غرسنا هكذا أشجار زيتون لم تكن تدين بشيء لأحد . . . في احدى المرار ، اخبروني بأن ثوراً مربوطاً الى محراث كسر عموده الفقري : كانت السكة قد احتجزتها صخرة . فأمرت بذبحه وتوزيع لحمه على العمال . واعتقدت أني أُحسن صنعاً . لكن كلا . فلقد حسم اصحاب العمل ثمن اللحم من أجر العمال . وراحت النساء يصحن من اليأس. هكذا كانت الأمور بالنسبة لكل شيء . كانوا يدفعون للعمال قمحاً تالفاً ، ومسوّساً . كان الكتبة يسرقونهم دون ان يتجرأوا على الاحتجاج . وبما أن الطعام كان يقتصر على الخبز والملح ، كانوا يعرِّضون أنفسهم احياناً للقتل ببنادق الحراس وهم يحاولون سرقة البصل . كانوا بحاجة فيزيولوجية الى الفيتامينات التي يتضمنها البصل . كانت عائلة الفلاح

تأكل اللحم اربع مرات في العام تقريباً . لم يكونوا يموتون جوعاً لأن التضامن فيما بينهم كان خارقاً ، لكن الأوبئة كانت تعيث فساداً . رأيت الملاريا تقضي على قرى بأسرها . وكان 95% من الفلاحين مصابين بالبلهارسيا . أما امراض العينين فكانت مخيفة . كانت مصر تضرب قصب السبق في عدد العميان ـ قصب سبقها الوحيد . وكان معدل الحياة 27 عاماً ، دون حسبان الأطفال الذين يموتون في عامهم الأول . وقد كانت نسبة الموت بين الأطفال تصل الى ما يقارب الثلث . طفل على ثلاثة .

« هذه الأرقام ، ليست في رأسي فقط . لقد وضعتها مصر في قلبي ، وفي بطني » .

هل هذا واضح ؟

شبان شبيهون بالشبان الذين يقرأون في باريس مالرو ونيزان وجيد الرواح والمجيء ، ويدورون حول الماركسية ، وينظرون نظرة حائرة الى موسكو ، وتخرطهم في السياسة التعبئة ضد الفاشية . جيل بكامله . شبان القاهرة يفكرون بأنهم أوروبيون ، وتجعلهم سذاجتهم يعتقدون بأنهم مصريون : إعادة ترتيب الأمور ، في هذا الحقل ، تؤجَّل الى وقت لاحق . ان ما يميز جمهور « المصريين الأجانب » عن الجيش المناضل الكبير الذي يلتحقون به عشية الحرب العالمية الثانية ، إنما هو كونهم ولدوا من احشاء ما لا يسمّى الى الآن في العالم الثالث ، في نظام انتاج يحقق ، بوقاحة لا تضاهى ، الشروط القصوى لاستغلال الانسان بيد الانسان . انه كونهم تلقوا ، مثل صفعة كشف الشرط اللاانساني للمهانين والمذلولين . وهو كشف غير مجرد ، غير مأخوذ من كتاب عقائدي ، غير مستنتج من حساب لفائض القيمة ، لكنه كشف فيزيائي ، حشوي ، متنفِّس في الرائحة الكريهة للسيقان المهترئة لمصاب بعاهة ، ومرئي في النظرات العمياء ، ملموس في الوقت الذي تُلمس فيه العِقد الدرنية للفلاحين ، مسموع في انين الأطفال الطويل الذي تغطيه قعقعة محالج القطن . لا يذهبون الى السياسة وفقاً لمسار ثقافي : يندفعون نحوها بفعل تحويل ـ دفع لكل الكينونة ، « هذه الأرقام ، ليست في رأسي فقط ، لقد وضعتها مصر في قلبي ، وفي بطني » .

وهي لا تزال هناك الى الآن .

إذا كنتم تريدون فهم حياة هنري كورييل ، عليكم أن تضيئوا كل فصل منها بجملة صديقه جوزف هازان : « لم ينس يوماً أن بؤس الشعب المصري هو الذي قاده الى السياسة » . لقد أشعل في نفسه شعلة لن تنطفىء أبداً .

****

في 13 تشرين الثاني 1979 ، أي بعد مرور 18 شهراً على اغتيال هنري كورييل ، أخذت المفرزة الجنائية للمرة الأولى إفادة السيدة ل. ، وهي جرّاحة أسنان .

وقد كان ذلك بمبادرة من السّيّدة المذكورة . كان المحقّقون استجوبوا 127 شخصاً يسكنون شارعي رولين ومونج ، لكنهم لم يقرعوا باب السيدة ل. ، جارة آل كورييل في الطابق الثامن من المبنى . هنالك حالات من نكد الطالع هذا .

كانت إفادتها مثيرة لكن غريبة بعض الشيء .

لم تكن تحادثت أبداً مع هنري كورييل . كان يبدو لها « رجلاً هادئاً ، كثير التكتم ، لطيفاً للغاية ، باسماً » . كانت تتذكر بصورة غامضة أنها قرأت قبل مصرعه مقالاً يصفه بأنه « رجل سياسة يساري ذو نشاطات متعددة بعضها جرى اعتبار أنه قد يكون خطراً على امن فرنسا » . وربما تكون سمعت ذلك على التلفزيون ؟ لم تعد تتذكر . اعترفت قائلة : « تبدو ذاكرتي ضعيفة بعض الأحيان ، لا سيما حين يتعلق الأمر بوقائع لا تهمّني اطلاقاً » . هذا الاعتراف يضع السيدة ل. في عداد فئة الشهود النموذجيين الذين يشددون على شكوكهم اكثر مما على ما هم متيقنون منه . يبقى ان نوافذها تطل على قاعة جلوس آل كورييل ، وانها كانت تراهما يعيشان حياة وادعة ، وأصيبت بالدهشة عندما علمت عبر الصحافة أن هنري كورييل كان رجلاً « كثير الانشغال والنشاط » .

بعد ظهر يوم الجريمة ، كانت اصطحبت ولديها الى حديقة اللوكسمبورغ ، ثم أخذتهما الى بيت والدتها . وعادوا ثلاثتهم الى شارع رولين لأجل العشاء ، لكن في ساعة متأخرة . ولقد صدمها اعلان حدوث الجريمة لأنها كانت تعتبر هنري كورييل « انساناً طيباً » .

كانت إفادتها تتعلق بزيارة تعود الى الوراء سنوات عديدة . ولم يكن في وسعها تحديد التاريخ . كان رجل طلب منها موعداً بواسطة الهاتف ، وقد دعته للمجيء الى عيادتها ، في شارع كرولبارب . فحضر زائران ، وأعلنا انهما ينتميان الى الـ DST وأبرزا بطاقتي رجلي شرطة . « وسألني أحدهما بناء على وضع مسكني في البناء رقم 4 ، شارع رولين ، إذا كان بامكاني السماح لهما بوضع جهاز لديّ » . لم يحددا طبيعة الجهاز ، ولا الهدف منه . تولد لدى السيدة ل. انطباع بأن محاورها يريد أن يقول أقلّ شيء ممكن بصدده ، في حين يحاول تطمينها : سيبقى كل شيء قيد الكتمان ولن ينتج عن ذلك أي سوء . وقد فكرت بأن الأمر يتعلق دون شك بكشف جهاز إرسال غير شرعي . كان المبنى رقم 4 يشرف على كل الحي . ولما كانت حائرة فقد طلبت مهلة للتفكير . وترك لها زائراها اسميهما ، اللذين نسيتهما ، ورقمي هاتف ومركز يمكنها الاتصال بهما عليهما . وقد خابرتهما بعد أيام وأعطتهما جواباً سلبياً .

« لم يكن محاوري مسروراً ، وقد أظهر الكثير من خيبة الأمل ؛ وسألني ألا أتحدث بالأمر لأي كان » .

القصة قديمة ، والسيدة ل. شددت على ضعف ذاكرتها : « أنا لا اتذكر التآريخ والأحداث التي لا تهمني شخصياً ، أمحوها من ذاكرتي » . ومن البديهي أن هذه الزيارة الفريدة لم تثر اهتمامها في حينها وليست أكيدة من كونها تجدها اليوم اكثر إثارة للاهتمام . لا بل إن السيدة ل. غير قادرة على التأكيد بأن المسعى قد حصل بعد وصول آل كورييل الى المبنى ، بحيث أن علاقته المحتملة باغتيال هنري كورييل تبقى جد افتراضية .

هذا مختلط .

لكن السيدة ل . تترك مجالاً لأمل ضئيل : في تلك الفترة ، سجلت على مفكرتها الرقمين اللذين اعطاها اياهما زائراها . ربما لم تَرْمِ المفكرة . . . سوف تسعى جهدها كي تجدها .

وبفعل واحد من تلك الخطوط المذهلة التي تعوض من المآسي البوليسية ، عثرت السيدة ل . على المفكرة . تمت الزيارة في تشرين الثاني 1972 ، بعد ستة أشهر من استقرار آل كورييل في الشقة المجاورة . كان احد الزائرَيْن المفتش راي Rey ، رقم الهاتف 2652830 ، المركز 3454 أو 3455. والثاني دولاك ، مركزه 3450 . وقد كتبت السيدة ل . ما يلي : « يتعلق الأمر بتركيز مضخّم ؟ مرحِّل*في شارع رولين ؟ ولقد خابرت لأقول لا . لم يُطلب مني اي توضيح بعد رفضي . فقط : أنت تحتفظين بسر ـ وأنا أثق بك ـ يجب عدم البوح به » . أنهت السيدة ل . ملاحظاتها بثلاث نقاط استفهام . كان هناك سبب لذلك .

إن لمفاجأة المفكرة التي تمّ العثور عليها فضيلة إخراج مدير الـ DST من الغابة ، أي من الـ « دفع بالسرية » الذي يتحصن فيه كلما أبدى احد القضاة فضولاً طائشاً بصدد مصلحته ، فقد أعطى ، حين تم استجوابه كتابة بعد ستة أشهر من إعطاء السيدة ل . إفادتها ، أعطى رداً كتابياً أعلن فيه أنه لم يكن في صفوف الـ DST في تلك الفترة شخص باسم دولاك ، لكن في شهر تشرين الثاني 1972 ، كان يخدم لديها مفتش باسم راي ، وكان يمكن الاتصال به على الرقم 2652830 ، والمركز 3454 . هذا كل شيء . هذا كثير . أية مفكرة عجائبية تجترح معجزة جعل عنقاء سوسي Saussaies تتكلم !

---

* أداة لنقل برنامج إذاعي من محطة بقوة اكبر (م) .

لكن راي مرض وغادر الخدمة في أول تموز 1973 ومذاك طلب احالته الى تقاعد قبل الأوان ، واستجيب لطلبه .

وقد جرى الاستماع لإفادته ، بإنابة قضائية من جانب القاضي المكلف بملف كورييل ، في المدينة بالجنوب الشرقي ، حيث يقيم بصورة مؤقتة . وقد أخذت إفادته بعد عام على افشاآت السيدة ل. : لا يمكن القول ان السيد راي قد أُخذ على حين غرة . هكذا تسير العدالة، بطيئة وذات جلال .

السيد راي شاهد لذيذ لكن مخيّب للآمال . وهو يجهل السيدة ل . ولا يتذكر أنه زارها يوماً . مع أنه ولد في باريس وأمضى في هذه المدينة كل حياته النشيطة ، فهو يجيب بصدد شارع لودرو ـ رولين حين يجري الكلام معه بصدد شارع رولين . تصدر عنه جملة مثيرة للاضطراب : « ان الوصف المعطى للمفتشين لا يبدو لي أنه يتطابق مع هيئتنا العامة ، وفي كل الأحوال لا يتطابق مع هيئتي أنا » . والحال ان السيدة ل . قالت عن زائريها : « كان الأول رجلاً في الخمسين ، كبير القامة ، ممشوقاً ، ذا شعر أشيب ، يلبس مشمعاً ويضع على رأسه قبعة . أما الثاني ، فأتذكر بصورة مشوشة أنه ربما كان في السن ذاته ، ويرتدي بالطريقة نفسها ، دون ان يكون بوسعي ان أوضح اكثر من ذلك ، ما عدا أن أحد الرجلين كانت عيناه فاتحتين » . في سن الخمسين : كان عمر السيد راي آنذاك 49 عاماً . واذا كان لا يتعرف الى نفسه في أي من الوصفين ، فحسب ما يشير اليه لأنه « كانت القبعة قد الغيت منذ وقت طويل قبل ذلك الحين » . ويوضح بصورة مضحكة : « بما أنني لم أتدخل ، لا يمكنني أن أحدد لكم اسم الزميل الذي كان يرافقني وشهرته » . لكنه خلص الى القول ، بعقل سليم ، إن اسمي دولاك وراي منتشران الى درجة ان « أياً كان يمكن ان يقدم نفسه ضمن هذه الشروط على انه من رجال الـ DST ، مهما تكن المصلحة او المنظمة الفرنسية او الأجنبية التي يمكن ان ينتسب اليها » .

وهذا كلام بديهي . لذا جرى اقفال القضية ، مع أنه كان يمكن تصور المسعى البسيط المتمثل بأن يقدَّم للسيدة ل. ، صورة على الأقل للسيد راي تعود لعام 1972 ، إذا لم نقل السيد راي شخصياً . فالأمر يتعلق بعد كل شيء بجريمة دموية .

يخرج السيد راي .

يبقى الهاتف .

لأنه من غير الممكن الالتفاف على الواقع المتمثل بأن السيدة ل . خابرت بواسطة الهاتف

الرقم والمركز المشار اليهما ، اللذين يتبعان الـ DST . ينبغي التسليم بأنها لم تجد السيد راي على الطرف الآخر لخط الهاتف لأن هذا الأخير لا يتذكر شيئاً من ذلك ، لكن من البديهي انها تحدثت مع موظف من الـ DST ، فلو أن هذا الشخص لم يكن على اطّلاع على الموضوع لما كان ابدى دهشة واهتماماً ، لأنه معروف في الـ DST اكثر مما في أي مكان آخر ، أن وضع جهاز تنصت في مسكن خاص امر غير مشروع اطلاقاً . لقد لفت السيد راي النظر ، بحق ، الى ان عملاء مصلحة اجنبية يمكن ان يدّعوا انهم اعضاء في الـ DST اثناء انجازهم عملهم المشؤوم : وهذا سبب اضافي كي يأخذ موظف في هذه المصلحة حذره حين يعلم ان غشاشين تصرفوا بهذه الطريقة . كان من المفترض فتح تحقيق في هكذا حال ، وهو ما لم يحصل بتاتاً . لم يكن من الضروري فتح هذا التحقيق طالما نعرف ان محاور السيدة ل . كان على علم تام بالموضوع ، وأبدى انزعاجه حين علم برفضها وطلب منها الاحتفاظ بالكتمان .

*

* *

بعد اثني عشر عاماً على تلك الوقائع ، وبعد خمس سنوات على أول استماع للسيدة ل . ، وبعد ثلاث سنوات على انتخاب فرانسوا ميتران رئيساً للجمهورية ، اعترفت الـ DST بأنها حاولت عام 1972 أن تركز جهاز تنصت يتيح تسجيل الأحاديث التي تدور لدى هنري وروزيت كورييل . وأكدت أن فشل هذه المحاولة ثناها عن تكرارها ، وأن الميكرو ـ اذا كان ثمة ميكرو ـ الذي وُضع في ستوديو جويس بلو لم يتمّ وضعه بواسطة اختصاصييها .

* * * *

الجميع عرفوا الصدمة البارقة للقاء مع البؤس المصري . كانت بالنسبة لمعظمهم شرارة انبثقت من قراآتهم . لا يمكن فهم تلك من دون هذه . وإذا كان لكتاب كل هذه السلطة عليهم ، فلأن كل فقرة مزينة بالواقع المحيط . هكذا فإن النظريةَ الماركسية المتعلقة باستخلاص فائض القيمة الرأسمالي تُستوعَبُ بسهولة في بلد غالباً ما يؤجر فيه الملاكون الاقطاعيون الكبار الأرض مقابل الحصول على نصف المحصول . وعموماً ، يكفي ان يضع المرء كتابه جانباً ويفتح شباكه ليرى كيف يعمل الاستغلال على مستوى من الفعالية نادراً ما يجد

له مثيلاً . ان ماركس معاصر يقرأونه في الحاضر لأنهم يعيشون في مجتمع من القرن التاسع عشر (في الوقت ذاته يفتح الطالب الفرنسي المنبثق من البورجوازية **البيان الشيوعي** أو **رأس المال** في حين تمر تحت نافذته المركبات المرحة لأولى العطلات المدفوعة) .

لم يكن الكتابُ الموجِّهُ ماركسياً بالضرورة، ولا حتى سياسياً . فلقد بدأ مارسيل اسرائيل بتولستوي : « غدوت من انصار تولستوي شديدي التعصب . فكتاب **الحرب والسلام** قرأته عشر مرات على الأقل . كان في وسعي ان أتلو عن ظهر قلب صفحات بكاملها . انطلاقاً منه ، أثار الروس اهتمامي ، ووجدت في مكان ما كتاباً لبوخارين ، **المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية** ، وعندئذ حدث الكشف ، والحماس ، وشعرت ان لي جناحين . مذاك لم أعد أتوقف عن قراءة الكتب الماركسية » .

ريمون اسطمبولي : « كما الحال كل صيف ، ذهبنا الى دمشق ، ومن هناك الى لبنان . كان ذلك في 38 -39 ، وكان عمري آنذاك 13 سنة . التقيت أرمنياً مكتهلاً ـ في الأربعينات من عمره ـ عضواً في الحزب الشيوعي اللبناني سألني : « هل قرأت **L'Espoir** ؟ فأجبته : ـ كلا ، ما هذا الكتاب ؟ فتابع : « إنه نتاج واحد حاز على جائزة غونكور في باريس » . وقد حوّله إلي وقرأناه معاً . والحقيقة انني صُدمت ببعض الفظاظات ، لكن هذه القراءة كانت الشرارة الأولى » .

اكتشف هيلل شوارتز الماركسية في الليسيه في كتاب كوفيلييه ، التوراة الفلسفية لكل الطلاب الثانويين . يتحدث كوفيلييه عن ماركس بالكثير من الايجاز ، وذلك لدحضه باستمرار . لكن الشاب هيلل يشتمُّ أن شبكة فك الرموز الماركسية تحل رموز المجتمع المصري بدقة مذهلة . وقد راح يجوب المكتبات بحثاً عن الكتب الماركسية . وكان يوجد بعض منها احياناً تحت مجلات الجنس .

كان شحاته هارون يلعب بالورق مع عصابته من المحتفلين الفرحين (« كنت اعيش حياة بلهاء . حانات الليل ، والقمار ، والبنات ») وقد دخل صديقه دافيد ناحوم الى الغرفة ، عاقد الحاجبين ، متأبطاً كتاباً ضخماً . قال شحاته : « عذراً ، أنت ترى أننا نلعب دق بوكر » . إلا أن الآخر واجهه بالكثير من الاحتقار ، مادًّا إليه الكتاب وهو يقول : « خذ ، اقرأ هذا » . كان الكتاب مجموعة من نصوص لينين .

البر أرييه : « كنت في الثانية عشرة من العمر حين أخذتني اختي الكبرى (كانت بدأت تتردد على بيت هنري كورييل) الى مركز ثقافي اكتشفت فيه الكتاب الذي غيّر مجرى حياتي :

الأم لغوركي . وهي صدمة لا تُنسى . اتذكر من مقدمة فيكتور مارغريت : « هذا الكتاب هو انجيل روسيا الجديدة » . وقد حفظت هذه المقدمة عن ظهر قلب . جعل غوركي قلبي يخفق بشدة للاتحاد السوفياتي . ولقد استحصلت على كل الكتب المتوفرة ـ والجزء الأكبر منها بفضل كورييل » .

بخصوص الجميلة ديدار روسانو ، المراهقة الصعبة ، فهي لم تتقدم للباكالوريا وكانت تحس بالضجر وهي تحسب الأوراق المالية من الصباح الى المساء في المصرف الوطني حيث أدخلها والدها . كانت على علاقة عاطفية مع رونيه فارفارا ، الايطالي المناهض للفاشية ، الذي كان ماراً بالقاهرة . قبيل ان يعود الأخير الى الاسكندرية حيث يقيم ، سلمها رزمة من الأوراق وقال لها : « عليك ان تقرئي هذه الأشياء » . كان الأمر يتعلق بمحاضرات مطبوعة على الرونيو حول المادية التاريخية . « تولَّد لديَّ الانطباع بأن كل ما كان يحيط بي وجد تفسيراً له . بدا لي كل شيء وقد غدا بسيطاً . أتذكر أني حين كنت اقرأ تلك المحاضرات، كنت اهتف بلا انقطاع : « كم هذا صحيح ! كم هذا واضح » كان ذلك شيئاً يشبه الانبهار » . ختمت تلك القراءة بالنسبة اليها زمن الشك ، والبحث ، والاستفهامات . وهي لن تضع بعد ذلك موقع الشك ما تكشف لها في سن التاسعة عشرة .

مع ذلك فما واحد منهم سيغدو دكتورا في الماركسية ـ ويسري على هنري كورييل في هذا المجال ما يسري على الآخرين . لقد كتب ماكسيم رودنسون ، وهو صديق قديم لهنري كورييل : « لقد كان عقلاً سريع التصديق بعض الشيء . كوَّن أفكاراً بسيطة في صباه ، اصبحت مبرر حياته ، وهو لم يرد إعادة النظر فيها . لم يهتم هنري يوماً بالنظرية الماركسية . وفضلاً عن ذلك لم يفهم شيئاً منها . كان نموذج المناضل . كان من مستوى فوق الوسط وكانت بساطة استدلاله توراتية . فمن جهة ، ثمة الخير ، والشر في الجهة الأخرى . في رأيي أنه قرأ لينين فقط . فحتى ماركس كان شديد التجريد بالنسبة اليه » .

إن ماكسيم رودنسون ، الذي يعرف النظرية الماركسية بصورة ممتازة ، والذي لن يغتاله ، ولله الحمد ، أحد لا يعطي غير تفسير نصفي . اذا كان صحيحاً أن ماركس كان شديد التجريد (اذا لم يكن بالنسبة لكورييل ، فبالنسبة لبعض الآخرين ، على الأقل) ، فليس أقل صحة أن مصر كانت ملموسة جداً . فهي لا تستفهم ، كما يقولون اليوم : إنها تصرخ طالبة النجدة . لذا يسمعونها في عمر تكون فيه الأذن المراهقة ، في العادة، متنصتة لنداءات أقل درامية . كلهم تقريباً كان لهم من العمر أقل من عشرين عاماً حين انخرطوا في السياسة . عام 1939، كان هنري كورييل ، البالغ آنذاك الخامسة والعشرين من العمر ، يبدو

كما لو انه مسنّ (سوف ينادونه « أبونا » بسبب الجانب اليسوعي فيه لكن كذلك بسبب عمره) . ان نضجاً مبكراً بهذه الندرة ، مرتبطاً بذلك الشعور بالالحاح، كان لا بد أن يَنْفَذَ الى الحاجة للفعل . لقد كانوا يقرأون الماركسية في كتاب مفتوح هو المشهد الاجتماعي المعروض امامهم . وهو مشهد اكثر تعقيداً مما كانوا يعتقدون ، وسوف يكشف عند الحاجة بعض الثغرات في جسم المذهب الماركسي ـ اللينيني ، لكنه مشهد ذو بساطة توراتية ـ حسب تعبير رودنسون ـ. بالنسبة لمن يجيئه والثورة تعتمل في قلبه . « الشر ، من جهة ، والخير من الجهة الأخرى ؟» هذا التحديد لا يعطي صورة دقيقة عن مصر ، حيث الشر يهيمن تماما على الحاضر في حين يتأجل الخير للمستقبل .

سؤال واحد مقبول : « ما العمل ؟ » .

كان الجواب المعقول هو الانضمام للحزب الشيوعي المصري ، لكن لم يعد ثمة حزب شيوعي مصري .

*

* *

كان قد أسس هذا الحزب ثلاثة رجال في عام 1920. وكانت أصولهم متباينة ، كما ان أقدارهم لن تكون أقلَّ تبايناً . فالجوهري جوزف روزانتال سوف يتعرض للطرد بسبب انحراف يميني . وحسني العُرابي ، مندوب الحزب الى الكومنترن ، سوف يمزق بطاقته ويغدو في الأخير عميلاً نازياً . أما المحامي انطون مارون ، أول أمين عام ، فسيموت في سجن مصري عام 1924. وقد اختفى الحزب في العام نفسه دون ان يكون بلغ تعداده ـ كما يبدو ـ الألف عضو . إن تاريخ الشيوعية في شبابها لا ينطوي الا على امثلة قليلة لفشل محزن الى هذه الدرجة في بلد ، كمصر، يقدم هذا القدر من الامكانات .

ثمة ثابتةٌ بالنسبة لشيوعيي عام 1920 وخلفائهم المحتملين : إنها الحضور الانكليزي . ان مصر (« البلد الأهم ») هي احد محاور الاستراتيجية البريطانية وليس وارداً بالنسبة للندن السماح بأن تنمو على ضفاف قناة السويس ، وهي شريان امبراطوري حيوي ، بؤرة ثورية ، لا سيما اذا كانت موسكو هي التي تغذيها . لقد ساعدت الأجهزة البريطانية على القمع بكل قوتها وتجربتها . فعلت ذلك بحذق ، وخفيةً ، بحيث لاتعرّض سمعة شريكاتها المصريات ، لكن في الوقت ذاته الذي تعرف فيه ان تقدم ، عند الاقتضاء ، دعمها الحاسم . هكذا

فبمبادرة من اجهزة الأمن البريطانية جرى تكوين رجال الشرطة المصريين، الأكثر وعداً ، في العواصم الأجنبية ، من اجل مكافحة البلشفية . وبفضلها كان هؤلاء الرجال بالذات ، الذين بلغوا مراكز القيادة ، يستفيدون سراً من كل المعلومات النافعة في النضال المعادي للشيوعية .

هكذا كانت الشرطة السياسية المصرية ، على مستويين . ففي القاعدة ، ملاك يشارك في التخلف العام ، جمهور من الشجعان ذوي الأجور المتدنية والفطين الذين يثيرون مرح ظرفاء القاهرة ومثقفيها ، بإيقاف المسافرين في القطارات الذين يقرأون داروين بحجة ان الاسم شبيه باسم لينين وستالين . وفي القمة هيئة أركان ضليعة بتقنيات الاستعلام ، والاختراق والمناورة .

لكن الحزب الشيوعي الذي اسسه رواد عام 1920 كان يعاني من مرض طفولي كافٍ للحكم عليه : لقد كان ثمانون بالمئة من المنتسبين اليه ينتمون الى الجماعات الأجنبية ، من يهود ويونانيين وأرمن . كان اختراق حاسم يتيح النفاذ الى السكان الأصليين بعيداً عن الترجيح ضمن تلك الشروط : حفنة فقط من الشيوعيين كانت تتكلم العربية . . إن الحيّز السياسي ، غير المحدود نظرياً ، بقي في الواقع ضيقاً . كان يستقطب الجماهير الريفية في مصر حزب الوفد ، الحزب القومي القدير المنبثق من « وفد » عام 1918. واذا لم يكن بعض العناصر يجدون ما يرضيهم في الوفد ، فلقد كانوا يذهبون شطر القوميين المتشددين او المتطرفين الدينيين ، وليس باتجاه عناصر اجنبية آتية من جماعات منحتها سلطة الاحتلال امتيازات .

أما سكان المدن ، الذين اكتسحهم التضخم ، فقد عانوا بعد عام 1918 من ذيول المزاحمة الدولية التي قضت على اجزاءٍ بكاملها من الاقتصاد بالافلاس . كان معظم العمال يشتغلون اثني عشرة ساعة في اليوم مقابل اجر بائس . وقد كانت الاضرابات كثيرة وعنيفة ، ومنتصرة احياناً ، يجري تحطيمها في الغالب بواسطة نيران القمع المجرمة ، الا أنها اضرابات مشتتة على الدوام ، أقرب الى « الانفعالات الشعبية » في نظامنا القديم مما الى الهجومات النقابية المعاصرة . كان الجزء الأكبر من الأيدي العاملة في المصانع لا يزال عميق التأثر بأصوله الفلاحية ولم يرتفع بعد الى الوعي الطبقي . وحيث كانت توجد تقاليد عمالية وروح قتالية (مصانع التبغ ، النقليات العامة ، النسيج) كان تكاثر النقابات يحدّ من فعاليتها . كان مؤتمرٌ متوقعٌ حدوثه في تشرين الأول عام 1925 (حظرته الحكومة) سيضم قرابة سبعمئة مندوب يمثلون اكثر من مئة نقابة مجموع اعضائها سبعون ألفاً .

ان الشيوعيين ، كأقلية فاعلة ، لم يكونوا قادرين في أي من الأوقات على الضغط على الحركة المطلبية ، فكيف على الإشراف عليها . لقد كان القمع الحكومي يعرف كيف يعزلهم ، على طريق شلهم وتحييدهم .

وثمة عائق أخير ، ربما يكـون الأشد خـطراً : كان الحـزب قد عـزل نفسه بنفسـه عبر التطبيق الدقيق لاستراتيجية الجبهة الطبقية . كان بـرنامجـه يطالب بجـلاء الجيش الانكليزي وبحصول البلد على الاستقلال التام . وكان يلتقي في ذلك مع الهدف الذي أكدّه الوفد . لكن هذا التماثل على صعيد الهدف لم يكن ينبغي في نظر الحزب أن يخفف من نضال « حزب الطبقة العاملة » ضد « البورجوازية الوطنيـة » . وكان في ذلـك بخس لتقديـر قوة الشعـور الوطني. فبالنسبة للشعب ، كانت الأولوية المطلقة لمطلب الاستقلال ، وإذ كان الحزب الشيوعي يعطي الأولوية للنضال الطبقي ، كان يقطع نفسه عن الجماهير ، لا سيما أن الأصل الأجنبي للغالبية العظمى من اعضائه كان يعرضه للشبهة .

في تموز 1924 ، جرى قمع إضراب عام قمعاً وحشياً ، لا سيما في الاسكندرية . وصلت الى السلطة حكومة وفدية برئاسة البطل الوطني ، سعد زغلول ، وضربت الى اليسار . جرى توقيف كل القياديين الشيوعيين والحكم عليهم . وبعد ذلك بعام ، استكملت حكومـة يمينية عملية التصفية . تم توقيف الكوادر ، وحظر المنشورات . وفي خريف عام 1925، كان الحزب الشيوعي المصري قد توقف عن الوجود .

أما موسكو ، رابطة الجأش ، فتجاهلت الواقع المحـزن تجاهـلاً تامـاً . كان كـل مؤتمر للكومنترن يوجّه للحزب المتوفّى تعليمات من الطموح بحيث لم يكن لديها أي حظ بأن تتلقى بداية تطبيق . هكذا كان يؤمر بالانتقال الى الهجوم على الـوفد ، « الحـركة الغـدارة القوميـة المزيفة » . كان الوفد يشمل مصر ؛ أما الشيوعيون فلم يكونوا أكثر من مئة ، أو ربما مئتين ، متوزعين بين القاهرة والاسكندرية ، معزولين بعضهم عن البعض الآخر ، محـرومين من أيـة إمكانية عمل .

بذل الكومنترن جهده كي يسد الفراغ . في عـام 1925 فتحت شركـة تجاريـة روسية ـ تركية ، بادارة اميركي ، مكاتب لها في القاهرة . وبعد عامين ، أسس مواطن سوفياتي وشيوعي الماني في الاسكندرية شركـة تكستيل إيجـورت . وقد عمـدت السلطات المصريـة ، بناء عـلى نصائح في محلها ، إلى اتخاذ قرارات بالطرد بعد أعمال اقتفاء للأثر طويلة ومثمرة .

عام 1928 ، عيّن الكرملين اميناً عاماً مصرياً مكلّفاً بإحياء الحزب المتحول الى مومياء . وقد طمأنت تقاريره مـوسكو : كـان ، حسب هذه التقـارير ، يستقـطب الأعضاء بكثـافة ، ويغرس خلايا عبر أنحاء البلاد ، ويُعِدّ لنشر جريدة سرية . كل ذلـك كان يتـطلب أموالاً ؛ ولقد حصل على تلك الأموال . واختفى الأمين العام معها ؛ أما الشرطة المصرية ، التي كان عميلاً لها ، فقبضت على بعض المنتسبين المصابين بالذهول . وفي عام 1934 رفـع المشعل من

جديد شيوعي سوري دخل مصر خلسة . وقد أدّت نشاطاته الى القبض على أربعين مناضلاً نجوا مَن أعمال اقتفاء الأثر السابقة فكفّت موسكو عن الالحاح .

في الكومنترن ، كان ينضاف للملف المصري الأسود عنصر بقي سرياً : لقد اختفى العديد من المبعوثين السريين إلى القاهرة دون أن يتركوا أثراً . وهو أمر يصعب نسيانه . بالنسبة للأممية ، كانت رائحة خيانة كريهة تنتشر فوق مصر .

*

* *

في يوم من الأيام ، قرر كل من راوول كورييل ، وروزيت ، وريمون أغيون ، ومارسيل اسرائيل(كان هنري يعيش مرحلة الكيت كات) أنهم الحزب الشيوعي المصري . كان ذلك مؤثراً ، إلا أنه بقي حبراً على ورق .

وراحت تتكوّن حلقات دراسات ماركسية ، وتنفرط ، لتتكوّن من جديد ، على هوى التجانسات . تحليل للنصوص المتوفرة ، عروض ، نقاشات لا تنتهي . وكان ذلك يولّد الانطباع بالدوران في الفراغ . إرادة محمومة بإيجاد مخرج يتيح النفاذ إلى العمل الملموس ، وسخط لأن يجد المرء نفسه في الوسط ذاته ، العصبة الصغيرة ذاتها على الدوام ، في هذا الصالون البورجوازي أو ذاك في القاهرة . ليس هذا جدّياً . كل واحد يعيش انخراطه في السياسة بالكثير من الرصانة ويغتاظ لرؤية الآخرين في حالة طيش غير مقبول . لكنهم يخرجون جميعاً من القالب نفسه ، وما ينكرونه لدى الآخرين ، إنما هو انعكاس صورتهم هم .

لقد خلق مارسيل اسرائيل فريق الدراسات الخاص به . ثم دعا هنري كورييل للانضمام . الا أن كورييل ، الذي هالته« العصبوية » ، و« ضيق المفاهيم » ، سرعان ما مضى مودِّعاً . وحين أسس هنري حلقته الخاصة به ، هو وراوول وريمون اغيون وروزيت ، دعا الشاب هيلل شوارتز . ولقد صُعِق شوارتز أمام مارآه من روح الهواية : « كانت عينا روزيت مطليتين بالمساحيق ، وهو ما صدمني كثيراً . إذ ليس ثمة انسجام في نظري بين التجمل والشيوعية . وكانت غابي ، امرأة ريمون أغيون ، أسوأ أيضاً . كانت متجملة بصورة مهينة ، وترتدي فساتين بالغة القصر . وكانت تجلس مصلّبة ساقيها ، وتنورتها مرفوعة كثيراً ، ثم كانت تبدأ بتقليم أظافرها . وبين حين وآخر ، كانت تأتي متأخرة أو لا تأتي اطلاقاً ، ثم تعتذر قائلة ان ذلك بسبب حلاقها أو خياطتها . وكنا هناك لدراسة الماركسية ! وحين كنت أعنِّف غابي ، كانت تجيب : « ليست الماركسية في التضييق على النفس » . ولقد لقيت هذه الصيغة

الكثير من النجاح فيما بيننا . في كل حال ، كانت غابي فتاة محبوبة جداً . أما المكسب الوحيد ، فكان تمكني من الوصول إلى مجموعة من الكتب . ولقد قرأت بالكثير من النَّهم . لكنني لم أكن متفقاً مع تركيزهم على النظرية المجردة ، وكانت نزعة الهواية لديهم تثير سخطي . هكذا انصرفت بعد مرور ثلاثة أشهر وأنا أقول في نفسي : « ينبغي فعل شيء ما . »

لكن ماذا ؟

القيام بالحج لدى الكبار الذين ثمة من يهمس سراً بأنهم شاركوا في المغامرة التي باتت اسطورية ، الخاصة بالحزب الميت . يرفع بائع الاسفنج اليوناني ياناكاكيس حاجبين مذعورين ويقول : « أنا شيوعي ؟ هذا استفزاز ؟ . » (سوف يكشف فيما بعد انضمامه للحزب اليوناني واستحالة حصول انتماء مزدوج) . أحد القدامى يستقبل الوفد برفق ويوافق على استئناف العمل شرط ضمان منصب الأمين العام . والآخرون مستعدون للنضال من جديد لكن ليس لديهم ما يقدمونه غير استعدادهم : لا يملكون أية بنية ، وليس لديهم أي اتصال بالخارج ، ولا وسائل تأثير على الداخل .

فتحت إصابة مارسيل اسرائيل بالربو باباً غير متوقع أمامه (كان هذا الربو أغلق دونه باب الفرق الأممية التي سبق أن تطوّع للانخراط فيها) . فلقد مضى إلى لبنان للنقاهة ، وارتبط بعلاقة صداقة مع نقولا الشاوي ، الأمين العام لاحقاً للحزب الشيوعي اللبناني ، وكان رجلاً مرموقاً . ونظم الشاوي فيما بعد لقاء سرياً مع مسؤول الكومنترن للشرق الأوسط ، الأرمني ميدويان . فرسم له اسرائيل لوحة عن الغليان في القاهرة ، وازدهار حلقات الدراسات الماركسية والرغبة العامة في الانتقال إلى العمل الملموس . استمع اليه ميدويان وسأل : « ولكن المصريين . . . اين هم المصريون ؟ » (جملة مخيفة ، وسؤال ظالم ، حتى وإن كان مبرَّراً ، لم يَخْلُصْ إلى أن يدوّي في آذانهم ! من هو إذن ، مارسيل اسرائيل ؟ وهنري كورييل ، الذي ترتاح عظام أجداده منذ قرن ونصف في أرض مصر ؟) ولقد خلص ميدويان إلى القول : « واجبك الأول هو أن تحتك بالجماهير المصرية وتكوّن كوادر . » ولقد كانت النصيحة في موقعها ؛ ولم يكن ينقص غير طريقة استخدام .

بانتظار اندماج إشكالي في الجماهير المصرية ، كان الانفتاح الوحيد يمر بأجانب ـ بعض الفرنسيين وسويسريين . الأولون ، وكانوا أساتذة في ليسيه القاهرة ، كانوا أعضاء شبه رسميين ، إلى هذا الحد أو ذاك ، في الحزب الشيوعي الفرنسي . بفضل ميزة بشرية استثنائية (لقد قيل : إن الارسالية العلمانية الفرنسية كانت تجمع نخبة في العادة) ، وبفضل الهيبة التي كانت تمنحهم إياها جنسيتهم ، وتجربة حقيقية ورؤية سياسية لا تقف عند ضواحي القاهرة ،

فلقد كان تأثيرهم عميقاً . كانوا منبِّهي وعي ، ومقدمي نصوص ، وموزعي أوكسيجين حين كان الانعزال في الغيتو الأوروبي يهدد بإضعاف الشعلة السياسية لتلامذتهم القدامى .

كان جاكو ـ ديكومب ، الشيوعي ، قد أسس الرابطة السلمية ذات الارتباط بحركة امستردام ـ بلاييل . الجميع مروا في وقت أو في آخر بالرابطة السلمية ؛ لكن القليلين بقوا فيها . كان المستوى الفكري مرتفعاً ؛ وكان النقاش السياسي ينفتح انفتاحاً واسعاً على الأحداث العالمية ؛ لكن عيب الرابطة أنها لم تكن تضم في صفوفها غير عربي مصري واحد . والمدخل الى الجماهير لم يكن ليمر عبرها . عند عودة عضو لجنة الرابطة ، مارسيل اسرائيل ، من بيروت ، أبلغ جاكو ـ ديكومب بنصائح رجل الكومنترن . يقول اسرائيل : « كان الجواب واضحاً وفظاً : « هنا نهتم فقط بالنضال من أجل السلام » . ولقد أحسست بالاحباط . مع ذلك كان بول جاكو ـ ديكومب شيوعياً حقيقياً ، لكنه كان شديد الحذر ـ مفرطاً في الحذر . لم يكن في وسعه أن ينسى خيانة الأمين العام للحزب التي أدت الى توقيف العشرات من المناضلين . كان هذا هاجسه . وكان يؤدي الى عصبوية كلية ، وإلى استشباه غير معقول . كنت على احتكاك بمجموعته من الايطاليين المعادين للفاشية وقد اقترحتُ أن ينضموا الى الرابطة . إلا أن جاكو ديكومب رفض ذلك . كان يرى عملاء استفزازيين في كل مكان . كان بوانتيه بالنسبة اليه شرطياً خطراً ـ بوانتيه ! »

جورج بوانتيه ، الرجل الأساسي .

كان شيوعياً سويسرياً ، عضواً في حزب الشغل السويسري ، وكان استاذاً في مدرسة الشرطة المصرية . وكان عمره البالغ 35 عاماً يجعل منه أخاً أكبر يفيض تجربة . كان يميل الى الطول ، كستنائي الشعر ، وكان حيوياً ، حاراً ، جذاباً ، مغرياً ، ذا شغف بالنساء يعسِّره حب عظيم لمدرِّسة فرنسية في القاهرة ، هي مارغريت فويو ، كانت ساكنة معه في نزل عائلي متواضع بادارة روسي أبيض . يقول راوول كورييل ، الذي كان صديقه الحميم ، قبل هنري : « كان يحرك الناس والأشياء » . بصفته أجنبياً ، كان قد فهم الضرورة الحاسمة لـ « التمصير » ، وانشأ هو وزملاؤه وتلامذته العرب حلقة ماركسية كان يبذل جهده فيها لاظهار فائدة مقارَبَةٍ تجريبية للمشكلات .

كان تأثيره على هنري كورييل حاسماً . لم يحتج لأن ينفث فيه تذوّق العمل ، لكنه أضفى الشرعية بصورةٍ ما على ميلٍ تلقائي لدى هنري كان بعض أصدقائه يصفونه بأنه انحراف انتهازي : تجميع أكبر عدد ممكن حول اهداف بسيطة وتعبوية . يقول راوول كورييل : « كنا متقوقعين داخل النظرية . نتكلم على الانتقال الى الممارسة لكن لا نفعل ذلك ابداً .

بفضل بوانتيه كان هنري بين أوائل من فهموا ، إذا لم يكن أول من فهم ، ضرورة الانطلاق الى العمل وامكانية ذلك. كان بوانتيه رجلاً عملياً ، قريباً جداً من الواقع . كان يشعر تماماً بكل ما في وسعه أن يعمله في مصر . إذن ، لماذا الانتظار ؟ وقد عاد عليه ذلك بعداوات فجة وسط الشيوعيين الدوغمائيين ، أولئك الذين كانوا يعتقدون انـه ينبغي حفظ رأس المال غيباً قبل كتابة بيان . بالنسبة لي ـ وبالنسبة لنا جميعاً ـ لا شك في أن بوانتيه هو الذي صنع من هنري شيوعياً . وهنري لم ينسه أبداً . كنا غالباً ما نتحدث عنه وبالكثير من التأثـر دائماً » . وحين استقر هنري في فرنسا، سراً ، عام 1952 ، كان أول اسم مستعار اتخذه هو بوانتيه ، اكراماً لذكرى صديقه المتوفى .

شيوعيون ،لكن من دون حزب . نوادٍ ، وحلقات ، ومنتديات دراسة ، في غيـاب أية منـظمة ذات بنيـان للقيـام بـالعمـل السيـاسي . المصريـون ، بـالغـو النـدرة ، ينتمـون إلى الانتلليجنسيا ؛ والكثيرون منهم في الحركة السوريالية وقد تطوروا فيها بعد نحو التروتسكية . أما الآخرون فأحياناً يونانيون أو ايطاليون ، وسرعان ما جعلهم النزاع العالمي يعيدون تـركيز اهتمامهم بوطنهم الأم . والباقون ـ الغالبية الساحقة ـ يخرجون من الطائفة اليهودية المصرية ، وللمزيد من الدقة من البورجوازيـة المنعزلـة في الحي المسمى الحي الأوروبي . كم عددهم ؟ تصعب الاجـابة . لا شـك أنهم بالعشـرات . أقلية ضئيلة جـداً حتى ضمن جماعتهم ، التي باتت أقلية بالغة الضآلة في مصر . لقد قال ريمون أغيون : « ثمة موقفان ممكنان : إما القبول بالنظام ـ الأعمال والمال ـ أو التحول إلى ثوريين . » لا مفر من الخيار . هل ننخرط في الحياة السياسية المصرية « العادية » ؟ بات ذلك مستحيلاً عشية الحرب العالمية الثانية . لقد كان الوفد يستقبل في الماضي اليهود ، مانحاً إياهم حتى مناصب وزارية . الا أن تجذر الحركـة الوطنيـة ومزاحمة الأحزاب المتطرفة غيّرا ذلك . وماذا عن الصهيونية ؟ انها تحـاول الانغراس . لا بـل يملك الاتحاد الصهيوني العالمي بيتاً . ومكتبه في شارع سليمان باشا يفيض بمواد الدعاوة . وقد اكتشف فيه جوزف هازان خارطة لاسرائيل القادمة : ينبغي أن تمتد من الفرات الى النيل ، أي تقتطع كل سيناء من مصر . ولقد انصدم هازان قـدر ما ينصـدم فرنسي أمـام خارطـة المانيـة تستعيد الالزاس واللورين . كان الخارج من المكتب معادياً للصهيونية غاضباً . والحاصل أن الحركة الصهيونية لم تحرز أي نجاح لأن يهود مصر لم يكونوا يشعرون إطلاقاً بالحاجة الى ملاذ وطني . ثم ، كـما يقـول ريمـون اسـطمبـولي بصـورة سـاخـرة : « لم نكن نفهم لمـاذا يجعـل الاشكينازيون ، يهود أوروبا الشرقية ، من فلسطين قصة من هذا النوع . بالنسبة الينا ،كانت القدس تعني قطار العاشرة إلا ربعاً في محطة القاهرة. . . » إلا أن الحرب ستبدِّل ذلك .

الحرب ها هنا ، وشيكة ، مع المعاهـدة الجرمـانية ـ السـوفياتيـة كاستهـلال لها . هـذه

المعاهدة لم تثر لدى المبتدئين في القاهرة الاضطراب ذاته الذي أثارته لدى الكثير من المناضلين الفرنسيين الذين تمرسوا بالديالكتيك الستاليني ، لكن لم يكونوا يستطيعون البقاء لا مبالين إزاء واقع أن التوقيعات المتبادلة في موسكو كانت تعني أن الويهر ماخت*، المطمئن لظهره ، سوف تكون يداه طليقتين في الغرب . بالنسبة لبوانتيه وأصدقائه الشباب ، كل شيء كان قد لُعِب في ميونيخ ، حيث عبرت الديمقراطيات الغربية بوضوح عن رفضها قيام تحالف أوروبي واسع ضد النازية . كان ستالين يكتفي بمعاقبتهم عبر حرف اتجاه الصاعقة الهتلرية التي كانت لندن وباريس تودان رؤيتها تنقض عليه . سيكون الوقت المكتسب مفيداً لإعداد الجيش الأحمر للصدمة المحتومة لأنه لم يكن من شك لدى أي من الناس في أن المعاهدة لا توفر غير استراحة مؤقتة للغاية .

من المثير للفضول أن هنري كورييل كان الوحيد الذي لم يوافق على المصافحة بين ريبنتروب* وستالين . دوّت الفيلا في الزمالك بمنازعاته مع راوول ، وكان يصيح في وجهه قائلاً : لكن هيا : علّق إذن صورة ستالين فوق سريرك ! » حتى بوانتيه فشل في جعله يتروّى . كانا على شفير القطيعة . لكن بما أن صديقه قرر مغادرة مصر للانخراط في الجيش الفرنسي (لم يكن يرى في ذلك أي تناقض مع القبول بالمعاهدة ، وكان محقاً في ذلك ، فلقد قرر هو (هنري كورييل) أن يرافقه إلى الاسكندرية في القطار . وهناك ، على رصيف محطة القاهرة ، وسط صخب الجمهور ، ودفقات البخار من القاطرة ، تمكن جورج بوانتيه ، في نهاية مرافعة مؤثرة لا سيما أنه كان يعرف أنها الأخيرة ، تمكن من اقناع هنري بشرعية المعاهدة (يحتفظ من حضروا المشهد بذكرى خيالية له) . تعانق الصديقان . ثم عانق بوانتيه مارغريت فويو محدداً تاريخ زواجهما غداة النصر . لكنه همس في أذن هنري : « أعرف أني سأموت . قل لرفاقي في حزب الشغل إني بقيت مخلصاً حتى النهاية . » (قبل أشهر من اغتيال هنري ، لام نفسه لأنه لم ينقل الرسالة أبداً) . صعد جورج بوانتيه إلى مقطورته ، وفي حين كان القطار يتحرك ، هتف في الشبان الذين كانوا يحيّونه : « سننتصر ! »

وقد لقي مصرعه ، وهو في ثياب القتال الفرنسية ، اثناء إنزال آب 1944 في جنوب فرنسا .

نادراً ما تكون الجريمة السياسية غامضة بنتيجة الافتقار لتفسير ملائم ؛ وهي تصبح

* الويهرماخت : الجيش الألماني . (الناشر) .

* ريبنتروب : وزير خارجية المانيا الهتلرية . (الناشر) .

كذلك دائماً تقريباً بفعل كثرة الحوافز المنسوبة إلى القتلة . ينهال على المتوفّى ، كفرق النحل المزدحمة ، مغامرون ومتخصصون زائغون ومولعون حقيقيون بالأكاذيب ، وسرعان ما يدفن هذيانهم الحقيقة الممكنة تحت فرضيات خرافية متراكمة . هكذا الحال ، وإن بدرجات متنوعة وفي أنواع مختلفة ، مع مقتل كل من جون كينيدي ، ومهدي بن بركة ، وبيار غولدمان ، وجان دو بروغلي .

لم يفلت هنري كورييل من الاسرافات آكلة الجيف . بالكاد كان تم دفنه حين أزهرت الاشاعات على قبره . ويمكن إحصاء حوالي عشر دروب يضيع نصفها في الرمل ، فتحها مكتشفون جسورون لكن رحلتهم قصيرة .

روى صحفي مطرود من اسبوعيتين باريسيتين أن مخبراً أعلمه ، قبل أيام من الاغتيال ، أن مناضلاً يسارياً سوف يلقى حتفه - « شخص يساري ، له علاقة بالكثير من أعمال الخداع ، وبين ما هو على علاقة به لجان الجنود » . وهنري لم يهتم يوماً بلجان الجنود . وحين استجوبت الشرطة الصحفي ، رفض ذكر مصدر معلوماته . الا أنه تم تحديد المخبر . كان قد سافر الى الولايات المتحدة ، حيث كان يعمل لحساب شركة تبيع معدات امنية . وقد عثر عليه مجدداً في طهران اثناء الثورة الخمينية ، في محيط وزير الخارجية ، صادق قطب زادة ، الذي جرى إعدامه بالرصاص . وحين تمّ استجوابه بعد توقيفه في فرنسا بسبب تواطئه في عملية اختلاس مع مدير سابق لل SAC* ، أنكر أن يكون تفوّه بالكلام الذي نُقل عنه . أكد أنه « لم يكن يعرف من الذي قتل كورييل ، لكن قبل مصرعه ، كان مهربو الأسلحة والعملاء السريون يتحدثون عن مقتل كورييل الوشيك » . إن الرجل ، المرتبط بأقصى اليمين في أسبانيا ، ينتمي لفئة مهووسي الاعلام ، وهم الجرح الحقيقي للمحترفين يغمرونهم بعماراتهم الاستشباحية .

جرى ذكر اسم غايتان زامبا . كخليفة لآل غيريني على رأس عصابات مارسيليا ، وكمرتبط بالمافيا الصقلية والاميركية ، ثمة من يزعم انه منفذ صفقة معقودة بين ال **SDECE**** الفرنسية والأمن العسكري الاسباني : مقابل تصفية كورييل تقبل أجهزة الأمن الفرنسية بإغماض عينيها عن اغتيال أعضاء في الايتا*** لاجئين في فرنسا . وقد جاءت كرونولوجيا جنائزية لتعطي هذه الفرضية بعض التماسك . فلقد جرى اغتيال لاجىء اسباني من منطقة الباسك ، في 2تموز 1978 ، أي بعد مرور شهرين على اغتيال كورييل . ثم تبع ذلك اغتيال

* الـSAC احد الأجهزة الأمنية في فرنسا (م)

** مصالح التجسس ومكافحة التجسس الفرنسية (م) .

*** حركة ثورية انفصالية في الباسك باسبانيا (م) .

ستة آخرين في الأشهر التالية . وقد أعلن أربعة قتلة من بوردو ، جرى ايقافهم ومحاكمتهم بسبب واحدة من جرائم الاغتيال تلك ، أنهم « يعملون » لحساب اجهزة الأمن الأسباني ، وبمباركة من اجهزة فرنسية « معروفة جيداً » . وجرى استجواب قاتل آخر ، متهم باغتيال لاجئة ، في دعوى بن بركة بسبب علاقاته بفيغون .

وأعلنت جريدة **لوكو تيديان دو باري** في 30 حزيران 1981 أن اغتيال هنري كورييل تقرر وجرى إعداده في آذار 1978 خلال اجتماع عقد في ليريدا ، بإسبانيا ، شارك فيه ضابط فرنسي ، وعضو في الأجهزة السرية الاسبانية ، والعديد من قدامى منظمة الجيش السري ، وذلك برئاسة غوميز بونيه ، الملقب بـ « العراب » ، الذي اتهم في قضية الاعتداء على الجريدة النقدية الاسبانية إيل بابوس (قتيل وعشرون جريحاً) ، ولكن أعلنت براءته . وقد رأى صاحب مقال **الكوتيديان** ، أن الرجل الأساسي في اغتيال كورييل ، وكان حاضراً الاجتماع ، هو شخص اسمه مارتين ريبونييه ، معروف بـ اينياسبو سوروزا ستيفي . وحين سأل قاضي التحقيق انتربول مدريد حول الموضوع ، أعلن عدم معرفته بوجود هذا الشخص .

وجرى الحديث ايضاً عن « فرقة الموت »التي زعموا أنه شكلها في تارب ، في ايلول 1977 ، ضباط احتياط كانوا يخشون انتصار اليسار في انتخابات 1978 التشريعية . أوضحت لومانيتيه ـ ديمانش ، في مجال كشفها للقضية ، ما يلي : « على رأس هذه الجمعية يوجد فريق أقلّ عدداً (عشرات من الرجال ، كلهم من ضباط الاحتياط) يشكلون « فرقة موت » على الطريقة البرازيلية . قد يكون هؤلاء « كوماندوس دلتا » المشهورين ، الذين استعادوا بكل بساطة هذه التسمية لمنظمة الجيش السري . » لما كان رماة البحرية كثراً في داخل مجموعات دلتا وفقاً للصحفي ، فقد جرى التذكير بشهادة عضو في رابطة الجزائريين في أوروبا كان سمع أحد المحققين يقول ، غداة اغتيال العيد سباعي : « لا جدوى من البحث : هذا أيضاً من فعل رجال البحرية » . يقال إن هنري كورييل كان الثاني على اللائحة السوداء . وفقاً لمعلومات الأسبوعية الشيوعية ، التي استعادتها جريدة **ليبراسيون** وفصلتها ، فإن مغاوير دلتا الجدد جندوا عدداً من متطرفي اليمين الشباب إثر عودتهم من بيروت حيث قاتلوا مع كتائبيي الجميّل . كان النقيب في الدرك بول باريل يعتقد أن كورييل قُتِل على يد متطرفَيْن فرنسيين لدى عودتهما من لبنان .

لم أنجُ من الموجة الكاسحة . لقد قال لي موظف في ال DST لا يمكنني أن أصفه بالمخبر ـ كانت لقاآتنا ، المتباعدة جداً ، حوارات طويلة من جانب واحد ، كان يعرض لي خلالها خيباته المهنية مع إحالات مطنبة إلى درجات الوظيفة العامة ومؤشراتها ـ قال لي يوماً بصورة مفاجئة : « بالنسبة لكورييل ؟ قتله شابان من عندنا . نزيف في المخ . لم يكونا تعافيا من شارع توليبيه

أخذا بندقيتيهـما دون استشارة أحـد . » في 27 حزيـران من عام 1975 ، كـان مفوض في الـ DST ، يـرافقه مفتشـان ودليل لبنـاني ، استجوب في أحـد مسـاكن شـارع تـولييـه ، قـرب البانتيون ، رجـلاً كان الثـلاثة الأوائـل يجهلون أنه كـارلوس . وقـد توفي المفتشـان ، وسقط المفوض مصاباً بجرح خطير ، أما الدليل فتم قتله برصاصة بين عينيه . وقد انضاف إلى ألم الـ DST من جراء فقدها اثنين من رجالها الغضب الشديد بسبب التعليقات التي ترثي لافتقارها الى المهارة : ليست الأجهزة لطيفة فيما بينها . كان لديهـا حساب عليهـا تصفيته . لكن لماذا تصَفّيه بعد ثلاث سنوات على ظهر كورييل ؟ لا شك أن الحملة الصحفية التي اثيرت ضد هذا الأخير كانت تربط بينه وبين كارلوس ، ناشرة صورتيهما الواحدة بجانب الأخرى ، لكن هذه الحملة تعود لعام 1976 بينـما قتل هنـري عام 1978 : لماذا الصبر عـامين قبـل إرواء العطش للانتقام الذي كان ناتجاً ، حسب كلام محدِّثي ، عن « نزيف في المخ » ؟

لم يكن يدري أني اشتغل عـلى القضية . وحـين عرف ذلـك ، غدا يـراوغ . وقد بقي صـامتاً حـين لفتُّ نـظره إلى أن جملتـه حـول المنتقِمَـيْن اللذين « اخـذا بنـدقيتيهـما » تستحق التحليل . لم يكونا قد اخذا أي بندقيتين . كان أحـد السلاحـين قد استخـدم في قتل العيـد سباعي . هل كان لدى الـ DST حساب تصَفّيه مع رابطة الجزائريين في أوروبا ؟ كـان ذلك آخر موعد فيما بيننا . وكنت قد صدقت ما رواه لي ، أما الآن فلم أعد مصدقاً . إن الـ DST جهاز أمني منسجم ومحكم الاقفال . ليس محكم الاقفال كفاية ، إذ ان زوبعة 10أيار استطاعت فتح بعض النوافذ . وصاحبي ، الذي كانت وظيفته تتمثل بأعمال كتابية ، إذا كان علم بـ « النزيف في المخ » لزميليه الشابين ، فلقد عرف ذلك آخرون أيضـاً . ويبدو لي أن أحـداً قد تكلم .

*

* *

غايتان زامبا ، صحفيـون مشكوك بهم ، أوساط مدينة بوردو ، فرقة موت ، مغامرون مصابون بـذُهانٍ هـذيانيّ ، شـرطي كالحنكليس* ، « عـراب » اسباني ، أجهـزة استخبارات وعمـل فرنسيـة أو أجنبية ، خليط لا يُصـدَّق من الاشاعـات ، ومن المعلومات التي لا يمكن التحقق من صحتها ، ومن الهذيانات الغريبة : ثمة ما يغري كثيراً بنبذ كل هذا الركام . قد يكون في ذلك حكم على النفس بعدم معرفة الحقيقة أبداً . ربما امكن إلقاء الضوء على الجريمة السياسية بصورة أسهل لو كنا إزاء كتّاب عدل ومستشارين في مجلس شورى الدولة . إن الزمرة

* سمك نهري (م) .

المقيتة أكثر تنوعاً ، حتى اذا كان التوزيع يتكرر من حادثة لأخرى . نجد في قضية بروغلي شرطياً ساقطاً ، وقاطعي طرق ، ومغامرين دوليين ، وأجهزة شرطة ذات دور ملتبس . صحيح أن جان بروغلي كان يعاشر هذه الأوساط المشبوهة . لكن المهدي بن بركة ، الذي يمكن مقارنته أكثر بهنري ، كان ضحية مؤامرة يشارك فيها قطاع طرق من طراز رفيع ، قدامى في الغستابو الفرنسية ومتعاونون شبه رسميين مع الأجهزة الفرنسية ، وزقاقي مولع بالكذب لديه اسلاك التقاط في كل مكان ، وصحفيون غير متمسكين كثيراً بآداب المهنة ، ورجلا شرطة مفسّدان ، و« مراسل شريف » لجهاز التجسس ومكافحة التجسس (SDECE)ومن المؤكد أن ثلاثة أجهزة استخبارات على الأقل كانت مشاركة في المؤامرة : إجمالاً نحن أمام النموذج البشري ذاته الذي تستحضره مواطىء القدم المتنوعة في قضية كورييل .

يلزمنا إذن أن نكتشف هذه الغابة ، مهما يكن لقد دخلها أول قاضي تحقيق ، غي جولي ، دون افراط في السرعة ، لكن بتصميم وثبات . كان كليمنصو يقول عن قاضي التحقيق إنه الرجل الأقوى في فرنسا . إنه في كل حال رجل مرهق بالعمل . وقد كان السيد جولي كذلك لا سيما أن اختصاصه كان يتعلق بقضايا الاعتداءات وأن منتصف ولاية فاليري جيسكار ديستان كان يشهد ، بالاضافة إلى نسبة وفيات بواسطة العنف باتت بالغة الخطورة بخصوص الوزراء أو الوزراء السابقين ، ازدياداً هائلاً في الجرائم العنصرية ، وتفجير المكتبات أو مقرات منظمات تقدمية ، والتهديدات بالموت أو محاولات اغتيال شخصيات يسارية .

طبعاً ، كان بامكان السيد جولي أن يشغّل المفرزة الجنائية عن طريق الانابة القضائية ، لكن كان واضحاً أن اغتيال هنري كورييل لم يتسبب بنزيف في المخ لدى الشرطة الجنائية . وقد رأينا ذلك بوضوح حين أنبأتهم روزيت كورييل بالتهديدات بالقتل التي كانت تلاحقها بواسطة الهاتف : نصحوها بالاحتفاظ بهدوئها ، مشيرين الى صعوبة القبض على افراد يخابرون من كابينات عامة . وقد أعلمتهم روزيت بخبر جيد ، مفاده أن المخابرات أجريت من مكان خاص لأنها كانت تسمع الى جانب الصوت اسطوانات موسيقى عسكرية أو أناشيد نازية . فكان الجواب أن النقص في عدد الموظفين يمنع من اتخاذ التدابير المناسبة . إن الشرطة الجنائية ، التي لم تبحث اطلاقاً عن مكبرات صوت في شارع رولين وامتنعت عن استجواب السيدة ل واظبت على احتقارها لإمكنات الايليكترونيك . وفي 14 آب 1980 ، انفجرت قنبلة حارقة موضوعة أمام باب روزيت كورييل ، فأتلفت شقتها وكادت تحرقها حية . وقد غيّرت المسكينة مسكنها ، فيا لها من تقاليد غريبة لبلد ديمقراطي حيث ينبغي لأرملة رجل مقتول أن تترك بيتها سراً وتعيش باسم مستعار كي تفلت من قبضة الاضطهاد ، وربما من الموت . . .

لقد أحدث العاشر من أيار ثـ ـرة . فلقد أعلم الـوزير الأول ، بيـار موروا ، قـاضي التحقيق جولي ، بواسطة رسالة مؤرخة في 19 آذار 1982 ، بأن الملفات المتعلقـة بكورييـل ، الموجودة بحوزة الـSDECE وال DST ، سوف توضع تحت تصرفه. في حال كان تسليم بعض الوثائق يعرض الأمن الوطني للخطر ، يكون من اختصاص وزيري الداخلية والدفاع أن يحكما في الموضوع . في الواقع ، يمكن أن يقـرأ القاضي كـل شيء ، لكن يمكن أن يعارض الـوزير الوصي على كل جهاز تحويل بعض الوثائق الى الملف المعد ليصبح علنياً . وكان إجراء مشابه قد سرى على ملف بن بركة .

كان القرار تاريخياً . فأكثر من مرة ، قام فيهـا « الرجـل الأقوى في فـرنسا » بمـا يسمى انتقال المحكمة ، رده على اعقابه بفظاظة بواب ال SDECE فملفات هذا الجهاز كانت عصيَّة المنال ؛ ولم تكن ال DST تسلّم من ملفاتها إلا ما تود أن تسلمه . فالأجهزة التي تضع نفسها فوق العدالة ، كانت تعتبر أنه ليست لديها حسـابات تقـدمها لهـا ، وتتحصن بفعاليـة خلف « الدفع بالسرية » . فحين استدعى السيد جولي السيد دو مارانش ، مدير الـ SDECEأجابه هذا بوقاحة أن التزاماته تمنعه من ذلك وأنه ليس لديه ، في كل حال ، ما يقوله له . أما السيد شاليه ، مدير الـ DST ، فوافق على الذهاب للمرة الأولى الى مكتب قاضي التحقيق في 6 أيار 1981 ، بين دورتي الانتخابات لرئاسة الجمهورية . كانت رسالـة السيد مـوروا تعادل اجبـار بعض الأجهزة على الدخول مجدداً الى نطاق القانون ، في حين تود أن تعمـل على هـوامشه . وبالتأكيد ، فإن تنفيذاً جيداً للقرار الحكومي كان يفترض النيـة الحسنة لـدى المعنيين . فـإذا سحب هؤلاء من ملفـاتهم أهم مـا فيهـا من المستنـدات قبـل إخضـاعهـا للفحص ، تكـون النتيجةفاشلة .

كـانت الـ SDECE قـد أصبحـت DGSE ، لكنهـا بقيت بلهاء : لقـد سلمّت ملفـاً مهزولاً . أما الـ DSTفنفذت المطلوب منها في الظاهر . وبما أن مقدماتهـا الوفيـرة كانت تضم عـدداً من التقاريـر التي سبق ان حولتهـا اليها الـ SDECE ، والتي لم تكن مـوجودة في ملف الـ DGSE فلقد جرى التثبت من سوء نية هذه الاخيرة . إلا ان مديرهـا الجديـد ، الاميرال لاكوست ، محا الانطباع السيىء باتصال جـدي .

ان القاضي فرلين ، الذي خلف غي جولي في مهمته ، رجل لديه زحمة عمـل . فحتى اليوم الذي نكتب فيه هذه الأسطر (15كانون الثاني 1984)لم يفتح بعد الملفات الضخمة التي وضعت تحت تصرفه قبل عشرة اشهر .

للتاريخ اكثر من حيلة خبيثة في جعبة مكره .وهو سوف يتعرج الى حد إثارة اشمئزاز هؤلاء الشبان الذين كان قد سرّهم انهم وجدوا له اتجاها مستقيما في ترجمته الماركسية ، وسوف يجعلهم يكتشفون ان طريقا رئيسية واسعة يمكن ان تنتهي الى مأزق . انه يجعل هؤلاء الشجعان الذين احتدمت قلوبهم فجأة حبا بالشعب المتألم الذي طالما اقتربوا منه دون ان يروه ، يفكرون بالطلاق قبل الزفاف .

ومع ذلك ألا يظهر الخيار السياسي للمرة الاولى ، ذا بساطة توراتية ؟حين يكون المرء يهوديا وشيوعيا هل يمكن تصوّر ألا يتمنى هزيمة العنصرية الفاشية . ؟وحين يكون حلم بفرنسا الى هذا الحد ، هل يمكن أن يشهد أشد هزائمها غرابة دون ان يرتجف ؟ حين يعلن ونستون تشرشل بصوت جاف ان شعبه سيقاتل حتى آخر نقطة دم ولن يستسلم هل يمكن ان يوجد انسان واحد في العالم مشغوف بالحرية لا يقف الى جانب قاذفات اللهب السبيتفاير ضد الـ ميسر شميدت ؟

كان لدى راوول وهنري كورييل رد الفعل ذاته الخاص بصديقهما بوانتيه . منذ اعلان الحرب ضد المانيا ، حضرا الى القنصلية الفرنسية للتطوع . وقد جرى تسجيل اسميهما بصورة متعالية وإخطارهما في الوقت نفسه بأن الجيش الفرنسي سيستغني على الارجح عن اسهامهما . وهو ما حصل .

لقد أذهل حزيران 1940العقول وعذّب القلوب .

كان ألبر أربيه في العاشرة من العمر . وقد كان جده لأبيه من القسطنطينية . أما الفرع من جهة الام فكانت جذوره في روسيا ورومانيا . يتذكر كيف ان « القلق الشديد حل في البيت ما ان بدأ الهجوم الالماني في ايار 1940 . كان ذلك غير ممكن الاحتمال تقريبا. وقد كان يوم احتلال باريس يوم حداد . حل الهمس محل الكلام بصوت عال كما لو ان احد افراد العائلة قد داهمه الموت . ثم في 18حزيران ، وبينما كنت ابدل المحطات في جهاز الراديو الخاص بي من نوع جنرال الكتريك ، وقعت صدفة على نداء ديغول . وقد اصغينا اليه ولدينا انطباع بأننا نشهد معجزة . كان شيئا يشبه القيامة . لا احد يستطيع ان يفهم اليوم ما كان يعنيه ذلك بالنسبة الينا . لقد عدنا للحياة . طيلة الحرب ، كنت اصغي للفرنسيين الاحرار في إذاعة لندن . كان موريس شومان يتكلم في العاشرة والنصف ليلاً ، في حين يصرخ بي الأهل بسبب المدرسة في الغد . إلا أني ما كان يمكن ان أدعه يفوتني لقاء أي شيء في العالم . كان جندي فرنسي أعطى والدي صليب اللورين ، وقد وضعته في عروتي حتى النصر » .

غدا الاتحاد الديمقراطي أحد أرفع مقامات الرجاء. لقدتم تأسيسه عام 1939 بهدف انشاء تجمع واسع معادٍ للفاشية. وكان بين مؤسسيه راوول كورييل وجورج بوانتيه ومارسيل

اسرائيل (تأسست الجمعية غداة اللقاء السلبي بين اسرائيل وجاك ـ ديكـومب). وكان معهم الايطاليان المعاديان للفاشية سـاندرو روكـا وباجيـلي، والشيوعي اليـوناني كيبـريو، والاستـاذ المصري احمد الأهواني. وقد انضم هنري كورييل لكنه رفض عضوية اللجنة القيادية. استأجر الاتحاد مقراً فسيحاً (قدّم المـال اللازم دانييـل كورييـل) مع قـاعة محـاضرات تتسـع لأربعمئة شخص، وصالات اجتماعات، ومكتبة، الخ. ولقد كان النجاح فورياً وكاملاً.

شارك هنري أيضاً في تأسيس **جمعية الصداقات الفرنسية**. وكان الهدف إنعاش الشعلة المترجرجة للوطن المفضل، والدفاع عن ثقافته في حين انقطعت الروابط المادية لزمن غير محدد، ودعم الجبابرة الذين يناضلون من اجل تحريره. لم يظهر مشروع ديغول لأي كان وهمياً او غير ذي جدوى. فالجنرال المتوحـد، والمفتقر الى الامكانات، والـلاجيء في الخارج، يتحـدث عن فرنسا تدهش 40 مليوناً من الفرنسيين باستثناء عدة آلاف تقـريباً، لكن بـين هؤلاء الاربعين مليوناً بالطبع اولئك الاجـانب الغريبـون الذين إذ يـرونها من مكان بعيـد يرونها افضـل على الارجح. وقد استقـرت في القاهرة بعثة ديغولية فرنسية بقيـادة جورج غـورس. اشتغلت فيها روزيت كورييل نصف دوام، على أساس أن النصف الثاني من يومها كان مكرساً لمكتبة الرونبوان.

كانت « الرونبـوان » ، كما يقـولون بسـرعة بـالغة في القـاهرة ، المبـادرة الثالثـة لهنري كورييل خلال عدة اشهر. كانت محـل قرطـاسية ومكتبـة واقعة في وسط المـدينة الاوروبيـة، مستديرة مصطفى كمال، بجانب مخزن والد البر أرييه (بعد عدة كوارث تجارية، جاءته فكرة فتح دكان ادوات رياضة، وقد ازدهر عمله كثيراً بفضل تدفق الجنود البريطانيين).

كان فرع القرطاسية مخصصاً بوجه خاص لطمأنة دانييـل كورييـل. فهو كـان قد قـدم الأموال بنيّة الحصول على ريع من جراء استثماره. أما بالنسبة لابنه هنري، فالتجارة المضجرة لأقـلام الحبر ومواعين الورق لم يكن يبررها الا امكانية تقديم مؤلفات سيـاسية في المكتبـة لا يمكن العثور عليها في القاهرة. وينبغي اخذ كلمة «تقديم» هنا حرفياً لأنه كان لدى المستخدمين تعليمات بغض النظر بحياء حين يستعد شاب ذو مظهر متواضع لنشل كتاب مطلوب. وهذا يعني ان الجو كان بالأحرى جو صالون ملتزم او نادٍ يساري اكثر مما هو جو مؤسسة تجارية. وكان دانييل كورييل يحب ان يأتي للجلوس هناك بعد عمله الصباحي في المصرف، وكان عماه يوفر عليه اكتشاف عناوين واسماء مؤلفين لا بد أنها كـانت صدمتـه، او الانتباه للحـركات الخفيـة لسارقي الكتب، التي كانت صدمت استقامته المالية. فضلاً عن ذلك، كان سعيداً لأن الكثير من الضباط والجنود البريطانيين كانوا يتردّدون على المكتبة، وكان يسره أنه اتاح فتح مكان جديد مناسب لقضية الحلفاء. كانت فيلا الزمالك تستقبل كل من يحضر من الضباط الانكليز، وكل أحد كان دانييل وزفيرا يقيمان في البساتين حفلة شاي راقصة لمئتين الى ثلاثمئة جنـدي يغدق

عليهم التدليل فينسون قساوة الحرب بين ذراعي فارسات جميلات تقدمهن بورجوازية القاهرة الفضلى. كان كل ذلك يكلف الكثير لكن دانييل كورييل لم يكن ليهتم بالمصاريف في حين يدفع رومل دباباته باتجاه النيل.

كانت الطائفة اليهودية تعرف أن مصيرها الخاص، اذا لم يكن مصير العالم، يتوقف على المعركة الحاسمة التي قد تضع فيالق رومل الافريقية بمواجهة جرذان الصحراء الخاصة بمونتغومري ، تحت اسوار القاهرة .

*

* *

كانت مصر تراهن على رومل ، وكان الكثير من المصريين يتمنون انتصاره .

ان « الوفد » التاريخي الذي قاده سعد زغلول في 13 تشرين الثاني 1918 للمطالبة بالاستقلال ، كان قد أصبح بسرعة اقوى حزب في البلد . حزب قوي لكن متعدد العناصر ، لا يشجع التحليل السياسي بسبب تناقضات كثيرة الى حد أنه يمكن تحديده بمجموع تلك التناقضات. هو في أيدي الملاكين العقاريين والجماهير تتعرف الى نفسها فيه. يطرح نفسه على انه الخصم اللدود لانكلترا ، إلا أنه حاصل على الرضى السري لوزارة الخارجية البريطانية ، التي تفضل هذا المحاور الممتلىء التباسات مُطَمْئِنَةٍ على حركة قومية صرفة وصلبة او على حزب اشتراكي يعيد النظر ببنى اجتماعية ملائمة للمصالح الانكليزية . ثمة انشقاقات مستمرة تقتطع منه دون ان تخدش هويته المرتبكة . يتخبط دائماً في عصيدة غير مشهِّية من بيع النفس والابتزاز لكنه ما من فضيحة تفسد ثقة الشعب به . غالباً ما جرت مقارنته بالحزب الراديكالي الفرنسي ، الذي يختلط تاريخه بتاريخ الجمهورية الثالثة .

يلاحظ جان وسيمون لاكوتور بحق أن الحزب الراديكالي لا يمثل مورّاس Maurras وجوريس في حين يدمج الوفد كامل مصر ويجسدها. في الواقع فان اسمه يعرض الظاهرة السياسية أفضل من التحليل الأكثر دقة : يبقى الوفد رغم كل شيء « وفد » شعب يتوق الى الاستقلال .

بالرغم من ذلك، ولما كان تحت الوصاية الوثيقة للملك فؤاد، صاحب السلطة المتشككة، فهو لم يمارس السلطة الا سنتين ما بين 1923و1936.إلا أنه يبقى رغم كل دسائس الملك فؤاد ويلعب دوره بحذق في المعركة المثلثة التي تضعه بمواجهة القصر الملكي ودار المندوب السامي الانكليزي . عام 1936 ، توفي فؤاد وصعد ابنه فاروق الى العرش . وقد حاز الوفد نجاحاً منقطع النظير في الانتخابات التالية وشكّل الحكومة . وفي العام نفسه ، فاوض انكلترا بصدد

معاهدة تلغي الآثار الأخيرة لنظام الحماية البريطانية . وقد أطلق توقيع المعاهدة العنان لحماس غير متناسب أكَّد ثقة الشعب المطلقة بـه وكشف بصورة غـريبة كم كـانت لندن عـلى حق في اختيارها لخصمها المفضَّل : فالوفد وحده كان يمكنه جعل الشعب يستقبل اتفاقاً على انه انتصار بـاهر ، في حـين ان هذا الاتفـاق لا يلحظ الانسحاب الفـوري والكامـل للقـوات المسلحـة البريطانية بل فقط انكفاءها الى منطقة الفتح : مع الأذن لها باعـادة الانتشار في حـال حدوث ازمة دولية . هذا ، في أفضل الأحوال ، هو الاستقلال ضمن التبعية . وقد تظاهر الوفد بجهل هذه الاحتمالات واحتفل وسط الكثير من الجلبة بـ « معاهـدة الشرف والاستقـلال » . وإنه لفتحٌ حقيقي ، هذا الفتح : لقد جرى الغاء نظام الامتيازات الأجنبية القديم والمـذل . ولقد كان يجري الشعور بالعار بسببه الى حد بعيد لا سيما انه كان يثقل كاهل مصر وحدها ، حيث ان كل الأمم الأخرى في الامبراطورية العثمانية القديمة خلعت عنها ، الواحدة بعد الأخرى ، هذا النير الموروث من الأزمنة القديمة . فمع تطبيق النظام الجديـد (سيتطلب عـدة سنوات) سوف تطبق العدالة المصرية على الجميع من دون تمييز او امتياز . والأمر يعني اكثر بكثـير من كرامة أساسية مستعادة : لم تحز مصر السيطرة على تشريعها المالي إلا مع إلغاء نظام الامتيازات.

بعد ان مر الفرح العارم ، لزمت رؤية الانكليز حاضرين أبداً ، أكثر حضوراً مع إعلان الحـرب الذي اعـادهم الى المـدن ، حـاضـرين اكـثر من أي وقت مضى حـين أدَّت الهجمـة الجرمانيـة ـ الايطاليـة لأن يتوجـه الى البلد من اكثر من حـدب وصوب قـرابة مليـون جندي ومستخدم وموظف آتين من كل الكومنولث . شعرت مصر بأنها لم تكن يوماً خاضعة للاحتلال قدر ما هي حالها مذ حصلت على الاستقلال . وكان هذا شعوراً كريهاً .

هذه الحرب ليست حربها . كان القصر الملكي والطبقة السياسية يقاومان كل الضغوط التي تمارسها لندن لاجبارهما على اختيار معسكرهما (لن تعلن مصر الحرب عـلى المانيـا الا في شباط 1945 ، قبل شهـرين من انتصار الحلفـاء . . .) . بعد أن صـرف الملك الوفديين مرة اخرى ، سلموا السلطة لحكومة يمينية برئاسة علي ماهر .

وقد ساعدت هذه الحكومة بقدر استطاعتها قوات المحور. وحين انتقلت قوات موسوليني الى الهجوم ، عبَّر رئيس الوزراء السابق اسماعيل صدقي عن الشعور العـام بقولـه : « ليس الهجوم الايطالي اعتداء موجهاً ضد مصر ، بل ضد محارب آخر على أراضي دولة ثالثة محتلة » . لا يمكن ان يكون ثمة وضوح اكثر من هذا .

أما الانكليز الذين سئموا كل ذلك ، فقد فقدوا صبرهم في الأخير . هكذا في 4 شباط 1942 ، طوقت دباباتهم القصر الملكي ، ومدافعها موجهة ، ووضع السفـير الانكليزي الملك

أمام الخيار الجاف التالي : إما أن يعين حكومة موالية للحلفاء أو يفقد عرشه . للمرة الأولى ، ليس الإنذار ناجماً عن الغطرسة بل عن نوع من الذعر . فرومل قد نزل في أفريقيا على رأس قواته الأفريقية . إن القيادة البريطانية ، بمواجهة عدو مقاتل من نوعٍ غير ذلك المتمثل بالخصم الايطالي ، ترفض المخاطرة بالقتال وفي ظهرها تهديد مميت بانتفاضة موالية للالمان في القاهرة . لقد وصل الأمر الى هذا الحد . وبعد وقت طويل ، سوف يكشف الماريشال الانكليزي ويلسون في مذكراته مدى شعوره بالمفاجأة ، غداة معركة العلمين حين اكتشف ضمن ملفات القيادة الايطالية المنهزمة خطط الدفاع البريطانية التي سلمها بذاته لرئيس الأركان المصري . . إن رئيس الأركان هذا ، الجنرال عزيز المصري ، أظهر في كل حال ميوله الحقيقية حين استقل الطائرة محاولاً الالتحاق بالعراقيين الموالين للنازيين ، بزعامة رشيد عالي الكيلاني ، وذلك بتأييد ضمني من الضباط المصريين .

رضخ فاروق وشكّل حكومة وفدية مواليةللبريطانيين .لا الملك ولا الوفد سوف يتعافيان من آثار ذلك . طالما جرى الحديث عن هيبة الوفد العظيمة : هذه الهيبة فسدت الى الأبد . ولم تكن شعبية الملك أقلّ .

كان في ريعان الشباب ، بهياً ، وورعاً ، وصعد الى العرش وسط حماسة الشعب . كانت اعياد التتويج قد جعلت مصر تطير من الفرح (تتذكر ليديا ألوني الاستقبال الباذخ ، وكانت دعيت الى القصر مع والدها المحامي ، فتقول : « كان فاروق في مقتبل شبابه ، في سن السادسة عشرة أو السابعة عشرة ، وكان جميلاً كإله . وقد قُدِّم الطعام والشراب في آنية من ذهب ، وقَدَّمت منوّعات مسرحية فرقةُ الكوميديا الفرنسية الآتية من باريس » . لقد طبع الرضوخ للأمر الانكليزي على وجه الملك لطخة لا تزول . سوف يكتب السادات بعد 35 عاماً : « إنه تاريخ لن يستطيع جيلنا أن ينساه أبداً » . قدّم العديد من الضباط المصريين المجروحين في كرامتهم استقالتهم للملك ؛ وكان من بينهم رائد اسمه محمد نجيب . كتب النقيب الشاب عبد الناصر الى صديق له : « ما العمل بعد هذا الحدث المؤسف الذي قبلنا به بخضوع هو مزيج من الطاعة والمهانة ؟ في الحقيقة انه ليس لدى الاستعمار غير ورقة واحدة لارهابنا ؛ لكن يوم سيشعر أن المصريين عاقدون العزم على تقديم أنفسهم أضحيةً سوف ينسحب مثل جبان رعديد يدعي الشجاعة » . وفيما بعد ، حين اصبح عبد الناصر سيد مصر ، علّق كما يلي : « أيقظ انقلاب 4 شباط بعض الخاملين من سباتهم وعلمهم أن ثمة كرامة ينبغي الدفاع عنها مهما غلا الثمن » . هذه التشنجات الغريبة بعض الشيء بالنسبة للقارىء الأوروبي اليوم (ماذا ! ألم يكن يدرك هؤلاء الناس أن الحضارة والحرية في خطر ؟) عبّرت عنها مذكرات انور السادات بسذاجة تكشف راحة ضميره . لا بل إن هذا هو المقطع

الوحيد في الكتاب الذي لا يحس فيه القارىء أن المؤلف يستبسل في تجميل صورته الذاتية ـ وهو كتاب كتبه السادات بعد الرحلة المشهورة الى اسرائيل التي صنعت منه نجماً عالمياً وما يشبه رسول سلام يوقره مئات الملايين من الناس ، حيث يقدم نفسه ، بثقة بالذات ، كما لو كان فتى طيباً مهتماً بمنفعة الغير ويرزح تحت ثقل الأمجاد والسلطة لأن أحرّ رغبة لديه أن يعود فيزرع الأرض في قريته التي ولد فيها . إلا أن السادات الذي كان يعرف أن المشروع الهتلري ترك ذكرى موضوع جدال ، يتخلى هنا عن أي اهتمام بصورته المميّزة : يكشف بصراحة ما بذله من جهود لطعن الحلفاء في الظهر وفتح أبواب القاهرة للأفريكا كوريس*. لقد قرر هو وفريق من الضباط المصريين ـ « الضباط الأحرار » فيما بعد ، الذين سيكتشفهم العالم بعد عشر سنوات حين سيطيحون فاروق ـ الانتقال الى العمل . جرى تحرير مشروع معاهدة لعرضها على رومل يتعهد بموجبها المتآمرون بأن يدخلوا الحرب الى جانبه ولا يتركوا جندياً انكليزياً واحداً يغادر القاهرة مقابل الضمانة الالمانية لاستقلال مصر . وأُرفق مشروع المعاهدة بهدية ترحيب : صور المواقع الانكليزية في العلمين . وقد عُهد بكل ذلك الى طيار مصري اسقطت طائرته ، لسوء الحظ ، الفلاك الألمانية بالرغم من الاشارات الودية التي كانت تطلقها الطائرة ، بحيث ضاعت المحاولة في الرمال . وهو ما لم يمنع السادات من شراء عشرة آلاف قنينة فارغة لصنع كوكتيل مولوتوف ، ومن الدخول في محادثات مع جاسوسين نازيين كانا يأويان الى مركب راسٍ على شاطىء النيل ، داخل القاهرة ، حيث كانا يعيشان حياة رخاء بفضل احتياطي لا ينفد من الليرات الاسترلينية المزيفة . وقد اقترح السادات اصلاح جهاز الارسال المعطل الخاص بهما ، مأخوذاً بفكرة ان يتمكن هكذا من الدخول في اتصال مباشر مع رومل ، لكن جهاز مكافحة الجاسوسية الانكليزي سوف يفاجئه ويعتقله هو والألمانيّين .

وهي مصادفة تستحق المشاهدة لكنها غير مفاجئة كثيراً اذا أخذنا بالاعتبار ان الأسباب نفسها تنتج النتائج نفسها : ففي فلسطين الواقعة تحت الاحتلال الانكليزي ، ميّز الصهيوني ابراهام شترن ، مؤسس الفريق الارهابي الأنشط ، بين الخصم الانكليزي والعدو النازي : « الخصم هو دولة أجنبية تسيطر على أرضنا وتنكر على الشعب العبري استقلاله في وطنه . أما العدو فهو ذلك الذي يكره اليهود ، هو ذلك الذي يطاردهم ويقتلهم حيث يجدهم ، والذي يرغب في القضاء عليهم » . لكن شترن يلاحظ ما يلي : « إن الحقد الذي يكنّه لنا العدو إنما يُمارَسُ بفعل التبعية التي يبقينا الخصم فيها . فلو ان هذا الأخير لم يكن يمنعنا من أن نتصرف بوطننا على أساس السيادة، لكان بامكاننا ان نستقبل فيه كلّ اليهود الذين يهددهم العدو وننجّيهم من حقده القاتل . هكذا فإن واجبنا الأساسي هو مقاتلة الخصم

* الأفريكاكوريس : قوات المحور بقيادة رومل في شمال افريقيا المعروفة باسم الفيلق الأفريقي . (الناشر) .

وتحرير وطننا . ولبلوغ ذلك ، علينا أن نستخدم كل الوسائل ، بما فيها التحالف مع عدونا اذا كان هذا الأخير عدواً لخصمنا في الوقت ذاته » .
وعلى أساس هذا الاستدلال المتجاسر ، بعث شترن برسول الى من سيكونون فيما بعد أصحاب مصانع اوشويتز وتريبلينكا يعرض عليهم « مشروع معاهدة بين دول المحور وحركة التحرر الوطني العبرية في فلسطين . بموجب هذا المشروع ، يكون على الايرغون (الجيش السري اليهودي) ان يكثف جهوده الحربية ضد بريطانيا العظمى مقابل الاعتراف الرسمي من قبل الأطراف الأخرى بحق الشعب العبري في إقامة دولة سيدة في فلسطين[1] . . . » إلا أن العرض لم يَلْق الاستجابة .

القاهرة هي أحدى العواصم الكبرى التي يُلعَبُ فيها دائماً قسم من الدراما السياسية العالمية ، مع أزمنة حادة ، كما الحال في ذاك الصيف من عام 1942 ، تستقطب الانتباه الدولي باتجاه المسرح المصري . لكنها كذلك قرية ، او اذا شئنا ، واحدة من تلك المدن الريفية التي يعرف كل ساكن فيها كل العالم ، بحيث ان الحدث الأكثر إذهالاً بالنسبة للخارج ، يعيشه ممثلوه بالطريقة الحميمية ، يندمج بالمحليات ، يحتفظ تحت مظاهره الفظة بنوع من الالفة التي تنتزع منه الكثير من الحدة .

إن حادثة عميلي رومل النازيّين موجودة في كل قصص الجاسوسية ـ كان الرجلان انجزا فتحاً حقيقياً إذ قطعا آلاف الكيلومترات في الصحراء ، متخفيين في صفة ضابطين بريطانيين ، قبل أن يظهرا في القاهرة . لقد كانت شقيقة ديدار روسانو ، رفيقة نضال هنري كورييل الأكثر إخلاصاً ، على متن مركب النيل في كل لياليه المجنونة . كان أحد الجاسوسين يعشق ساقية في نادي الكيت كات حيث كانت تعمل ليديا الجميلة ، حبيبة هنري القديمة . وكان فؤاد حبشي ، النصير الدائم لكورييل ، رقيباً ميكانيكياً في سرب ذلك الطيار الذي كلفه السادات واصدقاؤه بأن يحط خلف الخطوط الالمانية . هذه التعقيدات المصرية بصورة نموذجية لا تلغي بالتأكيد التعارضات لكنها تلطفها .(فالعدو الألدّ، الذي يثير الذعر ويولد الحقد ، هو دائماً العدو الذي لا وجه له) .

من لم يكن يراهن على هزيمة الحلفاء ؟ كان الخبراء وحدهم يشعرون مسبقاً بأن الزنبرك الألماني مشدود الى حد المخاطرة بالانقطاع . لقد بلغت الامبراطورية الألمانية ذروتها في ذلك الصيف من عام 1942 ، ولم تكن المانيا ظهرت يوماً قريبة الى هذا الحد من الإمساك بالعالم في قبضتها . ففي الاتحاد السوفياتي ، حطّم هجوم الويهرماخت خاصرة الجيش الأحمر ، وتمتلك فرق الهجوم بقيادة الماريشال فون كلايست رأس جسر شرقي نهر تشيرك في القوقاز ، العائق

---

(1) ناتان يالين ـ مور ، اسرائيل ، اسرائيل . . . » مطابع النهضة ، ص 92.

الأخير قبل نفط باكو . وفي مصر ، كانت الأهرام هي الهدف الذي وضعه رومل نصب عينيه وكان يُعدّ الهجوم الاخير الذي سيفتح له القاهرة والسويس ـ « الفتح الأسمى » كما كتب في دفاتره . اندفاعة أخرى ويرى العالم المذعور نجاح ضربة البوكر الاستراتيجية الأكثر اسطورية في التاريخ العسكري الحديث : طليعة جيش فون كلايست تصافح كشّافي رومل في مكان ما لجهة بغداد .

كانت القاهرة على حافة نوبة الأعصاب . فلقد قصفت اللوفتواف* ليلاً الثكنات الانكليزية في وسط المدينة حيث يقوم اليوم فندق هيلتون . في النهار ، كان سيل لا ينقطع من الجنود والمعدات العسكرية ، متجهاً الى الجبهة ، ينساب من الشرق الى الغرب على امتداد الشوارع الكبرى. وفي الضواحي ، كان الناس العاديون يخرجون الى الشارع ويتظاهرون وهم يصيحون : « الى الأمام يا رومل ! » . راحت السفارة البريطانية تحرق ارشيفاتها ، مغطية المدينة بالرماد المنذر بالهزيمة . كان القلق الشديد يسيطر على الطائفة اليهودية . فكل أولئك الذين ناضلوا من اجل قضية الحلفاء ـ وفي الطليعة اعضاء الاتحاد الديمقراطي ـ يعرفون ما يعنيه بالنسبة اليهم الوصول المظفّر للجنود الهتلريين . وقد قررت السلطات الانكليزية ، الراعية للخطر ، تنظيم اجلاء الناس الأكثر عرضة للتهديد ووضعت تحت تصرفهم عدة قطارات خاصة وُجْهَتُها فلسطين . ويا له من مأزق رهيب : هل يجب الهرب من اعمال انتقام ممكنة او البقاء والرهان على انتصار مونتغومري ؟ غالباً ما يتم الاختيار تبعاً لتفاهات مؤثرة . فلقد رفض والد ألبر أربيه مغادرة حي له فيه عاداته . ولقد كانت الحقائب قد أقفلت لدى آل بلو حين رفض الأولاد الثلاثة ترك كلبهم الذي لم يكن مسموحاً بصعوده في القطار الخاص: هكذا تقرر عدم الرحيل . ولدى آل اسطمبولي ، الذين ذعروا وهم يرون الجنود الانكليز في ثكنة مجاورة يحرقون حبلاً من الأوراق ويمضون ، يتقدمهم علم بلادهم ، بخطوات موقّعة باتجاه فلسطين ، جمع الوالد عائلته وأعلن : « أنا محامٍ ، ولديّ دعاوى جارية ولا استطيع التخلي عن زبائني . لكن هذه جوازات سفركم . امضوا الى دمشق . الا أن أحداً لم يرحل . مع ذلك يتذكر ريمون اسطمبولي: « الجبن الكبير في حياتنا » .

لكن الألوف تكدسوا في المقطورات المنقذة .

ولقد رحل راوول كوربيل وريمون اغيون بصورة رسمية للغاية. وكان على روزيت ، الحاملة للجنسية المصرية ، ان تتظاهر بأنها ملحقة بالجيش اليوناني كي تتمكن من ركوب القطار . ارتدت الزي العسكري على مضض لكنها ظلت تضع في قدميها حذاء من جلد الحية ورافقها الى المحطة احد الخدم حاملاً حقيبة ضخمة ملأى بالألبسة . يا لها من رحلة كابوسية وسط البق

* اللفتواف : سلاح الطيران الألماني (الناشر) .

المتكاثر ، وقد حدث تأثر شديد على حدود فلسطين حين طلب رقيب انكليزي أوراق الجنديّة ذات القدمين المدهشتين . لكن هذا الرقيب هو سام باردل ، الضيف المثابر على الحفلات الراقصة في الزمالك ! نظر بمودة الى رفيقة روزيت ، هنرييت ، ابنة عم ألبر ارييه ، المستخدمة في مكتبة الرونبوان ، التي اقترن بها فيما بعد : هذه هي مصر .

كانت رحلة مارسيل اسرائيل مضطربة . فلقد كان تعرَّض للتوقيف قبل أشهر بسبب « نشاطات شيوعية » . ولقد كانت دهشته كبيرة ، لأن حسني العرابي ، الأمين العام القديم للحزب الشيوعي عام ١٩٢٠ ، الذي تحول الى عميل نازي ، تعرض للتوقيف معه. فلقد كانا يقطنان في المبنى ذاته . وفي حين أخلي سبيل رفاق اسرائيل بسرعة ، فلقد جرى نقله الى معسكر اعتقال بسبب جواز السفر الايطالي الذي كان يجعل منه مواطناً لبلد عدو ـ نتيجة عكسية لنظام الامتيازات الأجنبية . . . ولقد تدخلت البعثة الفرنسية لأجل اخراجه من هذه الورطة . واضطر مساعد جورج غورس أن يكفل شخصياً لدى السلطات البريطانية عدم نزول محميِّه من القطار قبل المحطة الأخيرة في القدس . كانت رحلة صعبة لأن جاسوساً نازياً تسلل الى الموكب وأخطر اللوفتواف بواسطة إشارات ضوئية .

هكذا اضطر القطار ، الذي كان يُطارده اليونكرز ، لأن يُمضي يومين لبلوغ القدس بدل ليلة واحدة . وعند فجر اليوم الثاني ، بدت وسط الصحراء رؤيا سوريالية لفرقة من الأقزام بقيادة عريفين انكليزيين اشقرين وكبيري الجثة . وقد بقي اسرائيل عاماً ونصفاً في فلسطين في حالة الفقر المدقع . وقد فوجىء بعد أشهر من وصوله ، بتلقي حقيبتين كبيرتين محشوتين بالألبسة الولادية ، أرسلهما هنري كورييل ، الذي كانت علاقاته به قد أصبحت متوترة . هذه هي مصر . لكن الألبسة تناسب ولداً عمره عشر سنوات في حين لم يكن ابن اسرائيل قد بلغ العام . هذا هو هنري . « بعت الرزمة على امتداد اسبوع عند باب يافا . كنا في حالة البؤس الشديد، جائعين حقاً . . وحين كنا نجلس الى المائدة ، كان بيني وبين زوجتي الاتفاق التالي : إذا قطع أحدنا فالآخر هو الذي يختار . لقد أتاح لنا هنري أن نأكل » .

هيلل شوارتز ، هو الآخر ، اعتزل في القدس .

ومن في وسعه ان يأخذ عليهم انسحابهم الاستراتيجي ؟ كانوا قاتلوا لو جرى تسليمهم بنادق ، لكن الجيش البريطاني لا يطوّع الناس في مصر . لماذا يتركون القوات الألمانية تنصب لهم الفخاخ ليقعوا فيها بصورة بلهاء ؟ لم يكن رومل بالنسبة اليهم الضابط الشهم الشعبي للغاية لدى جرذان الصحراء الى حد أن هيئة الاركان الانكليزية اعتقدت ان من واجبها اصدار مذكرة خدمة توصي بعدم ذكر اسمه من ذلك الحين وصاعداً : كان الذراع المسلحة للعنصرية القاتلة ، الفصيل الرائد لأمثال ايخمان وباربي . قبل الهجوم مباشرة ، جاب الأميرال كانا

ريس ، قائد الأبويهر ، وكان قومياً المانياً من المدرسة القديمة ، جاب افريقيا ليعطي روميل ما كان يسميه « درس أشياء » : في هذه الحالة ، كان الأمر يتعلق بأن يضع امام عينيه وثائق تكشف هول معسكرات الإبادة .

لقد رفض الجنرال المشهور ، الذي سيكون موضوع اسطورة بعد الممات لا أساس لها من الصحة تظهره على انه بطل مناهض للنازية ، رفض الوثائق مكتفياً بالقول : « انا جندي وأقوم بواجبي كجندي » . ولو كان انتصر في القاهرة لما كان اعتبر أن من واجبه كجندي الوقوف ضد رحيل السفن الى أوشويتز .

لكن الهجرة الى القدس كانت تكرس بصورة مأساوية وضع الغريب ـ ولا تعود تلك قصة جواز سفر مسحوب باليانصيب . لما كانوا ثوريين بنتيجة تفكير وشغف ، كانوا قد نذروا حياتهم لمصر : ها هم يغادرونها في مقطورات المحتل المقيت ، وبحمايته . ثم إن قطار القدس هو بالنسبة لمصريين قطار المتعاونين مع العدو .

لقد قرر هنري كورييل البقاء في القاهرة .

*

* *

كان اختياره يأتي من بعيد .

فعام 1936 ، ومع بدء المفاوضات الدولية حول نظام الامتيازات للأجانب ، كان البعض قد شعروا ان الريح تغيّرت . هكذا فان ريمون اسطمبولي ، الذي كان يكسر في السابق المصابيح ساخراً من رجال الشرطة على أساس تحصنه في امتيازه كمستفيد من «الحماية»، بدأ يأخذ دروساً في العربية وفقاً لنصيحة والده ، وتسجّل في كلية الحقوق المصرية . وتسارعت الحركة بعد إلغاء نظام الامتيازات . اكتشف العديد من الشبان من العائلات المرموقة ، ليس من دون تردد ، انه قد يكون من الفطنة تعلم لغة خدّامهم . فالزمن بات زمن التمصير ، كلمة المستقبل الرائجة .

لقد أخذ هنري كورييل اختياره منذ عام 1935 ، يوم كان في الواحدة والعشرين من العمر ، وفي حين لم يكن أحد يتوقع زوالاً وشيكاً الى هذا الحد لامتيازات الأجانب . كانت ولادته في مصر تسمح له بالاختيار بين الجنسيتين الايطالية والمصرية . لقد تمصّر وبدأ يدرس في الوقت ذاته اللغة العربية ، مثيراً الغضب الشديد لدى والده . لم يتوصل يوماً لامتلاك اللغة بالكامل ، محتفظاً بنبرة تثير الابتسام لدى أكثر من متحدث من اهل البلاد معه ، لكن نيته حظيت بالتقدير .

ثم خاض معركة داخل الاتحاد الديمقراطي من اجل موضوع اعتبره الكثيرون تافهاً ، اذا لم نقل عصياً على الفهم . فبعد تأسيس الجمعية بقليل ، اتصل رسول من السفارة البريطانية بقادتها ، مبدياً اهتماماً شديداً بمبادرتهم وعارضاً كل المساعدات المادية والمالية الملائمة لازدهارها . وقد كانت الحركة الأولى ، شبه الإجماعية ، تتمثل بالموافقة . فبما أن هدف الاتحاد نصرة القضية الديمقراطية لدى الرأي العام المصري ، كان يبدو من المنطقي وضع اليد بيد انكلترا . اما هنري كورييل ، المعادي بعنف لهذا الموقف ، فقد دخل اللجنة القيادية كي يدافع بشكل أفضل عن موقف كان يشترك فيه مع جورج بوانتيه . كانا يؤكدان بالطبع انتماءهما الى المعسكر المعادي للفاشية ، لكن ميدان عمل الاتحاد هو مصر وليس كندا او استراليا . ظل هنري يردد دون كلل ما سيبقى حتى يومه الأخير فعل إيمانه السياسي : « كي يغيّر الناس رأيهم ، عليك ألا تفرض عليهم أفكارك الخاصة بك بل أن تنطلق من أفكارهم » . والحال ان الجماهير المصرية ، التي لم تكن شديدة الحساسية ضد الحقيقة الفاشية ، لم تكن لتقبل ان يقترح عليها البعض التصالح مع الشر الانكليزي بحجة ان الشر النازي أشدّ سوءاً . « لن يصدقنا احد اذا اكدنا ان المانيا هتلر اسوأ من انكلترا » ، هذا ما كان هنري كورييل يكرره امام اصدقائه المدهوشين . « لن يتبعونا اذا دعونا الى تحالف ، وإن مؤقت ، مع الانكليز للتخلص من النازيين . يمكننا ان نقول ان النازيين لا يقلون سوءاً عن الانكليز ، لكن لا شيء اكثر . وهذا يفترض رفض أي تعاون مع جماعة السفارة » . وبعد عدة اسابيع من الجدال ورغم ميزان قوى انطلق في البدء من نسبة 2 ضد 7 داخل اللجنة ، فإن اطروحة كورييل وبوانتيه انتهت باحراز النصر . وهو نصر غدا دون موضوع لأن الرسول الانكليزي ، الذي جرى اعلامه على الأرجح بالمساجلة ، كان قد اعتبر من غير المفيد اعادة الاتصال . كانت السفارة على وشك ان تختلق منظمة تحمل الاسم الجميل ، اسم : اخوان الحرية . وسوف تظهر صحة تحليل هنري كورييل بحذافيرها : لقد غرق اخوان الحرية في فقدان الحظوة ، وغرقت معهم القضية العادلة التي كانوا يدافعون عنها ، لسبب بسيط هو ارتباطهم الوثيق بالدولة الممقوتة .

كان تأسيس **الصداقات الفرنسية** ناتجاً عن تحليل مشابه : كانت تمثل امكانية عمل لصالح معسكر الحلفاء من دون تورط مع المحتل . وكان هامش المناورة واسعاً لا سيما ان الانكليز استفادوا من قطع الاتصالات مع فرنسا لمحاولة تحسين وضعهم الثقافي ، ولم يترددوا في منع اي استيراد لكتب فرنسية ، حتى وإنْ كانت آتية من كندا او الولايات المتحدة . كانت العلاقة بين البعثة الديغولية والسفارة البريطانية ، التي عقّدها تحييد عمارة بحرية فرنسية فيشية في مرسى الاسكندرية ، تتحمل عواقب كل التوتر الذي كان قائماً بين ديغول وحلفائه الأقوياء : هكذا خلال المسعى الانكليزي ـ الاميركي لاستبدال زعيم فرنسا الحرة بالجنرال البائس

جيرو ، علقت القاهرة إصدار المارسيليز ، الصحيفة الديغولية التي كـان اسسها غـورس . وهذا يعني أنه كان بالإمكان العمل في الصداقات الفرنسية دون التعرض لشبهة المحبة المبالغ بها تجاه الانكليز .

لم يبدل وصول روميل الى أبواب القاهرة التحليل السياسي لهنـري كوريـيـل ، وإن كان شاب تطبيقه بدرجة من المخاطـرة مرتفعـة الى حد بعيـد . لقد اتخـذ قراره دون تـردد وأعلنه لأصدقائه مضفياً عليه طابعاً خيالياً سوف يثير ابتسامتـه فيما بعـد : إذا كان بقي في القـاهرة فلأجل ان ينظم المقاومة ضد أي احتلال نازي محتمل ـ يا له من مقاوم يرطن بلغة البلد ، وهو أشهر من نار على علم لدى كل مصالح الشرطة، ولا يمكنه المخاطرة بالدخـول الى رَبَضٍ من الأربـاض من دون ان يستفهم أول سوقي قـادم حول جنسيتـه ! هكذا كـان قد غـدا هنري كـوريـيل : رائعـاً ومثيراً للغيظ . وهـو لن يتغير . سـوف يحتفظ حتى الـرمق الأخـير ، بهـذه الرومانسية التي سيسخر منها انداده وخصومه (يمكن تخيّل الابتسامات الصفراء لرفاقه الطيبين الذين هرعوا لاجئين الى القدس في القطار الانكليـزي: ترى من يظن نفسه ؟) في حين ان الشباب سيحب فيه قدرة كاملة على إثارة حُمَيّا السياسة ، وذلك دائماً وحتى حين سيكـون بلغ الشيخوخة . ان سر القدرة التعبوية لدى هنري كورييل وفعاليته النضالية يكمن في رومانسية تلقائية مقرونة بتجريبية تم اكتسابها في حمّى العمل .

كانت الأيام التالية متوقدة ومضطربة . كان الأمر يتعلق بتهيئة الانتقال الى السرية . وقد أبدت شابة مصرية ، هي أسمى البقلي ، اخلاصاً مقـروناً بـالفعاليـة ، بأن فتحت للمقـاوم مستَقْبلاً بيت اهلها في المعادي ، نوبي القاهرة ، حيث استقبل والدها هنري كورييل بحرارة . (سوف تقتـرن اسمى بعد وقت قصير بأحد مساعدي مارسيل اسـرائيل ، وسـوف يحل عنـد ابيها ، مدير احد سجون القاهـرة الكبرى ، وفي احـد زنازين ذلـك السجن ، بعد سنـوات اربع ، هنري كورييل . وهو سيبدي تجاهه اللطف ذاته الذي ابداه حيالـه في المعادي ـ مـرة اخرى ، انها مصر) .

لم يتم الانتقال الى السرية . ليس بسبب انتصار مونتغومري على روميل بل لأنه حتى قبل أول طلقة مدفع في معركة العلمين ، اوقفت الشرطة المصرية هنري كورييل . فذات صباح ، في حين كان ماراً بالرونبوان ، اكتسحت مجموعة من رجال الشرطة المكتبة ، وفتشت الرفوف ، وصادرت بعض الكتب ، واصطحبت الأسير ، مصفد اليدين ، الى فيلا الـزمالـك حيث تم تفتيشٌ ثان تحت بصر زفيرا المصدومة . لقد كانت تلك مفاجأة لها. فماذا تعني المعاملة المهينة لعائلة كانت عواطفها الموالية للحلفاء معلنة ؟ أما كان هنري كورييل حصل على مقعد لـه في

القطار الخاص الذي نظمته السلطات الانكليزية وحمته ، لو انه اراد ذلك ؟ لا شك ان موظفاً في دوائر الأمن البريطانية قد اخطأ في تصفح الملفات . ولقد كان التفسيربسيطاً : تم توقيف هنري كورييل من دون علم الانكليز ، واذا كانت الشرطة المصرية قيّدت يديه فلكي تقدم للمنتصرين الألمان لاحقاً احد اولئك اليهود الشيوعيين الذين يلذ لهم الحصول عليهم ، كما هو معروف . كانت ديدار روسانو، امينة مكتبة الاتحاد الديمقراطي ، تلقت زيارة رجال شرطة أتوا يطلبون منها لائحة المنتسبين . وقد رفضت إلا أنها عرفت فيما بعد أن الجلاوزة حصلوا على اللائحة بواسطة مصدر آخر .

في مساء اليوم الذي تم فيه توقيف هنري كورييل ، كان محتجزاً في فيلا كبيرة في ضاحية زيتون ، وهي محلة قريبة من القاهرة ، حيث كان يتجمع كذلك قرابة خمسين معتقلاً .

كانت تلك أول مناسبة بين المناسبات العديدة التي تعرضت فيها حياته للخطر . كان المعتقلون معه عملاء أو انصاراً موالين للنازية أسرتهم أجهزة مكافحة الجاسوسية الانكليزية . حين عرفوا من هو القادم الجديد ، قرروا سلخ جلده في أول سانحة ورفضوا بادىء ذي بدء استقباله في غرفة . إلا أن باروناً بلطيقياً ، معادياً للشيوعية الى أبعد الحدود لكنه رجل مجتمع ، وجد في هنري سيداً مهذباً ذا عادات لطيفة ، فعرض عليه مشاركته غرفته (بعد أشهر ، استقبل البارون باللطف ذاته انور السادات ، الذي نجا من مفرزة الاعدام بفضل تلك الشبكة المصرية من المشاعر الودية التحأرضية التي لا بد أن يبدأ القارىء بالاحساس بفعالياتها على المستوى الانساني) . كان النوم امرأ حسناً ، لكن البقاء على قيد الحياة أمر أفضل . ولقد جاء الخلاص هذه المرة ، ويا للمفارقة ، من هذا العُرابي ، مؤسس الحزب عام 1920 والعميل النازي . لما كان عرابي في غاية السرور لأن يكون في متناوله شخص يتحدث معه عن الزمن القديم ، وقليل الميل الى العصبوية في نهاية جولة فلسفية متباينة ، فقد أنقذ كورييل من الفخ المشؤوم .

وبدأت المناقشات .

أكثر من ممثل لا يكون حقاً هو نفسه الا على خشبة المسرح . يقول الكثير من اصدقاء هنري كورييل انه كان في أفضل حالاته في السجن . لا شك ان التوقيف يحصل عموماً في فترة ازمة ، وفي اوج نشاط وتوتر عصبي منهكين ، والمناضل المسجون يتذوق اللذة القائمة المتمثلة بأن يستطيع اخيراً النوم 48 ساعة دون انقطاع . لكن بالنسبة لهنري كورييل فإن استعادة قواه لم تكن غير مقدمة لحياة سجن نشيطة ، ومنسجمة ومثيرة تماماً للرضى . إن أياً من الرسائل التي كتبها من سجونه المختلفة (وفي حوزتنا الكثير منها) لا يعبر عن التضايق ولا حتى عن مجرد

انزعاج . انه على ما يرام . ليس السجن بالنسبة اليه معترضة قسرية ، استراحة اجبارية ، بل إنه مواصلة العمل على مسرح آخر ، مع حبكة وممثلين مختلفين ؛ لكن القطعة المسرحية تناسبه . لا بل يخالجنا الانطباع بأنه يتفتح في الاحتجاز ، الخانق بالنسبة لكثيرين غيره . وإنها لمفارقة : هذا المناضل الأممي ، أحد النادرين في جيله (لو ولد قبل عشر سنوات من سنة ميلاده، لكان واحداً من « الوكلاء المتجولين للثورة» الذين ارسلتهم الأممية الثالثة لنشر الدعاوة الثورية عبر العالم) لم يكن اكثر ارتياحاً في أي مكان منه في العالم المقفل للسجن ، حيث كل واحد ، اكان حارساً او معتقلاً ، يعرف تماماً علاماته ونسبة القوى . مكان مرمَّز ، ومحددة مراتبه ، لا يتزعزع في الظاهر ، لكن استراتيجية دقيقة ومتحلية بالصبر يمكن ان تخل باستقراره الى أبعد الحدود .

هنا أكثر من أي مكان آخر ، يكون الكلام عملاً .

إن تطبيق تقنية الحوار الخاصة بكورييل ربما كان ادى الى مشكلة (« لا شك أن اليهود اناس من فئة دنيا وان الشيوعيين كلاب . لكنني ألاحظ ، الخ . . . ») لكنه سرعان ما فهم أنه اذا استثنينا بعض العملاء الاصليين ، فإن المعتقلين معه لم يكونوا غير وطنيين ضلوا السبيل مستعدين للتحالف مع الشيطان من اجل طرد الانكليز الى خارج مصر . كان هنري كورييل قد حدس بقوة الشعور الوطني ، وقد حولت إقامته في زيتون هذا الحدس الى يقين . قال فيما بعد : « كان هذا التوقيف أول حمّام لي في الواقع السياسي المصري الذي كنت اعرفه بشكل سيىء اتاح لي أن أفهم أن أية « مرانة » حيال انكلترا لا يمكن ان يقبل بها وطني مصري حقيقي أيّاً تكن الذريعة » . وهو درس مأثور لأنه جرى تلقّيه في حالة الرمز القصوى ، في حين كان الواجب الحيوي والشامل القاضي بضرب النازية يفشل في اضعاف المطالبة القومية ، وإنْ مؤقتاً . فمن اجل ان يتوصل شعب شهم ومسالم الى لعب ورقة هتلر ضد ونستون تشرشل ، كان لا بد ان يكون التطلع الى الاستقلال في المقام الأول ، متعذراً قهره ، متعذراً الالتفاف عليه . سوف يكون الدرس مفهوماً ومحفوظاً حتى النهاية .

لقد خضع كورييل لإغراء اعتناق الاسلام . كان عرابي يشجعه على ذلك بقوة لأسباب ذات طابع انتهازي : إذا دخل رومل القاهرة فالمسجد سيلقى من التقدير اكثر مما سيلقى الكنيس . وكان كورييل يرى في ذلك إمكانية انخراط أكثر اكتمالاً في صفوف السكان المصريين . كان العديد من اصدقائه اليهود قد سلكوا هذا الطريق ، وبما أنهم تحولوا الى الاسلام حسب الأصول فقد كانوا يحاولون بجرأة ان يحبوا المأكولات المحلية ورقصة البطن ؛ ولم تكن نادرة حالات الفشل . وقد تخلى نهائياً عن النبي محمد لأن تحولاً من دين لآخر على

مرمى مدفعية الأفريكاكوربس ليس من الشهامة بمكان، ولأن « المهم ليس ما تكون ، بل ما تفعل » . . .

لكنه صام شهر رمضان بصرامةٍ تضامناً مع الموقوفين معه وشارك في إضراب عن الطعام احتجاجاً على الإبعاد التعسفي للمندوب الذي انتخبه السجناء الموالون للنازية كي يتعامل مع الإدارة . كان ذلك أول اضراب له عن الطعام . وسيغدو فيها بعد خبيراً في الموضوع ، ويكتب طريقة استخدام ، لحساب المزمعين تنفيذ هكذا اضرابات ، ويعلّم شفاهاً مئات المناضلين من كل البلدان كيفية تحضير إضراب عن الطعام وإنجازه وانهائه .

لا بل أبدى حماساً . فالمعتقلون معه كانوا اعتمدوا الحكمة وحددوا يوماً انتقالياً بين نهاية رمضان وبداية الأضراب ، تكون التغذية فيه عادية . اما هو فانتقل مباشرة من الصوم الى الاضراب وفقاً للمبدأ القائل ان على المناضل الشيوعي ان يكون الأفضل دائماً وأن يشكل قدوة . وهو سيطبق هذا المبدأ طيلة حياته ، دون ان يدرك ـ حسبما يبدو ـ أن حماسه يثير على الأقل قدراً من الازعاج يساوي ما يثيره من الاعجاب . والحالة هذه ، فان ضيوف معتقل زيتون القسريين كان أرضاهم بلا ريب أن يتقيد يهودي بصيام رمضان وأن يضرب شيوعي عن الطعام لأجل معتقل موال للنازية دون ان يستفيدوا مقابل ذلك من درس خفي في السعي وراء الكمال .

بالنسبة لدانييل وزفيرا كورييل ، المغتاظين بصورة مشروعة لما تعرض له ولدهما الأصغر ، فقد احتدما غيظاً حين عرفا انه منخرط في اضراب عن الطعام يستحيل عليهما تفهمه . وبما انه لم تكن تنقصهما العلاقات ، فقد غدا مصير هنري أمراً صغيراً من أمور الدولة ، وقد قام رئيس الوزراء ، النحاس باشا ، شخصياً بإعلام السجين بأن اطلاق سراحه سيتم ما ان يوافق على وقف اضرابه . كانت الحكومة ، التي وعت خطأ الشرطة ، تحاول الا تفقد ماء وجهها . إلا أن هنري كورييل ، الصلب في تضامنه ، رفض أن يقطع اضرابه قبل غيره من المعتقلين . وفي اليوم العاشر ، رضخت السلطة واخرجته من المستشفى الذي كان قد تم نقله اليه .

وجد في الزمالك دعوة من المكتب الخاص ، وهو جهاز بوليسي مكلف بمكافحة الشيوعية . كان مديراه ، سليم زكي باشا ـ قائد الشرطة المصرية لاحقاً ـ وعمر حسن ، قد حصلا على تكوينهما في موسكو (كانا يتكلمان الروسية بطلاقة) على يد الشرطة القيصرية المشهورة ، الأوخرانا . وقد استقبله عمر حسن برفق ، وقال له : « انت تعرف ما اكنه من مشاعر الصداقة حيال اهلك ، وانا اعترف لك بما لديّ من عظيم المودة حيال نشاطاتك

الاحسانية . لكن لماذا تضيع وقتك مع هؤلاء الشيوعيين ؟ لن تتوصل الى اي شيء . وعليك ان تفهم ان كل نشاطاتك معروفة لديّ في ابسط تفاصيلها . ليس بين اعضاء مجموعتك مخبر او اثنين فقط يعملان لحسابي ، بل انت محاط بأناس في خدمتي. صدّقني : أوقف العمل السياسي الذي لن يصل بك الى أي مكان واكتف بالعمل الاجتماعي .انا أعرف كل ما فعلته من خير لصالح الفلاحين العاملين عند السيد والدك. هنا يكمن مستقبلك : في العمل الاجتماعي » .

امتنع هنري كورييل عن الإجابة بأنه حين استولى البلاشفة على السلطة عام 1917 ، وجدوا في ملفات الأوخرانا البراهين الوفيرة على ان شرطة القيصر السرية كانت تعرف كل شيء عن منظمتهم ، وعن نزاعاتهم الداخلية ومخططاتهم للعمل ؛ وبأن كل ذلك لم يحل دون الثورة .

جرى إخضاعه لنظام المراقبة الادارية . هذا النظام المطبّق في الأصل على المجرمين العاديين وحدهم ، الذين كانت جرائمهم تُقتَرَف في الليل بوجه خاص ، كان يجبر الشخص الخاضع له على البقاء في بيته من السادسة مساء الى السادسة صباحاً ؛ كان رجل شرطة يمر مرتين كل ليلة على بيت المعني ليتأكد من حضوره . والمناضلون المصريون الذين خضعوا للالتزام نفسه ، يحتفظون بذكرى كابوسية عنه لأنه كان على الشرطي الليلي ان يتحقق من هويتهم قسراً ، وكان اضطرارهم للاستيقاظ فجأة مرتين في الليلة الواحدة يؤدي الى اضطرابات عصبية منهكة مع الوقت .

إلا أن واحداً من آل كورييل كان يتخلص طبعاً من هذه التنكيدات . فالشرطي ، الذي كان يتلقى أجراً ضئيلاً ، كان يحضر الى باب الخدمة في فيلا الزمالك ؛ وكان احد الخدم يجلسه في غرفة الخدمة ، ويقدم له وجبه مأخوذة من فضلات مائدة الاسياد ، ثم يضع له عشرين قرشاً في يده ، وكان الرجل الطيب يجتاز باب الخدمة مجدداً وهو يفيض تشكرات بعد أن يكون وقّع على سجل المراقبة الذي يؤكد مروره . كان هنري كورييل قد عاد منذ وقت طويل الى شقته الخاصة ، وكانت الحيلة مستمرة ، بتواطؤ من الجميع ، وكان الشرطي المكلف بالتحقق قد أصبح جزءاً من العائلة حين تقرَّر اخيراً في المقامات العليا رفع الرقابة الادارية . كانت هذه الرقابة قد دامت ثلاث سنوات .

كل ذلك في فترة العلمين وفي حين كانت تدور احدى المعارك الثلاث الأساسية في الحرب العالمية الثانية . . . يقول شحاته هارون : « مصر في منتصف الطريق بين كافكا وكورتلين » . ويعلق ريمون اسطمبولي بصورة قاتمة فيقول : « المضجر هو انك لا تعرف ابداً في أي جهة انت » .

ان سجن زيتون ، المبرمج لأجل خاتمة كافْكَوِيَّة ، انتهى عند كـورتلين بفضل انتصـار مونتغومري .

****

عند الانطلاق من محطة الأُقصُر ، على النيل ، علمت من عدد لجريدة لوموند ، ملقى على طاولة في الصالة ، بوفاة ليوبولد تريبير ، قائد الأوركسترا الحمراء قديماً .

كنت احبه . وهو كان يحبني ، على ما أعتقد .

دعاه من عملوا معه بالقائد الكبير . وكان مرتبطاً طيلة حياته بأمور كبيرة : وُجد في فكر هتلر وستالين ، وعاش بعد وفاتها . كان ثورياً محترفـاً ، والقائـد العبقري لشبكـة تجسس ، ونزيلاً لسجن لوبيانكا طوال عشر سنوات ، وضحيةً عام 1970 للهستيريا المعادية للساميـة في بولندا ، وقد توفي إذن في القدس ليأتي الجنرال شارون ، وزير الدفاع الاسرائيلي ، فيضع على نعشه ميدالية أبطال النضال ضد النازية . كان يحب ان يقول إن « الحياة ملأى بالمفاجآت » . والموت أيضاً .

كان يشارك هنري كوربيل احتقار الآثار القديمة . لم يصعد هنـري يومـاً النهر العجيب الذي يحيط به التاريخ . وعام 1966 سألني تريبير ، ملقياً نظرة مندهشة على سائحي بومباي : « لكن ما الذي يثير اهتمامهم في هذه البيوت الخـربة ؟ » (كـان سيُمْضي ، متأخـراً عشرين عاماً ، شهر عسل في كابري بصحبة حبِّهِ في زمن الحرب . رأيته في فندق نابولي ، قبل الانطلاق لرؤية خرائب كنت اعتقد أنها قد تثير شغفه ، يمزق طرف الصحيفة الـذي كان خـربش عليه رسوماً آلية ، ويحرق المِزَقَ في منفضة كبيرة . سألته : « لماذا ؟ » ، فأجاب : « ينبغي عدم ترك آثار إطلاقاً » . إنه رجل علمني الكثير) .

كان لديهما المحامي ذاته ، ليو مـاتاراسـو . تريبـير ، ليدافـع عن شرفـه في وجه مـدير الـ DST ، ويحرز النصر ، وكوربيل ليغسل ذاكرته من بعض لطخات الريشة .

وكانا يشتركان في حب أقربائهما لهما .

وفي نهاية المطاف ، كانا يشتركان في مودتي حيالهما .

كانت الأجهزة الغربية تعتبر تريبير ميتاً منذ عشرين عاماً ، حين بدأت استقصائي حول الاوركسترا الحمراء . وبما أني بعثته حياً ، انا الذي كان لي عمـر ابن له ، فقـد منحته ولادة

جديدة . هكذا كانت بيننا علاقات أب بأب . وليست هذه العلاقات هي الأكثر بساطة ،ولا أقل متعة .

ومن الغرابة بمكان اني سمعت للمرة الأولى باسم كورييل يوم اغتياله . فحين انتزعته الصحافة بعنف من الظل ، في حزيران 1976 ، كنت على متن سفينة لشحن الموز وسط المحيط الأطلسي . وكانت التقلبات اللاحقة قد فاتتني . والاغتيال بالذات لم يهزّني ، فلقد كنت أنجز كتاباً . (حرب نووية ؟ موافق . لكن بعد النشر) .

بعد أربعة اشهر ، في ايلول 1978 ، كان قد صدر **Le Pull- over rouge** ، وقد رأيت عملاقاً يدخل باب ناشري ، وكان يبدو أنه يبحث عن واحد يصطدم به ، وكانت بصحبته امرأة تغرورق عيناها بالدموع . وقد سألاني إذا كان يهمني ان أكتب كتاباً عن هنري كورييل . يا لهما من كائنين طيبين . كل عام ، كانت تصلني ما بين عشر رسائل وخمس عشرة رسالة ، يرد فيها الكلام التالي : « أنت داهية محظوظ : لقد عشت حياة بالغة الإثارة وقررت ان اكلفك بمهمة كشفها للعالم » . كانا مستعجلين . في رأيهما أن اصداراً يتم في الأشهر الاثني عشر اللاحقة سوف يلقى الترحيب. لكن تمر ثلاث سنوات ، على الأقل ، إلا في حالات استثنائية نادرة ، بين الالتقاء بموضوع ما وكتابة السطر الأول . أي ما يكفي من الوقت للجولان حول الموضوع ، والافتتان به ، فنبذه فاستعادته . . . وفي الأخير ، وضمن حالة من خمود الهمة ، الشروع بالكتابة لأنه ليس ثمة طريقة اخرى للتخلص منها . الناس لا يعرفون . وقد أضاف الاثنان ، مخرِّبَيْنِ ملفهما بدون داع : « طبعاً ، ليس في وسعنا ان نقول لك كل شيء » . لو ان المرأة لم تجهش بالبكاء (كان الرجلُ يلقي عليها نظرات مودة غاضبة) لكان الحديث انتهى عند هذا الحد . لم يكن يمكنه ان يقول لي كل شيء « لأن العمل كان مستمراً » . سوف يستمر في الواقع حتى التوقيف الذي طال في 5 حزيران 1980 كلاً من ماريا آمارال وجان فيليب ايلانتكوفسكي ، اللذين كانا قد حملا المشعل بشجاعة بعد مصرع هنري ، والحكم عليهما بسبب تزوير أوراق . لكن كان بامكاني أن أحصل قبل ذلك التاريخ بوقت طويل على الأسرار الأخيرة وملفات المحفوظات . لقد كانا مناضلين جيدين بحيث لا يجهلان ان الحقيقة وحدها ثورية . وكنت كاتباً كفاية بحيث أعرف ان الحقيقة وحدها مثيرة ، في مواضيع من هذا النوع .

لقد انتزع مني ألمهما القاسي شجاعة أن أقطع على الفور . إن ألم الرجل ، وهو ألم أقلّ بروزاً للعيان ، كان اشد تأثيراً . كانا قد ادخلا المأساة الى القطعة . لكن بما اني كنت خارجاً من مأساة جريمة قتل قضائية ، لم اكن احس لديّ القوة لاستئناف العمل في الاغتيال السياسي .

وقد وافقت ، بجبن ، على حل يؤجل الرفض المحتوم الى وقت لاحق . كان لهنري كورييل ابنة خال شابة ، هي سيلفي بريبان ، متخرجة حديثاً من مركز تكوين الصحفيين : سيكون عليها ان تبدأ البحث ، وتمهد الطريق . التقيت الآنسة ، فرأيت الحيوية في نظراتها ، والرشاقة في كلامها ، لكنها لا تزال في الثانية والعشرين من العمر . وقد تمنيت لها النجاح بنوع من الرياء .

روى لي خوري قريتي ، فيما مضى ، ما يلي : « ما أن استلمت مهام عملي الرعائي حتى جاء في إثري من يطلبني لاعطاء الأسرار الأخيرة لشخص يُحتضَر . وقد حذّرتني العائلة مسبقاً : « هذا الشخص فاقد الايمان ، ومناهض للاكليروس ، وهو لا يريد كاهناً ، لكننا نلتمس منك المجيء » . فقلت في نفسي : « الأمور تبدأ بشكل جيد » . حين رآني المحتضر ادخل غرفته ، دار على نفسه وانزوى ، رأسه الى الحائط . فجلست إزاء هذا الظهر المُدار ، ولكي أتمالك نفسي شرعت أتلو « الأبانا » بصوت عال . وما ان وصلت الى منتصف الصلاة حتى رأيت الرجل يتحرك ، ويستدير نحوي ببطء . وقد أكملت ، واصلاً « الأبانا » بـ « السلام عليك يا مريم » ، التي انهيناها معاً ، لكنني كنت اصرخ في نفسي ، متهللاً ومشدوهاً : « الأمور تسير سيراً حسناً ! الأمور تسير سيراً حسناً ! » .

ساعدني التحقيق الذي اجرته سيلفي بريبان على الانطلاق . لقد كانت قاطعة في مقابلاتها ، مستبسلة في الحصول على الجواب الصحيح عن الأسئلة الجيدة ، موسعة استقصاءاتها فلا توفر شيئاً أو أحداً ، بحيث يمكن ان يقول المرء إنها كانت تعرف بصورة غريزية - هي الفتيَّة الى هذا الحد والتي لم تنشر شيئاً بعد - ان كتاباً عن كورييل أهم من كورييل . يا لها من موهبة ! .

بعد مرور 18 شهراً ، كانت طريقي ممهدة . ولم يبق الا أن اقوم بتحقيقاتي بنفسي ، التي سوف تدوم ثلاث سنوات .

* * * *

سوف تتذكر روزيت ، طيلة حياتها ، العام 1943 كالعام الذي عاشا فيه أسعد أيام حياتهما .

كانا قد انتقلا الى الطابق الثالث عشر من احد أعلى مباني القاهرة في تلك الأثناء ، 33 ، شارع عبد الخالق سرواط ، في قلب الحي الأوروبي ، على مقربة من مصرف كورييل ومن

الرونبوان. وكانت تضاف الى غرف الشقة الأربع مصطبة واسعة وممتعة . كانت الاطلالة على القاهرة وعلى خواصر الجبال الصخرية التي تحيط بالضواحي الشرقية على درجة عالية من الروعة . كانت خادمةٌ ، يساعدها فتى صغير ، يؤمنان الأعمال البيتية . أما أثاث المنزل ، المختصر ، فقدمه الوالدان كورييل .

كان هنري يعمل كل صباح في المصرف الوالدي ، ويقبض اربعين جنيهاً في الشهر . وكانت روزيت تستيقظ مثله في السابعة صباحاً ، فتمضي فترة ما قبل الظهر في البعثة الفرنسية، تجاورها في المكتب مارغريت فويو ، خطيبة بوانتيه . وبعد الظهر كانت تعمل في المكتبة او في الصداقات الفرنسية . كانت تكسب 15 جنيهاً في الشهر ، الأمر الذي يؤمن لـهما دخلاً شهرياً مقداره 55 جنيهاً . لم يكن ذلك يعني الترف والازدهار (فجوزف هازان كان يكسب مئة جنيه ، في وضعه كمهندس زراعي مبتدىء وأعزب) ، إلا أن حياتهما كانت متواضعة . بقي هنري نباتياً ، يتبنى نظام حمية صارماً دعا اليه شخص يُعرَف بالدكتور كارتون ، وكان عصير الجزر الجزء الأساسي من تغذيته . وعندما كانت تَحْدُث صعوبات مالية ، كان الأهل يقدمون العون .

لكن العائلتين كانتا بائستين . فدانييل كورييل ، « الرأسمالي الواعي » كما تقول روزيت ، لم يكن يتوصل لتفهُّم مبررات ابنه الأصغر . كان يعتبر ان التزام هنري السياسي نوع من الخيانة ـ خيانة طبقية كان يحس بها بالقدر من الغضب والألم الذي يرافق احساس آخرين بالخيانة الوطنية . أما زفيرا ، الأكثر تحسساً بالحوافز الانسانية لدى هنري ، فكانت ممزقة بين زوجها وابنها .

لم يساهم راوول في بعث الانشراح في المناخ العائلي حين اعلن ذات صباح قراره ترك المصرف . لم يعد يستطيع التحمل . كانت علاقته العصابية بالمال تجعل من كل يوم كابوساً لا ينتهي ، وكان لديه الشعور المبرَّر على الأرجح بأنه أتعس موظف بنك منذ اختراع الفينيقيين المال . وقد بدت آثار الصَّدمة على دانييل كورييل . فبعد خيانة الابن الأصغر ، كان ارتداد الولد البكر يعني ان العمل العائلي سيزول بزواله وقد جاء رد فعله شبيهاً برد فعل اي والد . قال له : « حسناً . يمكنك ان تستمر في السكن معنا لكن لن تحصل على قرش واحد » . وقد شعر راوول بالاحباط والخوف لحظة (« لم تراودني يوماً فكرة انه سيكون عليّ ان اكسب عيشي في يوم من الأيام ») الا انه وجد منصب استاذ للتاريخ والجغرافيا في الليسيه الفرنسي في هيليو بوليس ، بضواحي القاهرة . وقد عجز في نهاية الشهر الأول عن اتخاذ القرار بالتقدم لقبض راتبه مما اضطر مدير الليسيه لأن يهدده بصواعق التدابير الادارية كي يرضخ أخيراً فيطلب حوالته المالية . لم يكن مجهزاً حقاً للتعاطي بالمال . في العام التالي ، دخل كأستاذ للأدب في

الليسيه الفرنسي بالقاهرة ، وارتبط بشكل وثيق ببعثة فرنسا الحرة ، وبناء على نصيحة من جورج غورس ، انطلق في سلسلة من البرامج الاذاعية الموجهة للبحارة الفرنسيين المحيَّدين في مرسى الاسكندرية . (الكثير منهم التحقوا بديغول ؛ وقد نظم هنري كورييل استقبالهم ، وهو ما سيدفع بعضاً من المشهرين به الى ان يكتبوا ، بعد أربعين عاماً ، انه انشأ في مصر « شبكته الأولى من الفارين من الجندية ») . ولقد أدّى نجاح راوول الاذاعي ـ كان صوته الخفيض والحار مدهشاً ـ الى رفض طلبه التطوع في القوات الفرنسية الحرة . وقد راوده الأمل بتجاوز المنع حين وضعه تقدم رومل في القطار المتوجه الى فلسطين ، لكن قنصل فرنسا في القدس حرص على ان يطلب برقياً موافقة مقر القيادة الديغولية ، في لندن ، وتلقى جواباً سلبياً جافاً يذكِّر بجنسية المرشح الايطالية . . . وحين عاد الى القاهرة محبطاً وغاضباً ، عجز عن اقناع صديقه غورس بالتدخل من اجل رفع الحظر ووجد نفسه على متن طائرة مسافرة الى برازافيل ، عاصمة فرنسا الحرة ، حيث كانوا يحتاجون لمذيع جيد في محطة الاذاعة الديغولية . واذ دهشت مصلحة الأمن العام الفرنسية بأن ترى مواطناً لدولة معادية ينزل على أرض المطار ، لم تتراجع عن فكرة احتجازه إلا بناء على إلحاح الحاكم ايبويه . وقد ارتبط راوول بعلاقة صداقة مع فيليكس ايبويه ، وأعطى دروساً في الفلسفة لابنته ، التي ستصبح الزوجة الأولى للرئيس اللاحق سنغور . لكن برازافيل ستكون بوجه خاص مكان التقائه بعالم الأثريات المرموق دانييل شلومبرجر ، المدير المساعد للاذاعة ، الذي يدين له بالتوجيه الحاسم لحياته . فاذا استثنينا اقامة قصيرة عام 1944 ، لن يرى احد راوول مرة اخرى في الزمالك .

إذا لم يكن اهل روزيت يقدرون اطلاقاً التزام ابنتهم السياسي ، فان مجونها بوجه خاص هو الذي كان يحزنهم . فالجالية اليهودية كانت تفرض على بناتها قانون سلوك صارماً بهدف جعلهن يبلغن الزواج ولهنَّ سمعة العذارى . كانت الانحرافات الحتمية تغطي نفسها بالنفاق . اما هنري وروزيت ، فحين باتا عاشقين ، بعد لقائهما بعامين ، لم يهتما باحترام اللياقات . واذ كان يذعر والدَيْ روزيت ان يرياها تعود الى المنزل في ساعات غير مناسبة ، فقد أفرطا في توجيه الاتهامات لها وفي حضها على الزواج . وقد اتعبها ذلك ، فضربت ضربتها بأن غادرت المسكن العائلي لتقيم في غرفة مفروشة . كان ذلك عام 1940 ، وكان عمرها 26 عاماً . ولقد كانت الفضيحة عظيمة ، إذ لم يسبق ان تصرفت فتاة يهودية في القاهرة بالطريقة هذه . أما الأهل التعساء فشربوا الكأس حتى الثمالة حين اقام المتخادنان في بيت جديد صراحة ، كما لو كانا يريدان ان يتحديا من اعالي الطابق الثالث عشر التقاليد المتعارف عليها والحياء . كان هنري وروزيت ينظران الى الزواج على انه مؤسسة بورجوازية مدعاة للسخرية الشديدة .

تزوجا في 28 شباط 1943 ، وقد بارك زواجهما حاخام القاهرة الكبير الذي شرَّف

بحضوره الاستقبال الحافل في جنائن الزمالك . ففي نهاية مسار بقي غامضاً ، قرر هنري ان الـزواج ينطوي عـلى مصلحة سيـاسية ، وإن كـان عفا عليـه الزمن . ومن المـرجح ان الغم الحقيقي الذي ساور اهل روزيت لعب دوره ، بالاضافة الى التمني الـذي غالبـاً ما عبّـر عنه دانييـل كورييل بأن يكون له حفيد (للأسف فإنه لم يكن بإمكان كنته ان تلد) .

كـان ذلك نهاراً حـزيناً بـالنسبة للعـديد من الشـابات . فحـين نسمع اليـوم تعليقات صديقات هنري الجميلات ، ونـلاحظ مرحهـا المدهش ، البـاقي سليماً بعـد 40 عامـاً ، من السهل ان نتخيل المحادثات الغدارة على انفراد ، خلف تلال الزهور في الزمالك . ثمة تفصيل معبِّـر : ما من واحـدة الا وتتذكـر ، على سبيـل السخريـة ، ان هنـري وصـل متـأخـراً الى الاحتفال ؛ كان ذلك هو البرهان على أنه وجد صعوبة في ترك نفسه يعلق في شباك روزيت ، وكانت تعليقات الصديقات الطيبات تتلخص بجملتين : « لكن ما الذي يجده فيها ؟ » و « لن يدوم هذا» . الا أن الزمن سوف يثبت ان هنري وجد كائناً لا عيب في حبه؛ ولقد دام ذلك الحب.

*

* *

لقد جعل الحاخام الأكبر ينتظر لأنه كان مرتبطاً بموعد مهم . كـان الجزء الأسـاسي من نهاراتـه مخصصاً للقـاء بعض الناس ، وإقنـاعهم ، وكسبهم . كان يخـطط لتـأسيس حـركـة سياسية : لم يعد المقصود خلق نادي نقاشات او حلقة دراسات ، بل بناء منظمة للعمل .

سوف يقول بعد مرور وقت طويل ، في خريف حياته ، إن قراره الانصراف كلياً للحياة النضالية يعود لـ 22 حزيران 1941 . كان عائداً من الريف في القطار وكان يقرأ كتاباً عن التربية في الاتحاد السوفياتي . النضال ضد الأمية ، تكـوين حشد من المهنـدسين والتقنيـين ، انفتاح شعب متخلف على الثقافة : لقد كان كشف الحساب السوفياتي مثيراً ، لا جدال فيه ، وكانت كل صفحة من الكتاب، مقارنة بالواقع المصري المأساوي ، كما لو انك تقارن النهار بالليل . حين نزل هنري كورييل من القطار وجد محطة القاهرة وقد اهاجها خبر مثير : اجتاحت المانيا النازية الاتحاد السوفياتي ، وكانت إذاعتها بدأت تذيع بيانات خاصة تعلن عن انتصار لا مثيل له.

سـوف يقول لجـان وسيمونّ لاكـوتور : « لقـد ولدت الشيـوعيـة في مصر من مـدفـع ستالينغراد » . بالنسبة لمن عاش ، ولو طفلاً ، تلك الفترة في فرنسا المحتلة ، والذي اغرورقت عينـاه بالـدموع حـين صمدت بـير حكيم 16 يومـاً أمام رومـل ، واحتدم قلبـه حـين حـطم مونتغومري الأفريكا كوربس في العلمين لأن ذلك كـان النصر الحقيقي الأول ضد هتلر بعـد عـدد كبير من الضـربات المتصلة التي لا يمكن نسيـانها ، ومن الانسحابـات الاستراتيجيـة ،

والاخلاآت المؤقتة (لم يكن هتلر قد نجح في إركاع لندن ولا في الاستيلاء على موسكو ، لكن لم يحصل في أي مكان حتى ذلك الحين ان تصبب عـرق الهزيمـة والخوف من أجسـاد جنوده) ، بالنسبة لهذا وبلا شك بالنسبة لكثيرين غيره ، يبقى الانطباع ـ ربما المبالغ فيه ـ بأن الأجانب في مصر استقبلوا النصر البريطاني باعتدال ورصانة . هل كانوا قد تماهوا مع الشعب المصري الى حد أن ذلك النصر بقي نجاحاً انكليزياً ، إذن ملتبساً ، في حين أن حياة معظم الناس وأملاك الجميع كانت تتوقف عليه ؟ لا يمكننا تصديق ذلك . لكن الواقع قائم هناك : حتى بالنسبة لمن كان الميل الى الشيوعية لديه في بدايته ، هذا إذا لم يكن غير موجود ، فـإن مدفـع ستالينغـراد البعيد طمس الدوي القريب جداً لمدفع العلمين. ذلك انه لم يكن ينبىء فقط بانتصـار ، بل كان يكشف ايضاً حقيقة بلد .

عام 1932 ، كان عمر جوزف هازان 15 عاماً وكان يُعدّ الباكالوريا القسم الأول. كان يبدو كطائر في غير سربه لأن أهله سجلوه في مدرسة عربية. ذات يـوم، اخرج عمـه ساعتـه الذهبية، فاندهش جـوزف، إذ كان المعـدن ابيض. فأوضـح العم قائـلاً: «انها من الذهب الابيض الموسكوبي. » فسأل جوزف بسذاجة عن معنى «الموسكوبي». اندهش العم بدوره حين اكتشف أن التلميذ الذي سيحوز قريباً شهادة الباكالوريا يجهل وجود موسكو. كانت تظهر في مكان الاتحاد السوفياتي، على خرائط كتاب الجغرافيا الخاص به، لطخة بيضاء كبيرة، دون أي إشارة، لا الى مدينة ولا الى نهر، تماماً كما الحال مع الأراضي المجهولة في الزمن الماضي. قال: «كان الاتحاد السوفياتي لا ـ بلداً. لم يكن ينبغي تسميته. كان ذلك سحرياً. »

ما كان يقال عنه، حين يجري الكلام عليه، كان على مستوى من العبث لا مثيل لـه، حتى في أيامنا هذه. كانت مقالات الصحافـة والمحاضـرات تصف بلداً على وشـك الانهيار. خربته سياسة اقتصادية شاذة، في حالـة نكوص متسـارعة، لكن كـذلك مجتمعـاً منصرفـاً الى الفسق ـ وكان هذا يشكل نوطة فريدةً، مصريةً بشكل خاص، في اللحن المناهض للسوفيات ـ بالإضافة الى فئة حاكمة تُكَرِّس طاقتها لاختراع انحرافات اكثر فأكثر غرابـة، وجماهير تنسى مآسيها اليومية في طقوس عربدة جنسية حيوانية بشكـل مطلق. كـانت مصر ذات الحياء تهلع أمام تلك الأوصاف الخيالية، ونادراً ما كان يجد المرء أناساً يخامرهم الشك. فبالنسبة للشعب بكامله تقريباً، وللغالبية العظمى من البورجوازية، الكبرى او الصغرى، كانت المدينتان اللتان ينبغي كتابة اسميهما بالأولوية على الخرائط البيضاء للاتحاد السوفياتي هما سدوم وعمورة، وحين شنَّ هتلر الحرب الخاطفة على الشرق، لم يشكَّ أحد في أن النار المطهِّرة سـوف تحرق الـوجار الشيوعي.

بدت الأشهر الأولى تؤكد ذلك. ولم يعدّل الفشل أمام موسكـو من طبيعة التشخيص:

فالجنرال شتاء هو الذي أنقذ المدينة الحمراء. إلا أن ستالينغراد غيّرت كل شيء. كان بلد عاث فيه الغزو فساداً، وجرى احتلال مراكزه الصناعية الرئيسية، قد عبأ امكانات اقتصادية كافية لامتصاص الصدمة في مواجهة المانيا التي كانت تشتغل لحسابها مصانع اوروبا المحتلة. إن شعباً متجمعاً، ومُكَهْرَباً، استطاع بذراع حديدية لا مثيل لعنفها أن يلوي العملاق النازي. لم يكن يمكن بالتالي أن يشبه هذا البلد وهذا الشعب كاريكاتوراتها البشعة.

كان انكشاف الحقيقة مثيراً بقدر ما كان غير متوقَّع. وهو سيفسر الموقف المصري حيال الاتحاد السوفياتي بعد سنوات الحرب بوقت طويل. لقد قال جوزف هازان: «إن الاستعمار دفع غالياً ثمن إخفائه الاتحاد السوفياتي عن أعيننا».

عام 1940، جرى طرد شحاته هارون، الطالب في كلية الحقوق، من الجامعة لمدة شهر. كان يشهد مظاهرة جمهور من الشبان المطالبين بالاستقلال، حين رأى رجال الشرطة يضربون أحد رفاقه فهرع لنجدته. وخلال التحقيق اللاحق، حضر استجواب الطالب الذي تعرض للعنف. سئل الطالب: «هل أنت من حزب الوفد؟» فأجاب: «كلا، بل أنا شيوعي». للمرة الأولى سمع شحاته، ابن العشرين عاماً، المتردد على أوساط يُفترَض أنها مستنيرة، والذي في متناوله مصادر إعلام عديدة، سمع كلمة « شيوعي ».

اول أيار 1946. ينتهي العرض التقليدي، بالنسبة لجوزف هازان، في المفوضية. يجد هناك الجمهور المعتاد من المتسولين الصغار وجامعي أعقاب السجائر الذين اعتقلتهم الشرطة. احتج زقاقي صغير طويل القامة على توقيفه، فوجه شرطي صفعة قوية الى عنقه ـ وهي حركة مهينة في مصر مثل ركلة في القفا عندنا، فاستدار الفتى وصاح بالشرطي: «غداً» حين يصل ذو الشاربين، سوف ترى من سيصفع من!» كان أميّاً، وهو لم ير أي فيلم سوفياتي، لكنه كان يعرف شارب ستالين.

قبل ستالينغراد، كان يتم النظر إلى شيوعيي مصر النادرين على أنهم أعضاء بدعة غريبة ربما تمكنت من أن تثير القلق لولا أنه لا مستقبل لها إطلاقاً. وبعد ستالينغراد، باتوا يستندون بظهرهم إلى الهيبة الهائلة للجيش الأحمر ويشكلون الطليعة المصرية لحركة شيوعية ينبىء اندفاعها بأنها لا يمكن مقاومتها. كتب تشرتشل في مذكراته، على سبيل الأسف بالطبع: «كانت الشيوعية ترفع رأسها خلف الجبهة السوفياتية، المزمجرة بدوي المدافع: باتت روسيا هي الفادية، والشيوعية الانجيل الذي تحمله معها».

الساعة ساعة العمل.



كان يجلس عموماً لدى غروبي ، وهو صالون شاي مشهور في كل حوض البحر المتوسط، أو في بار بيغ بن ، شارع سليمان باشا . وإنه لقليل القول بأنه لم يكن يثير من اللحظة الأولى حماس محادثيه . من الناحية الجسدية، كان يفاجىء الآخرين بنحوله غير المعقول وبلوزته ذات الاكمام القصيرة، وسرواله القصير المضحك وحذائه المسيَّر. وكان يتعارض مع بساطة اللباس التفاخرية سلوك معقَّد، مع تلميحات ملتبسة وتضمينات غامضة. ومعظم الشبان الذين كانوا يأتون سعياً وراء الكلام الحكيم كانوا يمضون ولديهم شعور مزعج بأنهم التقوا رجلاً قليل الصراحة والجرأة يروي قصصاً أملاً بأن يجعل الآخرين يؤمنون بشخصه.

التقاه هيلل شوارتز في السابعة عشرة من عمره، وكان مفعماً بحماس ماركسي جمعه من كتاب كوفيلييه : «حين عرفت إحدى بنات عمي أني أبحث عن شيوعيين قالت لي ان في وسعها جمعي بممثل الكومنترن في مصر. كنت في مقتبل العمر وعديم الخبرة لكني فوجئت مع ذلك بمعرفة أن اسم ممثل الاممية الثالثة على كل شفة ولسان في مجتمع القاهرة الرفيع. باختصار، التمست لقاء معه ووجدت نفسي وجهاً لوجه مع هنري كورييل . لم يكن بالطبع ممثل الكومنترن وأنا واثق من انه لم يطلق هذه الاشاعة ـ إذ لم يكن من هذا النوع . لكنه لم يكذِّبها ـ وهو كان من هذا النوع .

جوزف هازان : «اعطاني موعداً في الـ بيغ بن ، وهو بار مترف. رأيت شخصاً بالغ الطول، شديد النحول، محدودباً مثل عنكبوت الحقل. كان يبدو لقاؤه الأول شديد البرودة في حين كان العكس من جانبي . ثم فهمت فيما بعد أن مردَّ ذلك خجله الشديد. وقد تكلمنا، وصدمني ببعض أفكاره، لا سيما بصدد الاصلاح الزراعي . كنت مهندساً زراعياً متخرجاً من غرينيون واندهشت قليلاً حين وجدته يقذفني بقناعاته كما لو كان يعرف شيئاً ما في هذا الصدد. كان يريد تقطيع الارض إلى اقصى الحدود، مع ملكيات تصل الى حدود ربع هكتار، كي يحس الفلاح بأنه مالك. يا لها من هرطقة! كنت بعيد النظر، مع كل الاختصاصيين. وهو كان على حق، بالتأكيد: فالأرض المصرية تتم زراعتها باليد، كبستان. ليس وارداً إنشاء كولخوزات فيها. لكني انصرفت محبطاً للغاية. ينبغي القول إنه خلال كل الحديث الذي دار بيننا، تكوّن لدي انطباع بأنه يريد أن يظهر بمظهر القائد السري الكبير، والشخص الغامض الذي يمسك بالخيوط. كظمت نفسي كي لا أهْزُل. كان ذلك اتصالاً أول مثيراً للاشمئزاز.»

كانت لديه دائماً نقطة ضعف تتمثل في تقديم نفسه للمنتسبين الشباب مغلفاً بالغموض وموحياً اليهم بأن ثمة اسراراً كبرى لديه (كانت تلك ايضاً خطيئة يوانتيه) : وهو تعويض مرجَّح من حياة رتيبة، منظمة مثل مخطوطة موسيقية. واذا كان صحيحاً ان يديه كانتا تشغَّلان اكثر من خيط، في الاخير، فتلك لم تكن هي الحال في القاهرة عام 1943 . لو أنه ولد قبل تاريخ مولده

بعشر سنوات، لم يكن من شك في أنه كان عمل كمندوب للكومنترن، لكن ستالين حل الاممية بالضبط عام 1943 . . . وفي غياب الكومنترن ، بقي التمثيل السوفياتي الرسمي في مصر، وهو امر اقل مهابة بالتأكيد بالنسبة لشاب بورجوازي حساس حيال ما هو خيالي، لكن دعمه يمكن ان يسهّل الى حد بعيد انشاء حركة شيوعية.

هنا ايضاً، فشل الاتصال الاول. فحتى عام 1942 ، لم يكن لمصر علاقات ديبلوماسية مع الاتحاد السوفياتي ـ هذا اللا بلد ـ لكن حكومة الوفد التي فرضتها الدبابات البريطانية ما كان يمكنها أن تتحاشى الاعتراف بحليف انكلترا. ولقد كان تأثر هنري عظيماً حين استقرّت السفارة السوفياتية بالضبط مقابل الفيلا التي يملكها أهله. ولما كان نافد الصبر لإقامة علاقات لكن شديد الحياء بحيث لم يكن ليقوم هو نفسه بالمبادرة، أرسل روزيت بمهمة الترحيب بالرفاق السوفيات والتاكيد لهم بأنه في حال كانوا بحاجة إلى أي شيء فثمة انصار مخلصون رهن تصرفهم في الجهة الاخرى من الشارع. وقامت روزيت بالمهمة لكن قوبلت بالزجر الجاف. ويمكن تخيل موقف الرفاق السوفيات وهم يرون شابة أنيقة آتية اليهم لعرض خدماتها، وقد خرجت من فيلا كورييل، التي لا بد أنها كانت تمثل بالنسبة إليهم النموذج الامثل للعرين الرأسمالي. وبالنسبة لمن عاشر ذلك الجيل الستاليني الفظ، ولو قليلاً، فما من شك كان خامره في أن اسم كورييل وضع للحال على لائحة العملاء الاستفزازيين للمخابرات البريطانية (الانتليجنس سرفيس).

إلا أن روزيت عادت مجدداً الى السفارة، وفتح البواب الباب لها هذه المرة، ليس بصفتها امينة «صندوق السيدة ونستون تشرشل لمساعدة روسيا» (جمعية مرموقة انتسبت اليها على مضض: كانت «روسيا» تتأرج بعطر قيصريتها) بل بصفتها منتدبة رسمياً من قبل البعثة الفرنسية: كان جورج غورس قد قرر الاحتفال بالصداقة الفرنسية ـ السوفياتية عن طريق تنظيم حفلة ساهرة لمناسبة العرض الاول لفيلم سوفياتي في القاهرة. وكانت المناسبةالثانية للدخول في محادثة عبور طيارين فرنسيين في القاهرة وهم في طريقهم الى الاتحاد السوفياتي حيث كانوا سيخدمون في فرقة نورماندیا ـ نييمن . وبما أن جوزفين بيكر كانت هي الأخرى في القاهرة، فقد أحيت البعثة في أكبر ملهى في المدينة سهرة حافلة على شرف نورمانديا ـ نييمن . وقد اهتمت روزيت بقسم نييمن. علق موزيس كوف دي مورفيل فيها بعد وهو يبتسم ، إذ كان على علم بالتزامها السياسي، علّق بقوله: «تدخل السيدة كورييل الى السفارة السوفياتية كما الى بيتها».

ذهب هنري الى السفارة ثلاث مرات بفضل الرونبوان. إن مكتبة تأسست في القاهرة في عز الحرب لأجل نشر الفكر الماركسي كان من الضروري أن تجد في موسكو مصدراً ممتازاً

لتموينها سواء من وجهة النظر الايديولوجية او من وجهة النظر الجغرافية. الا ان المساومات التي افتتحتها الرونبوان بحماس انتهت الى خيبة مريرة: كان الجيش الاحمر أكثر فعالية بالطبع من المصالح التجارية السوفياتية. طلبات تضيع في الطريق، تسليمات يجري تأجيلها الى ما لا نهاية له، اخطاء مستمرة بخصوص البضاعة ـ باختصار كل ما يمكن أن يعود بالأذى على آل كورييل (كان هنري يتأسف بسبب المكاسب الايديولوجية المفتقدة؛ أما والده، دانييل كورييل، فكان يهلع بسبب العجز المالي الكبير الذي كان عليه ان يغطيه من جيبه الخاص). وقد حصلت حادثة مؤلمة بشكل خاص تتعلق بتوصية ضخمة على قواميس روسية ـ عربية. بدل أن يجد هنري وروزيت مجلدات تتيح للشعب المصري أن يمتلك لغة وطن الاشتراكية، احسا بالهلع وهما يفتحان طروداً تضم مئات القواميس الروسية ـ الالمانية. كان الخطأ بلا اساس، في السياق السياسي ـ الاستراتيجي. الا ان هنري الذي تم استقباله في السفارة لأسباب شرعية، لم يلتق السفير، دانييل سولود، بل سكريتير السفارة، عبد الرحمن سلطانوف، القادم من جمهورية اشتراكية اسلامية. وبما أنه جرى فيما بعد تحديد هوية سلطانوف على أنه مسؤول مهمّ في اجهزة الاستخبارات السوفياتية، فان المشهرين لاحقاً بهنري كورييل سوف يحددون انطلاقاً من هذا اللقاء تاريخ تطويعه في جهاز الـ NKVD ، جد جهاز الكا. جي. بي. K.G.B .

كانت المقابلة مخيبة للآمال، بشهادة هنري كورييل بالذات. لم تكن قصة القواميس اكثر من حجة، فلقد كان ينوي القيام بجولة افق مع سلطانوف والبوح له بمشاريعه السياسية. وبالنسبة لشيوعي ، فإن المسعى كان طبيعياً للغاية. لكن المستشار بدأ بالاعلان له ان الاتحاد السوفياتي لا ينوي القيام بأي نشاط في مصر، البلد الذي يجهل كل شيء عنه، وحاول هنري كورييل ان يعرض باختصار رأيه هو وأصدقاؤه بخصوص الوضع والمنظورات المستقبلية. وعرف أنه لم يكن مقنعاً حين قرأ بعد وقت قصير مقالاً لسلطانوف نشرته مجلة موسكوبية يذكر فيه المستشار انه لا لوجود لشيوعيين في مصر. ولم يكن اللقاء الثاني اكثر وداً. وفي اللقاء الثالث، اعلن سلطانوف دون تردد رغبته في أن تتوقف الرونبوان عن توزيع كتب سوفياتية لأن الشهرة التقدمية للمكتبة قد تعرّض السفارة للإحراج. وعاد هنري كورييل الى منزله مذهولاً وكتب مذكرة غاضبة تعيد للذاكرة خيبات الرونبوان، والتضحيات التي قبلت بها، والنتائج المستحصل عليها، وتحذر سلطانوف من انه قد لا يجد في القاهرة مكتبة «بورجوازية» تخلص للقضية العادلة ضمن شروط بهذا العقوق. ولم تترتب اية نتائج على الحادثة، الا انها وضعت حداً للعلاقة بالسفارة. وهو ما أسف له هنري كورييل مراراً كثيرة. كان مستعداً لأن يقدم للسوفيات كل المعلومات التي بحوزته، على كل الصعد، ودون أي تحفظ. كان يعتقد أن حذر السفارة عائد الى جبن مفرط. من المؤكد ان الاتحاد السوفياتي، المغتبط جداً لرؤية باب مصر ينفتح لصالح الحرب، كان يتمنى أن يبقى على درجة عليا من التحفظ كي لا يجفّل الرأي العام

(في الفترة ذاتها قرع شيوعيون شباب في الاسكندرية باب القنصلية السوفياتية بحماس ووجدوا انفسهم يتعرضون للصرف بطريقة مماثلة). وإذا كان سلطانوف يجهل مصر فقد كان يعرف على الاقل ملف الحزب الشيوعي المصري الميت، واختراقه على يد الشرطة، واللغز غير المحلول المتمثل باختفاء عدة مندوبين للكومنترن نهائياً، وفي محيط إشكالي الى هذه الدرجة، كانت القاعدة لدى المصالح السوفياتية ـ ولدى أية مصلحة ـ أن تشتبه بكل عروض المساعدة التي تعلن عن نفسها كما لو كانت بتولد ذاتي، وأن ترفض التطويع بموجب ترشيح. لو كانت الشروط مختلفة، ولو ان سلطانوف سبرغور هنري كورييل فكشف فيه قدرته البديهية على ان يصبح عميلاً من طراز رفيع، فلا ريب أن عرضه كان لقي قبولاً من دون اي تردد.

والواقع ان هنري كورييل لم يفكر، في ذلك الحين، حتى بفرضية كهذه. كان قد اعتقد ان معلوماته عن الوضع السياسي المصري قد يكون من شأنها ان تنير القادمين السوفيات الجدد. كان يأمل بوجه خاص الحصول على الرأي والمشورة والدعم بصدد الهدف الطموح الذي حدده لنفسه: تأسيس منظمة شيوعية.

لقد تركه عبد الرحمن سلطانوف في وحدته.

*

* *

الحركة المصرية للتحرير الوطني (ح م ت و).

«حركة» على سبيل التواضع والواقعية. كان يكفي قبل حل الأممية الثالثة منذ وقت قصير أن يبدي 50 شيوعياً في أي من البلدان الحد الادنى من الجدية ويقبلوا بالاطروحات اللينينية المعروفة من اجل الاعتراف بهم كـ «حزب». يصبح هذا الحزب فرعاً للأممية، ويطبق التكتيك والاستراتيجية اللذين يحددهما الكومنترن، ويتلقى النصائح او التوبيخات، ويستقبل مستشارين سريين الى هذا الحد او ذاك يأتون ليضعوا في خدمته تجربتهم الثورية. هذه الطريقة كانت قد انتهت. ينبغي الاختراع، والسير تلمُّساً، والتجريب. كان يجري التحرك إذن باتجاه حزب شيوعي، لكن هذا الحزب لن يولد إلا في نهاية ما كان يسميه هنري كورييل «فترة رحمية»، بعد اشتغال طويل ومرير على نفسي يتم انجازه على مراحل. لم يعد يكفي، ازاء الفراغ الذي تركه زوال الكومنترن، خلق حزب: ينبغي بناؤه.

كان بديهياً أن يكون هذا الحزب «مصرياً». فالحزب الأول زال عام 1924 لأنه لم يخرج من غيتو «الاجانب». ولا شك أنه كانت لاختيار الكلمة قيمة تعزيمية لأن المؤسسين، وعلى

رأسهم كوربيل، كانوا ينتمون هم ايضاً الى الجاليات الاجنبية. كان هـذا الاختيار يشـير على الاقل إلى ارادة التمصير المفرطة.

كان يمكن تصور صفة «الشيوعي». وقد كان ذلك موضوع نقاش طويل. وجرى التخلي عن هذه الصفة لأسباب ثلاثة. فداعي الأمن ينصح به لأن الشيوعية كانت خارج القانون في مصر. كما أن الفعالية قد تعاني من علامة تنطوي، وفقاً لدعاوة مجنونة، على شرور وانحرافات جنسيـة. وكانت الـواقعية تقضي بعـدم استخدام تعبـير يخاطـر، حتى من دون قـرنـه بلفـظة «حزب»، بجعل الجماهير تعتقد بأن طليعة باتت مستعدة لقيادة صراع الطبقات.

كان «التحرر الوطني» يشكل الاسهام الفريد لهنري كوربيل، فكرته المركزية، القناعـة الوحيدة لهذا المنتسب الجديد الذي يسبح في اوقيانوس من الشك لأنها الوحيدة التي ولدت من التجربة. كان قد قاسى الشعور بالاذلال الوطني الذي عانى منه كل المصريين إبان الامر الذي جرى فرضه على الملك فاروق تحت تهديد المدافع الانكليزيـة. كان في القـاهرة، عـلى عكس الكثيرين غيره، حين هتف آلاف المتظاهرين في الشارع باسم رومل. لم ينس صحبه في معتقل زيتون المستعدين للسير مع ادولف هتلر ضـد ونستون تشـرشل. كـان التطلع الى الاستقـلال يشكل الجامع المشترك الاكبر، ورفض أخذ ذلك بالاعتبار يعادل الانتحار السياسي. بينما يتيح ركوب الموجة، على العكس، تجنيس مذهب ومناضلين منظور اليهم على انهم أجانب. وسوف يرد كوربيل على الاتهامات بالانتهازية التي لن يتأخر توجيهها، وعلى اولئك الذين سيأخذون عليه تذويب الجبهة الطبقيـة في خليط قومي حيث سيجـد الشيوعيـون انفسهم متورطـين الى جانب البورجوازية الكبرى لحزب الوفد، سوف يرد بعبارة لينين: «الامبـرياليـة اعلى مـراحل الرأسمالية»، كان النضال ضد الرأسمالية في مصر، البلد التابع، يمر بالمعركة ضد الامبريالية.

ومن الغريب أن تحديد البرنامج السياسي كلّف من التعب اقل بكثير مما كلفه تحديد البنى الداخلية للحركة وقواعد عملها. كان يكفي النظر الى مصر للاجابة عن سؤال: «ما العمل؟» وقد كان وضع النظام الداخلي اشد صعوبة. فالاجتماع على مصطبة الغروبي او في الصالـون الوالدي للنقاش في الماركسية كان شيئاً، وكان بناء منظمة سرية فعالة شيئاً آخر. هل كان ينبغي الابقاء على الشيوعيين التاريخيين القدامى المعروفـين لدى الشـرطة، والمعتقلين مـراراً، خارج الحركة من قبيل الاحتراس؟ هل يكفي تقديم طلب انتساب من أجل قبول المرشـح او سوف يُفرض على المنتسبين لاحقاً امتحان ما؟ كيف سيتم التوفيق بين الديمقراطية الداخلية والامن؟ اية سيرورة ينبغي تبنيها من اجل اختيار كوادر الحركة؟ اين العثور على المال والمطابع والورق الضروري للدعاوة؟ أي مسار ينبغي اتباعه لتحقيق التمصير الذي لا غنى عنه؟

كان لدى كل واحد متسع من الوقت لقياس مدى انعدام خبرته.

لكن الحركة المصرية للتحرر الوطني وُجِدت في الأخير، مع نظام داخلي، وقواعد امنية، ولجنة مركزية، ومكتب سياسي ـ وعدة مئات من المناضلين آتين كلهم تقريباً من أوساط أجنبية.

بعد ثلاثة اشهر، في تشرين الأول 1943 ، نظم هنري كورييل في ملكية العائلة بالمنصورية اول مدرسة كوادر، جمعت عشرين متدرجاً كلهم مصريون.

*

* *

فؤاد حبشي ، ضخم الجثة ، طويل القامة ، مبني على عجل ، عديم الأناقة ، وديع وهادىء لكن ذو إرادة تشهد عليها سيرته النضالية (عشر سنوات من السجن لأسباب سياسية) . يتكلم ببطء ، كما لو كان يزن كل كلمة :

« ولدت في 11 آذار 1920 في زفتا ، بمصر السفلى . كان والدي خياطاً ، وكانت أمي تملك خمسة فدادين (هكتارين) . كان ذلك أكثر بكثير مما يملك معظم الناس لكننا كنا أحد عشر ولداً . لم يكن لدينا ماء ولا كهرباء . وكان الولد الخامس يقوم بجلب الماء . كان الوضع مضطرباً عندنا ، في زفتا . فلقد كان ثمة مظاهرات ضد الانكليز دائماً . ولد أبي اثناء تمرد عرابي باشا ، في نهاية القرن الماضي . وغالباً ما كان يحدثنا عن عرابي .

« كنا نزرع القطن . كان في كل قرية تاجران أو ثلاثة يشترون كل المحصول . كانت تلك هي السرقة المنظمة . تتم سرقة الفلاح عبر تصنيف قطنه في فئة دنيا . كان مالك عقاري واحد يملك عملياً كل المنطقة ، وله شرطته الخاصة به . ومثل كل زملائه ، كان يحظر بناء مدارس في القرى . حتى حاكم المقاطعة كان يخضع له . حين كان المالك يقوم بجولته على ظهر حصانه ، محاطاً بحراسه ، كان عليك ان تنزل عن حمارك إذا كنت تمتطيه ، وكان عليك أن تقف إذا كنت جالساً . وحين كان يصافح عمدة قرية ، كانوا يقدمون له الماء في الحال كي يغسل يده . عام 1930 كان في زفتا عبيد حقيقيون .

« جميع الناس أو معظمهم كانوا يسيرون حفاة . كان لباسي الوحيد جلابية زرقاء من العنبركيس وقلنسوة . كانت البيوت من الطين ، وتنام في داخلها البهائم . لا شمس ولا ضوء . وكانت هناك حشرات غير معقولة : القمل ، والبرغش ، وبنات وردان. . . وكنا نستضيء بواسطة مصباح على الكاز لا زجاجة له ؛ فالأغنياء وحدهم كان في وسعهم وضع

زجاجة . لكن من حيث المسكن ، لم نكن أتعس الناس ، فالأمر أبعد ما يكون عن ذلك . كان البعض يذهبون إلى التلة فيحفرون حفرة ويضعون لوحاً فوقها ، وكان ذلك بيتهم . كنا نأكل خبز الذرة ، أو الذرة والشعير ، وجبناً كثير التخمر ، هو الميش . لم يكن ثمة خضار . وكان اللحم يقدّم في الأعياد الكبرى فقط . كان هذا سوء التغذية . كنا نشرب من الجرة الكبيرة ، المسماة الزير ، الماء الذي كان أخي يجلبه من القناة . ومن أجل تصفية الماء ، كنا نمرر أنوية المشمش على الجوانب الداخلية من الجرة . وكانت البلهارسيا تفتك فتكاً ذريعاً . فالكثيرون كانوا يموتون في سن مبكرة جداً من سوء التغذية والبلهارسيا . انتبه : لم تكن المجاعة هي التي تضعفك بل سوء التغذية . رأيت وباء الملاريا يقتل مرة واحدة عشرة آلاف شخص . لم تكن العناية الصحية موجودة . كان المرء يُترك لحاله . لقد رأيت معلمي يموت بالتهاب الزائدة .

« دفعني والدي للدراسة . صرت عاملاً متخصصاً . عام 1937 ـ كنت في السابعة عشرة من العمر ـ أعلنت الجريدة أن الجيش الجوي فتح مدرسة ميكانيكيين ، فتقدمت للمباراة . كان هناك ما بين ثمانية آلاف وتسعة آلاف مرشح لأجل 95 مكاناً . وقد تم قبولي . وخاب أملي على الفور ، حيث أجبرونا على ارتداء ثياب موحّدة مثيرة للقرف ، أسمال بالية حقيقية .

« كان الانكليز يديرون المدرسة . فالمدير الرسمي كان جنرالاً مصرياً ، لكن المدير الحقيقي كان نائب ضابط انكليزي ، يقبض 45 جنيهاً ، أي قدر ما يقبض الجنرال المصري . أما نحن فكنا نقبض جنيهاً واحداً ، وبعد الحصول على الدبلوم ثلاثة جنيهات . والحد الأعلى الذي كنا نبلغه في نهاية الحياة المهنية كان ستة جنيهات . وكان الطعام سيئاً لدرجة اننا أعلنا الاضراب . وقد جرى صرف خمسة تلاميذ .

« لم تدم الدروس أكثر من عام : فالحرب كانت تقترب . أرسلونا في عداد إحدى الفرق ، مع مدربين انكليز . كان من المفترض انه سلاح الجو المصري لكن الانكليز كانوا يشرفون على كل شيء ، لأنه كان يجب المرور عبرهم لأجل الحصول على قطع الغيار . كان الطيارون يأتون جميعاً من عائلات غنية كبرى . أما نحن فكان نصيبنا الاهانات دون توقف . مرة مات كلب رقيبنا الانكليزي . وضعه في نعش متقن الصنع ، مبطن باللباد ، وكان علينا أن نسير في جنازته . كان الفتيان ساخطين .

« الكثيرون من هؤلاء الطيارين أصبحوا موالين للنازية إبان الحرب . لا يمكن القول إنهم فكروا في الموضوع حقاً . فيما بعد ، حين عرفوا أني شيوعي ، جاءت مجموعة بكاملها لتراني وتطلب مني أن أحدثها عن برنامج الحركة المصرية للتحرر الوطني . وقد بدوا مهتمين جداً ، وقالوا لي في النهاية : « كل هذا يبدو لنا ممتازاً . هاك ما نقترحه عليك : نأخذ أشياء من

برنامجكم وأشياء من كفاحي* ، ونعمل معاً » لم يكن اولئك اناساً يمضون وقتاً طويلاً في التفكير . لكن هذا ، هذا فقط في نهاية الحرب .

« حدثت مشكلات جديّة معهم . فسعودي Saudi طار ليوصل معلومات إلى رومل وعرفنا أن طائرته قد أُسقطت . ورضوان ، وكان ضابطاً طياراً أيضاً ، حاول هو الآخر أن ينتقل إلى صفوف الالمان ، لكنه أجبر على العودة وحكم عليه بالسجن خمسة عشر عاماً . وتحطمت طائرة ثالثة في الصحراء وكان على متنها رئيس هيئة الأركان المصري : هم أيضاً كانوا يريدون الانضمام الى صفوف الالمان . هذا لوضعك في صورة الجو العام .

« عندنا ، نحن الميكانيكيين ، كانت المشكلات مختلفة . كان الانكليز يتفاهمون فيما بينهم ليؤلبونا بعضاً ضد البعض الآخر لاعبين على الفروق في الأجر ، والمكافآت ، الخ . إن سعيد سليمان الرفاعي ، وكان ميكانيكياً مثلي في قاعدة حلوان هذه ، كان قد التقى هنري كورييل . وقد أطلق هو وشخص آخر لن أذكر اسمه شعار : « أجر متساو للمصريين » . وبدأنا نتنظم ، ونقوم باجتماعات سرية داخل كل فرقة . وفيما بعد ، عينا لجنة قيادة من 52 عضواً ـ عضوان من كل فرقة ـ وانتخبت اللجنة سكريتيرية دائمة من 11 عضواً . وتم انتخابي سكريتيراً أول . في ذلك الحين ، قال لي سعيد سليمان الرفاعي انه شيوعي .

« بما انه لم تتم الاستجابة لأي من مطالبنا ، قررنا القيام بإضراب غير محدود يتمثل برفض قبض الأجور . كان ذلك قراراً خطيراً للغاية ، وقد قيل لي إن عليّ أن ألتقي هنري كورييل .

«تحادثنا في سيارته . وما صدمني فوراً كان لغته العربية السيئة . اصغ إليّ جيداً : لو كان هذا الرجل مصرياً يتكلم العربية لكانت تبدلت خارطة الشرق الأوسط . أصغى إليّ بانتباه ، وفكر وقال : « بوصفكم عسكريين ، فأنتم في شدق الذئب ، من دون احتياطي من المال للصمود وتحت خطر المجلس الحربي . اعتقد أن إضراباً غير محدود تكون نهايته سيئة . عليكم أن ترفضوا قبض المبلغ خلال الأيام الثلاثة التي تتبع تاريخ الدفع . لا أكثر من ثلاثة أيام . ستعرف السلطات أنكم منظمون ولا بد أن يكون ذلك كافياً لأجل فرض التراجع عليها »

« عدت ، وجُلت على الفرق لشرح الموضوع . وقد واجهني في كل مكان متطرفون اتهموني بالتراجع . وكانوا الأقوى . وهكذا انطلقنا في اضراب مفتوح مع احتلال المشاغل حتى السادسة من بعد الظهر .

في اليوم الأول من دفع الراتب ، رفض الجميع القبض . لا مشكلة . وفي اليوم الثاني

* ماين كامف لهتلر (المعرب) .

حاولوا جعلنا نتعقل ، فلم يحصلوا على نتيجة . في اليوم الثالث ، استعرض قائد القاعدة الفتيان عارضاً على كل واحد أجره : « تأخذ أو لا تأخذ ؟ » والذي كان يرفض كان يمضي فوراً الى السجن . وقد أجاب أحد الرفاق : « فلنتناقش » . ـ « موافقون » . وعرض الرفيق مطالبنا . سأل القائد : « هذا كل شيء ؟ يمكنك أن تقبض : انا موافق . » وللحال أوصلت للجميع كلمة السر القاضية بوقف الاضراب . لقد ربحنا . وفيما بعد ، اكتشفنا أن كل المتطرفين كانوا عملاء استفزازيين ، شرطة للقصر الملكي . وقد أدهشني أن أرى الى أي حد كان كوربيل على حق . في الحقيقة ، لم أكن من جهتي قاراً على رأي . لكن خطه كان سليماً : لقد كانت ثلاثة أيام كافية لفرض التراجع على السلطات والحصول على ما يرضينا .

« فيما بعد ، اتى بي هنري كوربيل إلى مدرسة الكوادر ، التي بقيت بالنسبة لي أمراً لا يُنسى . كانت شيئاً يشبه ولادة جديدة . »

سعيد سليمان رفاعي ، المسمى بدر ، هو أيضاً طويل القامة وقوي ، نظارتان مع اطارين من القَلْس ، شعر وشاربان متناسقان ، كنزة بطوق مقلوب لون بيج وسترة جلدية ضخمة ، مع هيئة بلشفي في صورة لأيبينال .

« ولدت عام 1919 في بلدة قرب زفتا . كان والدي ورث ربع فدان . كان فلاحاً لكنه ذهب للخدمة العسكرية . وفي تلك الفترة ، كان ذلك يعني الكارثة . كان شبان يشوهون انفسهم للتملص من التجنيد الاجباري . وقد بقي خمس سنوات في السودان . غدا قناصاً من الدرجة الأولى . وفي الأخير انتقل إلى جهاز الشرطة كمدرب على الرماية للنواطير الذين يحرسون الحقول ليلاً . كان يكسب ستة جنيهات في الشهر ؛ في حين كان الناطور يقبض جنيهاً واحداً . رغم ذلك ، بقي دائماً بجانب الشعب ، مع حقد عميق تجاه الاقطاعيين . كان وطنياً لكنه كان حذراً من كل الأحزاب ، حتى من الوفد . وأثر في ذلك عليَّ .

« كنت الأكبر بين سبعة أولاد وكان من حظي أني تعلمت . ففي بلدتنا التي كانت تضم أربعة آلاف نسمة ، لم يكن ثمة غير ولدين أو ثلاثة يدخلون المدرسة كل عام . وكان الاختيار عديم الشفقة . فيما بعد ، درست خمس سنوات كي أصبح ميكانيكي سيارات . كان الانضباط قاسياً جداً . وكانوا ينغصون عيشنا . جرى صرفي مؤقتاً لأني شاركت في مظاهرة لأجل الاستقلال . كانت الشرطة قد اطلقت النار ، وسقط قتلى . في التاسعة عشرة من عمري كنت قومياً مقتنعاً . وكنت أقرأ كثيراً ـ فيكتور هوغو والكسندر دوماس ـ أقرأ ليل نهار . وكان والدي يوبخني قائلاً : « اترك كتبك وتعال للأكل ! » لكن لم يكن بين كتبي أي كتاب سياسي ، ولا سيما أي كتاب شيوعي . كان قد قيل لي دائماً ان الشيوعيين ضد الدين . وكان

أول كتاب سياسي قرأته دعاوة مناهضة للشيوعية . وقد اكتشفت فيه أن الشيوعيين صادروا أملاك الملّاكين الكبار . وفكرت : « ينبغي الاحتفاظ بهذا ، الذي هو عدل ، ونبذ الجانب المناهض للدين » .

حصلت على شهادتي عام 1939 وطلبت من والدي أن أدخل مدرسة تكوّن ضباط بحرية تجارية . مدرسة خاصة ، تدفع أجراً . وقد دفع أهلي دم عروقهم ، في حين كانت تلك المدرسة نهباً واختلاساً . فالشهادة لم يكن لها أية قيمة . واليوم الذي اعترفت فيه بذلك لأبي المسكين كان أحد أسوأ ذكريات حياتي . قمت بمساع للعمل في الارسال على متن سفينة لكن الحرب اندلعت ووجدت نفسي وقد سدَّت أمامي الأبواب من جديد .

« كان سلاح الجو يطوّع ، وقد تقدمت . وعدونا بأن نحصل على تكوين طيار أو مصور جوي . وقعت عقداً لخمس سنوات . وإذا بنا نجد انفسنا ميكانيكيين . غشونا ! خدعونا ! هذا هو ما قادني الى الشيوعية . الظلم غير المحتمل .

« في الأسبوع الأول ، اراد المدربون أن نتدرب على البنادق . فتركنا البنادق وعدنا الى تحت الخيام . حصل إضراب عن الطعام ، قمعوه جلداً بالسياط .

« كنت في السرب بالقاهرة ، على متن **غلاديا تور** . شديد الغضب دائماً بسبب الظلم . كنت أحلم بالقنابل ، وبالاغتيالات . وكانت التنغيصات مستمرة . حين قال لي أحد الأصحاب أن ثمة منظمات تهتم بقلب النظام ، فقفزت في الهواء هاتفاً : « جد لي الوسيلة للتعرف اليها ! » وقد تمَّ اتصالي الأول صدفة بفريق الخبز والحرية للشاعر انور كامل . وفيما بعد ، عرفت أن جورج حنين كان جزءاً منه . كان فريق مثقفين . وقد حددوا لي موعداً في الريف ، قرب الأهرام . تلاقينا حوالي اثني عشر شخصاً . وصل كامل . أراه من جديد مع خصلته السوداء الكبيرة التي كانت تنزل على عينه وسيجاره في فمه . حيانا وقال : « سوف ننشد النشيد » . هكذا ، وسط الصحراء ، أنشدوا نشيداً يبدأ بـ « إلى الأمام ، يا رفاق ، الحياة هي النضال ! » كنت مندهشاً . ثم ألقى كامل خطاباً وهو يهز سيجاره . ووجدت الخطاب فارغاً .

« في المرة التالية ، كان الموعد في بيت . وجدت هناك ثلاثة فتيان من سلاح الجو ، وكامل أيضاً . ألقى فينا محاضرة حول المادية التاريخية ، لم أفهم منها شيئاً . لكن لا شيء ! والآخرون أيضاً . وقد انصرفت ممتعضاً كلياً ، ومحبطاً . كنت مقتنعاً بأني لا أفيد في شيء . لم يحصل موعد ثالث لأنه تم توقيف كامل . لا شك أن التجمع تعرض للحل . في كل حال ، فقدت الاتصال . كان ذلك عام 1942 . كنت أحاول بلا انقطاع أن أجد كتباً تقدمية ، كتب

فلسفة . كنت أريد التوصل لأن افهم . لكن كان مستحيلاً العثور على هذه الكتب بالعربية . وكنت أحاول الاتصال . قال لي أحد الأصحاب : « هناك تجمع يلتقي في الزمالك » فذهبت الى هناك . يا له من قصر فخم . تجرأت بصعوبة على الدخول . كان هنالك حوالي عشرة أشخاص يتناقشون . تكلموا على العالم بأسره خلال ساعات دون الاشارة مرة واحدة الى مصر . فانقطعت عن المجيء .

« ثم جرى ارسال فرقتي الى السويس . كنت في حالة مخيفة . كان كل شيء يختلط ، القومية والظلم ، الازعاجات بصفتي مصرياً والتنكيدات بصفتي ميكانيكياً . كانوا يصعّبون حياتنا إلى حد أن زميلاً لي ميكانيكياً أصيب بالنورستانيا بالكامل . وقد رفض الضباط تركه يمضي . فاختبأ في مرأب الطائرات ورمى بنفسه في فرن المعادن . وقد نبهتنا رائحة اللحم المشوي . لم يكن باقياً غير قدميه ، وما تبقى كان كله رماداً . أنا أيضاً ، غالباً ما قلت في نفسي إني سأنتحر . في لحظات أخرى ، كان بودي أن آخذ بندقية وأطلق النار . لا بل شكلنا مجموعة لتصفية هيئة أركان سلاح الجو دفعة واحدة . أنا متأكد أن الأمر كان أخذ منحى خطيراً لولا أن أحد الزملاء قال لي يوماً : « لدينا اتصال بشخص جيد جداً . كان هذا الشخص موسى كاظم ، مستخدماً في مكتبة . كان يعرف هنري كورييل . حدثنا عن جراح مصر الثلاثة : الفقر ، والجهل ، والمرض . اخذت انطباعاً للمرة الأولى بأني في قلب الواقع . كانوا يحدثوننا عن السياسة المتعلقة بحياتنا اليومية . فيما بعد ، أرسلني موسى كاظم إلى اجتماع التقيت فيه هنري كورييل . وكانت روزيت هناك أيضاً . ومصريون . فوجئت بأن أجد شخصاً يتكلم العربية بتلك الدرجة من السوء . كان يستخدم دائماً المؤنث بدل المذكر ، أو العكس ، وكان ذلك يدعو للابتسام . ورغم ذلك ، كان الشخص الوحيد في الاجتماع الذي يمكن فهم ما يقول . كان يعرض الأشياء ببساطة . وبوضوح . تولد لديّ انطباع بأنه يقول ما أحس به دون معرفة التعبير عنه . وكنت تشعر به قريباً منك ، رأساً وقلباً . كنت تشعر بالإخلاص والجدية والانسانية .

« جرى اختياري لمدرسة الكوادر ، حيث توضّح كل شيء »

*

* *

بقيت مدرسة الكوادر التي اقيمت في تشرين الأول 1943 ، الفصل الأكثر حماساً وإثارة في حياة هنري كورييل الطويلة كمناضل . لن يستعيد ابداً شعوراً بالاكتمال كذلك الشعور .

سوف يشارك فيها بعد بأعمال ذات أهمية لا مجال لمقارنتها بذلك التجمع المتواضع لحوالي عشرين متدرجاً كان بعض المدرّسين المرتجلين يحاولون أن يوصلوا اليهم أوليات الماركسية ، لكن أياً من مبادراته السياسية لم تعطه ، إلى ذلك الحد ، اليقينَ بأنه قام بعمل مفيد .

أُقيمت المدرسة في مُلْكية المنصورية ، من دون علم دانييل كوربيل . كان في وسع هنري ، الذي كلّفه والده بأن يدير تلك الملكية ، أن يذهب ويجيء دون إثارة الاشتباه . جرى اتخاذ تدابير صارمة للحفاظ على سرية المكان . فجيء بالمتدرجين بالسيارة ، ليلاً ، وأعينهم معصوبة . ولم يكن المحاضرون يصلون لاعطاء محاضراتهم الا بعد جولات طويلة عبر الريف من أجل إحباط أي اقتفاآت محتملة للأثر . لكن خلال تحليق لاحق على متن غلادياتور ، اعتقد بدر انه يتعرف إلى بيت مرتفع مألوف . حصل من الطيار على تحليق على علو منخفض وتمكن من أن يميّز أحد حراس الملكية ، من بين الأشباح رافعي الرأس . . .

كان المتدرجون يسكنون في البيت الكبير ، العزبة . ينامون على حصائر من قصب . وكان الطعام زاهداً . أما الدروس فكانت تبدأ عند بزوغ الشمس وتنتهي عند غروبها ، مع توقف واحد لأجل الغداء وبعض الاستراحات المكرسة لأناشيد ثورية . وقد تعلم المتدرجون ، الذين لم يكن أحد منهم يعرف لغة أجنبية ، تعلموا المارسيلييز بالفرنسية ، لكن الحدث الكورسي كان التأدية الأولى للنشيد الأممي باللغة العربية على أرض مصر : كان احد المحاضرين ، طاهر المصري ، قد نقله الى العربية . وبعد غروب الشمس كانت الأمسية تكرَّس لنقاشات حرة بين المتدرجين ، ولكتابة تلخيصات للمحاضرات المعطاة منذ الصباح .

كان المحاضرون حوالي الستة أشخاص . وكان جو ماتالون وداوود ناحوم يخرجون كهنري كوربيل من الجالية اليهودية في القاهرة . وكان طاهر المصري وزكي هاشم وأحمد التوني يجيئون من البورجوازية المصرية . كانوا مكلفين بتلقين دروس وكانوا يدركون بوجه خاص مدى قصورهم . الا أنهم عرفوا منذ اليوم الأول انهم كسبوا الجولة .

كان الدرس الأول مخصصاً للآفات الثلاث للمجتمع المصري . قبل أسابيع ، كان هنري كوربيل ألقى محاضرة حول معدل الوفيات في مصر ، وذلك في الجمعية الملكية للاقتصاد السياسي ، والاحصاء والتشريع . استطاع ، أمام حضور لامعين ، أن يرسم لوحة مأساوية بالاستناد إلى الاحصاآت الرسمية وحدها (بعد محاضرته ، كفت الحكومة عن نشر تلك الاحصاآت) . وفي العزبة ، لم يكتشف السامعون مأساة متجاهلة إرادياً إلى هذا الحد أو ذاك : كانوا يستمعون إلى وصف لطفولتهم في القرى التي كان سوء التغذية المزمن يعيث فيها فساداً ، ويفترسها المرض ، ويعميها الجهل ويخرسها . لكن المحاضرة ، التي اغتنت بمعطيات

جغرافية واقتصادية وسوسيولوجية ، وتغذت بالأرقام ، كانت تجمع تنوع الأقدار الفردية لأجل تشخيص شامل . كانت تجعل السامع ينتقل من فسيفساء التجربة المعاشة الفردية إلى اللوحة الجدارية لشعب بكامله . كانت القرية مسقط الرأس حيث يستمر الأهل في انهاك أنفسهم ، وحيث يبقى الاخوة والأخوات مسجونين لأنه ليس في متناولهم الحد الأدنى من الدراسة ـ هذه القرية ، كانت مصر .

كانت المحاضرات اللاحقة تتناول تطور المجتمعات والطبقات الاجتماعية . ثمة أيضاً ، كانت التجربة الفردية تجد في التحليل العلمي الأكثر أولية مفجراً صاعقاً . كان الفقر يتمثل في المالك الاقطاعي المستولي على الأراضي الذي كان غالباً ما يشترط نصف المحصول كمزارعة . وكان الجهل يتمثل أيضاً بالمالك الاقطاعي الذي يمنع بناء مدارس جديدة . وكان المرض ناتج الوباءين الأولين ، لكن كذلك صنيع الاقطاعي غير المهتم بأن يستقر على أملاكه أطباء شباب يحملون أفكاراً جديدة . والمتدرجون الذين سبق أن غادروا الأرض إلى المصنع كانوا يعرفون أنهم لم يفعلوا أكثر من تغيير الاستغلال ـ والاستغلال الثاني كان بشراسة الاستغلال الأول ، مع الظرف المشدِّد المتمثل بأن صاحب المصنع غير المنظور لم يكن يغلف استغلاله بحُجُب تراثٍ قديم جداً إلى حد أن الحياة والألم كانا قد أصبحا مترادفين بالنسبة للفلاح .

كان قد جرى تطهير الدرس حول المادية الديالكتيكية بعناية من كل تضمينات معادية للدين ؛ لكن بعد أن استمع المتدرجون إليه استنتجوا أن الله غير موجود ونظموا مساءً عيداً للاحتفال بالحَدَث .

جرى تكريس الأيام الأخيرة من التدرج للمستقبل ، أي للاشتراكية . سوف يتيح استئصال الآفات المصرية الثلاث مثلما أتاح في الاتحاد السوفياتي القفزة الخيالية إلى الأمام التي حققها شعب انطلق مع ذلك من نقطة أقل بعداً . إصلاح زراعي ، مصادرة وسائل الانتاج الصناعية ، نشر الثقافة بفضل بناء آلاف المدارس ، التحسين الجذري للظروف الصحية عن طريق مضاعفة الأطباء والمستشفيات: ألم يكن كل ذلك بسيطاً، وبديهياً، وضرورياً؟ وممكناً.

تفرق المتدرجون وهم في حالة الحماس الشديد . قبل 15 يوماً ، كانوا قد أتوا مع تمردهم ضد الظلم . والآن ها هم يرحلون من جديد وقد تزودوا بأسلحة المعرفة . كانت التجربة «شبيهة بولادة جديدة» لم ينس أحد منهم أبداً الورع والصداقة والنشوة الفكرية في أيام المنصورية.

كان هنري كورييل واصدقاؤه في قمة السعادة . لقد سلَّموا المشعل . بعد أن كانوا أولاد البورجوازية ، ومشاركين بهذه الصفة في الاستغلال الرأسمالي لكن مستفيدين أيضاً من امتياز حيازة المعرفة ، على الأقل عن طريق قراءة كتب اجنبية ، جعلوا من انفسهم أبْدالَ

الثورة . كان رمزياً أن تتم أول مدرسة كوادر ثوريين مصريين في قلب الملكية الشاسعة لصاحب مصرف في القاهرة . كان لدى هنري كورييل وجو ماتالون وداوود ناحوم اليقين بأنهم اطلقوا الرسالة أخيراً من فوق الجدار غير المرئي الذي يحيط بالغيتو الأوروبي .

ذلك أن المتدرجين كانوا مصر . كانوا الشعب ، حتى اذا كانت حيازة شهادة دروس بسيطة وممارسة عمل متخصص تجعلانهم أصحاب امتيازات بالنسبة للجمهور . ميكانيكيي سلاح الجو ، مثل فؤاد حبشي وبدر ، لكن أبعد ما يكونون عن الصفة العسكرية ، إلى حد أن تسميتهم كانت « عمال الجيش » ؛ عمال نسيج ؛ مستخدمين صغاراً في الادارة . والأزهريين ، الذين ربما سيتيحون للرسالة الثورية أن تمضي إلى أعماق الأرياف. . . كان الأزهر ، أقدم جامعة قرآنية ـ الف سنة ـ والأكثر مهابة في الاسلام ، يؤوي في القاهرة 25 ألف طالب آتين من أصغر القرى ، أرسلهم أهلهم أو شيخ القرية منذ طفولتهم ، يعيشون في حالة فقر مدقع ، فقراء بين الفقراء (توزع الشورباء مع الخبز مرة واحدة في اليوم) ، يتلقون مجاناً تعليماً اسلامياً لم يتطور أبداً منذ قرون لأنه كان مستنداً إلى الدين غير الملموس . وبالنسبة لثوريين ، كان ثمة في متناول اليد عجينة بشرية ذات غنى استثنائي اذا عرفوا أن يثبتوا بداهة أن الاسلام لا يتعارض في شيء مع الاشتراكية (هذا دون الكلام على الكثير من الشبان الواصلين إلى الأزهر طوعاً أو كرهاً وغير المهتمين بالدين) . لأن كل أزهري كان معداً للعودة إلى قريته ، في المئة ألف قرية التي يؤلف مجموعها مصر ، ثمة حيث سيكون دون دخول الكلام الثوري صعوبة ما بعدها صعوبة إذا لم يتم التبشير به من الداخل . ربما كان الأزهريون يحوزون مفتاح الريف المصري ، إذن مفتاح البلد .

من هؤلاء مبارك أبو فضل ، الذي التقيته سراً تقريباً في إحدى ضواحي القاهرة في شهر كانون الثاني 1982 . كنت أخرج من أحد تلك الفنادق ناطحة السحاب التي تمثل في القاهرة الغيتو الأوروبي الجديد والعمودي ؛ وكان يخرج من أحد معسكرات الاعتقال التي انشأها السادات . شوارع من التراب الأحمر ، أولاد لا يحصون ، ابنية متهدمة قبل أن يتم انجازها . واكتشاف هذا الرجل صغير القامة المرتدي بيجاما مضلعة ، صاحب البشرة السوداء القاتمة ، والذي يضع نظارتين مدخنتين لأن إحدى العينين ميتة والأخرى مريضة ، ذي الوجه المنهك الذي تزيل بسمةٌ مشعة آثار انهاكه ، وذلك بعد اسبوع من التردد على المومياآت الفرعونية . كان يمثل مصر المناضلة . سبع وخمسون سنة ، من ضمنها أربع عشرة في السجن أو المعسكر . لقد انتهى بدر وفؤاد حبشي ، المناضلان الأسطوريان ، إلى إلقاء السلاح ، تاركين لأناس أكثر شباباً عبء القتال . أما مبارك أبو فضل فيواصل المعركة ، رابط الجأش ، مثيراً بإيمانه ، وبصلابته ، مشعاً بقوةٍ مفعمة بالمرح . الموت وحده سوف يوقفه على الطريق الذي اختاره قبل

40 عاماً في نهاية محادثة طويلة مع هنري كورييل في السيارة المتوقفة في باب الفطور ، قرب الأزهر . مات هنري كورييل ؟ أجل ، لأن مبارك يتمتم : « انا لا أبكي . لا ابكي إلا لموت رفيق . لذا بكيت لموت هنري . » لكن هذا المناضل الشاب الآتي لينضم الينا ، والمولود بعد أن غادر هنري مصر إلى الأبد ، والذي يعرف مع ذلك أن الكلام الراسخ رغم كل شيء قد أُعطيَ للمرة الأولى في عزبة بالمنصورية ، هذا المناضل الشاب إنما يتكلم على كورييل حي .

* * * *

في كتاب اندريه فونتان ، **قصة الحرب الباردة** ، الذي بات كلاسيكياً ، يقترح الكاتب تحديد تاريخ اندلاع الحرب الباردة في 4 نيسان 1944 ، قبل نهاية الحرب العالمية الثانية بأكثر من عام . لقد كتب : « في ذلك اليوم ، تمرد بحارة وحدات خمس من الاسطول الملكي اليوناني الراسي في ميناء الاسكندرية ، مطالبين بإعلان الجمهورية وبتشكيل حكومة جديدة[1] » .

كان ذلك الحدث الفريد يؤكد سيرورة بدأت منذ وقت بعيد . وهو سيطرح على هنري كورييل واصدقائه في ح م ت و مشكلة درامية .

فقبل ثماني سنوات ، في 4 آب 1936 ، كان ملك اليونان جورج الثاني قد أعطى الدكتاتورية للجنرال ميتاكساس . وقد أقام هذا الأخير ، الذي سرعان ما أعلن نفسه « رئيساً للحكومة مدى الحياة » ، نظاماً شبيهاً للغاية بنظامي هتلر وموسوليني : نقابات مدجّنة ، شبيبة مؤطرة على منوال الشبيبة الهتلرية ، مطاردة من دون شفقة للشيوعيين ، احتجاز السياسيين الوسطيين الليبراليين ونفيهم ، رقابة ، إرهاب بوليسي مع تعذيب معطى طابعاً مؤسسياً ، وإعدامات اعتباطية . في غضون أربع سنوات ، جرى اخضاع البلد . لكن ميتاكساس ، الفاشي المستقل ، رفض الانذار الذي أرسله موسوليني في 28 تشرين الأول 1940 . استطاع الجنود اليونانيون ، سيئو التسليح والقيادة ، والمتعرضون لخيانة طابور خامس كلي الحضور ، ان يهزموا الجيش الايطالي شر هزيمة ، ثم أن يقاوموا بشجاعة تقدم الويهرماخت التي هرعت لنجدة الحليف الايطالي المهزوم . لقد مات ميتاكساس في سريره في كانون الثاني 1941. كان قد خسر الحرب . وخَلَفَه مصرفيٌّ في حين انكفأت الزمرة الملكية في فوضى تفوق الوصف الى القاهرة ، يصحبها مئات من أنصار ميتاكساس الهاربين من دون سلاح لكن مع حقائب ، ولقد انضم

(1) ـ اندريه فونتان ، قصة الحرب الباردة ، مكتبة فايار ، ص 232.

اليها الأسطول بكامله تقريباً وآلاف الجنود الذين افلتوا من الأسر بـالحظ والنط فوق ارخبيـل الجزر الإيونية .

بقيت حكومة المنفى بين يدي انصار ميتاكساس . فإذا كانت الظروف تجبر على أرتداء لباس الديمقراطية ، لم يكن وارداً لدى البلاط وفي الحلقات الوزارية غير إعادة « نظام الرابع من آب » ، نظام ميتاكساس ، بعد انتهاء الحرب .

لقد نزفت اليونان اكثر من أي بلد محتل آخر ما عدا بولندا والاتحاد السوفياتي بالطبع . كانت هناك مفرزة اعدام في كل ضيعة ؛ ومات ثلاثمئة الف شخص جوعاً خلال شتاء 1941 وحده ؛ وازدحمت اثينا بأشباح يتضورون جوعاً في المعتقلات . ما من بلد محتل قاتل كاليونان . في 24 شباط 1943 ، ورداً على القرار بالعمل الإجباري ، هاجمت الجماهير الأثينية الرشاشات الألمانية بأيديها العزلاء ، وهي تنشـد النشيد الـوطني . وفي الرابـع من آذار ، نزل مئتـا ألف وطني ـ أي ربع سكان أثينا ـ الى الشارع ودفعوا مئات القتـلى والجرحى ليستـولوا عـلى وزارة العمل ، قاضين على عشرات الألمان ضرباً على الرأس أو خنقاً . يا له من شعب جدير باليونان القديمة ، جعله ينتفض حقد مقدس ، شعب مجنون بالبطولة ! وفي السابع من آذار ، جـرى إلغاء العمل الاجباري تحت التهديد بانتفاضة معمّمة . وفي الجبال ، راحت المقـاومة تنتـظم وتقيم العقبات في وجه قوات الاحتلال . كانت بقيادة شيـوعية . وقـد بدأت بصبـر ، ورغم خسائر هائلة ، سيرورة التحرير التي ستؤدي في آذار 1944 الى إعلان « حكومة الجبل » .

كانت قد تكونت فرقتان يونانيتان في مصر مؤلفتان من الناجين من حملة 40 ـ 1941 ومن المتطوعين الآتين من الجماعات اليونانية في الشرق الأدنى . كانت الفـرقة الأولى قـد تصرفت بصورة مدهشـة في العلمين . لكن الجنـود كانـوا يستشيطون غيـظاً لاضطرارهم للقتـال ضد الجيوش الفاشية تحت أوامر ضباط يونانيين فاشيين : كـانت هيئة الأركـان ميتاكسيـة . كانت القاهر ة ، عاصمة الدسائس ، العاجة بالاشاعات ، وملتقى العملاء ، والمرسلين الخاصين ، والمبعوثين الرسميين أو شبه الرسميين ، كانت مجمَّعاً أسطورياً للأصداء ، وكان أولئك الجنود يعرفون المنـاورات الجاريـة لسرقـة حريـة الشعب اليونـاني التي كسبها بـدمه . كـان الأميرال ساكيلاريو ، الوزير السابق في أيام الدكتاتورية ، قائداً عاماً للأسـطول اليونـاني المنكفىء الى الاسكندرية . وقد أرسل غواصاته لتجمع من القـارة السياسيـين والضباط الكبـار المخلصين للسلطة ، وراح الجنود يقرأون تصاريحهم الطنانة فيها كان المقاومون الحقيقيون يموتون بصمت هناك في الجبل اليوناني . كان الطلاق جذرياً . ومـن المؤكد ان منظمة شيوعيـة كانت تعمـل داخل الفرقتين لكن بدل من ان تنفخ على النار ، كانت تسعى لتقنية غضب الجنود ، عارفة ان الزمرة الملكية والحكومـة الانكليزيـة لم تكونـا تنتظران غـير حجة لتـوجيه ضـرباتهـما . إلا أن

استفزازات الضباط الميتاكسيين فجرت التمرد المتوجس منه ـ تمرداً بسيطاً من دون عنف لجنود حانقين اكثريتهم الساحقة ديمقراطية . وقد فرض الانكليز ، عديمو الشفقة ، على الفرقتين « مسيرة للموت » على امتداد ثلاثمئة كلم عبر الصحراء السورية . كان على المنتصرين في العلمين أن يدفعوا غالياً ثمن تعلقهم بالديمقراطية ، في طقس تتراوح فيه الحرارة بين 30 و40 درجة مئوية . وعلى سبيل اللطافة لدى البريطانيين ، جرى إبلاغهم قبل الانطلاق ان كتيبة انكليزية تعرضت للعقوبة نفسها لأنها شنقت قائدها ؛ ومن أصل سبعمئة رجل ، وصل فقط أربعون في المرحلة الأخيرة . . .

كانت مكتبة الرونبوان ـ التي لم يكن يتردد عليها غير القليل من المصريين الأصليين ـ أحد أماكن اللقاء المفضلة لدى الضباط والجنود التقدميين المنتمين للوحدات من مختلف الجنسيات المارة بمصر : البريطانية ، والنيوزلاندية ، والاسترالية ، والفرنسية ، والافريقية الجنوبية ، والهندية ، الخ . . . كانت المكتبة قد اصبحت هكذا المركز الرئيسي لعمل أممي بالغ الاتساع ، في اتجاه معسكرات الأسرى الألمانية والايطالية بوجه خاص . كانت تؤمن مراقبتهم وحدات يهودية من فلسطين أبقتها خارج المعارك قيادة انكليزية قليلة الاهتمام باعطائها مناسبة للتمرس بالحرب . هؤلاء اليهود ، التقدميون عموماً ، كانوا يوزعون على أسراهم الكتب المناهضة للفاشية باللغتين الايطالية والالمانية الآتية من مكتبة الرونبوان ، ثم نشرة اخبار سياسية اعدتها ح م ت و وتمت ترجمتها الى الايطالية والالمانية . لا بل ان هنري كوربيل وأصدقاءه نظموا فرار أسرى ايطاليين كان عداؤهم للفاشية ثابتاً ، لكن الشرطة الانكليزية استعادت العديد منهم . وكان ريمون أغيون يكرس نفسه ، من جانبه ، لمساعدة اللاجئين اليوغسلافيين ، الذين كان 28 ألفاً منهم يعسكرون على ضفاف قناة السويس . كان الأمر يتعلق بوجه خاص بعائلات مقاومين يقاتلون مع تيتو . وقد جمع اغيون لحسابهم مبالغ ضخمة واصدر لهم نشرة اخبار سياسية واجتماعية .

كانت العلاقات مع اليونانيين اكثر حماسة بكثير بفضل التجمع السكاني اليوناني المهم في القاهرة ، الذي تضخم بعد 4 آب 1936 بوصول ديمقراطيين طردهم ميتاكساس ، والذي كان يعيش في حالة تكافل طبيعي مع رجال الفرقتين .

جرى تقديم كل المساعدة المادية الممكنة للمنظمة اليونانية السرية : وضع مقرات تحت تصرفها ، طبع بيانات وصحف ، تنظيم لقاءات دعم . لكن لم يكن الجنود اليونانيون بحاجة لاقناعهم بعدالة قضيتهم . كان مسؤولوهم ، الموضوعون في حالة الاضطرار للقتال ضد قيادة فاشية ضمن الجيوش الحليفة ، يبحثون بقلق عن التكتيك الذي يتيح التغلب على وضع

استراتيجي شائك . وضمن ظروف بهذا التعقيد ، كان الخط السليم يقارب حبلاً مشدوداً .

ألغى نبأ مثير كل الاستفهامات ، وأزال القلق : كان مارتي في القاهرة .

*

* *

إنه اليوم شبه مستحيل أن تُدخل في الأذهان ما كان يمكن ان يمثله لمنتسب جديد الى الشيوعية ، عام 1943 ، شخص اندريه مارتي . ففيه كانت تتجسد الأسطورة والقدرة . فكثائر في البحر الأسود ، وقائد عام للمفارز الاممية في أسبانيا ، وقيادي مرموق في الحزب الشيوعي الفرنسي ، وسكرتير للأممية ، كان قدراً فردياً ساطعاً رفعته الى الأعلى المغامرة الجماعية للشيوعية . كان قد أقيم له تمثال من المرمر في احدى مدن الاتحاد السوفياتي .

في شهر تشرين الأول 1943 الذي لن يزول من الذاكرة لأنه سيبقى الشهر الذي أقيمت فيه أول مدرسة كوادر ، كانت روزيت كورييل تعمل ذات صباح في البعثة الفرنسية ، حين قالت لها احدى زميلاتها ، العارفة بآرائها ، وهي تبتسم ابتسامة عريضة : « هل سمعت بالنبأ ؟ اندريه مارتي بيننا ، وقد وصل هذا الصباح من موسكو » . بعد أن عادت روزيت من دهشتها ، ابلغت هنري الذي لم يصدق اذنيه . اندريه مارتي في القاهرة . . . واصلاً من موسكو . . . خارجاً عملياً من مكتب جوزف ستالين . . . كان ذلك فوق المتصوَّر . (ابدى توغلياتي المرهف جداً والذكي للغاية كفه المفتوحة لرفيقة حياته ، وقال لها وهو ممتلىء ورعاً : « انظري الى هذه اليد : لقد صافحت يد ستالين ») . وفي قمة الفرح ، توسل هنري لروزيت ان تؤمن له لقاء مع مارتي . فحزمت أمرها وتقدمت الى الرجل العظيم وقالت له : « نحن شيوعيان ، زوجي وأنا . إذا كان ثمة مشكلة تعترضك ، فنحن تحت تصرفك » .

كان اندريه مارتي قد توقف في القاهرة كمحطة اجبارية لكل رحلة جوية بين موسكو وأوروبا الغربية : سواء كان الهدف النهائي الجزائر او لندن ، كانت الحرب تجبر على الدورة عبر البحر المتوسط. كان ذاهباً وزوجته الى الجزائر حيث استقرت اللجنة الفرنسية للتحرر الوطني . وهي رحلة اشكالية من كل الجهات . فأولاً ، كان هو بالذات ، مارتي ، الذي يمضي ليقود في الجزائر التمثيل الشيوعي . وكان توريز طلب مراراً من مندوب ديغول في موسكو ترخيصاً قوبل دائماً بالرفض : كان يجر خلفه ادانته ، بسبب فراره عام 1939 ، مثلما يجر المحكومون خلفهم كرة المحكومين . في كل حال ، فلأسباب غير معروفة ، كان ستالين يفضل ابقاءه تحت قبضته . لكنه كان يبقى الأمين العام للحزب الشيوعي الفرنسي ، وكان يكره مارتي ويعرف كيف يستخدم ضده اي خطأ ناجم عن جهل . والحال ان الجزائر العاصمة كانت وكر

زنابير : (كتب ديغول فيها بعد واصفاً إياها بـ « نهر الوحل هذا ») . وفي تشرين الأول 1943 ، لم تكن قد لُعبت اللعبة بين ديغول وجيرو . كان الحزب متردداً في وضع رهنه . كان شيوعيو الجزائر هم ايضاً منقسمين على انفسهم ـ وذلك احد آثار الآلام الطويلة المتحملة في معسكر فيشي للاعتقال . كانت المؤامرات والمناورات تتعاقب دون توقف . حتى كونت باريس كان يحوك الدسائس للعودة الى عرش فرنسا ! . . . والرجل الأكثر عناداً في العالم كان خالجه الهمّ لو توجّب عليه الغطس في هذه الفوضى . كان مارتي ذا حَذَرٍ مَرَضي . ففي أسبانيا ، كان أمر باطلاق الرصاص ، في وقاحة قائمة ، على رجال ثبتت براءتهم في حين لم تبرد جثثهم بعد . في كل مكان ، وعلى الدوام ، كانت الشرطة والأجهزة الرأسمالية ناشطة ، آخذة في شباكها المناضلين غير المتيقظين ، في كل مكان ، ودائماً ، كان يمكن فيروس الخيانة ان يصيب الرفيق الأقل شُبْهةً . من جهة اخرى ، كان مارتي الصادق والشجاع يعيش في عالم سوداوي .

سوف يخبىء التوقف في القاهرة فخاخاً لا تنتهي لهذه النفس المريضة . بدل ان يوافق على الفندق الذي اختارته البعثة الديغولية ، التي كان يتصور انها محشوة بعملاء الانتليجانس سرفيس ، قبل بعرض تلك الرفيقة الشابة ذات المظهر الشريف وأقام مع زوجته في الغرف الثلاث بالطابق الثالث عشر ، في حين انكفأ هنري وروزيت مؤقتاً الى فيلا الزمالك .

لن يتأخر مارتي في الندم بسبب الضيافة المقدمة . وسوف يدفع هنري ثمن ذلك غالياً بعد عشر سنوات .

في ذلك الحين ، اعتبر المؤسس الشاب لـ ح م ت و نفسه محظوظاً جداً . كان في وسعه ان يتباحث كل يوم لمدى ساعات مع احد قادة الثورة العالمية . وبصورة عرضية (لكن ربما لم يكن ذلك عرضياً الى هذا الحد . . .) كان مجرد اختيار اندريه مارتي ان يسكن عنده يعادل تنصيباً . كان للحركة المصرية للتحرر الوطني اخصامها . فلقد انشأ هيلل شوارتز ومارسيل اسرائيل ، وآخرون ايضاً ، منظمتهم الشيوعية الخاصة بهم . وفي السباق الى الأولوية كان هنري كورييل متقدماً خطوات سلفاً بفضل البركة التي منحها السكرتير السابق للأممية .

اما الرفاق اليونانيون فلقد حمل اليهم القدر على طبق الرجل الأقدر على فهمهم ونصحهم : كان احد ثوار البحر الأسود يعرف كيف يتعامل مع قيادة رجعية .

أبدى مارتي الكثير من الممانعة قبل أن يقبل بسماع المسؤول الرئيسي للمنظمة الشيوعية السرية داخل الفرق العسكرية . وقد تمت المقابلة أخيراً في سيارة هنري كورييل الذي بقي ، طيلة الساعتين اللتين تطلبها اللقاء ، يدور في ضواحي القاهرة لأسباب بديهية تتعلق بالأمن . كان مارتي واليوناني جالسين على المقعد الخلفي . وكان الأول يؤكد الحديث الطويل لليوناني

بعلامات التذمر ولا بد أنه كان يستشعر فخاً منصوباً له . لقد ارهقوه بالنصائح حول ضرورة الحذر قبل سفره من موسكو ، وكانت طبيعته بالذات تحمله على الاحتراز ، وها هو الآن متورط في القصة العجيبة لفرقتين يونانيتين صغيرتين مستعدتين للتصادم مع الجيش البريطاني في أوج نزاع عالمي . . . يا له من وضع صعب ! يمكن تخيل الهزة في معسكر الحلفاء لو شاع الخبر بأن اندريه مارتي ، في منتصف الطريق بين موسكو والجزائر ، دعم مشروعاً يتعلق موضوعياً بتثبيط همة القوات أمام العدو . . . حين طلب اليوناني النصيحة في النهاية ، اجابه مارتي : « يمكنكم أن تنشروا بأعداد كثيرة المقال الذي كتبته حول اسطول طولون . . . » وأخرج من جيبه نصاً يدين الاميرالات الفرنسيين الذين فضلوا ، خلال غزو الويهرماخت ما يسمونه المنطقة الحرة في لحظة الانزال الأميركي في أفريقيا الشمالية ، أن يغرقوا سفنهم بدل المقاومة أو الالتحاق بميناء حليف . لم تكن العلاقة مع المشكلة المطروحة بديهية لكن المسؤول اليوناني لم يستطع ان يستخلص من رفيقه سامي المقام الا الوعد بأنه سيعرض الموضوع على من يهمه الأمر . وقد غادر مارتي السيارة وهو يتنفس الصعداء بشكل ظاهر ؛ وفي اليوم التالي طار مع زوجته الى الجزائر . كان التوقف قد دام أربعة أيام .

لم يعنّف مضيفه لأنه ورطه في موضوع متفجر ، وقبل بطيب خاطر طرود التموين التي ارسلها آل كورييل اليه في الجزائر . لا بل لعبت الرونبوان دور محطة الابدال بين موسكو والجزائر من أجل ايصال الادبيات الماركسية الى الشيوعيين المقيمين في افريقيا الشمالية . الا ان كل ذلك لم يكن ذا دلالة مهمة .

لكن المشكلة اليونانية بقيت وتفاقمت . كان البحارة والجنود يتمنون الذهاب للقتال في اليونان ، يداً بيد مع مقاتلي الجبال ، لتوجيه ضربة نهائية لقوات الاحتلال المتفككة بسبب الهزيمة الايطالية . الا أن قيادة الحلفاء كانت تهيىء على العكس رحيلهم الى الجبهة الايطالية . ثم في آذار 1944 ، شكلت المقاومة ، بعد أن باتت مسيطرة على قطاعات واسعة محررة بالقوة ، « حكومة الجبل » التي حاز برنامجها المؤلف من ثلاث نقاط موافقة الشعب بكثافة . وكانت النقاط هي التالية : تنظيم النضال الوطني حتى النصر ؛ إدارة المناطق المحررة ؛ ضمان سيادة الشعب بعد وقف الحرب . ورغم الرقابة الصارمة التي فرضها الانكليز وصل الخبر إلى جنود الفرقتين وإلى بحارة الأسطول . وقد اقترحت لجنة تنسيق تضم مندوبين عن كل الوحدات مشروع قرار ، جرى التصويت عليه بأغلبية واسعة ، يطالب باستقالة حكومة المنفى في القاهرة وتكوين حكومة وحدة وطنية تضم مقاومين من الجبل . لم يكن في الطلب شيء مبالغ فيه - وسوف يتم الوصول في نهاية المطاف إلى صيغة الوحدة الوطنية . لكن بالنسبة لونستون تشرشل ، لم يكن وارداً معرفة ما إذا كان الجنود والبحارة محقين أو غير محقين . كان يعتبر أن

اليونان جزء لا يتجزأ من منطقة النفوذ البريطاني . وبعد سبعة أشهر ، سوف يعقد في موسكو صفقة مرتجلة مذهلة مع ستالين ، لتاجر سجّاد شكسبيري (مع الفرق أن السجّاد كان أمماً) ، حيث يحتفظ أحدهما باليونان ، ويضع الآخر في جيبه بلغاريا ورومانيا ، ويتفق الاثنان على نفوذ متساو لهما معاً في يوغسلافيا ، وفي رأس كل منهما نوايا مضمرة . وقد رفضت السفارة السوفياتية في القاهرة أن تستقبل وفداً من الجنود اليونانيين جاء يسلم نسخة عن القرار .

لم يكن تشرشل مستعداً لتقبل إملاء قوانين عليه في مصاده اليوناني الخاص ، حتى ولو كان ذلك بواسطة مقاتلين يونانيين ، أكانوا مقاومين في الجبال أو جنوداً نظاميين . لم يكن النظام الذي يحتفظ به للبلد يشبه في شيء « حكومة الجبل » . وكان يعرف أن يكون ثابتاً لا يتزحزح .

طوقت الدبابات البريطانية الفوج اليوناني الرابع المتوقف في القصاصين ونزعت سلاحه . وفي هليوبوليس ، تم أيضاً نزع سلاح فوج مدفعية ؛ وجرى وضع 280 جندياً يونانياً في معسكر احتجاز . فتحركت الجالية اليونانية . تعاقبت اللقاآت والمظاهرات في القاهرة والاسكندرية بمبادرة من القياديين التقدميين ، ومن بينهم قياديو ح م ت و . ورد الانكليز بتوقيف خمسين مسؤولاً نقابياً . ثم جاء دور وحدة متوقفة في القاهرة فتم نزع سلاحها . وبما أن الضباط من انصار ميتاكساس ، أحسوا بالريح تهب لصالحهم ، فقد قاموا بعملية من شأنها إبعاد خصومهم الديمقراطيين عن كل مناصب القيادة . فردت المنظمة السرية بعنف . قام الضباط والجنود الجمهوريون في الفرقة الأولى ـ ابطال العلمين ـ بتوقيف العصاة . وانتقلت الحركة إلى الأسطول الراسي في الاسكندرية . رمى بحارة المدمِّرة بيندوس ضباطهم الميتاكسيين في الماء ، أو أقفلوا عليهم في قعر السفينة . وحصل السيناريو ذاته على متن أربع سفن حربية ، من بينها الطرّاد افيروف ، حيث تولى القيادة ضباط ديمقراطيون .

دخلت هيئة الاركان الانكليزية في مفاوضات (كانت تقدر المقاتلين اليونانيين لكن تشرشل لم يكن يترك لها حرية التصرف)ووعدت بارسال الفرقتين الى الجبهة الايطالية إذا جرى اطلاق سراح الضباط المسجونين فوراً . وحصل الاتفاق ، واخلي سبيل الميتاكسيين . إلا أن هيئة الاركان في القاهرة اشترطت مجدداً النزع الكامل لأسلحة الفرقتين ، إما بنتيجة سوء نية أو بناء على تعليمات من لندن . فأجابت المنظمة المتمردة : « سوف نحتفظ بأسلحتنا ، فهي معدة لتحرير الوطن . لقد كللناها بالمجد في البانيا ومقدونيا وكريت والعلمين ، ولن نسلمها . فليتم إلغاء الأمر ، وإرسالنا فوراً الى الجبهة الايطالية[1] . »

---

(1) أورد هذا الكلام دومينيك أود ، Les Kapetanios, la guerre civile grecque de 1943 à 1949 مكتبة فايار ، ص 174.

في 11 نيسان قامت وحدات بريطانية مدعَّمة بالدبابات بتطويق الـ 4500 رجل من الفرقة الأولى . وقد اختارت هيئة الأركان لأجل هذا العمل الغورخا الهنود ، وهم فرقة محترفة يستحيل تفهمها للدراما اليونانية . إذا وُجهت لهم الأوامر باطلاق النار فهم يطلقون . وقد جرى عزل السفن المتمردة في مرسى الاسكندرية بواسطة نطاق صحي بحري . وأبرق تشرشل في 14 نيسان ما يلي : « قبل اللجوء لاستخدام السلاح ، ينبغي بالتأكيد ترك انعدام التموين يفعل فعله أولاً ، في المعسكر وفي الميناء » . هكذا جرى فرض حصار صارم . كان المتمردون محرومين من الماء والطعام ، وهو ما جعل تمردهم لا أمل فيه في مدى غير طويل .

كان القتال دائراً في ايطاليا ، وعلى الجبهة السوفياتية ، وفي الشرق الأقصى . ملايين الرجال يتواجهون في نزاع لم يسبق له مثيل من حيث العنف ، رهانه انتصار الفاشية أو هزيمتها . هل من الحق بمكان خرق الوحدة المقدسة لدعم معركة الديمقراطيين اليونانيين ، حتى وإن كانت عادلة ؟ وهل يجب ، بسبب المشكلة اليونانية ، تعريض النفس للخطر المخيف المتمثل برؤية جنود حلفاء يطلقون النار على جنود حلفاء آخرين ؟

ردت المنظمات الشيوعية المنافسة لـ ح م ت و سلباً . وبين القريبين إلى هنري كورييل ، كان هناك عديدون رفضوا اتخاذ موقف خطير. قال ابن خاله ، ريمون اغيون : « كنت قد شاركت في مساعدة اليونانيين ، لا سيما عن طريق تنظيم حملات جمع للمال . لكنني انفصلت عن هنري في فترة التمرد . فبالنسبة لي ، كان السير مع العصاة انحرافاً يسارياً . كنا في حرب ضد هتلر وكان يجب كسب تلك الحرب . » وكان لمارسيل ماسيكا رد الفعل ذاته . كان رجل أعمال ذا نفوذ عظيم في القاهرة (كان يمثل في مصر شركة بوساك التي كانت تشتري كل عام قسماً من محصول القطن لأجل مصانع النسيج الخاصة بها) ، وقد غدا ماركسياً وقام مع هنري كورييل بجولة محاضرات متلاحقة ، كاتباً في الفترة بين رحلتين مقالات لقاموس حول « الفكرة الماركسية عن الحرب » كان هنري هو المبادر اليه . « بدأت انفصل سياسياً عنه بصدد قصة اليونانيين هذه . ذات يوم ، اصطحبني إلى الصحراء كي يجعلني التقي جنوداً يونانيين كانوا يختفون هناك . كان يريد أن أساعدهم . وقد تكلمنا مع رئيسهم ، أو بالأحرى مسؤولهم . لم أكن أفهم شيئاً من هذه القصة . وقد قلت لهم : « انت تعملون ضد الحلفاء ، اذن ضد النصر . هذا مستحيل » . تناقشنا طوال ساعات ، لكني فشلت في أن أزحزحها ، أقصد هنري والشخص المشار اليه . كان يمكن هنري أن يبدي عناداً غير معقول . كنت أحبه كثيراً لكن الحقيقة انه كان ستالينياً . أعني :عقلاً ستالينياً . القناعة بأنه على حق . رفضه أن يتزحزح . باختصار كان اللقاء فاشلاً وانصرفت وأنا اتساءل لماذا جئت إلى هناك . اليوم أيضاً ، لا أفهم كيف استطاع أن يقحمني في هكذا قصة . »

إنه رد فعل يمكن فهمه وتقديره . بالنسبة لكثيرين ، كانت القضية فصلاً مزعجاً ، نوطة ناشزة في كونشرتو الحلفاء ، لكن بوجه خاص تطوراً ثانوياً كان من المضحك التعامل معه على أنه رهان سياسي حقيقي . من كان بوسعه أن يتوقع أن يكتب مراقب فطن كأندريه فونتان عن الحمّام القسري لبعض الضباط الرجعيين في مياه الاسكندرية الوسخة انه يسجل بداية الحرب الباردة ، جارياً في ذلك وراء الصحفي الأميركي جيمس بورنهام ، صاحب نظرية الحرب الباردة تلك ؟

كان هنري كورييل قد أخذ موقفا عادلاً من الحدث . كان يسلّم بأنه لو كان عصيان عدة آلاف من الجنود اليونانيين يخاطر ضمن ادنى الحدود في تأخير انتصار الحلفاء ، لكان ينبغي ترك الديمقراطيين المحكوم عليهم بالجوع والعطش لمصيرهم . لكن الحرب باتت في حكم المكسوبة (بعد أقل من شهرين ، سوف يثبت صحة التشخيص إنزال نورمانديا) . وما كان أمراً فوق التصور عام 1942 أو 1943 لم يعد كذلك في ربيع 1944 . بات ممكناً مذاك مساعدة الديمقراطيين في معركتهم العادلة . وبما أن ذلك كان ممكناً ، كان ينبغي للتضامن الأممي أن يخدم دون تحفظ قضية الرفاق اليونانيين .

لم يكن كورييل ـ وهو ما رآه رودنسون وكان مصيباً في رؤيته ـ صاحب ايديولوجيا أو نظريات . (آه ! كم من العقوق والظلم في هذه الجملة الغادرة ، الواردة أعلاه ، التي آخذ فيها على رودنسون أنه لم يتم اغتياله . . . . لو كان لا بد لموت رفيق قتال أن يؤدي بذويه إلى خطاب القديس سولبيس لكانت مهمة كاتب السيرة اقتصرت على سرد سير القديسين . ومن لا يدري أن ماكسيم رودنسون كان خاطر طوعاً بحياته كي ينقذ حياة هنري ؟) . لم يكن صاحب ايديولوجيا ولا حتى صاحب نظريات ، لكنه كان محللاً يمتلك وضوحاً رفيعاً . كان الأول بين اصدقائه الذي ادرك قوة الشعور الوطني في مصر . وهو الوحيد عملياً الذي ادرك الرهان الحقيقي للمأساة اليونانية في مصر . لقد برهن طيلة حياته عن قدرة خارقة على أن يميز ، تحت الانتفاخ الحدثي ، الخط السياسيُ الصحيح .

وكان رجل ممارسة .

*

* *

من دون ماء ، كان المتمردون بلا أمل . لكن الأسطول كان يملك احتياطياً وقد نجح رجال الفرقة الأولى ، المطوقون وسط الصحراء ، في أن يحولوا جزءاً من الماء العابر في قناة

ضخمة تمر على مقربة منهم وهي اساسية بالنسبة للجيش البريـطاني . لقد تم حـل مشكلة . لكن تبقى مشكلة الغذاء . وقد تحقق تموين البحارة المتمردين بواسـطة بعض مراكب الصيـد المتسلّلة ليلاً من بين ثغرات الحصار . إلا أن الفرقة الأولى كانت محاصرة بشكل أكثر إحكاماً . ومرة أخرى استخدم هنري كـوربيل المـوارد العائليـة . كانت ملكيـة المنصوريـة ، التي آوت مدرسة للكوادر ، قائمة على حدود الصحراء : وقد اصبحت مستودعـاً للمؤن . كان هنـري وحفنة من الأوفياء يسوقون سيارات خاصة أو شاحنات محمّلة بالمؤن وبصفائح الوقود ، ماضين الى مواعيد خطرة وسط الصحراء مع الرفاق اليونانيين . كان يمكن أن تنتهي كل رحلة تحت نار الرشاشات البريطانية : فالغورخا كانوا يطلقون النار لدى أي حركـة مشبوهـة . وكان التعب الناجم عن تلك الجولات الليلية ينزل بثقله لا سيما أن النهارات كانت مكرّسة لعمل دعـاوي كثيف : طباعة صحف سرية ، وبيانات ، ودعوات إلى الرأي العام ، الخ . لم يقـاوم هنري النقص في النوم إلا عن طريق أخذ كميات عالية من البنـزيدرين ؛ وهـو ما سيبقي أعصـابه مهزوزة لفترة طويلة . وكانت روزيت ، التي لا تتعب ، تبرهن عن جرأة تقارب التهور .

جرى إشراك العسكريين التقدميين الـذين كانـوا يترددون عـلى الرونبـوان في العمل . ويتذكر الرقيب الانكليزي سام باردل ، الذي بات صديق هنربيت ، المستخدمة في المكتبة ، بعد لقائهما على الحدود الفلسطينية ، يتذكر رحلة ذات طابع كارثي الى الاسكندرية بهدف ايجاد اموال . كان ثمة احتياج بالغ الإلحاح الى خمسة آلاف جنيه . وكانت البنوك مقفلة بعد ظهـر ذلك السبت . فجمعت المناضلات المحليات المال بأن رَهَنَّ حـلاهن . قام رقيب اميـركي ، اسمه آل كوشلر ، كان طوّعه باردل ، قام بعدة رحلات سرية سائقاً شاحنته لتسليم التموين : كان الغورخا يفتحون له الطريق تحت تأثير رباطة جأشه اليانكية . لكن مـا الفائـدة من ايراد أسماء معدّة لتغذية احشـاء الدمـاغ الالكتروني الكبـير في لانغلي (فـرجينيا) ولتضخيم الملف المحتمل لأحفاد هؤلاء الناس الطيبين ؟ كان قد ولد في كـوفانتـري الضابط الانكليـزي الذي نجح في إخْفاء حمولة من البيانات المُعـدّة لإلقائها على المتمردين حاضّة إياهم على الاستسلام . وبفضل مساعيه الحميدة ومطبعة هنري كوربيل السريـة ، ألقت الطائـرة آلاف البيانـات التي تحث المحاصرين على الصمود . . .

راحت الشرطة العسكـرية تضـاعف تحقيقاتهـا وتوقيفـاتها في القـاهرة وفي الاسكنـدرية لتفكيك منظمة الدعم . وقد جرى تفتيش شقة آل كوربيل مراراً .

فقد تشرشل صبره . كان الضباط الديمقراطيون في الطراد أفيروف قد أوصلوا الى هيئة الأركان في القاهرة الرسالة التالية : « سوف نصمد طالما لم تؤخذ مطالبنا بالاعتبار ، لكننا نتعهد بألا نستخدم اسلحتنا في أي من الأحوال » . فأبرق تشرشل الى الأميرال الانكليزي بما يلي :

« لا تترك أي وهم لدى ضابط **الأفيروف** : لن نبادله بالمثل بما يخص ما أعطاه من ضمانة بعدم استخدام سلاحه ضدنا . سوف نطلق النار على العصاة في كل مرة يكون ذلك ضرورياً » . أما الجنرال باجيه ، المسؤول عن حصار الفرقة الأولى ، فكانت مهمته محددة دون ادنى التباس : « سنكـون مستعدين لاستخـدام للقوة غـير محدود ، لكننـا سنتحاشى المجـزرة اذا كان ذلـك ممكناً »[1] . وقد بدأ الهجوم في ليل 23 نيسان على السفن المتمردة . وفي غضون دقائق سقط من بين المتمردين 12 قتيلاً و30 جريحـاً . ولو ردَّ هؤلاء عـلى النار بنـار مدافعهم الثقيلة لتعـرض أسطول الحلفاء الراسي في المرسى للاحتراق الشامل . **فالايفستوس** ، وهـي سفينـة خفيفة ، كانت تحمل 39 طوربيداً . لقد فضلوا الاستسلام . وفي الغد ، ألقت الفرقـة الأولى بدورهـا السلاح لتفادي إهراق الدم .

لكنهم لم يسقطوا جميعاً في الشبكة الانكليزية . فالأكثر حزماً أو الأكثر تورطاً ـ عدة مئات ـ انسحبوا عبر طرقات الصحراء واختبأوا كيفما استطاعوا . وقد نظم هنري كورييل استعادتهم ، ثم توزيعهم على مخابىء مضمونة في القاهرة والاسكندريـة . وشنّت الشرطـة الانكليزيـة على السريين مطاردة لا هوادة فيها ، غير مترددة في أن تستعمل التعذيب الوحشي ضـد من كانت تقبض عليهم كي تجبرهم على كشف التنظيم . وكانت احدى طرق التعذيب المفضلة لديها ان تحيط رأس الاسير بحبل وتضغط الى الحد الأقصى : كان الألم فوق الاحتمال .

لا شك ان الزوجين كورييل ، المعروفين طبعاً لدى الشرطة السياسية المصريـة ، كانـا معتبرين ضمن ملفات الأجهـزة البريـطانية ، ضمن ذلـك الظرف ، خصمـين مهمـين . ان الملف الذي سيتبع هنري كورييل حتى موته ، من عاصمة الى عاصمة ، قد تم فتحه في القاهرة في ربيع 1944.

تعرض لعدة حالات حرجة ساخنة . فذات يوم ، بدل ان يجد في الموعد المضروب معه الفارّين المتوقعين ، وجد 17 رجلاً ينبغي نقلهم وتأمين المنامة لهم . وقد حالفه الحظ فأخفاهم عن الدوريات وعثر على المخابىء الضرورية . وفي مرة ثانية ، كـان يخبىء مسؤولاً يونـانياً في شقتـه الخاصـة به ـ وكـانت تلك مخالفـةً لقواعـد الأمن فرضتهـا الضرورة إذ كـانت المخابىء المضمونة مزدحمة ـ فطوقت الشرطة العسكرية الانكليزية المبنى وبدأت تفتيشه بدقة ، طابقاً بعد طابق . كان الوضع يبدو يائساً . لكن الزوجين كورييل كانـا وضعا احـدى الغرف بتصـرف رفيقة شابة ، هي روث غريش ، المنخرطة الى ابعد الحدود في دعم اليونانيـين (كانت تحشـو عربة طفلها بالبيانات وتمـررهامن تحت ذقن الشـرطة) . كـانت روث تستقبل في ذلـك اليوم

---

(1) أورد هذا الكلام دومينيك أود ، المرجع المذكور ، ص 178.

صديقها وزوجها لاحقاً ، روبير براونينغ ، وكان استاذاً جامعياً انكليزياً قيل إنه يعرف عدداً كبيراً من اللغات الى حد أنه لم يعد يعرف عددها . كان الكولونيل براونينغ تقدمياً وكان احد مسؤولي الارتباط في الانتليجانس سرفيس بالقاهرة مع المقاومة اليوغسلافية . وقد لبس ثيابه العسكرية واخذ المسؤول اليوناني من ذراعه وخرج معه من المبنى ، متلقياً تحية رجال الشرطة الذين وقفوا في وضع التأهب .

دامت المطاردة ستة اشهر طوال . كانت تثبت ارادة تشرشل شل المناضلين ، المحتمل ان يعارضوا خططه ، حتى آخر واحد منهم . لكنه كسب الجولة ، حتى إذا كان عدة عشرات من الفارين أفلتوا من شرطته . فعشرة آلاف جندي وبحار يوناني ، مهزومون ، ومنزوعو السلاح ، ومهانون ، كانوا ينتظرون نهاية الحرب في معسكرات اعتقال بريطانية في ليبيا والحبشة . لم يُسمح لهم بالعودة الى اليونان الا في نهاية عام 1945 ، وعلى دفعات . لقد انتهى الجيش الديمقراطي ، وهو لن يزعج استعادة الزمرة الملكية للسلطة . كان ذلك هو هدف العملية الوحيد .

وقد تمَّت رؤية ذلك بوضوح حين نظم تشرشل في لبنان ، في الشهر الذي تلا سحق التمرد مؤتمراً يضمّ ممثلي حكومة المنفى ومبعوثين من قبل المقاومة الداخلية . ومن الغريب ان تكوين حكومة وحدة وطنية ، المطلب الأساسي للجنود الديمقراطيين ، لم يثر أي صعوبة مبدئية . وقد تمَّ انتزاع إدانة صارمة للتمرد من المقاومين ، الذين تمَّ التلاعب بهم بمهارة ، بحيث انضاف الى مرارة الهزيمة التي مني بها الجنود المسجونون شعورهم باليأس بسبب تخلي جماعتهم عنهم .

حين غادر مصر المسؤول الرئيسي عن الحركة ، قال لهنري كورييل الذي كان قد خبأه طوال ستة اشهر : « لن ننسى أبداً ما فعلته لأجلنا . نحن لا نفتقر الى الإمكانات في اليونان . وسنكون في المستقبل أقوى بكثير . لقد بات وضعك حرجاً . واذا تفاقم أرسل لنا اشارة : سوف نرسل اليك غواصة لإخلائك وجعلك في مأمن » .

كان الوعد مؤثراً لكن المستقبل مني بالفشل . .

إن المقاومة التقدمية ذات التوجه الشيوعي ، التي كانت تعرضت للهزيمة في مصر ، وللخديعة في لبنان ، كانت قد فازت مع ذلك في اليونان . فعلى غرار جارتها اليوغسلافية ، كانت قد حررت لوحدها التراب الوطني بأكمله ، قاتلة اكثر من عشرين الف جندي الماني . كانت تتمتع بالدعم الكثيف من السكان ، ولم تكن السلطة على اطراف بنادقها ، بل في يدها .

كان ذلك من دون حساب تشرشل .

جرى استقبال الوحدات الانكليزية الأولى ، التي نزلت في ميناء البيريه في تشرين الثاني 1944 ، جرى استقبالها في اثينا بالبهجة الشعبية . وقد وصلت الفرقة الهندية بدورها ، وكان ذلك فألاً سيئاً . فحين تكون قوة ردع كافيةً موجودةً تحت اوامر الجنرال سكوبي ، يحصل الاستفزاز المتوقع ؛ اطلقت رشاشات غامضة النار على جمهور متظاهر ضد عودة سياسيّ النظام القديم ، فسقط 28 قتيلاً وأكثر من مئة جريح ، وكان لتشرشل ما يحتج به . ابرق الى سكوبي يقول : « علينا ان نسيطر على أثينا . وسيكون ذلك امراً عظيماً لو استطعت ان تحققه من دون اراقة دماء ، لكن كذلك مع إراقة دماء ، اذا كان ذلك محتوماً . . . لا تتردد في التصرف كما لو وجدت نفسك في مدينة محتلة اندلع فيها عصيان محلي » . وسوف يعلق على ذلك في مذكراته كاتباً ما يلي ؛ « هذه الأمور ينبغي ألا تحصل بصورة نصفية »[1] .

دامت المعارك 33 يوماً وسقط الدم اليوناني من جديد على بلاط الشوارع في اثينا . وعلى الجدران ، كانت نقوش تصيح : « لقد عاد الالمان » .

وبالتأكيد ، انتصر سكوبي .

كتب اندريه فونتان : « نجاح قابل للنقاش اخلاقياً » . وهي ادانة قاسية ، بريشته . كانت مجزرة وقحة لا يبررها أي شيء ، ولا حتى التطهير الذي كان بدأ في ظل السيطرة الشيوعية والذي بدا قاسياً ـ وأحياناً وحشياً ـ بالقدر الذي كان يمكن توقعه في بلد خضع للديكتاتورية الفاشية خمس سنوات ، ثم للاحتلال النازي طيلة سنوات أربع . مجزرة مأساوية علماً أن التاريخ كما تتمُّ كتابته يمر بطمأنينة وهدوء ، بمكاسب وخسائر ، مثلما لا يقف موقفاً بالغ الصرامة من الاستعمار الفرنسي الذي اجهز على 30 ألفاً أو 40 الفاً من الجزائريين في ولاية قسنطينة في 8 أيار 1945 ، يوم النصر . كل شيء هو مسألة تاريخ ، وربما أيضاً مسألة ريشة . تبقى بودابست 1956 في كل ذاكرة : من الذي لا يزال يعرف ان أثينا كانت في عام 1944 مكاناً لجريمة نكراء اقترفتها بدم باردٍ انكلترا ، « أم الديمقراطيات » ؟

سوف يقول هنري كورييل فيما بعد : « شكلت القضية اليونانية بالنسبة الينا بلوغ النضج ، سن الرشد السياسي » . كانوا قد رأوا الامبريالية مكشوفة الوجه .

* * * *

(1) اندريه فونتان ، مرجع مذكور ، ص 250.

الحركة المصرية للتحرر الوطني .

لكن كذلك الطليعة ، الفجر الجديد ، العصبة الماركسية ، القلعة ، الايسكرا ، نحو حزب شيوعي مصري ، تحرير الشعب ، نواة الحزب الشيوعي ، النجم الأحمر ، وحدة الشيوعيين ، الخ . ، وكل من هذه المنظمات تفرقت تكتلات جديدة على هوى الأزمات والانشقاقات المتواصلة التي كانت تهز العالم الصغير الشيوعي في القاهرة . لو ان بوفون Buffon* من عالم السياسة نجح في تصنيفها ، فلقد كان ثمة حاجة لواحد كشارلوك هولمز كي يكتشف تحت زهور المظاهر النواة الصلبة للحقيقة . كانت القلعة تدّعي ان لديها مئة ألف منتسب في حين لم تكن تضم اكثر من خمسين (ليس خمسين الف بل خمسين. لكن الزعيم نجح في جعل الخمسين الشجعان يظنون بأن الآخرين ينتظرون ساعة الصفر في اقصى درجات السرية) . وهاكم ظاهرة نادرة في السياسة : كان ثمة منظمة لم يزد عدد اعضائها عن منتسب واحد ، هو مؤسسها . كان الحزب الشيوعي لشعوب وادي النيل يضم تحت اسم مؤثر عدة عشرات من مستخدمي خزانة الدولة ، وكان معروفاً باسم الحزب الشيوعي لمصلحة الضرائب . واذا استثنينا هذه الشواذات الهامشية ، يمكن تقدير أن حوالي عشر منظمات تطلعت جدياً تقريباً لأن تغدو الحزب الشيوعي المصري ـ كان ذلك كثيراً ـ ، وان ثلاثاً فقط كان في وسعها ان تطمح الى ذلك ـ كان ذلك كثيراً ايضاً : وهي ح م ت و بقيادة هنري كورييل ، والايسكرا التي أسسها هيلل شوارتز ، وتحرير الشعب التي أسسها مارسيل اسرائيل .

عام 1943 كان هيلل شوارتز في العشرين من عمره ، صغير القامة ، نحيلاً ، وذا وجه بالغ الجمال يشع بالذكاء . كان اهله من اصل روماني ، لكن ذوي ثقافة فرنسية ، وقد وجدوا أنفسهم محتجزين في مصر خلال رحلة سياحية بسبب الاعلان المفاجىء للحرب عام 1914. كان الوالد طبيباً ، وكان يكره رومانيا . وقد انخرط في الجيش الانكليزي ، ووصل الى رتبة ميجور ، واستقر في مصر في نهاية الحرب . كان واحداً من اولئك الرجال بالغي النضارة والمثيرين متاعب للعائلة : زير نساء ، ومقامراً ومبارزاً بالسيف . وفي الوقت ذاته طبيباً جيداً ، مع زبائن مرموقين من بينهم حتى العائلة الملكية المصرية . وكانت طفولة الفتى هيلل عادية في بيئته : بيت فخم مزدحم بالخدم ، سفرات سنوية الى فرنسا (كانت الاقامة تطول حين يرغب الوالد في ان يكون مطمئناً في القاهرة مع عشيقة له) ، احتقار للسكان الاصليين (تقول له الوالدة : « أنت وسخ كعربي » ؛ وكان الوالد ينظر الى المصريين كما لو كانوا في مرتبة ادنى من مرتبة البشر ، مع انه كان يدعي الانتهاء الى اليسار ، لا بل يعتبر نفسه شيوعياً) . وتكمن

* كاتب فرنسي في القرن الثامن عشر [1707-1788] (م) .

فرادة هيلل شوارتز بين منافسيه ورفاقه فيما بعد في أنه بحث في السياسة عن مخرج من صعوبات حميمة مرتبطة بتمرد تقليدي ضد العائلة : « بعد أن عبدت أهلي ، كرهتهم . ادركت ان أبي رجل فظ ومتسلط ؛ وان أمي شيء بائس » . وقد اوصلته قراءاته وكتاب الفلسفة لكوفيلييه الى الماركسية . وهو مسار نموذجي لمثقف اوروبي شاب . ينقصه الختم المصري الذي سيبقى مطبوعاً به كوريل واسرائيل الى الأبد : الاكتشاف الفيزيائي ، المثير ، لبؤس سحيق . وفي حين لم يكن الآخران يتصوران للحظة واحدة ان يعملا خارج مصر ، لم يقرر شوارتز ذلك إلا لأن الحرب احتجزته : « كنت ارى عملي السياسي في الخارج . فمصر لم تكن تهمني اطلاقاً . كنت اجد البلد بشعاً وكريهاً وكانت فرنسا المنارة الوحيدة . كنت احتفظ بذكرى خارقة عن إقاماتي في فرنسا ولم اكن اتطلع الا الى العودة اليها » .

لم يؤد لقاؤه مع « موفد الكومنترن الى القاهرة » الغامض الا الى حوارات مملة تافهة كان يحرفه عنها فخذا غابي أغيون . لذا تخلى هيلل الشاب عن ارادته الحازمة ان يفعل شيئاً . وكان يائساً . وجدته القنصلية الاسبانية صغير السن فلم توافق على تطوعه في الفرق الأممية ، وكانت احوال اهله تسوء . فالوالد كان ينعزل بسبب ارتباطاته الصاخبة ومبارزات مضحكة . وقد ضجر زبائنه من معاملته إياهم ككلاب فتوقفوا عن التردد على عيادته . ولم يبق غير خادم واحد في المنزل . وكانت تحصل نزاعات بصدد المال . « لم تكن تلك هي الضائقة ، لكن لم تعد العائلة في حالة ازدهار » . كان على هيلل ان يعمل . وقد تم العثور له على وظيفة ناسخ في شركة دلمار الصيدلانية . لم تكن رداءة الفترة الأولى مهمة لأن عرّابه كان مالكاً للمخازن الكبرى **سيكوريل** : « تبدأ من اسفل السلّم لكنك ستنتهي في اعلاه » . لم يكن يهمه ذلك ، وكان في أقصى درجات الضجر . كانت احدى مهماته ان يسأل عن طرق استعمال بعض الأدوية لدى حرفيٍّ - طبَّاع من الجنسية المصرية . وكان الرجل ودوداً . وكانا يتفاهمان عن طريق خليطٍ من الفرنسية والانكليزية والعربية . وقدكان ذلك كافياً كي يفهم شوارتز رغبة محاوره في أن ينطلق في العمل النقابي . ثمة حاجة لصحيفة ، فأين يمكن العثور على المال اللازم لذلك ؟ قرر شوارتز ان ذلك بسيط جداً : « سوف أضخِّم الطلبات بخصوص النشرات الدعاوية وتدفع أنت ثمن الورق من الفرق » . وسوف يضع هيلل فوق ذلك كل اجره الشخصي تقريباً . (وقد شارك في المشروع شخص ثالث هرب هو الآخر من النقاشات الماركسية المملة ، لكن سرعان ما سيختفي ، لأنه كان يهودياً من الجنسية الانكليزية فجرت تعبئته عام 1941).

وقد صدرت جريدة **اليراع** . وكانت اسبوعية تصدر باللغة العربية . « حسب معلوماتي ، اول جريدة عمالية تصدر في مصر » . كان الحرفي ، زكي ، وحفنة من النقابيين

يحررون المقالات . وهاكم هذا الاعتراف المتواضع والرمزي الى ابعد الحدود ، على لسان شوارتز راهناً : « لا يمكنني ان اقول ما كانت قيمة اليراع ، لأنني كنت عاجزاً عن قراءتها . كان زكي يترجم لي مقالاً من حين لآخر . لقينا بعض النجاح وتعرضت جريدتنا مراراً للمصادرة من جانب الشرطة . وقد كنا نعود الى الظهور تحت عنوان آخر . هكذا تشكلت نواة صغيرة من المناضلين العماليين ، انضاف اليهم عدة حرفيين مصريين عرّفني عليهم مارسيل اسرائيل . كان لدينا انطباع بأن شيئاً ما في طور الاقلاع » .

قطع روملل التجربة بأن اضطر هيلل شوارتز للانكفاء الى فلسطين . وحين عاد الى القاهرة بعد ثلاثة أشهر ، قرر هو واصدقاؤه اعطاء بنية لمجموعتهم بالتشكل في حزب سياسي ، وكان الاسم الذي تم اختياره هو « الشرارة » ، وكان يحيل بالبداهة الى الايسكرا المشهورة الخاصة بلينين ، لكن الجميع سيستخدمون الكلمة الروسية عائدين بالضرر على عملية التمصير .

كان الهدف هو الوصول الى حزب شيوعي مصري اصيل . وكان الشرط الأول بالنسبة لشوارتز واصدقائه هو تكوين كوادر سياسيين . ستكون الايسكرا إذن مشتل كوادر يتكونون في مدرسة النظرية والممارسة المزدوجة ، ويُعَدّون لتقديم طليعة الثورة المصرية . وكان هدف بهذا الطموح يفترض اختياراً صارماً للمرشحين للانتساب ، لن تكون الايسكرا احد نوادي النقاش الرائجة آنذاك حيث كان الشبان البورجوازيون القاطعون مع طبقتهم يأتون ليمارسوا طيشهم لسياسي . كان ينبغي ان يحصل كل مرشح على تزكية مناضلين اثنين وان يتبع عدداً من الدروس التمهيدية . وبعد ان كان يمر في الامتحان ، ويحصل على عتاد ماركسي ، كان يتم منحه شرف الانتساب ، وضمُّه الى خلية . كان الحزب يعمل بالطريقة الهرمية ، مع الفصل الأفقي بين الخلايا ، حيث لا يكون مبدئياً لكل منها (الخلية ـ الإبنة) اي اتصال الا مع الخلية ـ الأم في الدرجة الأعلى . وكانت لجنة مركزية تقود المجموع وتوزع المهام حسب القطاعات . إذا كان التكوين النظري الداخلي يشكل الجانب الأساسي من العمل ، فالايسكرا كانت تعد نفسها للتدخل في الحقل السياسي بواسطة جريدتها الأسبوعية **الجماهير** ، وكانت تُلقى في **دار البحث العلمي** محاضرات حول الموضوعات الأكثر تنوعاً يتابعها الطلاب المصريون بكثافة . وكانت النقاشات ذات مستوى اعلى بوضوح من مستوى المنتديات الدراسية المتنوعة او الحلقات التي تجتر الترجمة الشائعة للماركسية . لقد انتزعت الايسكرا في الأخير الإشراف على رابطة قدامى تلامذة الليسيه الفرنسي في القاهرة ، حيث درس معظم مناضليها اللغات والآداب القديمة ، لكن هذا المكسب ، قليل الأهمية على المستوى السياسي ، عاد عليها بسخرية خصومها . كان هنري كورييل يردد ببسمته الحارة : « لا شك ان لهيلل قماشة قائد

عظيم ، لكن لرابطة الليسيه الفرنسي » .

من الغريب ان مارسيل اسرائيل كان قد أُحِلَّ من الخطيئة الاصلية للانتماء الى البورجوازية . فالى اليوم لا يزال رفاقه القدامى يكبرون شظف حياته ويتكلمون عليه كما لو انه طفا من اعماق البروليتاريا المصرية . « كان عاملاً » . . واذا كان والده قد اضطر لبيع مصنعه للنسيج في ميت غمر ، على بعد ساعة ونصف من القاهرة ، وللاستقرار في بيت قائم في حيٍّ عربي (يا للمصيبة !) ، الا أن خلفاءه في المصنع تعاقدوا معه بصفة كادر ، وكان يحتفظ في القاهرة بشقة يسكن فيها مارسيل ، كما كان يقدم لهذا الأخير معاشه دون تردد . وكان لوالد مارسيل جدةٌ تسهِّل للأخير نهايات شهوره بأن تضع في جيبه قطعاً من الجنيهات الاسترلينية الذهبية ، لكن جدات الوالد زائلات. وحين بات العمل ضرورياً للقيام بأوده ، اشتغل كأمين مخزن في مصنع يصنع أنابيب اسمنتية ، ثم اشتغل في بورصة القيم في القاهرة ؛ وهي اعمال غير مفعمة بالفرح ، بالتأكيد ، لكنها ليست قسمة معذبي الأرض . يبقى انه لم يخرج من قصر في الزمالك ، وان والده لم يكن لا محامي الملك ولا طبيبه وان قدره كان لا بد ان يبدو جديراً بالعطف بالنسبة لمعظم رفاقه . وكان يتميز عنهم بأنه يتكلم لغة البلد بطلاقة ، وهذا امر مهم ، يضاف الى ذلك شخصية غير عادية . ان الرجل الذي بلغ الآن السبعين من عمره ، لا يزال يحتفظ بحيوية لا مثيل لها ، وبدينامية مدمرة ، وبشهوة الى الحياة والعمل لا تشبع : في العشرين او الثلاثين من العمر ، كان لا بد ان ينتمي للنبتة اللاحمة اكثر مما للَّيلكة المصعوقة .

كان سكريتيراً للاتحاد الديمقراطي ، ثم ابتعد عنه بعد خلاف مع هنري كورييل : « كان هنري قد ادخل كل اصدقائه البورجوازيين الكبار وتحول الاتحاد الديمقراطي الى اتحاد ارستقراطي . كان مقرنا احد الامكنة الأكثر ترفاً في القاهرة . لم اكن ارى فائدة ذلك . كنت اعتقد ان الاتحاد يجب ان يكون حوض سمك ، بما يتجاوز عمله لصالح المعسكر الديمقراطي . وكنت أريد ان اجلب اليه موظفين مصريين في سن الشباب ، ومثقفين وفقهاء . لكنني وجدت نفسي محاطاً بسيدات يرتدين الفرو . لذلك مضيت . كان ذلك عام 1939. كنت اعرف بارون جيداً ، وكان استاذاً في الليسيه الفرنسي ، عضواً في الحزب الشيوعي الفرنسي ، ولديّ ما يخولني الاعتقاد بأنه كان على اتصال بميدويان ، مندوب الكومنترن الى الشرق الأوسط . وقد عرّفني بارون على طاهر المصري ، الذي كان انتسب الى الحزب الشيوعي الفرنسي خلال دراسته في باريس . فقدمت اليه الرفاق العشرة الذين كنت عرَّفتهم على مبادىء الماركسية واسسنا في عام 1940 تحرير الشعب، اول منظمة شيوعية سرية في مصر » .

كانت هناك جمعيتان شرعيتان تتيحان العمل تحت غطاء . كانت خبز وحرية تعمل في وسط عمالي (هذه هي المجموعة التي سيلتقي فيها لبدر ، المتدرج لاحقاً في مدرسة هنري

كورييل للكوادر ، ان يستمع الى الشاعر انور كامل يكرز بالماركسية في ظلال الأهرام) . أما **الثقافة وأوقات الفراغ** ، التي كانت تحركها جانيت اسرائيل ، فتوجهت الى المثقفين المصريين .
«على امتداد عام، لم أتوقف عملياً عن اعطاء دروس في الماركسية. وكانت النتائج مقنعة. كنا نكوّن المزيد من الكوادر . وعام 1941 ، كتبت أنا ورفيقان مصريان كراساً يعرض مطالب الطبقة العاملة . وقد كان رد فعل السلطة فورياً وشرساً ، حيث ألقي بكامل المجموعة في السجن . وبقي الرفاق معتقلين طيلة شهرين ، اما انا فجرى نقلي الى معسكر اعتقال خاص بالفاشيين بسبب جواز سفري الايطالي . وانا احتفظ من حياة المعتقل بذكرى قاتمة جداً . ففي كل مرة كان رومل يقترب ، كان حراسنا البريطانيون يهددوننا بالموت . وقد استحصلت بعثة جورج غورس الفرنسية على اطلاق سراحي ورحلت الى فلسطين ، حيث بقيت عاماً ونصف العام انا وزوجتي في أقصى درجات الاملاق . كنت أناضل داخل الحزب الشيوعي الفلسطيني محاضراً في الماركسية .

« لدى عودتي الى القاهرة ، في نهاية عام 43 ، استدعاني رئيس الشرطة السياسية المصرية . وقد اعطاني نصيحة أبوية بأن أتعقل . ثم التقيت هنري مجدداً ، وكان لا يزال ساحراً وأخاذاً ، مع قدرته الخارقة على الاستماع وفن بدء محاجته انطلاقاً من آخر جملة يقولها المحاور ـ كان مدعاة للغبطة ان يناقش المرء معه ، كنا نحس بأننا اذكياء . دعاني بـ « الرفيق القديم » وقال لي : « تعال الينا ، فمكانك في قيادة الحركة المصرية للتحرر الوطني (ح م ت و) » . وقد حدثت بذلك اصدقائي المصريين ، فنصحوني بدخول لجنة ح م ت و قيادية ، حضرت اجتماعين في شقة جو ماتالون . كان البراد ممتلئاً دائماً . والعامل الوحيد ، وكان ارمنياً ، كان يأكل بشراهة بحيث ينام. جميع الحاضرين كانوا من اصل اجنبي . ويبدو انه كان هناك لجنة قيادية اخرى تضم بعض المصريين . لم يبد لي كل ذلك جدياً ، وقد أعلمت اصدقائي بما رأيت . فنصحوني بالانسحاب واعدنا تكوين مجموعة تحرير الشعب . كنت الوحيد غير المصري . وكنت اعمل في القاعدة معطياً دروساً في الماركسية . لم يكن وارداً بالنسبة لي ان اطمح للعب أي دور قيادي . لم انس الدرس الذي اعطانيه ميدويان قبل الحرب : « اين هم المصريون ؟ » كان عليهم هم ان يمسكوا بدفة القيادة . لكن صحيح انه كانت لي مكانة خاصة تقريباً بسبب علاقاتي الأممية . فأنا الذي اؤمّن الاتصال بنقولا الشاوي ، القيادي الشيوعي اللبناني ، وبقيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني .

« بقيت على علاقة ودية جداً مع هنري ، الذي كنت أراه باستمرار ، لكننا لم نكن نعمل على الخط ذاته » .

* * *

ثلاثة تماسيح في الخليج المصري . لماذا إنكار لعبة الطموح البشري ؟ كانوا على يقين بأن مصر تنتظر لينينها وكان كل واحد يقدم ترشيحه ـ على الأقل حتى الاستيلاء على قصر الشتاء . كانوا يعرفون ان اصلهم يجبرهم على الامحاء لكن هذا لم يكن يضايقهم . لم يكن طموحهم رديئاً . كانت الثورة تثير حماسهم، في حين ان السلطة ستكون لآخرين . في منتصف القرن ، لم تكن لتراود أي شيوعي الفكرة الخرقاء التي مفادها انه يمكن الأصل الأجنبي لأحد الرفاق ان ينتزع منه الصفة التي تخوله القيام بعمل ثوري في بلد من البلدان. فالأممية كانت ترسل خبراءها على وجه السرعة الى النقاط الحارة للصراع الطبقي العالمي : بورودين الى الصين ، وفريد الى فرنسا ، ووالتر الى اسبانيا . فلماذا لا يكون كوربيل او شوارتز او اسرائيل في مصر ؟ لكن كان هناك اثنان زائدان .

ثلاثة يتامى للأممية . قد يكون من الظلم الكبير ان نتصورهم زعماء صغاراً واثقين من انفسهم ومتسلطين يتوقون للحكم دون شريك على الاقطاعة المصرية . لو ان ستالين لم يحل الكومنترن عام 1943 لأسباب ذات طابع دولي ، ربما كان تغير قدر مصر لأن التبعثر المميت للقوى الشيوعية ما كان قُيِّضَ له أن يحدث . ففي أي لحظة كان يمكن ان تنصِّب فيها موسكو أياً من المنظمات المتخاصمة كان سيؤدي ذلك الى انضمام كل الاخريات اليها من دون تردد او تذمر . وفي غياب منح هذا التنصيب من الأعلى، جرى إستجداؤه دون ملل من الأسفل ، لكن بصورة بالغة الصياح وانعدام التماسك بحيث انه لم يأت أبداً . كانت كل من المجموعات المتنافسة تستخدم اتصالاتها الدولية للحصول على الأقل على تجريد الأخريات من الأهلية . ولقد حصل عام 1942 ، إبان الانكفاء الاستراتيجي الذي فرضه رومل على فلسطين ، ان حاصرت الشلل المصرية الحزب الشيوعي الفلسطيني ، المسموع جداً في موسكو ؛ وإذا كان يصعب على اي منها ان تقدِّم كشف حساب ايجابياً او آفاقاً ملموسة، فلقد كان اغتياب الشلل المنافسة اسهل . وسرعان ما تولد لدى القياديين الاجانب انطباع بأن الشيوعيين المصريين ليسوا غير حفنة من البورجوازيين الصغار او الكبار المنخرطين في معارك ديوك لا تغتفر تنتمي الى العمل السياسي المبتذل اكثر مما الى النضال الثوري .

كان التنصيب المنشود بكل ذلك الحماس يتوقف مذاك على الحزب الشيوعي الفرنسي . كانت القاعدة السائدة ان يتبع شيوعيو بلد مستعمَر الحزب الشيوعي في الدولة المستعمرة . هكذا فإن الحزب الشيوعي كان يوجِّه عبر احد اجهزته المسمى مكتب المستعمرات ـ ونحن هنا لا نخترع ـ المنظمات الشيوعية في الامبراطورية الاستعمارية الفرنسية ، التي لم يكن يضجر من الترداد على مسامعها، وفقاً لتصور سياسي يعقوبي ، ان انتصارها سيكون النتيجة المحتومة لانتصار الاشتراكية في فرنسا . كان ينبغي ان يكون الحزب الانكليزي هو « الأخ الأكبر »،

الطبيعي للشيوعيين المصريين ، بيد ان هذا الحزب بقي شيئاً صغيراً جداً ، وكان اشعاع فرنسا في مصر عظيماً (دون الكلام على القرب الجغرافي من لبنان وسوريا) لدرجة انه جرى اختيار الحزب الشيوعي الفرنسي ليوجه خطى الرفاق المصريين على طريق الثورة . شهدنا إذن ، منذ نهاية الحرب مساراً مثيراً لا سابق له في تاريخ الحركة الشيوعية العالمية : اتفقت مختلف المنظمات المصرية على ان يبحر على أول مركب متجه الى فرنسا ـ فيل دو لوميير ـ وفد مؤلف من ممثلين عن كل شلة كي يستمع « الأخ الكبير » الى المرافعات وقرارات الاتهام ، ويصدر حكمه عن خبرة . كانت الرحلة كئيبة ، ينظر المندوبون بعضهم لبعض خلالها بغضب ؛ جاءت النتيجة مخيبة للآمال . كان على رأس مكتب المستعمرات كل من اندريه مارتي ، وليون فييكس ، وايلي مينيو ـ وكانوا رجالاً مقدودين من صخر ، مكونين في المدرسة الستالينية الصارمة ، غير حساسين تجاه العواطف المرهفة المصرية ، يحفزهم مبدئياً حذرهم حيال المنشقين عن البورجوازية الكبرى ، وعلى علمٍ فوق ذلك بالسوابق البائسة للحركة الشيوعية المصرية وقد حضّ مكتب المستعمرات على الوحدة وهو امر كان ينبغي فرضه . لكن كان ذلك يعني اجبار النفس على الاختيار . ولم يكن الاختيار سهلاً بين ابن صاحب المصرف في الزمالك وابن طبيب العائلة المالكة المصرية . حتى شخص كمارسيل اسرائيل كان يمثل بالنسبة لمارتي او مينيو بروليتارياً متأنقاً بعض الشيء . وكانت الخصومات بين الرجال قوية الى حد انها كانت تخفي الفروقات بين البرامج والخطوط السياسية التي كان يجب ان تقدم مقياس الاختيار الأكثر جدية .

بعد أربعين سنة ، وفي حين مرت محدلة التاريخ على الرجاء العظيم الذي حرَّك شباب المحاربين القدامى ، لا تراهم يسهلون مهمة الباحث . ما زال المنفى يحتفظ في مادة الفورمول الخاصة به جنين المعركة الجهيض ، لم يخمد زنجار الزمن بريق الخصومات ، وأولاد الستين عاماً يتذكرون بحماس المراهقين الانحرافات اليمينية او اليسارية لدى خصومهم المثيرين للرثاء . والصوت المغتال لهنري كورييل لا ينقص الكونشرتو بفضل بعض الأشرطة المسجلة قبل موته مباشرة : فتحت تأثير غضب مجنون ، تتفجر لعنات عمرها نصف قرن وتندهش الأذن إذ تسمعه يمتدح بصورة ملحمية « الخط الصحيح ليونس » (كان يونس اسمه المستعار) . قد نبتسم او نغتاظ لو ان هكذا روحاً قتالية لم تكن تشهد على اصالة التزام مطلق ، لا يُعكس ، لم ينحط لدى اي منهم الى التشككية الفاحشة المرتدّة الى الماضي التي اعتاد عليها معاصروهم الأوروبيون .

والأمر الأكثر صعوبة هو إعادة تكوين الترسيمة الاشكالية للخطوط السياسية ، الاستراتيجيات والتكتيكات : الترتيب القتالي للقوى السياسية المتواجهة . بما ان وثائق

الأرشيفات غير موجودة ، ما عدا استثناءات نادرة ، فـالأرجح ان هيلل شوارتز على حق حين يضع موضع الشك امكـانية تأريـخ للحـركة الشيـوعية المصـرية مستنـد الى شهادات جـزئية ومتحزبة . فالذاكرة تعيد تـركيب الواقـع بصورة ممتعـة دون ان ينصدم حسن النيـة والصدق بسبب ذلك . هكذا إذ يتذكر هنري كورييل المعاهدة الجرمانية ـ السوفياتية ، يؤكد ان جورج بوانتيه كان يضع على قدم المسـاواة الأمم الديمقـراطية والبلدان الفـاشية ليخلص الى الـطابع الامبريالي البحت للحرب ، وانه من جانبه كان يعارض ذلك . والصحيح ان كل الشهادات تؤكد العكس : فهنري الذي أيَّد المعاهدة تحت تأثير بوانتيه ابدى خلال اشهر حماس المهتدين حديثاً وكان يثير غيظ محيطه ـ لا سيما راوول ـ بالتعبير الصاخب عن استمتاعه في كل مرة تتمكن فيها غواصة نازية من إغراق سفينة شحن انكليزية ؛ بينما كان بوانتيه اظهر منذ البدء ادراكـاً افضل . والحال ان الاحترام والصداقة العميقة من جـانب هنري كـورييل حيـال معلمه في الشيوعية يستبعدان كل تلاعب واعٍ بالوقائع ؛ كانت ثلاثة عقود فقط قد مرت . كما ان كورييل سوف يكتب قبل مصرعه بقليل انه كان مستعداً للالتحاق بمجموعة مارسيل اسـرائيل ، التي ولد منها فيما بعد **تحرير الشعب** ، لولا أنه « احس بالهول » حين علم بارادته خوض كفاح حازم لصالح الإلحاد . لقد استنح هنري كورييل الفرصة لإبداء تقديره مرة اخرى لـ « ذلك المعهد الرائع لليسوعيين في الفجّالة ، الذي احتفظ بذكرى طيبة عنه وأدين له بأنه طوَّر في نفسي قيما اخلاقية رفيعة وعلمني فلسفة ـ هي التومائية الجـديدة ـ اعطتني اشتراط فهم للعالم شمولي حقاً عدت فوجدته في الماركسية » (كانت كلمته مجنحـة لكن ريشته كـانت ثقيلة) ، ليعود فيختم كلامه بصورة رشيدة : « في مصر ، البلد الذي كان الايمان يمدّ جذوره فيه عميقاً جداً ، كان النضال ضد الدين عملاً انتحارياً حقـاً » . لكن مارسيل اسرائيل ، المتهم بغباوة راسخة ، يستشيط غيظاً واستنكاراً : « هذا جنون ! لم اكن رغم ذلك غبياً الى هذا الحد ! فليكن معلوماً لديك أني كنت أوقف دائماً محاضراتي في الماركسية ـ ولقد القيت المئات منها ـ كي يؤدي طلابي صلاتهم . كنت احب هنري ، لكن أمامك هنا مثل نموذجي ، الخ » .

لقد غادروا مصر مع واترلـو* في جعبتهم ، لكنهم يتفقون عـلى جعلك ترى في طـرف خطهم السياسي الصحيح أوسترليتز** الظافرة التي حرمهم منهـا « الرفيق القـديم » الفلاني البليد .

كان مارسيل اسرائيل و**تحرير الشعب** يدعوان بحزم الى التمصـير والى بلترة الحـركة .

---

* إشارة إلى هزيمتهم ، نسبة إلى واترلو حيث انهزم نابوليون (م)

** معركة أوسترليتز حقق نابوليون انتصاراً ساحقاً فيها ، وهي هنا ترمز إلى النصر (م) .

والجميع متفقون على الاعتراف لهما بنسبة من المصريين البروليتاريين لم يكن لها مثيل في المنظمات الأخرى ، لكن إذا كانت نوعية النموذج النضالي ممتازة فلقد كانت كميته المحدودة تحدُّ من نفوذه السياسي . لقد كانت تحرير الشعب تتمتع بصفاء تجربة مخبرية .

يعرف هيلل شوارتز ان منظمة الايسكرا التي كان يقودها كانت متَّهَمة بتركيبها ذي الغالبية الأوروبية ، ومتعرضة للسخرية بسبب سمة بورجوازية كانت تسمها ، ومتعرضة للسخرية بسبب الأفضلية المعطاة للنظرية على الممارسة : لا يتوقف عن الكلام اليوم على ارادة التمصير لديه ، واختراقه للأوساط الشعبية وفعالية ممارسته النضالية .

كان هنري كورييل يعرف ان ح م ت و كانت متهمة بالانتهازية ، وبضعف تنظيمي تكويني وبنشاطية سياسية ، لذلك لم يكن هناك شبيه له ليبني استدلالياً (« 1943 -1945: مرحلة رَجمية حيث الحزب يشتغل على نفسه ، الخ ») حركةً تخترع طريقتها في السير بأن تضع رِجْلاً أمام الأخرى .

سيكون من قبيل الغرور الطموح لاصدار حكم في حين امتنع مكتب المستعمرات هو نفسه عن ذلك . لكن مصر لم تتردد في الحسم ، وبسرعة .

*

* *

يقال إن التاريخ لا يكرر نفسه : إنه يتلعثم مصر تُتَّهم بالتزوير ، وهي ترى الحرب العالمية الثانية تكرر الانفجار المخيف ما بين عامي 1914 و 1918 ، فيما هي تضخمه . كتب جان وسيمون لاكوتور : « كان النزاع الأول جعل من مصر امة . اما حرب 1939-1945 فجعلت منها نوعا من القوة العظمى[1] » . كان وجود جيوش وأجهزة للحلفاء تناهز المليون رجل على أرضها يعطي دفعا قويا لاقتصادها في حين كان قطع الإتصالات مع اوروبا ـ يخلص صناعتها من كل منافسة جديّة . ويورد الكاتبان لاكوتور ارقاما معبِّرة : « بين 1940 و 1943 ، ارتفعت الودائع في المصارف من 45 مليون جنيه الى 120 مليونا . وزادت الشركات من امثال « شركة الفنادق المصريةEgyptian Hotels » الارباح المدفوعة للمساهمين فيها بنسبة ثلاثة اضعاف ما بين عامي 1940 و 1944 .وارتفع عدد اصحاب الملايين (ملايين الجنيهات) في الوقت ذاته من 50 الى 400 ، . .و «شركة مصر للغزل والنسيج » التي كانت تدفع ارباحا بمقدار11%عام 1938 ،

(1) مرجع مذكور ، ص 92 .

باتت تدفع 22% عام 1942 . . . وقد اشار السيد علي شمسي ، في شهر آذار 1942 ، في تقريره الى المصرف الوطني الذي كان رئيساً له ، إلى «الازدهار الناجم عن تدفق الرساميل الاجنبية إثر مشتريات القطن التي قامت بها بريطانيا وبفعل انفاقات الجيوش المتحالفة»، واوضح ان «ارباح الشركات الصناعية تضاعفت منذ الحرب». واخيراً، ففي نهاية الحرب كان لمصر في ذمة بريطانيا دين مقداره 300 مليون جنيه : تموين، تعويضات، اضرار حرب. »

في حين تضاعف عدد أصحاب الملايين من الجنيهات ثماني مرات، ارتفع مؤشر الاسعار من 131 الى 353 ؛ لم يعد صغار الفلاحين يستطيعون دفع الضرائب المفروضة عليهم، ولم يعد الانتاج الوطني يغطي الحاجات الغذائية، مع توقف استيراد الحنطة ووجود مليون شخص إضافي ينبغي اطعامهم - كل واحد منهم يأكل قدر ما يأكل خمسة مصريين - رغم الخفض من المساحات المخصصة لزراعة القطن. «وقد اتهم اسماعيل صدقي قوات الحلفاء بـ «تجويع الشعب»، وذلك من على منبر المجلس النيابي. » وفي كانون الثاني 1942 ، اعلن نائب وفدي لجريدة **المصري**: «عشية الثورة الفرنسية، كان شعب باريس يصرخ: «نريد خبزاً!» وهذا ما فعله شعب القاهرة بمهاجمته قوافل القمح . . يمكن وصف حالة البلد بأنها ثورية. »

كان التصنيع المتسارع قد زاد بنسبة النصف، تقريباً عدد العمال ودفع باتجاه المدن الكبرى جمهوراً من المقتلعين الذين باتوا يخيمون في الضواحي. بدأ الطوفان البشري يكتسح القاهرة ، التي سيخلص الى اغراقها.

كانت الحرب واحتلال النازيين لأوروبا قد جعلا من مصر أخيراً لوحة دوّارة للسياسة الدولية. فالقاهرة، التي باتت محطة اجبارية بين لندن والجزائر من جهة، وموسكو من جهة أخرى، كانت أحد المقامات الرفيعة لدبلوماسية الحلفاء. كانت الجامعة العربية، التي تأسست في تشرين الاول 1944 بمبادرة انكليزية، قد أقامت فيها مركزها الدائم ، مرتقية بالعاصمة المصرية إلى المرتبة الرمزية الرفيعة كعاصمة للعالم العربي. لقد خرجت بريطانيا من الحرب مكللة بأعلى درجات المجد، لكن مكسورة الظهر، مفلسة، منهارة مذاك تحت ما كان شاعرها الامبراطوري يدعوه بصورة مضحكة «عبء الانسان الأبيض» - الامبراطورية.

لقد حصل انقلاب في موازين القوى الدولية ، وانحفرت في البلد هوة مخيفة بين المستفيدين من الحرب واولئك الذين كانت تجوّعهم: كان التاريخ يدق ابواب مصر.

كانت ميزة هنري كورييل الفريدة أنه سمع دقاته. صحيح ان اذنه كانت وستبقى حساسة الى ابعد الحدود حيال النداء الى العمل. كان الداعون للانتظار يضايقونه اولاً لأن مزاجه عكس ذلك، ثم لأن الخبرة علمته أن الوضع لا يغدو ناضجاً كفايةً بالنسبة لبعض القادة

او المناضلين السياسيين إلا حين يذبل. لم يكن من نوع الرجال الذين يتوسلون للحدث كي يمر من جديد في تاريخ لاحق بحجة أنهم لم يصبحوا جاهزين تماماً. لكن اذا حدث له أن وقع في عدم الاحتراز وخلط بين العمل والنشاطية ، فلم يكن ذلك بالتأكيد في مصر.

إن حدسه العظيم ، الذي يكفي لوحده كي يرفعه لمرتبة رجال السياسة الكبار (ليسوا بالضرورة منظرين من طراز رفيع) يتمثل في أنه شعر مسبقاً بقوة ارادة التحرر الوطني. كان ذلك تَوَقُّع الحدث السياسي الاهم في النصف الثاني من القرن العشرين. ولقد كان بعد النظر هذا نادراً في الأربعينيات. لم يكن من حاجة لأن يكون المرء متبحراً في العلوم كي يقدر أن الكرة الارضية التي يهزها هزاً شديداً نزاع لا مثيل له سابقاً تندفع نحو مستقبل مذهل. لكن من كان يتخيل، حتى بين الشيوعيين وخصوصاً من بينهم، أن الأمة، وهي ككعكة فاكهة بالكريما من القرن التاسع عشر، تجاهلها ماركس ولينين تقريباً، ستعود بكل هذا الطبل والتزمير؟ كم كان عدد الذين أصغوا الى التعابير المذهلة لستالين، الذي كان يخاطب ابناء شعبه، فيما الويرماخت أمام أسوار موسكو، مسمياً إياهم «الاخوة الروس»، وممجداً ذكرى جنرالات القيصر الذين هزموا نابوليون ؟ مَنْ من خبراء مكتب المستعمرات أخذ على محمل الجد فرضية أن بروليتاريا الشعوب المستعبدة لن تتلقى التحرر السياسي والاجتماعي من اليدين المجرَّبتين للبروليتاريا «الأخت الكبرى» بل أن هذه الشعوب، التي تمتزج فيها البورجوازية والبروليتاريا، مع سقط المتاع الفولكلوري ، والاسطوري والتاريخي والديني والثقافي في جعبة الظهر ـ تؤكد وجودها انطلاقاً من فروقاتها ـ سوف تندفع الى الحرب من أجل الارتقاء إلى كرامة الأمة ؟ من كان يتوقع أن المعارك الكبرى في النصف الثاني من القرن لن تخوضها الفيالق المتقشفة للبروليتاريا الواعية والمنظمة المرتدية بزّة الوقّاد، بل أفواج تلامذة بقدر ما هي هرطوقية ترتدي الزي الوطني البراق؟

كان شوارتز واسرائيل ـ وكل الاخرين ـ يسمعون هم ايضاً مصر تزمجر في قيودها وتطالب بكرامتها الوطنية. فالجدار غير المرئي الذي كان يحيط بالغيتو الاوروبي لم يكن يخنق رشقات الرشاشات التي كانت تردي الوطنيين قتلى في غبار الشوارع، بين الفينة والاخرى وبصورة منتظمة. الا انهم كانوا يطبقون على الظاهرة طريقة حل الرموز الماركسية ويطرحون السؤال المناسب بصورة لا متناهية: «الاستقلال لأجل ماذا؟» (وتجيب الشعوب، المعروفة ببساطتها: «لأجل الاستقلال.» كانوا يرون الغش في استبدال السيد الانكليزي بالمستغل المصري، ويرفضون ان يخدموا كمشاة لدى البورجوازية المحلية الكبرى التي تختلط مصالحها منذ 50 سنة مع مصالح المحتل، ويعلنون أنه لا يمكن حل الجبهة الطبقية، تحت طائلة الخيانة، في جبهة وطنية نجسة. كان هذا الموقف متماسكاً على الصعيد النظري ويدل على عقل سليم الى ابعد الحدود. لكن الممارسة سوف تثبت ان الجبهة الطبقية ستنهزم في كل مكان تجري فيه محاولة

إرسائها وأن نضالات التحرر الوطني التي ستخاض في القارات الثلاث سوف تسير الى النصر تحت راية جبهة وطنية تفرضها الارادة الشعبية. ينبغي العمل مع الشعب، الا إذا حللناه وانتخبنا شعباً آخر، حسبما يقول برخت. ولأن هنري كورييل فهم ذلك بنتيجة تحليل فكري، ولأنه شعر به من الاعماق بفعل سيرورة تكافل مدهشة تجعل من يهودي لا وطن له احد اكبر مواطني العالم الثالث، ولأنه توقّع أن تتدفق موجة المطالبة الوطنية العاتية، مازجة النقي والنجس، لكن عملاقة لا تُقاوَم، وأن من الضروري امتطاءها أو الحكم على النفس بالبقاء على الرمل، لأجل كل ذلك سوف يصفه رفاقه ومنافسوه الشيوعيون بأنه «مجرم سافل باع نفسه للشرطة»، و«عميل فاشي»، و «كلب حراسة للرأسمالية» (وكلها عبارات كانت تميل، ضمن سياق تلك الفترة، للتعبير عن خلاف سياسي جدي).

في نهاية الحرب العالمية الثانية، ورغم الازدهار الاقتصادي المفاجىء، كانت البروليتاريا الصناعية المصرية تمثل 3٪ من السكان.

*

* *

في تشرين الاول 1944 ، كان فاروق قد أقال النحاس باشا بصورة جافّة ، وكان الاخير رئيساً لحكومة وفدية فرضتها الدبابات البريطانية قبل عامين من ذلك التاريخ. ولقد بدا واضحاً ، إزاء الهدوء الكامل في الشارع، إلى أي حد زال عطف الناس على حزب الوفد، وقد اختار الملك صدقي باشا، وكان رجلاً ماهراً وفظاً ذا اساليب حكم ديكتاتورية صريحة.

بدأ كل شيء عام 1945 بتبادل مذكرات غير مؤذية في الظاهر بين القاهرة ولندن. كانت الحرب انتهت لكن الجيش الانكليزي استمرّ في احتلاله للبلد، بما فيه المدن، وكان الطرف المصري يود توضيح بعض الجوانب الغامضة في «معاهدة الشرف والاستقلال» المشهورة لعام 1926 . كان السؤال المطروح، باللهجة الجانبية للتعابير الدبلوماسية، يتعلق بمستقبل البلد: هل كانت انكلترا مستعدة اخيراً للجلاء عنه، على الاقل لتجميع قواتها العسكرية في منطقة قناة السويس الاستراتيجية؟ وبما أن المفاوضات طالت، فقد تفاقم الغضب في الضواحي العمالية ولدى الطلاب ، سريعي الاشتعال. كان الجميع يتطلعون الى الوفد، متأكدين من أن حزب الاستقلال القديم سيلتقط فرصة اعادة الاعتبار لنفسه. كان له نفود بين الطلاب، الذين كانوا يشكلون جناحه اليساري ويلعبون دور رأس حربة له، وكانت العودة الى الصفوف محددة للسادس من تشرين الاول. وكانت كلمة واحدة من الوفد كافية لتنزل الجامعة الى الشارع.

طبعت ح م ت و عشرة آلاف بيان ووزعتها، وكان بعضها يتوجه الى «الجماهير» والبعض الآخر إلى «الجيش والشرطة». والمناضلون يحتفظون بذكرى حماسية لذلك التوزيع الكثيف: للمرة الاولى تخرج الحركة من السرية وتوقّع على دعوة الى العمل.

بقي الوفد صامتاً. كانت العودة الى الجامعة شديدة الحرارة لكن من دون اي حادث. وقد شهدت ح م ت و أول انشقاق لها. فأحد الكوادر اقتنع بأن تحليل كورييل حول «المد الثوري المحتوم» كشف خطأه، فمضى هو وأنصاره واسس الحزب الشيوعي لشعوب وادي النيل، الحزب الوحيد في العالم الذي تكوَّن حصراً من مستخدمي مصلحة خزانة الدولة.

في 9 شباط 1946 ، خرج الطلاب بكثافة من جامعة القاهرة وهم يهتفون بشعارات معادية للبريطانيين. واتفقوا عند جسر عباس، مقابل الجامعة، على التوجه الى البرلمان وكان الجسر دوّاراً في ذلك الحين. فحشد رئيس الشرطة رجاله فوق جزيرة الروضة، في الطرف الآخر من الجسر. وكان جنرال انكليزي يُشرف على العمليات. حين وصل الطلاب الى الجسر ، أعطى زكي الأوامر باطلاق النار ، وأمر في الوقت نفسه بفتح الجسر الدوار تحت اقدام المتظاهرين. فسقط عشرات الطلاب في النيل. حسب الرواية الرسمية ، عشرون غريقاً . وقد قدّر ريمون اسطمبولي، الذي شارك في المظاهرة، عددهم بضعف العدد المشار إليه . وجرح أكثر من مئة طالب. في المساء ذاته ، أدخلت السفارة الجنرال الانكليزي في طائرة مسافرة الى لندن.

احترقت القاهرة. غداة المَقْتَلَة، انتخب الطلاب بحضور اساتذتهم لجنة تنفيذية من 115 عضواً تم تكليفها بتنظيم النضال. تأسست لجان قاعدية تلقائياً في المدارس الثانوية والفنية. وتحركت ضاحية شبرا الخيمة، بمصانعها الصغيرة للنسيج التي تعدّ بالمئات، والتي تمثل أقوى تركّز عمالي في البلد والأكثر قتالية، جارَّةً في إثرها المركز الصناعي في المحلة الكبرى. لدى الطلاب كما لدى العمال، كان الشيوعيون في الطليعة، وقد امتزجت كل المنظمات لشدة ما كان الحماس متوقداً، وكانوا روح **اللجنة الوطنية للطلاب والعمال** التي تأسست لتجمع مئات اللجان القاعدية وتمثلها، وإن كان يوجد فيها نقابيون تقدميون، ووفديون يساريون وإخوان مسلمون (هؤلاء لن يبقوا ضمنها). وكان أمين سر اللجنة الوطنية حسين الكاظم، المناضل في **تحرير الشعب**. كانت الاجتماعات تنعقد في الطابق الواقع تحت الارض في بورصة القيم بالقاهرة حيث انشأ مارسيل اسرائيل خلية شيوعية، وفي مكتبة الرونبوان، وفي الصداقات الفرنسية. ووفقاً لاسرائيل، «يمكن القول ان الشيوعيين كانوا على رأس الحركة بنسبة مئة بالمئة.» وهي ملاحظة تحظى للمرة الاولى بالاجماع.

دعت اللجنة السكان للتظاهر بكشافة في 21 شباط : «في ذلك اليوم، سوف يُظهر الشعب المصري لانكلترا والعالم انه مستعد لمعركة لن تنتهي الا بالاستقلال.» وقررت النقابات الاضراب العام. بالمقابل، راح صدقي يحشو القاهرة والمدن الكبرى بالجنود. سوف يكون ذلك امتحان القوة.

صباح 21 شباط، كان الاضراب يشل مصر بالكامل. وبعد الظهر، كانت المدن شبيهة بقلب يعود إلى الحياة، تخفق بالنبضة الصماء والثقيلة التي توقّعها خطى مئات الالوف من المتظاهرين. وفي القاهرة، كانت المواكب تتجه كلها نحو ساحة الاسماعيلية، حيث تنتصب ثكنات الاحتلال المشؤومة. وقد اطلقت النار الرشاشات الانكليزية الرابضة خلف الحواجز المشبكة. وتم احصاء ثلاثة قتلى ومئة وعشرين جريحاً.

أعلنت اللجنة الوطنية الرابع من آذار يوم حداد، وكان يوم دفن الوطنيين الثلاثة الذين سقطوا. وجرت الاستجابة للدعوة. وسارت الاسكندرية في إثر القاهرة فنظمت مظاهرة جمعت كل سكانها تقريباً.

في 8 آذار، أعلن رئيس الوزراء أتلي في مجلس العموم إجلاء الجيش الانكليزي عن وادي النيل المصري. سوف تتركز القوات بعد هذا التاريخ في منطقة قناة السويس.

كانت الحركة الوطنية قد حققت نصراً. وكانت المشكلة بالنسبة لحكومة صدقي هي التصرف بحيث لا يؤدي هذا النصر الى ثورة. وكان ذلك بعيد المنال إلى حد أنه بعد مرور 35 عاماً كان هنالك مؤرخون ملتزمون يكتبون اطروحات تتأسف على الفرصة الضائعة. كان الوضع الاقتصادي والاجتماعي متفجّراً. فالحرب انتهت وانتهت معها ارباحها الوفيرة، وجرى فتح البلد من جديد على المنافسة الدولية. ثم جاء الصرف الجماعي لخمسين الف عامل يشتغلون في مشاريع اصبحت غير قادرة على المنافسة، ولمئتين وخمسين الف عامل آخرين، يلقبون بـ «عمال الحرب» لأنهم كانوا يشتغلون لجيوش الحلفاء. وارتفعت الاسعار ارتفاعاً جنونياً، وتعرض الفلاحون الصغار لصعوبات قاسية. وفي المدن، كان تحالف العمال والطلاب قد مُهر بالدم، شبكة متراصة من اللجان القاعدية تمتد عبر النسيج المديني: كان كل شيء يساهم في جعل عاصفة ثورية تهب على مصر.

كان صدقي باشا جريئاً فوافق على مقابلة اللجنة الوطنية للطلاب والعمال. ولم يجد المندوبون بالضبط ما يقولونه له، ما عدا التعبير عن الارادة الشعبية برؤية مصر تنال استقلالها الكامل. وكان ذلك من البديهيات. ان اللجنة التي ولدت عند جسر عباس، في الألم والنقمة، لم تكن تملك لا برنامجاً لأجلٍ طويل ولا منظورات للمدى القصير.

كتب هنري كورييل بعد وقت طويل: «في ذلك الحين، يمكن القول إن الجماهير كانت مستعدة للاستمرار في اللحاق بنا. لكننا لم نكن نعرف الى اين نقودها: كان انعدام الخبرة لدينا كاملاً. ولم نكن الوحيدين الذين ادركوا ذلك. فصدقي باشا وعاه تماماً. . . يمكن أن يؤخذ ذلك علينا لكن ينبغي تذكر أنه لم تكن لدينا غير ستة اشهر من التجربة في القيادة السياسية وأننا كنا إزاء وضع داخلي يمكن وصفه بالفوضى الكلية. لم تعد بنيتنا التنظيمية موجودة، فكل التقسيمات كانت قد طارت. . .» ويوضح في مكان آخر: «لم يكن عدد كوادرنا يبلغ العشرين والأقدم بينهم كان لهم أقلّ من ثلاث سنوات من النشاط داخل منظمة في سن الطفولة.»

وهو نقد ذاتي صارم يعطي الحق كما يبدو لهيلل شوارتز ودعاة البناء التدريجي لحزب. مزود بكوادر جيدي التكوين: من جهة اخرى، كان هنري كورييل ورفاقه في ح م ت و الوحيدين الذين توقعوا منذ شهر تشرين الأول الموجة الشعبية التي ستتدفق في شباط. وكانت التجربة قد أثبتت ان مناضلي الايسكرا لم يكونوا آخر من ينتقلون للعمل، في الحمّى العنيفة للحدث . . .

خلال بضعة اسابيع، فكك صدقي باشا اللجنة الوطنية بأن دق اسفيناً بين العمال والطلاب غير الشيوعيين، وقطعها عن قاعدتها عن طريق قمع انتقائي، وأزال اللجان المحلية واحدة بعد الأخرى.

لكن للمرة الاولى منذ عام 1919، كان الشعب المصري قد قاتل بقيادة غير قيادة الوفد. كان حفنة من القادة وعدة مئات من المناضلين الشيوعيين قد قادوه الى نصر مذهل ضد المحتل البريطاني. كان نجاح كهذا مستحصلٌ عليه ضمن الفوضى يدعو لتصور ما قد يتيحه تجميع كل القوى المنتسبة الى الشيوعية. كانت مشكلة الوحدة مطروحة.

* * * *

من بين كل الاتهامات بالخيانة الموجهة ضد هنري كورييل خلال حياته، كانت الوحيدة المستندة إلى أساس هي بلا شك تلك التي كان يرددها والده المسكين: «انت خائن طبقتك.» كان قد انتقل مع اسلحته وامتعته الى المعسكر الآخر. وعديدون هم المنشقون عن البورجوازية لكن نادراً ما رأينا منهم من يجتازون الخط بهذا القدر من البساطة وحتى من دون القاء نظرة الى الوراء.

هذه الطبيعة الساحقة كانت تعقّد علاقاته بمحاوريه من الاصل ذاته. كانوا يجدون أن كورييل يُفْرِط في الأصالة البروليتارية. على كل حال، كان المسار الذي يقود من قصر صغير في الزمالك إلى الخطابة في مصانع شبرا يستحق نظرة متعالية إذا لم تكن نظرة ساخرة. كان في وسع مؤسس ح م ت، و الاشارة الى أن الجانب المثير في الوضع لم يكن ليفوته، وذلك دون السقوط في

الكلمة المقرفة التي تلفظ بها نابوليون إذ قال: «حياتي رواية!»، وهي كلمة فتاة طائشة. لكن إذا كان هنري كورييل شديد المرح في حياته اليومية، الا انه لم يكن يملك حسّ الدعابة بتاتاً، لا سيما حين يتعلق الأمر بنفسه. لم يكن يخطر بباله أن يضطلع، ولو عبر السخرية. بواقعه العائلي: أصله وفصله، مصرف والده، دزينة الخدم، الأملاك الزراعية الكبرى. كان يغتبط فقط لأن كل ذلك موجود، إذ هو مناسب للعمل. فالمنصورية أفادت كمكان لمدرسة الكوادر وكمستودع مؤن لصالح الديمقراطيين اليونانيين، وقد شغّل روث غريش في المصرف، حيث لم تهتم كثيراً بالشؤون المصرفية. ومكتبة الرونبوان، التي كانت موقعاً ماركسياً، لم تصمد الا بفضل التمويل الرأسمالي، وسيارة السيتروين ذات الجاذب الأمامي، الأسرع من سيارات الشرطة المصرية، كانت تتيح التملص من تتبع الأثر. بحيث كان يمكن القول إن مساره الذاتي كان على نقيض الواقع. لم يكن يتصرف كمنشق عن البورجوازية يقلب ضد طبقته الأصلية، وبابتسامة وقحة، التسهيلات المقدمة، بل كعميل دخل خلسة في جهاز العدو ويستخدم بلا احتشام الامكانات الموجودة أمامه. لم يفهم يوماً أي انزعاج يولده لدى الكثيرين موقف كان يبدو له بديهياً. ولشدة ما كان تحوله طبيعياً، لم يتصور حتى ان يتذكر البعض من اين أتى فيراودهم الشك في حقيقته أو في المظهر الذي يحاول الظهور به، حسب رأيهم، كما لم يتصور أن تؤدي الشخصية المزدوجة التي قد يُلبسه إياها البعض، بخبث أو من دون خبث، الى ان يفترضوا وجود لعبة مزدوجة لديه.

كان دائماً شديد الانزعاج والضيق حين يتواجد مع البورجوازيين الكبار التقدميين، والمثقفين المرموقين ورجال السلطة. فأحمد بن بلا، الذي كان يستقبله بصداقة في قصر الرئاسة الجزائري، كان يجد أمامه رجلاً متشنجاً، منكمشاً، وكان التوتر من الشدة بحيث تبدو نهاية اللقاء كما لو كانت خلاصاً. مع أن بن بلا كان إنساناً طيباً، يسأل في نهاية جملة: «كم انت بحاجة اليه؟»، ويبحث في الجرار الأيمن العميق لمكتبه، ثم يُخرج منه رزماً مشدودة من الاوراق المالية يلفها كيفما اتفق بعدد من جريدة **المجاهد**. لم يكن ثمة ما يتوصل لفك عقدة هنري. وديدار روسانو، التي كانت تحضر معظم اللقاءات، كانت تخرج منها مريضة من شدة نرفزتها. كان يشله الوجل، فيصطحب معه هذا أو ذاك من أتباعه الى مواعيده مع شخصيات مهمة ويطلع لدى الخروج بالخلاصة التالية، التي يتلفظ بها بنبرة الاستسلام: «لقد تركت لديه انطباعاً سيئاً للغاية».

على العكس من ذلك، ومنذ أيام مصر، كانت علاقاته بمناضلي القاعدة على أكمل قدر من التفاهم. كانوا أخصّاءه: وكان منهم. وهو تكافل مدهش، يكمن على الارجح، مثله مثل التضايق مع الآخرين، في قلب سر الانسان هنري كورييل. بأية آليّة إخفاء سيكولوجية، تلغي

حياته السابقة كما يجري محو تسجيل على شريط، كان في وسعه التصرف كما لو كان يخرج من كوخ في الضاحية أو من مسكن بائس في القرية؟ من اين كان يستمدّ الطمأنينة الى ان نظراتهم الملقاة عليه لن ترى كذلك سليل الطبقة المكروهة؟

في عام 1982 ، التقيت محمد حسن جاد، الملقب ببوروك، في مقر حزب التجمع، المنظمة الوحيدة اليسارية التي سمح لها السادات بالعمل، وكان محمد حارساً للمقر. قصير القامة، نحيل، يلف نفسه بعدة صدريات متراكبة، ويضع نظارتين وكاسكيتاً مضحكة تغطي الاذنين. لا ينفك يدخن سيجارة وراء سيجارة رغم سرطان في الحنجرة (كان قد عاد لتوه من موسكو حيث اجريت له عملية، وحيث يدرس حفيده الاقتصاد والعلوم السياسية). ولد عام 1910 في القاهرة، وكان عامل نجارة، وعضواً في حزب الوفد، اصابته رصاصة انكليزية في ساقه اثناء مظاهرة في الثلاثينيات. وقد التحق بـ ح م ت و عام 1943 بعد ثلاث اقامات في السجن (ستليها ثلاث اخرى، اي ما مجموعه 15 عاماً من الاعتقال): شقي قاهري حاضر الجواب وغير ميال كثيراً الى إبداء الاحترام: «حين علمت بموت هنري بكيت، ويحصل لي الى الآن أن أبكي وأنا أفكر فيه. فبصفتي عاملاً، غمر قلبي اكثر من اي كان. كان شخصاً يحبك ويحترمك. وهذا يعني انه كان في وسعك الاعتماد عليه، حتى لتقريعه بعنف حين يكون غير متفق معك، لكنه كان يفعل ذلك كأخ. يجب ان تفهم لأن هذا مهم. ذات مرة، أعلن امير الاخوان المسلمين في حيي عن اجتماع عام. فقررت منع الاجتماع. تمترست في المقر مع كمية ضخمة من زجاجات المولوتوف. وقد وصل يونس قبل ساعة من الاجتماع - يونس كان الاسم المستعار لهنري. سألني: «ما الذي يجري» . . ؟ فأوضحت له ان القذر حاول في إحدى المرار أن يقتلني، وأنني أريد الانتقام. فقال لي: « أنت لا يمكن أن تكون شيوعياً. تستطيع أن تجعل من نفسك إرهابياً كأي مجرم لا ايدولوجية لديه » - « لماذا ؟» - « نحن ندافع عن حرية الرأي. كيف يمكنك أن تريد منع الاخوان من التعبير عن رأيهم ؟ أي فرق بينك وبين الرجعيين ؟ » - « إذن اتركهم يتكلمون ؟ » - « نعم ، وتنظم فيها بعد اجتماعاً » للرد عليهم. « لا يمكن مقاتلة رأي عن طريق الارهاب » وفي مرة أخرى ، نسيت موعداً معه لأني كنت بصدد نتف ريش أحد الأغنياء بلعب الورق - لكن بمساعدة الحظ قليلاً ، اذا كنت ترى ما الذي أعنيه. وقد شرحت الموضوع لهنري ، فقال لي : « من المؤكد أنك غير قادر على أن تكون شيوعياً. فلقد ارتكبت ثلاثة أخطاء. أولاً : لقد نسيت الموعد. ثانياً : انت تلعب بالورق. ثالثاً : انت تسرق غريمك. انت عديم الشرف. انت منخرط في اهتراء النظام. » وقد هزني ذلك ووعدته بألا ألمس الورق الى الأبد. فقال لي : « هذا غير كاف. اذهب الى

عند غريمك وارجع اليه المال مع الاعتذار . » وقد فعلت ذلك ، مع ان الشخص المشار اليه كان ثرياً . » يا له من حوار غريب بين ابن صاحب المصرف والنجار ، بين مستجد في النضال السياسي والمحارب القديم الذي يحمل في جسمه النُّدب الذي تركته رصاصة العدو. . .

في حين كان يبدو متصنعاً في علاقته بالكثيرين ، كان يستسلم في علاقته بالمناضلين لحالة من الثقة التامة ، مرتبطاً معهم بجو من المودة الحميمة ، عائشاً بـالمعنى الأكمل للكلمـة حياة الأخوّة المطالب بها رسمياً ضمن الأحزاب ، وكان صادقاً في ابداء دهشته إزاء استغراب البعض لذلك ، لشدة ما كانت سعادة الوجود معاً تبدو له طبيعية . ويروون هذه الـذكرى نقـلاً عن الميكانيكي بدر : « عام 1946 ، وصلت اليه يوماً وقد ترضضت قـدماي لكثـرة ما تنقلت من موعد لموعد في ذلك اليوم ، فجلب وعاء صغيراً من الماء الحار ليغسـل لي قدميّ . » والـرمز المسيحي هنا ينهكنا ويتسبب لنا بالضيق . لكن بدراً ، قليل التحسس للرمـوز ، لا سيما منهـا المتعلقة بالمسيح ، يتذكر فقط رجلاً كان قائداً سياسياً كبيـراً وكان يهتم مع ذلك بحالة أصابع قدميه . وإذا كان صحيحاً أن هذا القيادي كان منظِّراً ذا بساطة توراتية ، فلنكتب دون حياء زائف انه كان رجلاً ذا سخاء انجيلي (إذا كان الكثير من المسيحيين قـد احبوا هـذا الماركسي المقتنع ، فلأنهم كانوا يرونه يعيش يوماً بيوم وفقاً لانجيلهم) . وحين ترى مناضلين مصريـين خارجين من عشرين عاما من النضالات وعشر سنوات من الاعتقال يحدثونك وهم يبكون عن رجل لم يعودوا يرونه منذ ثلاثين عامـاً ـ ليس عن القائـد السياسي ، بـل عن الانسان ـ يجب الاقتناع بأنه عرف كيف يجعلهم يحبونه .

كان هنري كورييل في مصر المعتقل الوحيد الذي كان من الضروري تغيير سَجَّانه كل اسبوع : « لم يكن يعامل حارس سجنه كخصم ، بل عـلى العكس . كان يستقبله مبتسـماً ، ويسأله عن حاله وعن مشاكله . في اليوم الثاني أو الثالث ، كان الحارس يجد نفسه وهو يتحدث عن أولاده ومستقبلهم . وكان يتم الكلام عندئذ على المدرسة الابتدائية أو الثانوية ، أو الفنية ، الخ . تبعاً لطبع كل ولد ومؤهلاته . وكان السجان يقول في نهاية المطاف : « هذا مستحيل ، فالشخص الذي أمامي صديق ، إنه الوحيد الذي يهتم بي حقاً » وفي نهاية اسبوع واحد ، كان يغدو وقد كسبه هنري كلياً لأفكاره ، وبات مستعداً لفعل أي شيء لأجله . »

*

* *

كان محمد شتّى رجلاً يتبع قلبه .

ويحدد روجيه فايان تاريخ قراره أن يصبح شيوعياً بـاليوم الـذي التقى فيه شتّى . كـان مؤلف كتاب Drôle de jeu يعرف غابي أغيون ، التي استقرت في باريس منـذ نهاية الحـرب ،

وطلب منها توصيات لأجل إقامة في القاهرة . « كان روجيه شخصاً غريباً عجيباً بعض الشيء وفكرت بأنه قد يعجبه هنري . » ، هـذا ما قـالته غـابي أغيون ، ضـاربة عصفـورين بحجر واحد . وكان العصفور الثالث مودة صاعقة متبادلة . كان الرجلان يشتركان في كل شيء ، ولم يكونا يشبهان الواحد الآخر في أي شيء : وهذا هو الميدان الأشد خصباً لازدهار الصـداقة . ولن تزول صداقتهما الا بالموت . ففايان كان يتعرف في كورييل على رومانسيته : وقدرته على الحماس ، والحاجة القاهرة إلى محيط من الأنوثة الشهوانية ؛ كان يعجب به ، متطلعاً هو نفسه لأن يصبح « بلشفياً حقيقياً » ، لكن كاتباً في مذكراته : « اشتريت اليوم معطفاً جلدياً سيكون رائعاً لصنع الثورة » ، لأنه تجاوز الخط وسلب العجوز ما معه .

كان كورييل وأصدقاؤه يعرفون فايان عن طريق الشهرة ، وكانوا قد قـرأوا كتبه ؛ لـذا رضخوا سلفاً لرؤية « صبايا الايسكرا الجميلات » وقد بدّلن اتجاهه . لكن زيارة ضاحية شبرا الخيمة القاهرية كانت الحلقة الحاسمة من الرحلة. إن روجيه فايان ، الذاهب من كوخ لآخر ، والمكتشـف بـؤساً يصعب تصوره ، شعر بالصدمة ذاتها التي تلقاها هنري كورييل سابقاً وهو يعتني بفلاحي والده . ثم حدث اللقاء مع المناضل شتى .

كان محمد شتى ، عامل النسيج ، يعيش ويشتغل في شبرا الخيمة ، حيث كان يتكدّس في ذلك الحين أكثر من مئة ألف نسمة . كان يجري استغلال اليـد العاملة في عـدة مئات من المصانع الصغيرة أو الورش الخاصة بالنسيج . وكانت كثرة المؤسسات تزعـج تنظيم حـركات مطلبية واسعة لكنها تحول بالمقابل دون القمع الفعّال للنشـاط النقابي . وفي المحلة الكبـرى ، وهي مركز آخر لصناعة النسيج حيث كانت اليد العاملة تتجمع في عدة مشاريع كبرى ، كان كل عامل عاصٍ يتعرض للصرف ويوضع اسمه على لائحة سوداء . وقـد كانت شُبـرا تضم عدداً كبيراً من المستخدمين بحيث لا يمكن إقامة سد فعال من جانب أرباب العمل .

بين كانون الثاني 1945 وكانون الأول 1946 ، تمّ 226 اضراباً في شُبرا . وكانت حركات متفاوتة من حيث الأهمية تصل أحيـاناً لتعبئـة عشرة آلاف عـامل ولشـل الانتاج ، وتقف في الغالب ضمن حدود بعض المصانع القليلة التي يرفض أربابها أن يمنحوا العاملين فيها ما حصل عليه زملاؤهم في المصانع الأخرى . كانت شبرا البؤرة الثورية التي انطلقت منها في شباط 1946 الطوابير التي مضت لتقدم الدعم لطلاب القاهرة . وجرياً على مثـالها صـوّت عمال المصـانع الكبيرة في المحلة الكبرى ،في ايلول 1947 ، لصـالح الاضـراب مع احتـلال المصانـع . وقد قتلت الشرطة اربعة رجال وجرحت اربعين .

كان يقول هنري كورييـل عن شتّى ، قبل قليـل من اغتيالـه : « أرى رجالاً يعـامَلون

كالأبطال ، وهم لم يقوموا بواحد في المئة مما قام به . » واذا كانت كلمة « بطل » تعني شيئاً في العمل النقابي ـ السياسي ، فلقد كان محمد شتّى بطل شبرا الخيمة في الواقع . كان خلّاقاً ، شجاعاً ، لا يعرف الملل ، وقد خلق مجالس المصانع ، وكانت نوعاً من السوفييتات التي تجْمع في كل مؤسسة أكثر العناصر دينامية . ولما كان دائماً كثير الحركة ، فقد كان يجوب الورش ، الكبيرة والصغيرة ، ويحرض على الرد ، وينظم الهجوم . وكان دوره عظيماً في لجنة الطلاب والعمال . وهو قاد اضرابات عام 1947 الكبرى ، فيما تنهشه الحمّى الناجمة عن اصابته بالتيفوئيد ؛ كان عاملان يمسكان به من كتفيه لمساعدته على الوقوف ، فيما هو يخطب في الجماهير .

وقد دخل اللجنة المركزية لـ ح م ت و . كتب هنري كورييل : « كان أحد معلميَّ . وكان يقول لي أحياناً : « لا يمكنني الرد على حججك ، لكنك على خطأ رغم ذلك . . . » وكان على حق . » وقد « صعد » معه الى اللجنة المركزية العديد من رفاقه العمال . وكانت القيادة تردّد شعار : « ينبغي شَبْرَنة* الحزب . » وقد قدم هنري كورييل للعمال عروضاً حول كتاب **الأجور والأسعار والأرباح** ، الذي يكشف آلية استغلال العمال : « الذين كانوا يستمعون إليَّ كانوا يفهمونه أفضل مني ، لأنهم كانوا يعيشونه . كان في وسعهم أن يحسبوا بدقة نسبة استغلالهم . وبالنسبة اليهم ، كان ما استمعوا إليه منيراً وضّاءً حقاً ، وقد جاء التحاقهم بالحركة فورياً وحاسماً . »

كانت ح م ت و تستقطب بكثافة ، بعد أن ارتفع بها « المد الثوري » .

*

* *

لقد وَجَّهَ رئيس الوزراء صدقي ضربته لكنه أخطأ الهدف .

في 11 تموز 1946 ، ألقت الشرطة القبض على مئة من « الشيوعيين » ، وكانت قد تزوّدت بلوائح وضعتها دوائر الداخلية منذ زمن بعيد . وفي اليوم ذاته ، جرى توقيف جرائد عن الصدور ، وأجبرت نواد سياسية على الاقفال ؛ وبعد أن أعلن صدقي باشا أن أمن الدولة في خطر ، اصدر بمرسوم اشتراعي تعديلات لقانون الجزاء المصري ، وكان هذا القانون شديد القمع حتى قبل تعديله .

تم القاء القبض على هنري كورييل صباحاً واقتيد إلى سجن محكمة الاستئناف بعد

* نسبة إلى معامل شبرا الخيمة (م) .

تفتيش دقيق لمسكنه . وتعرضت فيلا الزمالك هي الأخرى لتفتيش بالغ الدقة لكن الخدم كانوا مدربين على كيفية التصرف في مثل تلك الأحداث : في حين كـان رجال الشـرطة يصعـدون الأدراج المفضية الى الغرف ، كانت الرافعة تودع في أعماق المطبخ ، الذي انتهى تفتيشه ، الوثائق الخطيرة . وقد جرى إغلاق مكتبة الرونبوان بعد ختمها بالشمع الأحمر .

لم تستبقِ النيابة العامة من المعتقلين في الحملة الكبرى غير عشرين من المشبوهين الذين جرى توجيه الاتهام اليهم فوراً . وقد عرف هنري كورييل ، النجم الذي لا جدال فيه للفريق المستبقى ، عرف بعد اكتشاف زملائه في الاعتقال ، ان الشرطة فشلت في ضربتها . فلقد كانوا « شيوعيين تاريخيين » ، تعرف القاهرة بكاملها آراءهم ؛ وكان الكثيرون منهم صحفيين أو كتّاباً ، مثل كمال عبد الحليم . ومعظمهم لم يكن لديهم أي نشاط نضـالي . هو بـالذات جرى توقيفه بسبب شهرة التزامه السياسي وقدمه . أما المنـاضلون العماليـون فلم يتم اعتقال أحد منهم . هكذا ظهرت صحة التكتيك الذي دعا هنري كورييل رفاقه للأخذ بـه : لأجل الافلات من القمع البوليسي ، يجب « النزول الى الجماهير » . كانت أجهزة صدقي باشـا قد فشلت بصورة بديهية في أن تلحق ح م ت و في انغراسه .

كما يحدث غالباً حين تدبر حكومة ما استفزازاً بوليسياً وتقرر ، مثلاً ، أن طيوراً مصيرها الذبح هي حمائم زاجلة مدربة على الالتحاق بموسكو بخفقة جناح ، فإن مناورة صدقي بـاشا غرقت في بحر من النفاق . وقد اثارت الصحافة المرتهنة بأوامر الحكم لغطاً كثيراً حول برقية تمّ العثور عليها في مسكن هنري كورييل ، وكانت صادرة عن باريس . في هـذه البرقيـة ، تخبر واحدة اسمها سعاد الرملي انها وصلت وتطلب إعلامها عن صحة لينين . وقد جرى تفسير هذا النص الغريب على أنه برقية مكتوبة بالشيفـرة ، تكشف وجود مؤامـرة دولية . واوقف فتحي الرملي ، زوج سعاد ، الذي كانت البرقيـة مرسلة اليـه . فاعتـرف بأنـه نسيها عنـد صديقـه كورييل . أما لينين المقصود فكان ابنه . وتتذكر جولييت هارتمان ، التي التحقت بـ ح م ت و منذ تأسيسها ، أنها استقبلت في باريس ، حيث استقـرت منذ عـام 1945 ، المسكينة سعـاد الرملي ، التي انتدبتها الحركة الى المؤتمر العالمي للنساء : « على المستوى السياسي ، لم يكن لديها أي تكوين . ولقد كانت إقامتها كابوساً متواصلاً لأنها لم تكن تفكر بغير أولادها . كانت تبكي طيلة الوقت ، وكان عليّ مرافقتها باستمرار إلى مركز الهاتف كي تتلفن أو ترسل بـرقيات . » وقد طُلب من الزوج ، فتحي الرملي ، ان يوضح لماذا سمى ابنه لينـين . فأجـاب بشيء من المكر ، مذكراً بأن لينين كان أول زعيم سياسي يقدِّم عونه لبـطل الاستقلال المصـري ، سعد زغلول ، عام1919 ؛ وأنه رد للمسلمين السوفييت حقوقهم الدينية والوطنية ؛ وكشف أخيراً للعالم الدبلوماسية السرية التي كان القيصر قد انخـرط فيها ، بالاتفاق مـع الغربيـين ، لأجل

لتجزئة تركيا . « هذا هو السبب الذي دفعني ، بصفتي شرقياً ، ومصرياً ، ومسلماً ، لتسمية ابني باسم لينين كتحية متواضعة لهذا الرجل العظيم . » كان الدفاع لا يُعلى عليه . لذا لم يسأله أحد أن يبرر تسميته لابنه الأصغر باسم ستالين .

بما أنه جرى رفع هنري كورييل إلى مرتبة قائد اوركسترا « مؤامرة شيوعية كبرى » ، فلقد كان اسمه يتصدَّر الصحف . كان « المليونير اليهودي الشيوعي » . وكانت صوره بالسروال القصير ، محدودباً ، هزيلاً ، تقدم تناقضاً مسلياً مع العناوين . وكان يساق الى التحقيق وسط جهاز يفرض الاحترام : ثمانية جنود يقومون بحراسته يتقدمهم ضابط . في البداية اعتصم كورييل بالصمت الذي يفرضه قانون سلوك الثوريين حين يقعون بين يدي العدو الطبقي ، وقد أدرك أن قاضي التحقيق كان يتمنى بوجه خاص تسويد الصفحات كي يتمكن من تقديم ملف . كانت جلسات التحقيق تتمثل بمونولوجات طويلة يفصل فيها المتهَّم بصورة مسهبة نقاطاً غامضة من الفلسفة الماركسية .

كان نظام سجن محكمة الاستئناف رحوماً . فمدير السجن كان والد أسمى البقلي ، رفيقة هنري منذ خمس سنوات . وكانت العائلة قد آوت كورييل عام 1942 حين كان طامحاً لتنظيم مقاومة النازية في القاهرة . وبفضل هذه الروابط القديمة والودية ، كانت زنزانته هي الأولى في تاريخ السجون المصرية التي جرى تطهيرها من حشراتها بالدي . دي . تي .

لما كانت الاثارة قد نفَّست ، وبقيت ملفات الاتهام فارغة ، فقد منح القضاة بعد وقت قصير إخلاآت سبيل بكفالة . وكان زعيم « المؤامرة الشيوعية الكبرى » قبل الأخير بين من جرى إخلاء سبيلهم ، إذ أن الأخير كان تروتسكياً حمَّل نفسه قدر ما استطاع . فبما أنه كان في تلك الفترة التروتسكي الوحيد المعروف في مصر ، ساد تصور مفاده انه أراد التعويض من صغر العدد بالتضخم النشاطي . أما التهمة الرئيسية التي استبقيت ضد هنري كورييل فكانت انه « اقترف الجريمة المتمثلة بالدعوة الى المذهب الشيوعي ونشره . . . لأجل هذا الهدف ، أسس مكتبة ، واستورد الكتب والوثائق الواردة في محضر التحقيق ، وعرضها وباعها للجمهور . . . وانصرف لنشاطات تهيىء التغيير بالقوة والعنف للمبادىء الأساسية للدستور والمجتمع ، وتجعل هذا التغيير ممكناً »

ولم تتراجع الشرطة السياسية . فبعد خمسة أشهر ، في 5 كانون الأول 1946 ، فاجأ فريق من المفتشين يرتدون الملابس المدنية كلاً من هنري كورييل وشحاتة هارون وبدر ورفيقين آخرين ، وكانوا جالسين حول طاولة في البيغ بن . وقد أمضوا جميعاً ، باستثناء بدر ، ليلتهم في مفوضية الشرطة بالكوزيكا . شعر شحاتة بأنه سيموت من البرد (يمكن ان تكون ليالي

الشتاء قارسة في القاهرة) ولم تنقذه غير شفقة أحد الموقوفين الذي اعطاه غطاءه . وفي الغداة ، وبعد تفتيش دقيق لمساكن الموقوفين ، جرى ايداعهم سجن الأجانب .

تأثر المدير لهزال هنري فنصحه بحرارة بأن يحشِّش قليلاً ليفتح شهيته : كان أكبر مهرِّب في مصر ضيفه القسري ، وكان يتلقى كل يوم كرة ضخمة من المخدر يوزعها بالعدل بين الحراس والموقوفين معه (لم يكن هو يحشش اطلاقاً) . وقد رفض هنري العرض ، لكن شحاتة هارون الذي ثار فضوله تذوق المخدر للمرة الأولى . وفي المساء كان السجن يدوي بقهقهات متواصلة تدل على استهلاك زائد للحشيش .

كان بدر في خطر فلقد كان ميكانيكياً في سلاح الجو ، وتمَّ توقيفه قبل عام بسبب نشاطات شيوعية . كان قد اطلق سراحه مؤقتاً لكن بانتظار صدور الحكم ، فارتأى رؤساؤه أن يحولوه إلى مكتب لوزارة الداخلية بهدف احتجازه مجاناً . كانت الشرطة السياسية قد افتقدت اليقظة إذن وسخرت الصحافة منها بسبب ذلك . هذا وقد سيق بدر إلى السجن العسكري فاستقبله المدير الذي قال له بصوت بارد جداً : « لقد جعلت من الجيش اضحوكة . ولدينا تعليمات بعدم السماح لك بالخروج حياً من هذا السجن . » كان يحضر اللقاء رئيس الحراس ياسين ، المشهور بقساوته ؛ وكان عملاقاً قادراً على قتل معتقل بضربات من قبضته . وقد عرف بدر أن الساعات القادمة ستكون صعبة . فحاول ، فيما قلبه منقبض من القلق الشديد ، أن يؤجل الاستحقاق عن طريق عرض أسباب التزامه السياسي وتفصيل برنامج الحركة المصرية للتحرر الوطني . وقد أمر المدير بأخذه بعد أن ضجر من حديثه . فساقه ياسين الى مركز الحراسة . وقد تحلق حوله الجلادون ، المتمرسون بالروتين ، تمهيداً لجلسة الملاكمة التقليدية . لكن أمام دهشة الجميع ، رفع رئيس الحراس ذراعه وصاح : « كلا ! لا أحد يلمسه ! » ثم أمسك السجين من كتفيه بمودة وقال له : « لقد استمعت اليك . لم أكن أعرف كل هذا . الحق معكم انتم الشيوعيين . أنا موافق على ما تريدونه . » وقد خرج بدر إذن حياً من السجن لكن المعتقل العسكري الذي أمضى فيه الأشهر الثلاثة اللاحقة كان امتحاناً قاسياً . فلقد كانوا يضربونه بصورة منهجية مرة في الأسبوع ، إلى أن يغمى عليه . وبعد يوم من العمل ، كان عليه أن يغسل ثيابه كمحكوم بالأشغال الشاقة ليرتديها من جديد مبللة تماماً : كانت كل ليلة عذاباً حقيقياً ،صراعاً دائماً كي لا يموت من البرد . وكانت تجري مناداة في الرابعة صباحاً ، أي في الوقت الذي تصبح فيه ثياب المسكين جافة فيشعر بنعاس رحيم . وقد خرج من شهوره الثلاثة في الأشغال الشاقة منهكاً بصورة تامة ، لكن حاملاً في جيبه لائحة طويلة بالسجناء والحراس الذين يودون الانتساب إلى ح م ت و .

عرف هنري كورييل في سجن الأجانب تجربة شبيهة بتجربة بدر مع رئيس الحراس ياسين . كان المعتقل الأكثر شهرة والأشد إثارة هو ابن بامبا ، «قاطع الطريق » المتهم بعشرة أعمال قتل تقريباً . وكان « قطاع الطرق » في الريف المصري يشبهون آنذاك مجرم الشرف الكورسيكي وروبين الغابات . فلقد كانوا يسلبون الملاكين الاقطاعيين حقائبهم ويقتلونهم ، وغالباً ما يوزعون على الفقراء جزءاً من مسلوباتهم ، مثيرين لدى الفلاحين رهبة يخالطها الاحترام ولا تنقصها المودة . أما العدالة فما كانت تتوصل للعثور على شاهد إثبات واحد بصدد عمل واحد من أعمال القتل التي ارتكبها ابن بامبا . وكان هو الآخر عملاقاً يزن على الأقل ضعف وزن هنري كورييل . وقد جرى وضعه في زنزانة واحدة مع « المليونير اليهودي الشيوعي » ، ليس من دون نية مبيّتة . تأمل ابن بامبا بذهول جسم كورييل شديد الهزال ، وصاح مندهشاً : « ماذا ! هذا هو زعيم الشيوعيين العظيم ؟ » وانفجر مطلقاً ضحكة مدوية . ثم دار حوار . فعرض هنري ، بصوت منقبض قليلاً ، مشروع ح م ت و للاصلاح الزراعي وضرورة اعادة توزيع الأراضي . وسوف يقول بعد وقت طويل إنه لم يحس طوال حياته بذلك القدر من قوة الاقناع في الكلام السياسي ، الا ربما مع عمال شبرا . كان قاطع الطرق كأرض يابسة منذ قرون انهمرت عليها دفقة من المطر . حين سكت هنري ، نهض ابن بامبا ونادى الحراس وهو يصيح بصوت كالرعد : « لقد جاء المهدي ! » . فاتُّخذ تدبير يحول دون أن يرى الرجلان احدهما الآخر بعد ذاك . الا أن ابن بامبا الذي اخلي سبيله لعدم وجود اثباتات ، اتصل بفؤاد حبشي وناضل في صفوف الفلاحين .

يستحيل فهم شيء ، في تلك الفترة ، من حماس الشبيبة الشيوعية ، ومن اتساع آمالهم ، ونشاطهم المحموم ، إذا لم يبق نصب اعيننا ألم شعب مثقل بالبؤس ، مرهق بالظلم ، كانت الكلمة الثورية تؤثر فيه كهزة أرضية وكان يتقبلها كوحي . في الفترة ذاتها ، كان جوزف هازان يجوب الأرياف ، بائعاً في النهار جرارات فورد سون للملاكين الكبار وخاطباً مساء في تجمعات الفلاحين . «أتستخدم كلمة تنسيب ؟ كلا ، فهي غير مناسبة . كان يكفي اشعال عود كبريت ، ويلتهب كل شيء . كان عود الكبريت هو كلمة « عدالة » . كل الناس كانوا يريدون الانتساب ! » ولم تكن قابلية التأثر الخارقة تلك حكراً على الأكثر استلاباً . فأحد الشبان السودانيين ، وكان طالباً في القاهرة ، تلقّى من استاذه الشيوعي ، عشية العطلة الصيفية نسخة من البيان الشيوعي . وقد أمضى يومين في القطار للعودة الى الخرطوم ، وفتح الكتاب على سبيل الفضول فيما كان يستلقي في سريره عند المساء . وفي صباح اليوم التالي ، وكان لم ينم طيلة الليل ، استقل القطار من جديد ، ليصل الى القاهرة بعد 48 ساعة ويهرع إلى أستاذه سائلاً إياه : « والآن ، ما العمل ؟ »

جرى ضم قضية بيغ بن إلى « المؤامرة الشيوعية الكبرى » ، وحصل هنري كورييل واصدقاؤه على اخلاء سبيل بكفالة . ولقد عادت العدالة المصرية ، المعروفة ببطئها الحكيم ، ففتحت الدعوى بعد عشرين عاماً ، وحوكم هنري كورييل اذن غيابياً . انتهت المحاكمة بإعلان براءة الجميع .

لكن صدقي باشا كان يلقى من صحفييه خدمة أفضل من خدمة قضاته. فالصحافة المرتهنة بأوامر الحكم كانت قد فرضت لدى الرأي العام صورة للـ « يهودي المليونير الشيوعي » ، وذلك بفعل العناوين الكبيرة في صدر الصفحة الأولى . وسوف يكون توظيف ذلك مُجْزياً .

*

* *

كان كل شيء يلتهب لكن السياسة الجيدة تُطْبخ على الجمر . فجوزف هازان كان يشق في الأرياف أثَراً ساطعاً ، لكن بما أنه لم يكن يقيض للشعلة من يواصل تغذيتها ، فلقد كانت تنطفىء ويعود الفلاحون الى استسلامهم المزمن . كانت شبرا والمحلة تتفجران بانتظام ، لكن بُنْيَةً سياسية ـ نقابية مفرطة في سرعة العطب كانت تحول دون وضع استراتيجية في خدمة الحماس القتالي للطبقة العاملة . كانت الجامعة والأزهر يفتحان افقاً واسعاً لكن الغليان الطلابي كان يبقى مشتتاً ومنقسماً .

كان ينقص الكوادر . وهذا ما سلَّم به هنري كورييل فيما بعد : « كان أحد اخطائنا الكبرى اننا لم ندرك إلا رويداً رويداً ان سيرورة تكوين الكوادر قد توقفت في حين أن التنامي السريع للتنظيم كان يتطلب ، على العكس ، تكوين عدد متزايد من الكوادر الجدد . كانت الحاجات الملحة متسارعة بحيث كان كل منتسب جديد يندفع الى العمل قبل أن يكون أُعد للقيام به بعناية » .

الا ان كورييل لم يكن ذلك « العفوي ـ النشاطي » الذي وصفه خصومه. كانت رؤيته تذهب إلى أبعد من المَدَيَيْن القصير والمتوسط ؛ وهو لم يكن يهمل أسلحة العقيدة ، إذ هو الذي كان المبادر الى فتح أبواب مصر أمام الماركسية : ترجمة النصوص الأساسية الى العربية . كانت مكتبة الرونبوان توزع مؤلفات بالفرنسية وبالانكليزية لا يفهمها الا الطلاب ، وكانت الشرطة المصرية حريصة على الا يجتاز الحدود أي كتابٍ مؤذ . مع استثناء واحد ، لكنه هائل : فالباشا كمال البنداري ، وكان من عائلة اقطاعية مهمة ، وسفيراً لمصر في موسكو اثناء الحرب ، تلقى

الالهام الماركسي ودفع باتجاه تعريب كتاب لينين **الامبريالية اعلى مراحل الرأسمالية** . وقد نشر الكتاب في القاهرة عام 1945 ، وكان يحميه اسم الباشا . والشيوعيون ، الذين ابتهجوا بالنعمة غير المتوقعة ، وفروا له حملة دعاوية كبيرة ـ « اقرأوا كتاب الباشا الأحمر ! » ـ لكن البنداري لم يواظب وكان عام 1945 قد مر وانقضى .

كان **البيان الشيوعي** قد صدر بالعربية ، لكن ترجمته السورية كانت تنفِّر المناضلين المصريين ، فاهتم هنري بتكييفه مستعيناً بريمون اسطمبولي ، الدكتور الشاب في الاقتصاد السياسي من كلية الحقوق المصرية . ثم عرّب اسطمبولي **ما العمل ؟** حاشياً نصه بهوامش توضيحية لانارة القارىء . وتلت ذلك بوتيرة سريعة **مبادىء اللينينية** لستالين ، **والاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية** لانجلز ،**والأجور والاسعار والأرباح** (لماركس*) **والديمقراطية الجديدة** لماوتسي تونغ . أو ما مجموعه 13 كتاباً بغلاف أخضر نشرتها مكتبة المكشوش ـ ناشر وهمي ـ ، وكانت تشير الى طابع في بيروت في حين انها طبعت في مدينة مصرية صغيرة ، وخزّنت في مخابىء مضمونة ، وتم توزيعها على امتداد البلد وحتى خارج الحدود . وليس من شيوعيين مصريين لم يتعرفوا إلى أوليات الماركسية بفضل « الكتب الخضراء » المشهورة التي اهتمت باصدارها ح م ت و .

ولقد جرى التصدي للمشكلة السودانية الصعبة بالروح الجدية ذاتها ، وباهتمام مشابه بالمدى البعيد .

من العبث تحديد السودان على انه الالزاس ـ اللورين بالنسبة الى مصر لكن التاريخ كان قد تبَّل بالأهواء الواقع الجغرافي العصيَّ على الالتفاف حوله . فالنيل يجتاز السودان قبل أن يروي مصر : أي رباط يضغط الشريان المغذي الوحيد قد يعني الموت ؛ وأي إفراط في التقاط مياهه يعني المجاعة . وبالتأكيد فإن الفراعنة لم يكونوا يتعرضون لمخاطر رؤية الشعوب الريفية في « بلاد الكوش » تنطلق في هكذا مشاريع : هذا لم يمنعهم من أن يدفعوا جيوشهم حتى حدود الشلالين الرابع والخامس . ولقد قام الالباني محمد علي ، المؤسس لسلالة ، باطلاق ابنه الأصغر اسماعيل على خطاهم . وقد فقد هذا حياته هناك ، إذ مات حرقاً في كوخه ، لكن السودان عاد الى السيطرة المصرية . وكانت قاسية وقائمة على النهب . عام 1881 أعلن رجل عن نفسه أنه المهدي ، وألبَّ البلد ضد المحتل . وفي غضون أربع سنوات قضى جيش الدراويش على جميع الحاميات المصرية ، التي كان كثير منها بقيادة ضباط انكليز . كان جنود المهدي مقتنعين بأن الموت في المعركة يعني الدخول الفوري الى جنة الله . وقد صبر اللورد

---

* إضافة من المعرب .

كيتشنر 13 عاماً قبل أن يقدر أن قواته كافية لمواجهة محاربين بهذا الحماس . وكان ثلاثة أرباع جيشه من المصريين ؛ وكان يخدم في الوحدة الانكليزية ضابط شاب اسمه ونستون تشرشل حصل على امتياز المشاركة في آخر هجوم كبير للخيَّالة في التاريخ الحديث . هكذا فإن مصر المتمردة على السيطرة البريطانية قبلت أن تضع قواتها تحت القيادة المكروهة من أجل استعادة امتلاكها للسودان. . . وبالطبع فلقد خدعها السيد الانكليزي وأزاحها كلياً .

نختزل ـ دون شك إلى أبعد الحدود ـ منظراً معقداً بصورة استثنائية (كانت الصراعات القبلية لا تتوقف وكانت الطوائف الدينية تلعب دوراً ساحقاً) ، فنقول إن تيارين سياسيين كانا يتقاسمان السودان . الأول ، وكان مؤلفاً من عناصر تقدمية نسبياً ، كان يعتبر نفسه محباً لمصر كرهاً بالمحتل الانكليزي ، وكان يطالب بـ « وحدة وادي النيل تحت التاج المصري » . والثاني ، ذو المنحى الرجعي بالأحرى ، فكان ينادي باستقلال السودان ؛ وكانت لندن ، الميالة للتفريق من أجل أن تسود بشكل أفضل ، تدعمه بكل قواها .

مرة أخرى ، كان التاريخ يفرض على الشيوعيين المصريين خياراً سياسياً صعباً . فلقد كان الانحياز إلى « وحدة وادي النيل تحت التاج المصري » تحدياً للتطلع الحقيقي الى الاستقلال لدى الشعب السوداني . كيف التوفيق بين النضال من أجل تحرير مصر والهدف المنادى به المتمثل بابقاء السودان في قيود التبعية ؟ وعلى العكس ، فإن دعم حزب الاستقلال كان يعني تقديم العون للندن والرجعية السودانية والانفصال عن مجموع القوى السياسية المصرية ، المجمعة على المطالبة بـ « وحدة وادي النيل » .

كان هنري كورييل يقول ، بتحرره الدائم من التعقيد ، إن اهتمامه بأهل السودان ناتج عن « المحبة العميقة » التي كان قد شعر بها حيال خادم لأهله ، من النوبة السودانية ، كان ابنه أحد رفاقه في اللعب . وكان معجباً بالتضامن السائد بين السودانيين الذين كانوا يأتون للدراسة أو العمل في القاهرة ، وبفعالية جمعيات تبادل المساعدة الخاصة بهم . كان أحد أولئك المهاجرين ، عبدو دهب ، الفقير كأيوب لكن الشاطر كثلاثة اشقياء من باريس ، كان قد غدا صديقاً له وفي الوقت ذاته أحد أفضل مناضلي ح م ت و . بفضله ، بدأت المنظمة تجتذب الى عضويتها طلاباً سودانيين ، وتشكلت خلايا متجانسة . وروى طالب يوماً لهنري كورييل انه خلال اجتماع لجمعيته السودانية ، سأله ضابط مصري من أم سودانية ما هو موقف الشيوعيين حيال المشكلة . وكان الضابط يدعى محمد نجيب . فكتب كورييل تقريراً طويلاً حدد الخط السياسي للشيوعيين المصريين بصدد السودان .

كان التحليل الذي لا مجال لمهاجمته على صعيد المبادىء ، يدل على مهارة سياسية

مرموقة . فكورييل كان يدعو إلى مقاربة للمشكلة على مرحلتين . ففي مرحلة أولى ، « نضال مشترك للشعبين ضد الاستعمار » . وما كان يمكن أياً من التيارين السودانيين إلا أن يوافق على هكذا شعار . والمرحلة الثانية : « حق الشعب السوداني في تقرير المصير بعد تحرره من نير الاستعمار » . كان ذلك احترام القاعدة التي لا تُمس لحق الشعوب في تقرير مصيرها دون الانضمام مع ذلك الى التيار الاستقلالي المستند الى لندن : لن يمارس تقريرا لمصير إلا بعد الانتصار على الاستعمار وليس في كنفه .

تبدو هذه المقترحات اليوم معبرة عن رشاد أولي : لقد اثارت في تلك الفترة نقاشات محمومة لدى الشيوعيين المصريين كما لدى السودانيين ، وجلبت لصاحبها الاتهام بالتروتسكية من جانب أعضاء مرموقين في الحزب الشيوعي الانكليزي ، وبأنه عميل بريطاني من جانب منظمات سياسية مصرية . إلا أن ح م ت و تبنتها بعد نقاش طويل . ولن يتغير هذا الخط حتى استقلال السودان ، عام 1956 . وقد كتب محمد نجيب في مذكراته ، إن هذا كان موقفه ، لكن دون أن يذكر أصله . ولأن عبد الناصر اراد في وقت من الأوقات الابتعاد عن هذا الموقف ، فقد أراق الدم والدمع ، ولم يتمكن من الحيلولة دون استقلال السودان المحتوم .

وضع هنري كورييل نظريته موضع التطبيق ، فأسس الحركة السودانية للتحرر الوطني ح س ت و وزودها بجريدة اسبوعية ، ام درمان . وقد سمح نظام ذكي بإرساء تحالف وثيق بين ح م ت و و ح س ت و ، التي سرعان ما غدت الحزب الشيوعي السوداني . كان في متناول المناضلين السودانيين العاملين أو الدارسين في القاهرة دخول المراتب التنظيمية في ح م ت و ، بما فيها اللجنة المركزية ، وكانوا يتدرجون فيها هكذا سياسياً . ولدى عودتهم إلى السودان ، كانوا يحتفظون بمسؤولياتهم التراتبية المكتسبة في القاهرة . وعلى العكس ، فكل مناضل أو قيادي قادم من السودان كان ينخرط في ح م ت و على المستوى الذي وصله في بلده . وبفضل التكوين المكتسب لدى رفاق أكثر تجربة ، ومستفيداً من البؤس التقني للشرطة السياسية في الخرطوم ، الأقل حذقاً بما لا يقاس من شرطة القاهرة ، ومتحرراً أخيراً من الصراعات الداخلية التي كانت تمزق الحركة الشيوعية المصرية ، عرف الحزب الشيوعي السوداني انطلاقاً سريعاً وحقق نجاحات عظيمة ، لا سيما في تنظيم الحركة النقابية . وبعد عدة مشاركات في الحكم ، لقي تاريخه خاتمة مؤقتة لكن مأساوية على مشانق الديكتاتور النميري ، الذي شنق عام 1971 ثلاثة من قيادييه ، من بينهم امينه العام ، عبد الخالق محجوب ، تلميذ هنري كورييل وصديقه .

غالباً ما يخطىء البعض إذ يكتبون أن كورييل كان مؤسس الحزب الشيوعي المصري : لم

يكن غير مناضل تاريخي في الحركة الشيوعية المصرية . لكن كان ثمة حزب شيوعي سوداني ولا أحد غيره يمكنه أن يزعم أنه مؤسسه .

*

* *

كان ضباط الجيش المصري موضوع عمل صبور ومتكتم ولن يتأخر المستقبل في أن يثبت بطريقة باهرة انهم كانوا يمسكون بجزء من مستقبـل مصر . والاتصال الأول في هـذا القطاع الحاسم تحقق بفضل ديدار روسانو .

ان ديدار ، المقدر لها أن تعيش خارج القاعدة ، بدأت بمراهقة مضطربة ، ساقطة عند الحاجة في ارتكاب الجنح الصغيرة . وقد كان لقاؤهـا الأول مع هنـري كورييـل عام 1935 . كانت ديدار ، ابنة الأربعة عشر عاماً ، قد قررت الهـرب إلى الولايـات المتحدة مـع رفيقة في الليسيه الفرنسي . استقلتا القطار إلى بنها ، على بعد 30 كم من القاهرة ، في مرحلة أولى من المغـامرة ، في حـين أن العائلتـين ، اللتين رزحتـا تحت ثقل اختفـاء لا سابق لـه في الطائفـة اليهودية ، اعتقدتا انها ضحيتا الرقيق الأبيض وكـانتا مقتنعتـين بأن رسـالتي الوداع ، اللتـين حررتاهما ، كُتبتا تحت إكراه القوادين . وقد استعادتهما الشرطة بعد 48 ساعة من الاختفـاء ، وجاءت بهما الى المفوضية المركزية في القاهرة ، حيث انتظرتا أهليهما بنـوع من القلق . كانت صدمة والدة ديدار ـ وكانت هذه الأخيرة تحبها حتى العبادة ـ من القوة بحيث سمرتها نـوبة في السرير ، وشلتهـا مؤقتاً . لـذا جاءت اخت ديـدار الكبرى لاسترجاعهـا ، يصحبها هنـري كورييل الذي كان يبدي آنذاك إعجابه بها . وفي العربة المشدودة إلى حصان ، والمتحركة نحو المسكن العائلي ، رفعت ديدار المذعورة عينيها نحـو الشاب الـطويل والنحيف ابن العشـرين عاماً ، فتلقت في القلب ابتسـامة هنـري الوضـاءة . كانت تلك الابتسـامة تعبـر عن التسلية (سبق أن سرقت ديدار سروالاً قصيراً لأخيها وقصت شعرها على طريقة الفتيان كي لا تلفت الأنظار) وعن تواطؤ مثير للاطمئنان . هكذا ولدت بينهما عـاطفة كـانت على التـوالي عاطفـة صداقة ، فرفقة ، فحب ، فمودة ، وسوف تنتهي بـالصيحات الحيـوانية التي ستسمـع ديدار نفسها تطلقها على الهاتف ، في الجزائر ، بعد أن أعلمها جوزف هازان على الطرف الآخر من الخط ، في 4 أيار 1978 ، الساعة الثانية والنصف ، باغتيال هنري كورييل ـ بعد مرور 43 عاماً على البسمة بوجه الابنة الشاطرة في العربة القاهرية .

بعد طرد ديدار من الليسيه الفرنسي ، انقطعت عن الدراسة قبل الباكالوريا ، ودخلت

المصرف الوطني الذي كان والدها أحد مديريه . كانت تضجر في المكتب ، لكنها تعوّض بحياة عاطفية ملأى باللا متوقّع . التقت في التاسعة عشرة الضابط الوسيم عثمان ، فحدثت قطيعة مثيرة بينها وبين عشيقها في تلك الفترة ، الذي أقنعها بابتلاع السم معاً . وانتهت القضية في المستشفى بطفح جلدي جدي اصابها ، ولم تعرف أبداً اذا كانت زجاجة العاشق تحتوي أيضاً على المادة المؤذية .

ليس ثابتاً إذا كانت أثارت غيظ عثمان حين كشفت له جهلها بوجود جيش مصري لأن الشاب كان يتحدر هو أيضاً من عائلة ـ يا للتعقيد اللامتناهي لهذا البلد القديم ! ـ كان أفرادها يعتبرون مصر مستعمرة : كان جده ، السيد الشركسي ، قد اقترن بشركسية رائعة في الثالثة عشرة من عمرها وكان ينتمي إلى الفئة المغلقة العثمانية السائدة في الريف . كان يعيش على متن حصان ، ومات على متن حصان ، في التسعين من عمره . وكان في وسع تعاليه حيال السكان الأصليين أن يلقن درساً لتعالي أي لورد انكليزي . ذات يوم وقد أجبر على الذهاب الى المحكمة بخصوص أحد أملاكه الكثيرة ، ذهل وهو يسمع القاضي يكلمه بالعربية ـ وكان ذلك أمراً طبيعياً . لكن السيد النبيل كان يتكلم التركية ، لغة الفئة المغلقة الفاتحة . وقد استهول أن يسمع أحداً يؤنبه بلهجة السكان الأصليين فصب على القاضي سيلاً من الشتائم ورجع على أعقابه .

كان شعر عثمان الأشقر من أمه الانكليزية. لقد ورث من جده كتفين عريضين رائعين ،وحركات نبيلة ، وتذوقاً لعلم الفروسية (أصبح بطلاً عسكرياً في مباريات الفروسية) لكنه لم يرث مالاً . فالأملاك الكبرى تبخرت في الجيل الوسيط . وهو ما دفعه للانخراط في الجيش ، الذي كان إحدى المؤسسات الأقل هيبة في مصر . الكثيرون كانوا يقبلون بمهنة الضابط لأنهم لم يحصلوا في الباكالوريا على مجموع من النقاط يفتح لهم باب الجامعة . وبالاستثناء المحتمل لسلاحي الطيران والفرسان ، كان ملاك الضباط آتياً بمعظمه من طبقة الفلاحين الصغار ومن فئة صغار الموظفين : من البورجوازية إذا شئنا ، لكن البورجوازية الصغيرة ، الأقرب الى الشعب منها الى الاقطاعيين . فكان الجيش المصري جيشاً شعبياً بالمعنى السياسي ـ الاجتماعي للكلمة . ولأن الغرب تجاهله ، ولأنه كوّن عن الضابط المصري صورة كاريكاتورية تخلط بينه وبين الانقلابي الفاشي الجديد في اميركا الجنوبية ، فسوف يحكم على نفسه بألا يفهم شيئاً بصدد ثورة 1952.

كان مجمل الضباط يشعرون بحضور الجيش الانكليزي على أنه اذلال لا يُحْتَمل ـ ولقد رأينا الى أي مواقف متطرفة يؤدي الحقد على المحتل بأناس من طينة أنور السادات . كان البعض يعتبرون ان البلد لن يصل إلى استقلاله الكامل إلا إذا خرج من تأخره الاقتصادي

والاجتماعي . وكان عثمان من هؤلاء . وسبق أن انشأ في وحدته ، وبمبادرة شخصية منه ، صفوفاً لمحو الأميّة لأجل المجندين الجدد . وإن التقاءه ديدار ، التي اقترن بها في أول ايلول 1942 ، شجع دعوته التقدمية . كان في السادسة والعشرين ، وهي في الواحدة والعشرين بالضبط.

كانت ديدار ، المهتدية للماركسية عبر قراءة محاضرات سلمها إياها أحد أصدقائها الايطاليين ، رونيه فرفارا ، قد انضمت في البدء ، بناء على نصائحه ، الى فريق دراسات يلعب دور غطاء للايسكرا . وكان كل منتسب محتمل يرى نفسه يخضع هكذا لتدرج اختباري تتراوح مدته بين ستة أشهر وسنة قبل قبول انتسابه . ووفقاً لقواعد الأمن ، كانت ديدار تجهل أنها الحلقة المعبر إلى الايسكرا وأنها « تحت المراقبة » ، وقد وجدت فيها مع ذلك صديقتها وزميلتها في العمل في المصرف الوطني ، بيرت ماتالون ، التي غدت قرينة هيلل شوارتز . وكانت الحلقة والنقاشات النظرية التي لا تنتهي قد بدأت تتعبها حين التقت ، بعد زواجها بقليل ، داوود ناحوم ، صديق شقيقها . كان ناحوم أحد القادة الأكثر نشاطاً في ح م ت و . كان محاضراً في أول مدرسة كوادر ، وتعرض لمخاطر كبرى أثناء دعم الديمقراطيين اليونانيين . كان لا بد أن تثير حماس رجل مثله متعاطفةٌ مع الشيوعية مقترنة بضابط تقدمي مصري . وقد أدخلها إلى ح م ت و .

استراحة قسرية : لقد جرى ارسال عثمان « الى الصحراء » لامضاء عقوبة ، لأن حملات محو الأمية كانت تقلق رؤساءه . فرافقته ديدار إلى الحامية التعيسة في مرسى مطروح . وبعد عَودَتها إلى القاهرة في نهاية 1945 ، شاركت في أحداث كانون الثاني 1946 وفي مغامرة لجنة الطلاب والعمال القصيرة لكن المثيرة للنشوة . ثم سحبها هنري كورييل من العمل السياسي المكشوف ـ كانت تتكلم العربية بشكل سيىء ـ ليلحقها بـ « عمل الضباط » الحاسم . كانت تؤمن الاتصال بين قيادة ح م ت و ومجموعة لا شكلية كان ينتمي اليها عثمان وسوف يخرج منها الأكثر دينامية بين الضباط الأحرار في ثورة 1952 . كان من بينهم فارس شاب اسمه خالد محيي الدين ، ابن عم زكريا محيي الدين ، الذي اقسم عام 1938 ، هو وجمال عبد الناصر وأنور السادات ، لدى خروجهم من المدرسة الحربية ، على تحرير مصر . كان مقدراً لابني العم محيي الدين أن يصبحا ممثلين اساسيين على المسرح السياسي المصري .

عمل تآمري ، كما كانوا يقولون في الكومنترن . كانت ديدار تعيش حياة زوجة ضابط شابة رياضية واجتماعية . كانت تتم الاتصالات في نادي الجزيرة الرياضي ، حيث تمارس التنس والاسكواش* والفروسية مع زوجها ، أو في نادي الضباط . وغالباً ما كان هنري

* لعبة شبيهة بكرة اليد والتنس (م) .

كوربيل يلتقيها هناك ، لكن داوود ناحوم كان يقوم بالجزء الأساسي من أعمال الاتصال . « من الخطأ القول إني كنت واسطة الاتصال الوحيدة مع الضباط الأحرار . كان لـدى هنري عـدة أوتار في قوسه باستمرار . هذا ما تؤكده مع ذلك ديدار .

كان كوربيل يعرف غريزياً ما يتطلبه العمل السري من حذر وصبر . لم يكن إضرابٌ في شبرا و« عمل الضباط » في المستوى ذاته وكانا يتطلبان استخدام وسائل مختلفة . وقد برع دائماً في حماية القطاعات الحساسة. كان الجيش في مصر القطاع الأكثر حساسية ، تحت رقابة الشرطتين العسكرية والسياسية ، يخترقه عملاء للقصر الملكي ، وتراقبه الأجهزة الانكليزية باستمرار . كما أن تذوقه للهجوم لم يكن يجعله ينسى ان معرفة جيدة للخصم ، ولقواه ومخططاته ، هي شرط تمهيدي لا غنى عنه قبل العمل . كان لديه حس الحصول على المعلومات . وحين أنبأه فؤاد حبشي ، وهو مرتبك قليلاً ، بأن أخاه ، الموظف في الشرطة مكلف بتنظيم لقاء مع كمال رياض أحد مدراء الشرطة السياسية ، طلب منه كوربيل أن يقبل ، قائلاً له فقط : « اشتر لكن لا تبع » - وهو تعبير عربي معروف . ويقول حبشي : « علمني ذلك ان أرتبط دون خوف بكل الناس » . وفيما بعد ، جنّد وكيلاً للنيابة فكان يطلعه على مذكرات التوقيف . وكان لدى هنري كوربيل بالذات مخبرٌ غير معروف في هيئة أركان الشرطة . وكان احد طياري فاروق الشخصيين ينتمي سراً الى ح م ت و ، بحيث ان الطائرة الملكية كانت تفيد في تأمين الاتصالات على المستويين الوطني والدولي ، دون الكلام على رزم البيانات و « الكتب الخضراء » المخبأة تحت صناديق الشامبانيا والكافيار التي تتشكل منها الحمولة في العادة . وكان مساعد لأحمد حسنين ، مدير الديوان الملكي ، يسلّم نُسَخاً من التقارير المرسلة الى القصر بصدد النشاطات الشيوعية .

لم تتأخر ديدار روسانو في التقاء الرجل الذي سيعطي « عمل الضبّاط » دفعة حاسمة . كان أحمد حمروش ملازماً في سلاح المدفعية المضاد للطائرات ، واستاذاً في مدرسة المدفعية في القاهرة ، اكتشفته منظمة **القلعة** ، وانتقل الى **الايسكرا** .

* * * *

لم تكن الايسكرا حصراً برج العاج الذي يحاول شباب متحذلقون الظهور فيه دكاترة في الماركسية : ظهر ذلك بوضوح حين تمّت الوحدة أخيراً في شهر أيار 1947.والنتيجة الأكثر شؤماً للخصومات التي لا تنتهي بين قدامى الحركة الشيوعية المصرية انه لما كان كل واحد يعطي عن الآخر صورة كاريكاتورية فالحركة بكاملها هي التي بدت في الأخير مشوهة .

كان هيلل شوارتز على الأرجح الخاسر الرئيسي في لعبة قلب الدمى هذه . لقد تخلى عن المعركة السياسية عام 1953 في حين بقي هنري كورييل دائم النشاط حتى التضحية بحياته . ولا يمكن أن يكون المرء على حق ضد شهيد . لكن إحصاء الكورياليين الصامدين الذين كرسوا حياتهم للنضال يؤدي بنا إلى ملاحظة أن معظمهم جاؤوا من الايسكرا .

كانت الايسكرا تعرض نفسها للنقد . فنواتها المناضلة الأصلية ، المتحدرة من البورجوازية الكبرى الأجنبية ، كانت تتناوب لديها الحفلات الراقصة الخاصة والتأويل الماركسي ؛ كان يجري التهامس بحق حول أن الكثير من الفتيان يذهبون الى الايسكرا بسبب الصبايا اليهوديات الجميلات اللواتي يأتين ليتحررن من المحظورات الجنسية (كان شوارتز يلعب هذه الورقة عن سابق تصور وتصميم) . لم « تتشبرن* » الايسكرا ، وإذا كان تمصّرت فعن طريق دمج مثقفين من أهل البلد . أما اهتماماتها الأمنية ، مع بنية هرمية وفصل دقيق بين الخلايا ، فكانت تُرى فيها بوجه خاص ذريعة لرفض مخاطر العمل .

لكن الايسكرا أصدرت الجريدة الأسبوعية الجماهير ، التي لم يكن لتوزيعها مثيل على صعيد صحف أقصى اليسار (كان نظامها مصرياً بصورة نموذجية : لم يكن من حق جهازها الظهور لكن رئيس تحريرها كان ابن باشا كبير اهتدى الى الماركسية ؛ كان رئيس الشرطة السياسية يستدعيه غالباً ويواكبه باحترام الى باب مكتبه .) وكانت دار البحث العلمي تجمع المئات من المستمعين لمحاضرات من مستوى عال . وكانت جامعة عمالية تجتذب كل يوم العديد من العمال . وأخيراً فإن مناضلي الايسكرا كانوا يتلقون تكويناً نظرياً أكثر كثافة مما في أي منظمة أخرى . لم يكن هيلل شوارتز رومانسياً . إذا كان البعض اعتبروه عصبوياً ، واعترف هو بأنه عنيف في النقاش السياسي ، وشرس في الأورثوذكسية ، فلقد كان لديه وعي حاد للطابع الانتقالي لنشاطاته في مصر ، وكان يعتبر أن المهمة التاريخية للمثقفين الأجانب تكمن في نشر المبادىء وتكوين الكوادر . ما كان ليخطر بباله أن ينظر الى نفسه على انه تلميذ لواحد كمحمد شتى او لشخص من مثل بدر ، وكان يرى فيهما عنصرين ممتازين للتكوين . كان هنري كورييل يثير قشعريرته بمواقفه العاطفية العمالية التي كان يرى فيها نوعاً من الديماغوجية .

يبقى أن الايسكرا كانت تضم لدى الاندماج عدداً من المنتسبين أكبر من عدد اعضاء ح م ت و ، وحملت معها جهازاً دعاوياً وامكانات مالية تفوق من بعيد إمكانات ح م ت و . مثلت المالية الشهرية للمنظمة الجديدة ما مقداره 15 ضعفاً لمالية ح م ت و .

* نسبة إلى شبرا الخيمة (م) .

كان ذلك الاندماج زواجاً عقلانياً أكثر مما عاطفياً . دامت المفاوضات ستة أشهر . الجميع كانوا يشعرون بضرورة توحيد الحركات والتجمعات والمجموعات الصغيرة المنتمية إلى وجود شيوعي أقلي في البلد بحيث لا يمكنها أن تمارس ترف الانقسام . لكن العصبوية كانت قد أحدثت في القلوب آثارها التخريبية المعتادة ، وكان كل واحد يصر بأسنانه أمام فكرة الانضمام الى الخصوم الممقوتين . كان لدى ألبر أرييه ، ابن السبعة عشر عاماً وعضو الايسكرا تعليمات برفض الحوار مع هنري كورييل حين يذهب ليرى ابنة عمه هنرييت في الرونبوان . . . وكان بدر شديد الغضب لاضطراره للعمل مع أناس مجتمع لديهم الكثير من الازدراء للعمال بحيث كانوا يفرضون عليهم ، وفقاً لاعتقاده، فترة تجريبية أطول مرتين من تلك المفروضة على المثقفين .

بدأت السيرورة باندماج الايسكرا وتجمُّع مارسيل اسرائيل ، **تحرير الشعب** . وقد فضلت أقلية من تحرير الشعب الانشقاق على الوحدة ، وتوحدت مع **الفجر الجديد والعصبة الماركسية** مشكلة معها جبهة من المتصلبين الذين راحوا يفضحون المنظمة الجديدة على أنها « فاشية ، وامبريالية ، وصهيونية » . ثم انضمت **القلعة** بأعضائها الوهميين المئة ألف واعضائها الفعليين الخمسين (كان بينهم الملازم الثمين أحمد حمروش ، الذي كانت استمالته تبرر لوحدها وجود **القلعة**) . والتحقت مجموعة قاهرية صغيرة ومنظمة في الاسكندرية بالمجموع الجديد الذي اندمج أخيراً مع ح م ت و المتحلقة حول هنري كورييل .

جرت تسمية ناتج هذه التجميعات المتتالية بالحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (ح د ت و) . وكانت التسمية ترمز إلى انتصار كورييل : باستثناء كلمة واحدة ، كان الاسم هو اسم منظمته الأصلية . حلت « الديمقراطية » محل « المصرية » لأن التمصير بدا أمراً ناجزاً . أما اعادة تأكيد هدف التحرر الوطني فكان بالطبع جوهرياً بنظر قدامى ح م ت و . كما أن هيلل شوارتز رضخ ايضاً بصدد نمط الاشارة الى اللجنة المركزية الجديدة ، حيث كان متفقاً على أن تتمثل ح م ت و والايسكرا بالتساوي . كان يفضل انتخاب الأعضاء بالطريقة الديمقراطية ، إلا أن كورييل عارض ذلك بحجة السرية الضرورية وانتزع حق اختيار الزملاء . كانت الايسكرا تتمنى الاحتفاظ بمنبر حر في الجماهير لتعرض فيه اطروحاتها . وهنا أيضاً قطّب كورييل حاجبين مندهشين متسائلاً إذا كانت حركة شيوعية نادي نقاش ؟ وهكذا جرى التخلي عن المنبر . هل كان ذلك نتيجة ارادة المصالحة لدى هيلل شوارتز أو الدينامية المتفوقة وقوة الجذب لدى ح م ت و ؟ الحاصل أن الوحدة تمت وفقاً لشروط هنري كورييل . لا شك أن ذلك الانتصار كان باهظ الثمن .

لكن المناضلين كانوا سعداء . فباعتراف شوارتز بالذات كان مناضلو الايسكرا نافدي الصبر بسبب الطابع المدرسي جداً لتكوينهم النظري ؛ وكانوا يتحرقون للانتقال إلى العمل .

أما مناضلو ح م ت و ، الذين كانت المهام تتجاوزهم باستمرار من حيث اتساعها ، فرأوا انفسهم مزودين بإمكانات أكبر عشر مرات من طاقتهم على التدخل . فالاشتراكات التي كان يدفعها أجانب الايسكرا ، المتحدرون من البورجوازية المزدهرة ، اتاحت مثلاً مضاعفة عدد المتفرغين .

قالت آيميه سيتون : « كنت اختنق في الايسكرا ، وما من شك في اني كنت تركت لو لم تحدث الوحدة . كانت الحَوْجزة تقطع اجنحتنا . وكنا ندور حول النفس بكسب عضو من هنا أو من هناك لكن لم يكن يمكن الاستمرار في الهمس إلى ما لا نهاية له بكلمة الحق . اعتقد انه بالنسبة لمعظمنا ، جرى استقبال الوحدة بحماس لأنها كانت تحمل إلينا ما يشبه الخلاص . لقد خرجنا أخيراً من البرج العاجي .

« كنت أنتمي الى فريق النساء . وكانت ح م ت و متأخرة جداً في هذا الميدان مقارنةً بالايسكرا . كنا قد اشتغلنا جدياً على وضع المرأة انطلاقاً من القرآن ، الذي ليس معادياً للنَسَوية ، على عكس ما هو شائع : إن التأويل الذي يعطيه الرجال هو المعادي للنسوية . كنا قد وضعنا برنامجاً على مراحل ، مستعينات برفاق من مثل اينجي افلاطون ، وهو فنان ـ رسام مشهور جداً في أيامنا هذه . كانت المرحلة الأولى تتناول الحقوق العائلية . يجب ان تكون موافقة المرأة على الزواج ضرورية لانعقاده ، واعتبار التطليق بمجرد قرار من الرجل مستحيلاً . المرحلة الثانية : حق المرأة في الدراسة وفي اختيار مهنة . والثالثة تتعلق بالأهلية المدنية ، مع حق التصويت والانتخاب . وكانت هناك أيضاً مشكلة الأطفال الذين يبدأون العمل في الخامسة من العمر .

«في فترة الوحدة ، كنت اناضل في دار **البحث العلمي** حيث تعرفت على زوجي لاحقاً . كان يعمل لدى عمه ، حرّافاً متخصصاً في القطن ، وكان عضواً في اللجنة المركزية للايسكرا .

« حين استدعاني كورييل الى مكاتب والده ، ذهبت الى هناك بتحفظ ، عازمة على عدم السقوط في احابيله . وكنت سمعت الكثير من الروايات عنه في هذا الصدد ! وقد وجدته في البدء بالغ الذكاء وشديد الخبث لكنه اقنعني في النهاية ، وأثار حماسي ، مع منظور العمل الديمقراطي الجماهيري . كانت الفكرة المسيطرة لديه ، هي المسير وفقاً للمراحل ، كان يردد : « كيف نتحدث عن الثورة في حين لا يزال الجيش الانكليزي في مصر ؟ » .

« لقد بدَّل النظام القديم تماماً . ففي الايسكرا ، كان يفترض أن تصعد المعلومات الى اللجنة المركزية ، لكن المؤكد هو ان الأوامر كانت تنزل منها ، فاستبدل هنري البنية العمودية ، الهرمية ببنية افقية . كان من الضروري تمثيل كل قطاعات العمل في اللجنة المركزية : كان

ذلك هو شرط عمل جماهيري حقيقي . فوجدت نفسي إذن في اللجنة المركزية لتمثيل النساء . وكان رفاق آخرون يمثلون فلاحي الجنوب ، أو الدلتا ، او عمال شبرا الخيمة او عمال حلوان ، الخ . بهذه الطريقة ، كانت اللجنة المركزية حقاً في مركز كل الاعمال . وكانت الاجتماعات مثيرة لأن كل واحد كان يقدم تقريراً عما يجري في قطاعه ، وعن المشاكل المطروحة ، وكنا نتناقش معاً في كل ذلك . كان هنري هناك ، صامتاً بصورة شبه دائمة . ومن حين لآخر، كان يتفوه بجملة ، او باقتراح . وكانت نظريته تقضي بأن يتعلم كل واحد من تجربته الخاصة ويجد طريقه . كان نقيض قائد متسلط . وكنت اجد لديه مقدرة عظيمة ، تلك المقدرة على وضعك في الطريق الصحيح وترك المبادرة بعد ذلك لك . لم اكن اشعر بأني مجرد منفذة ، كما الحال في الايسكرا . وبالطبع كانت كل النقاشات تتم بالعربية . وكان هنري وهيلل شوارتز وانا ، اليهود المصريين الوحيدين في اللجنة المركزية .

« كان قفا الميدالية هو غياب الأمن . فالجميع كانوا على علم بكل شيء . كان رفاق الايسكرا ، المعتادون على قواعد امنية دقيقة للغاية ، في حالة هلع وهم يرون هذا الكشف العلني لنشاطات الحركة . كان يمكن ، مهما يكن ، افتراض ان الشرطة ليست عاطلة عن العمل وان اللجنة المركزية مخترقة . وقد جرت نقاشات محمومة . كان قدامى الايسكرا ينذرون بالكارثة ، وكانوا على حق ، لكنني اعتقد الى الآن ان كورييل لم يكن على خطأ . فهذا العمل الجماهيري ما كان يمكن ان يتم بشكل آخر . بالطبع يمكن دائماً ان نقول ، بعد فوات الأوان ، انه كان من الأفضل اتخاذ المزيد من الاحتياطات الأمنية .

« تقدمنا إذن الى الأمام . وقد تطور قطاع « النساء » كثيراً ، بالرغم من كل الصعوبات . وينبغي ان تعرف انه كان يجري في تلك الفترة إسقاط المصرية من حقوقها المدنية اذا هي حملت راية في مظاهرة . وبعد الوحدة ، اجتاح القاهرة وباء الكوليرا . فتحرك كل الناس . وقد قمنا بجمع مبلغ كبير من المال وشكلنا مجموعات من المتطوعات اللواتي كن يذهبن الى الاحياء الشعبية بصحبة طلاب في الطب ، لتوزيع الصابون وتعليم الناس قواعد الصحة . في كل مكان ، كانوا يستقبلوننا بحفاوة ويقدمون لنا فنجان شاي . لا يجب تعظيم هذا النوع من العمل ، لكنني اعتقد اننا ساهمنا في دفع الناس الى الامام . واذا كانت النساء المصريات حصلن منذ عام 1952 على حق التصويت فأنا اعتقد انه كان لنا دور في ذلك » .

كان احد منظمي الحملة لمكافحة الكوليرا الدكتور شريف حتاته ، ابن الأربعة والعشرين عاماً ، والآتي هو ايضاً من الايسكرا . كان من عائلة اعيان اقطاعيين كبار ـ فجده امتلك في الماضي 350 فداناً ؛ وكانت جدته ابنة إخ لبطل الاستقلال ، سعد زغلول ـ لكن القسم الأكبر من الثروة جرى تبديده في نفقات باذخة ، وتوزع الباقي على ورثة كبيري العدد . وقد عاد والد شريف الى مصر من انكلترا حيث تلقى تعليمه ، وحاز ديبلوماً من كامبريدج ،

وكانت برفقته زوجة شابة من البورجوازية الصغيرة الانكليزية . وقد برع في عمله كموظف كبير ، وتتوّج ذلك بالحصول على وظيفة وكيل وزارة . كانت العائلة تقطن في الزمالك ، لكن لم يكن عندها غير خادم واحد .

عاش شريف حتاتة حتى الجامعة دون ان يطرح اسئلة على نفسه . ولما كان « مثالياً » ، فقد فكر في البدء في أن يصبح « رجل دين » دون ان يعرف ما اذا كان سيختار الاسلام ، دين ابيه ، او المسيحية ، دين والدته . وأخيراً اختار الطب الذي فهمه على طريق الدكتور شوايتزر . وكطالب لامع ، كان الأول في فوجه عام 1946. « لكني لم اكن راضياً ، اذ اكتشفت اني لم اكن مصرياً كالآخرين . كنت أحسُّ بنفسي معزولاً ، ومستلباً . وقد غصت في السياسة لأعثر على انتماء . كنت اريد الانضمام الى الآخرين » . وقد كشفَتْه لنفسه ايامُ شباط 1946 المكثفة : « اكتشفت مصر ، البلد الذي كنت انتمي اليه نظرياً لكن الذي لم ألتقه ابداً في المدرسة الدينية الانكليزية حيث كان والداي قد وضعاني . وقد أعطتني الاجتماعات والمظاهرات شعوراً بالاكتمال الشخصي . كنا نعيش في الحماس ، وكانت الحياة حارة . كانت هناك حياة رفاقية رائعة ، وقد دخلت الايسكرا بعد أن ترددت على دار البحث العلمي . بدت لي الوحدة شيئاً ممتازاً لأن ح م ت و كانت تجتذب الأعضاء من شرائح اكثر شعبية بكثير من تلك التي كانت الايسكرا تستمد اعضاءها منها ، ولأنها كانت مرتبطة اكثر بالواقع . وقد التقيت هنري كورييل بصدد الحملة ضد الكوليرا . كان ذلك في شقة في شارع سليمان باشا . بدا لي الرجل غريباً في جانبه الجسدي وفي لباسه المضحك ـ فما من احد يلبس الشورت الا لممارسة الرياضة . كما أني لم أُحبّ جو البلاط الذي كان يسود حوله . كانت هنالك نساء يتوسلن اليه قائلات : « يجب ان تأكل ، يجب ان ترتاح » . وكان يجيب : « كلا ، بل يجب ان أعمل » . لكنه كان يمتلك ابتسامة لا يمكن مقاومتها . ثم كان يسأل ويصغي ويستعلم . اعطاني انطباع قوة ودينامية . كان رجلاً خارقاً ، وأعتقد اني موضوعي لأنه لم يكن عندنا يوماً ذرّات متماسكة . واذا كان أثار المقت والكراهية فلأن القياديين الآخرين المتنافسين معه لم يكونوا يتحملون تفوقه .

« بعد الحملة ضد الكوليرا ، طلب مني أن أصبح متفرغاً . كنت طبيباً معاوناً في المستشفى ومن البديهي انه كان ينتظرني نجاح مهني باهر . كان عليّ ان اتخذ قراراً خطيراً ، وأن أقوم بخيار صعب . لكنني لم أتردّد طويلاً . فلقد كان هناك حماس عظيم ، ونفاد صبر لتغيير الحياة . . . ارسلوني الى الاسكندرية بمهمة تركيز بنية للمنظمة الجديدة هناك » .

لم يكن وحده في الذهاب . فلقد تمّ إرسال متفرغين الى كل مدن البلد ، مكلفين بالمهمة ذاتها : التوحيد ، والبناء والتنظيم . كان كل شيء يتحرك . وكانت جريدة الجماهير تبيع ما

بين الأربعين والخمسين الف نسخة ، وهو امر مهم بالنسبة الى البد . وقد تم الانـدماج بـين مكوِّنات الأيسكـرا وح م ت و دون مشاكل . كان ريمون اسطمبولي ، ابن الثانية والعشرين ، مسؤولاً عن زاوية السياسة الخارجية .

في الأزهر ، كان مبارك عبدو فضل يضاعف عدد الخلايا في الكليات الثلاث ، اصول الدين ، والشريعة ، واللغة . وغرس الحركـة الديمقـراطية (ح د ت و) في المعهـد الثانـوي الممهِّد لهذه الكليات . وفي الجيش ، كان ضباط ونواب ضباط يعقدون اجتمـاعات مشتـركة يُرى فيها ضابط الخيالة خالد محيي الدين وهـو ينتظر كي يجلس أن يكـون الميكانيكي بـدر ، سكرتير الفرع ، قد أخذ مكانه على الـطاولة. ولقد تمَّ جمع المناضلين من أصل أجنبي في قطاع عُهد به الى مارسيل اسرائيل ؛ كانت الحركة تعمل على قاعدة الجنسية الأصليـة للمناضلين : فنجد الفرع اليوناني ، مع ابن تاجر الاسفنج المشهـور يانـاكاكيس ، والأرمني ، والايـطالي ، وبوجه خاص اليهود . وكان عدد الطلاب المنتسبين كبيراً (سرعان ما تخـطى الألف) بحيث فكرت القيادة بأن تخلق بنية مستقلة خاصة بهم . في أقل من عام زاد عدد اعضاء ح د ت و أربع مرات . وقد كانت هناك عاقبة واحدة ، لكنها بالغة الأهمية : انعدام التناسب المتزايد بين عدد الكوادر المجربين وعدد المنتسبين الذين ينبغي تكوينهم .

لقـد جـرى الحـديث بصـراحـة عن الجـوانب المضحكـة الصغيـرة في اولئـك الشبـان البورجوازيين الصغار الذين ينذرون أنفسهم للثورة بحماس ساذج ، وعن العالم الذي يجري تغييره دون ملل في مصطبة الغروبي ، والخدام الأميين المكلفين بإخراج النثر الماركسي تحت أنف رجال شرطة بروليتاريين ، والتوبيخات المُجلة لقادة الشرطـة السياسيـة ، والآباء البـاشاوات الذين يبسطون يد الحماية فوق اولادهم ، وسيارة السيتروان آخر موضـة التي تترك سيـارات الشرطة الرديئة في أمكنتها . . يبنغي ان يقال الآن ان ما أنجزوه كبير جـداً . فمع أنهم عديمو التجربة ، ومحرومون من توجيهات أممية، اصبحوا مناضلين مثاليين كان اعـتز بهم أي حزب شيوعي يحظى بمباركة موسكو . أبدوا اخلاصاً وعناداً ، مكرسين ما بين 14 و 16 ساعة يـومياً لتنظيمهم إذا كانوا متفرغين ، مقابل أجر بائس ، فيما يقدم الآخرون لياليهم وعطلهم . وهاكم تفصيلاً سوف يبدو تافهاً لكن الخبراء في حياة النضال يعرفون قيمته الاختباريـة : إنه مقـدار الاشتراكات . لم يكن احد يقدم أقل من 10% من أجره ، وكان معظمهم يدفعون 15% ، ويصل كثيرون الى 25% ، وكان البعض يدفعون 50% وأكثر . وحين كان مناضلان يتزوجان ، كانت الباثنة تقدَّم بكاملها إلى ح د ت و ؛ وكان ذلك يناهز أربعة آلاف أو خمسة آلاف استرلينيـة ، أي حوالي 20 الى 30 مليون سنتيم فرنسي . وقد أسس شخص اسمه ميشال مؤسسـة لتجارة ورق ، فحقق في السنة الأولى ثلاثة آلاف جنيه بمثابة ارباح دفع منها الفين للحركة . ويوضح

جوزف هازان بدون هوادة ان المذكور « كان يُعتبر بخيلاً » .

لا شك انه لم يحصل في أي مكان أن وجدت الحركة العمالية هذا القدر من التعاون ، ومن هذه النوعية الجيدة ، لدى البورجوازية المناوئة . ما من بلد في العالم الثالث حفز هكذا اخلاصاً لدى اولاد الفئة المغلقة الأجنبية المتواطئة مع الاستعمار . ان الحركة الشيوعية المصرية فريدة على الأرجح ، سواء من حيث مثالية العمل أو من حيث التنوع العجيب لمكوناتها البشرية .

لقد صنعت ح د ت و الكثير لأنها كانت تنطلق من لا شيء ، لكن في أوج قوتها بقيت هامشية . كانت تقلق السلطة بسبب انغراسها الذي لا جدال فيه ضمن الطبقة العاملة ، الا انها لم تكن منغرسة عملياً في الأرياف ، رغم التبشير الحماسي من جانب قدامى الأزهر ، في حين كان الاخوان المسلمون يجندون بكثافة لسبب بسيط هو أنّه كان لكل قرية مسجدها . وفي الجيش ، بقي مناضلوها ، ضباطاً أو نواب ضباط ، أقليين في الحركة التحتية التي كانت تُعِد لاسقاط النظام . وفي الجامعة، كان الطلاب القوميون يفرضون أنفسهم . كانت ح د ت و تضم حوالي أربعة آلاف الى خمسة آلاف مناضل ، بينما كان عدد المنتسبين الى الأخوان 250 ألفاً . وحتى بعد أن دب الضعف في الوفد ، بقي مسيطراً . عام 1947 ، لم يكن السؤال السياسي الكبير هو معرفة ما اذا كان نموح د ت و يبشر ، ولو على المدى البعيد ، بانقلاب اجتماعي ـ ثورة ـ ، بل ايضاً وابداً ما إذا كان الوفد سيعود الى السلطة او لن يعود .

*

* *

دامت الوحدة أقلّ من عام . والقلب ينعصر إزاء قصرها الزمني . فلو أنهم صمدوا عدة أشهر إضافية ـ خمسة أو ستة أشهر ، لا أكثر ـ كانت حصلت الهزيمة على يد الخصم بدل أن تنجم عن خلافاتهم المثيرة للرثاء . لكن كلا . فإن الضربة الآتية من السلطة لن تكون غير ضربة قاضية . كانوا قد دمّروا أنفسهم بأنفسهم . وهذا أسوأ من أسوأ كارثة سياسية يولدها ظرف غير مناسب ، ميزان قوى يصعب الدفاع عنه . والكثيرون لن يقيَّض لهم النهوض من جديد ، شيوخ في عز الشباب يجترون مذاك أحقادهم ، مستغرقين في المرارة . الجميع سيحتفظون في قلوبهم بنُدْب معركة جرت خسارتها قبل خوضها . والدعوى المفتوحة لن تفتأ تُسمِّم باستمرار الحركة الشيوعية المصرية .

لا يستطيع احد تفسير أصل الكارثة . فهنري كورييل ذاته ، الممثل الرئيسي في الدراما

ختم ملاحظاته المتسرعة والمشوّشة بهذه الجملة المذهلة : « لا أتذكر أشياء كثيرة بصدد مسار الأزمة » . الا ان هذه الأزمة سوف تلغي خمس سنوات من العمل النضالي وتدمّر حلمه المصري . إن الكبت موجود في السياسة أيضاً .

لقد أحدث هيلل شوارتز الصدع الأول . ففي تشرين الثاني 1947 ، أعطت لجنة مركزية جديدة مختارة على أساس انتخاب الزملاء تسعة مقاعد لقدامى ح م ت و وخمسة لقدامى الايسكرا ، ومقعداً واحداً لتحرير الشعب . كان انتصار كورييل مطلقاً . فأصرَّ الآتون من الايسكرا بأسنانهم ، وقبلوا باسم الوحدة ، لكنهم أطلقوا في الحال حملة ضد « الأساليب الارهابية للجنة المركزية الجديدة » . قدّم شوارتز تقريراً يفضح فيه « انحرافاً يمينياً ، والتبعية حيال البورجوازية ، واسترخاء غير مقبول في القواعد التنظيمية ، ونزعة عفوية غير مبدئية » . وكان النقاش الأساسي يدور مرة اخرى حول الاستراتيجية . رفض هنري كورييل التخلي عن خطه الرامي الى تجميع القوى الديمقراطية والوطنية ، وكان شوارتز يردِّد أن الهدف هو الوصول الى خلق حزب شيوعي اصيل ، طليعة للبروليتاريا المصرية ، وأن ح د ت و ستضيع في مساومات مع البورجوازية القومية . وبما ان مؤسس الايسكرابات في وضع الأقلية ، فقد استقال من أمانة السر ومن اللجنة المركزية . وذهب مصريان ، قادمان من الايسكرا وعضوان في اللجنة المركزية ، أبعد أيضاً بأن أحدثا انشقاقاً حقيقياً وهاجما كورييل بعنف (أحدهما مات فيها بعد تحت التعذيب في معسكر اعتقال أيام عبد الناصر ، والآخر سينتهي وزيراً للسادات) . ويؤكد هيلل شوارتز أن الحدث فاجأه « كالرعد في سماء زرقاء » . وقد بذل جهده لتحاشي ما لا علاج له بأن اقترح تنظيم نقاش ديمقراطي واسع في داخل الحركة . فرفضت الأكثرية ذلك . وكان هنري كورييل يميل الى الاستبعاد الصريح لكل العناصر المعترضة . وقد انسحب مارسيل اسرائيل بدوره ، ساحباً معه معظم قدامى **تحرير الشعب** . أما الآتون من الايسكرا فانقسموا الى ثلاث مجموعات متخاصمة ، لا يجمعها غير خلافها مع اكثرية ح د ت و ، في حين اختار عدد من الأفراد اللامعين ان يغنّوا خارج أي سرب . وفي غضون ستة أشهر ، كانت البلبلة قد بلغت درجة لم يعد معها اي شخص قادراً على فك رموز مشكال* سياسي يتغير من اسبوع لأسبوع ، اذا لم يكن من يوم ليوم . كانت هناك قناعة واحدة : لقد انتهت الوحدة وباتت الحركة الشيوعية المصرية ، المقروضة بالأحقاد الداخلية ، اكثر تمزقاً منها في أي وقت مضى .

---

* Kaléidoscope آلة أنبوبية تحتوي على مرايا مركزة بحيث تتحرك الأشياء الصغيرة الملونة الموجودة معها في الأنبوب فتولد رسوماً مختلفة الأشكال والألوان (م) .

يعزو جوزف هازان الكارثة الى صعود القمع ؛ وكان كورييل قد كلّفه بالمهمة القاسية المتمثلة بسد الثقوب . « لم تكن الانشقاقات تتم على قاعدة سياسية ولا حتى على قاعدة شخصية ، وهذا ما كان يجعل مناهضتها صعبة . وفي الواقع ، فإن التهديد بالقمع كان يدفع الكثيرين الى التقوقع ، والدخول في الظل . كان ذلك بالضبط عكس ما كان ينادي به هنري بعمله الديمقراطي الجماهيري . لقد طالب المعارضون بمؤتمر . لكن كيف كان يمكن لحركة سرية ان تخاطر بجمع مؤتمر ، لا سيما ان جماعة الايسكرا كانوا يريدون ان يكون من حق الانصار أيضاً حضوره ؟ كان ذلك متناقضاً . يبقى صحيحاً ان غياب النقاش كان يشجع الشك والاشتباه . وفي مناخ بهذه الصعوبة ، ليس ثمة ما يدهش في أن يتوصل مناضلون صادقون الى وصف هنري بـ « عميل الاستعمار » . . . »

وسوف يفسر هنري كورييل الكارثة بدوره بالقساوة المتنامية للمعركة السياسية . فبعد الازدهار الاقتصادي الذي افتعلته الحرب ، أضعفت التسريحات الكثيفة الروح القتالية العمالية . والاضرابات ، التي كانت تتزايد صعوبة ، باتت أقل فأقل ظفراً . وقد أشار هو أيضاً الى تعزيز نشاط الشرطة . لكن كيف يمكن عزو انفجار ح د ت و الى القمع وحده في حين اعترف كورييل بالذات فيما بعد بما يلي : « لم نكتشف ـ لا بل لم نتوقع ـ هجمة الرجعية » ؟

وقد لاحظت ديدار روسانو ما يلي : « كنا ناتج مجتمع بورجوازي، وميزة هكذا مجتمع انه يولد النزعة الفردية » . وكان ذلك ايضاً هو الحكم اللاذع لمجمل الأحزاب الشيوعية الأجنبية ، التي اتعبتها الخصومات المصرية التي لا تنتهي . كان اندريه مارتي يردد امام من يريد الاستماع اليه : « مثقفون بورجوازيون صغار يزعمون انهم شيوعيون ويمضون وقتهم في التشاتم . هذا غير جدّي » .

مع ما يتطلبه من حذرٍ تعقيدُ المشكلةِ والقناعةُ بأن أي حكم على الأشخاص سيصدم حساسيات لا تزال حية ، فنحن لن نخفي واقع أن مسؤولية هنري كورييل عن الكارثة تبدو ، بعد أربعين عاماً ، أكيدة وكبيرة . كانت فدية النجاح . لقد أراد التمصير وحققه : ما الذي يدهش في أن يكون المصريون تمنوا في الأخير الاشراف التام على الحركة ؟ والحال انه إذا كان هنري كورييل وهيلل شوارتز وأيميه سيتون الأجانب الوحيدين في لجنة مركزية من 15 عضواً ، فلقد بقيت القيادة الفعلية بين يدي الثنائي كورييل ـ شوارتز ، ثم بين يدي كورييل وحده . تقول أيميه سيتون : « كان يجمع كل شيء وكان الوحيد الذي يملك كل المعطيات » . لا شك انه كان يمارس سلطته بدراية تتناسب مع طبعه ، مزاولاً طريقة سقراطية تجعل الآخرين يخترعون القرارات التي هو مصمم على اتخاذها ، لكن الأقل ارتياباً بين رفاقه ما كان في وسعه الا أن يدرك انه عبر اللجنة المركزية وأمانة السر ، كان كورييل هو الذي يسحب الخيوط دائماً .

ولو انه اضطلع بصراحةٍ بالوضع لكـان هذا لقي القبـول بشكل أفضـل ، رغم المفارقـة التي ينطوي عليها ذلك . كان تواضعه التفاخري ، وتصنعه البساطة النضاليـة يثيران الغيظ لـدى أكثر من واحد . وكان أصدقاؤه يشيرون وهم يتنهدون الى تشبعه بالروح اليسوعية ، فيما كان الآخرون يهذون وهم يشتبهون بدسائس كبريتية .

لقد جعل الأمين العام الحـالي لحزب التجمـع ، رفعت السعيد ، جعـل نفسه مؤرِّخـاً لحركة شيوعية مصرية يعرفها تماماً لأنه ناضل فيها منذ الطفـولة (كـان في الخامسـة عشرة من عمره ، عام 1948 ، وبات المناضل الشيوعي الوحيد الذي دخل معسكر الاعتقال وهو يلبس سروالاً قصيراً . . . وقد أمضى ما مجموعه 14 عاماً في المعتقـل) . وهو يـرى ان خطأ هنـري كورييل يكمن في كونه لم يسلّم الدفة الى غيره بعد المرحلة الحاسمة لاضطرابات شباط 1946. لقد أنجز مهمته التاريخية . وكان خطه السياسي ينطلق من تقديـر صحيح لارادة الاستقـلال الوطني ، لكنه كان عليه ان يخلص الى النتيجة التي مفادها انه لا يمكن ان يقود أجنبي حركةً شيوعيةً في بلد محتل .

وبالنسبة لمارسيل اسرائيل ، كان على هنري كورييل ان يستقيل من مسؤولياته في لحظة الوحدة ، في كل حال : « لقـد رفضت ، من جانبي ، الـدخول في اللجنـة المركـزية . كنـا أجانب ، وهو لم يرد أخذ ذلك بالاعتبار » . حتى بين المخلصين لهنري ، فان الكثيرين يسلّمون بأن انسحابه كان مستحسناً من الناحية النظرية ، وان كانـوا يضيفون بـأن ذلك كـان صعب التصور من الناحية الانسانية ، ومجالاً للنقاش على المستوى السياسي :

كانت ح د ت و من صنع هنري كورييل ، وسواء كان اجنبياً او غير اجنبي ، فلقد كان يبقى القيادي الأكثر تجربة ، والأكثر بعد نظر ، والأقدر اخيراً على توجيه منظمة كانت لا تزال سريعة العطب .

هو بالذات انتظر وقتاً طويلاً قبل ان يسلِّم بما هو بديهي ـ وقد فعل ذلك رغماً عنه وهو يحس بنوع من السوداوية . فلقد كتب في خريف حياته : « كان العنصر الثاني في الوضـع هو النضال ضد يونس (اسمه المستعار) . كانت الوحدة قـد حملت الى الحركـة مثقفين لامعـين للغاية . هؤلاء كانوا يتطلعون للسيطرة على الحزب . وبوصفهم مثقفين ، كانوا شوفينيين بعض الشيء ولم يكونوا يرون لماذا لا يجب ان يكون التمصير كاملاً عن طريق تصفية يونس . . . لقد أطلقوا النضال إذن ضد يونس ، في البدء بصورة مشوشة قليلاً ، ثم بصورة اكثر فأكثر حزماً » .

كان الوضع بدون مخرج : فكورييل واسرائيل وشوارتز كانوا قد طبعوا الحركة الشيوعية بطابعهم الى حد بعيد ، ومنذ زمن طويل جداً ، بحيث لم يكن امحاؤهم أمراً قابلاً للتصور . لم

يكن الأمر يتعلق بوضع تراتبي في الحركة . فمارسيل اسرائيل ، المناضل القاعدي ، ظل يؤثر في المنتسبين الذين كوّنهم ماركسياً . وان استقالة هيلل شوارتـز من أمانـة السر ومن اللجنة المركزية لم تقلل من تأثيره في المناضلين الآتين من الايسكرا . وحتى حين اجبرت الحركة هنري كوربيل على البقاء في مكتبته بالرونبوان ، استمر يلهم قدامى ح م ت و .

إن أفضل برهان على أن العوامل الشخصية كانت تلعب دوراً حاسماً في الأزمـة هو ان هذه اقتصرت على قِدْر الساحرات القاهري . فالاسكندرية ، ثاني مدينة في البلد ، سلمت من آثارها . حصلت فيها الوحـدة دون صدامـات ؛ وتخلصت دون ألم وبطريقـة غير مبـاشرة من التشنجات التي عرفتها القاهرة . يقول ألفرد كوهين معترفاً : « لم نكن نفهم الشيء الكثير مما كان يحصل في القاهرة . كنا في البدء مجموعة صغيرة من الشيوعيين المكتفين بنشاطات ثقافية . ثم جاء هيلل شوارتز الينا واقترح علينا الاندماج بالايسكرا . لا مشكلة . كنـا خمسة عشر ، وكانوا اثنين : طالباً وإسكافياً ، مسؤولاً نقابياً عن اهل حرفته . خلقنا قطاعاً مصرياً سرعان ما تخطى القطاع الأجنبي ، وفتحنا جامعة شعبية ، وقدنا اضرابات طويلة جداً وقـاسية جـداً . ويبدو ان الايسكرا كانت معتبرة في القاهرة برجاً عـاجياً مقـطوعاً عن الـواقع : لم يكن ذلـك صحيحاً في الاسكندرية . ثم جاء هنري كوربيل لرؤيتي . لم اكن اعرفه الا عبر الصحافـة ـ « المليونير اليهودي الشيوعي » ـ وعبر الصور التي كان يبدو فيها لابساً هـذا السروال القصـير المضحك . أعطاني انطباعاً بأنه فتى واع وهادىء ومقنع . حدثني عن ضرورة توحيد الايسكرا وح م ت و . لا مشكلة . لا سيما أن ح م ت و كانت غير موجودة تقريباً في الاسكندرية . فيما بعد ، حصلت بعض الصعوبـات لأنهم أرسلوا لنا متفـرغَيْن اثنـين ليمسكا كـل شيء . كان شريف حتاته، الطبيب الشاب ، جيداً للغاية ، لكن الآخر ، الشاعر كمال عبد الحليم ، كان ذا عصبوية مخيفة ، وكان يضايقنا كثيراً بتفتيشه دائماً عن مرآة يتأمل فيها نفسه فيما هو يكلمنا . كنت أقود القطاع المصري لأني كنت اتكلم العربية قليلاً . فأقصوني لصالح احد المصريين . لا مشكلة . لم نكن على علاقة إطلاقاً بخصومات القاهرة . ولم نكن نشتبه حتى بالجدال المشهور بين استراتيجية الجبهة الوطنية والجبهة الطبقية . كل الانشقاقات حدثت لدينا كنتيجة لانشقاق القاهرة . كنا ننشقّ بانضباط لكن دون ان نعرف لماذا . . . » .

في 15 أيار 1948 ، اندلعت أول حرب يهودية ـ عربية . فأعلنت الحكومة المصرية حالة الحصار وقبضت على مئـات المناضلين الشيوعيين . في هذه المرة كانت اللوائح كاملة ، فجرى اعتقال معظم الكوادر . والحركة الشيوعية المصرية ، التي شلّتها الأزمـات الداخليـة ، وقطع رأسها البوليس ، كانت خارج المعركة .

*
**

لم يكن خلق دولة اسرائيل مشكلةً ، لا بالنسبة للشيوعيين ولا بالنسبة لمجمل الشعب المصري . كان مارسيل اسرائيل قد جهّز بعد الوحدة عصبة معادية للصهيونية مكلفة بالرد على حملات الدعاوة التي كانت تقوم بها المنظمات الصهيونية المسموح بها في القاهرة،لكن العصبة انطفأت بعد عدة اسابيع دون ان تكون تمكنت من الاقلاع . ورفضت ح د ت و المشاركة في مظاهرات الأخوان المسلمين : لم يكن عداؤها للصهيونية يتوافق مع عدائهم للسامية . كانت الحركة قد أيدت انشاء دولة ثنائية القومية تضم اليهود والعرب في ظل سيادة واحدة . وقد انضمَّت في نهاية المطاف الى خطة التقسيم التي وضعتها الأمم المتحدة وأيّدتها الدول الكبرى . كانت ح د ت و والحزب الشيوعي العراقي الحزبين الوحيدين في العالم العربي اللذين وافقا على وجود اسرائيل . هذا الخيار الذي سيسمح لهنري كورييل بأن يلعب حتى وفاته دوراً مهماً على صعيد مشكلات الشرق الأوسط ، لم يكن ناتجاً عن سَبْق إدراك سياسي خاص ، بل عن الموقف الذي اتخذه الاتحاد السوفياتي . كان اندريه غروميكو قد قدَّم بذاته مشروع التقسيم . وليس من شك في أنه لو اختار الكرملين الموقف المعاكس لانحازت ح د ت و الى هذا الموقف .

إذا استثنينا الأخوان المسلمين وبعض المجموعات المتطرفة ، لم يكن الشعب المصري يهتمّ بالموضوع . والمؤرخون يقدمون فرضيات متنوعة ، لا بل متناقضة احياناً ، حول الأسباب الفعلية للحرب . فبالنسبة للبعض ـ ولقدامى ح د ت و ـ اندفع الملك في المغامرة العسكرية تحت ضغط طبقة حاكمة مهتمة بأن تجد حجة لسحق الصعود المهدِّد للحركة الشعبية . ويقال إن فاروق ذاته أراد استعادة هيبة شدختها صرخات الهزء التي استقبلت المرات الأخيرة لخروجه العلني . كان كل المراقبين يفضحون الدسائس الانكليزية . فبالنسبة للبعض، كانت لندن تؤمن بانتصار سهل للجيوش العربية قادر على ازالة اسرائيل المُعَدَّة لتصبح أداة لمنافسيها الاميركيين في الشرق الأوسط . وبالنسبة لآخرين ، كانت انكلترا تتوقع النجاح الاسرائيلي وتتوج هكذا سياسية مؤيدة للصهيونية دشّنها وعد بلفور عام 1917 . في كل حال ، كان النزاع يحرف مصر عن مطالبتها بالسويس ويخلق في المنطقة، بؤرة مناسبة للمناورات . لم يكن لدى الجماهير المصرية الكثير من المبررات كي تتحمس لحربٍ دوافعها بعيدة كل هذا البعد عن مصالحها .

إن أسلاك ح د ت و الهوائية سمحت لها بالتقاط الإشارات المنذرة بالنزاع . فريمون اسطمبولي الموظف في شركة نفط ، كان سكرتير الرئيس ـ المدير العام صدقي باشا ، وثيق الصلة بالملك ، ورئيس الوزراء اثناء اضطرابات شباط 1946 ، وصاحب القوانين المناهضة للشيوعية (كان مدير الشركة يهودياً ايطالياً يعمل لحساب الاستخبارات الصهيونية . . .) . وقد أملى صدقي باشا على سكرتيره الشاب رسالة تنصح فاروق بعدم الانخراط في المغامرة العسكرية . وهكذا تمت معرفة ان فكرة المعركة موجودة . وكانت المعلومات الآتية من القصر تؤكد احتمالها . وقد نقل أحد الانصار خبراً مفاده ان فاروق يتذمر من أنه مضطر للانخراط في

القتال تحت ضغط انكليزي لا يقاوم . فأصدرت ح د ت و عدداً خاصاً من الجماهير تشرح فيه قرار الأمم المتحدة . ولقد تمَّ توقيف ابن الباشا المسؤول عن إصداره ، وأخلي سبيله في اليوم التالي ، لكن بدل التوبيخات المعتادة ، جرى تحذيره بصورة جافة : « هذا يكفي الآن . إننا نستعد للحرب . لم نعد نمزح » .

خَصَّصت الأعداد التالية من الجريدة للنضال ضد الحرب . ويؤكد ريمون اسطمبولي ما يلي : « لم نبع يوماً ذلك القدر من النسخ . وقد فجَّر الأخوان المسلمون قنبلة أمام مقر الجريدة وفي مسكن هنري لكن الجماهير كانت تتبعنا . لم يُهاجَمْ أي من موزعينا ، ولا حتى اعترض أحد على مهمته » .

ويقول جوزف هازان : « بعت مئات النسخ في الأحياء العمالية دون ان اتلقى ملاحظة واحدة . لم يكن الشعب يتمنى الحرب ولم يكن يرى ضرورتها لأنه كان ثمة حلّ دولي ، يؤيده الاتحاد السوفياتي والدول الكبرى » . من المؤكد ان مصر كانت البلد العربي الوحيد ، في عام 1948 ، الذي كان يستطيع فيه يهودي ان يوزِّع في الشارع صحيفة تنادي بوجود اسرائيل . وهازان لم يندهش لوجود هذا التسامح لشدة ما كان أمراً معتاداً . هو بالذات لم يكن وقع على العداء للسامية إلا في فرنسا ، في المدرسة الزراعية في غرينيون ، أثناء انتخاب الطلاب مكتب جمعيتهم . فحين انطرح التصويت على وظيفة امين الصندوق ، ارتفع صوت الجميع تقريباً : « اليهودي ! اليهودي ! » بات جوزف هازان هدفاً لكل الأنظار ، فذهل ، وفهم أنهم يقصدونه . فوجّه لكمة قوية الى أنف أقرب جار له ، الأمر الذي أشاع حالة من الحرج .

لكن الحرب سوف تغيِّر مصر ، التي هزمتها القوات المرتجلة لأمةٍ وليد أقلّ حجماً من حيث عدد السكان بخمس عشرة مرة . وقد احتفظت باحتقارها للقصر الملكي الذي عرف الناس بعد الكارثة بقصوره وبالأرباح الفضائحية التي حققها من تموينات عسكرية لم يجر استخدامها . وقد انصبَّ حقدهم على اليهود . كتب جان وسيمونّ لاكوتور ، المراسلان الصحفيان الدائمان : « للمرة الأولى في شوارع القاهرة ، سُمعت كلمة « يهود » مطلقةً كتهديد أو كشتيمة . هذا الاستعداد النفسي سمح للشرطة بأن تتحجج بالنضال ضد الصهيونية لإشاعة ارهاب لم يعط مثلاً عنه نظام محمد محمود ولا نظام اسماعيل صدقي . كانت حرب فلسطين منطلقاً لمعسكرات الاعتقال المصرية، ولممارسة التعذيب كوسيلة قمع واستعلام ، ولروح الوشاية المعتبرة عيباً مصرياً لكنها اتخذت آنذاك طابعاً استحواذياً . كان يختلط آنذاك بالفظاظة البوليسية التعصب العرقي ، والسادية كما لو ان وحدة الطريدة جمعت لفترة من الوقت رجال الشرطة المصريين ورجال الشرطة النازيين[1] » .

---

(1) المرجع المذكور ، ص 98 .

يقول ريمون اسطمبولي: « سقطت حرب فلسطين على رؤوسنا كهراوة . كانت تعني نهاية ما حلمنا به وبدأنـا نحققه . كنـا نعتبر أنفسنـا مصريـين ، حتى اذا كنا نسلّم بـأن المصريـين يعتبروننا أجانب . كان ذلك قد انتهى . لم نكن اجانب فقط ، بل يهوداً ، إذن اعداء ، طابوراً خامساً محتملاً . من منا كان يمكن ان يتوقع ذلك ؟ » .

لن ينهضوا أبداً بعد هذه الضربة النهائية التي أسقطهم التاريخ بها أرضاً .

* * * *

نصبت الشرطة شبكتها وقبضت على الشيوعيين بغتـة . وقد كتب هنـري كورييـل فيما بعد : « لا أتذكر أننا ناقشنا مـرة واحدة مـا قد يحصـل في 15 أيار ـ الحـرب ، وإعلان حـالة الحصار . . . كان التدبير الوحيد المقرر هو « توجيه النصح » الى القياديين بأن يبدلوا مسكنهم . وبهذا النوع من « الاستعداد » ليس من المدهش ان تكون هجمة الرجعية قد نجحت » . وهو يُلقي مسؤولية ذلك على الصراعات الداخلية التي كانت تمزق اللجنة المـركزيـة ، لكن معظم قدامى الايسكرا يأخذون على هنري كـورييل انعـدام أي فصل بـين الخلايـا وممارسـة يوميـة متعارضة مـع قواعـد السريـة الأكثر أوّليـة . « كان يثـير البلبلة في كل مكـان ، بسبب هوس الاحتدام والحماس في أية لحظة . مثلاً ، اذا بدا له حادث غير متوقع مبرراً لإصدار بيان ، كان يرسل أحداً الى المطبعة السرية دون المرور بالهيئات العادية . كان يلزم حماية المطبعة بأي ثمن ، ولكنها سقطت منذ اليوم الأول للحملة » . حتى المخلصون لهنري يسلّمون بأن مستوى الأمن كان قريباً من العدم لكنهم يلفتون النظر بحق الى ان عملاً ديمقراطياً جماهيرياً لا يتناسب إطلاقاً مع اجراآت أمنية صارمة . لا جدوى من المساجلة ، حتى إذا كانت محتومة في هكذا ظروف . لقد كان للشرطة رجلها في اللجنة المركزية ، ناهيك بالعملاء الذين سرّبتهم الى القاعدة: كان ذلك كافياً لتفكيك منظمة أقلّ قابلية للانعطاب من ح د ت و .

لكن أياً من مخبري كورييل في الدوائر القريبة من السلطة لم يتعـرض للملاحقـة وبقي قطاع الجيش الحاسم سلبياً في حين كان الهدف الأساسي للشرطة ، الأمر الذي يؤكد ان الأمن كان موجوداً حيث تختفي متطلبات العمل النضالي العلني .

بقي الملازم في المدفعية أحمد حمروش ، المسؤول عن عسكريي ح د ت و ، بقي في عمله بالقاهرة . وقد انطلق بشجاعة في عمل دعاوي ضد الحرب . وبما أنه كانت تنقصه مطبعة ، نظّم كتابة البيانات المعدّة للتـوزيع عـلى الوحـدات بخط اليد . وتجـرأ عثمان ، زوج ديـدار

روسانو، على جمع الجنود في باحة بيته ليشرح لهم عدم جدوى الحرب . وقد تم نقله الى قيادة فوج من السودانيين غير المعنيّين كثيراً بالأحداث (سرّحتهم القيادة قبل انتهاء المعارك) فدخل الى فلسطين وسط شتائم العرب الفلسطينيين الذين كانوا يصيحون : « حلّوا عنا . . . ! أنتم تريدون خراب بيوتنا ! » ومن نكد الحظ انه قاتل بشجاعة لكن أُصيب بجرح في قفاه ، وهو ما يعرض ضابطاً محترفاً لمزحات مضجرة في قاعة الطعام .

كان بدر بطولياً . فلقد كان كولونيله قد حضّ الوحدة المجتمعة حول العلم كي تكون على مستوى الحدث وتضحي دون حساب في خدمة الوطن . وقد أنهى تحليقه الغنائي بسؤال غير خطير : « من ضد هذا الكلام ؟ » فتقدم بدر خطوة الى الأمام ، وتأهب ، ثم قال بشجاعة : « أنا » . وحذا حذوه ميكانيكيان آخران عضوان في ح د ت و . ولم تمرّ ثوان ـ بدت دهراً للرفاق الثلاثة ـ حتى كانت الوحدة بكاملها تخطو خطوة الى الأمام .

كان هنري كورييل قد نجا من الحملة واختبأ في المعادي ، بضاحية القاهرة ، كما كان فعل عام 1942 تحت تهديد رومل . وكانت روزيت تراه كل يوم وتؤمن الاتصالات . ويعتقد رفاق هنري كورييل الى اليوم انه تعرض للتوقيف لأن ضابط شرطة ميّزه في السيارة التي كانت تسوقها روزيت إذ كان ماضياً الى موعد. لكن امرأته تروي قصة أخرى : « كنت قد ذهبت لجلبه من المعادي وكنا نجتاز ساحة الاسماعيلية . كانت سيارة شرطة خلفنا ، وكان هنري تعباً . فكل أصدقائه كانوا قد أوقفوا . قال لي : « كفاني تعرضاً للملاحقة . سوف أستسلم » . وقد طلب مني ان اتوقف . لم اكن افهم لكنه قال لي إنه يريد الانضمام لرفاقه في السجن ، وإن مكانه معهم . فأوقفت السيارة ، ونزل منها متجهاً نحو سيارة الشرطة ، التي أقلعت مجدداً ما أن استقر فيها . كنت يائسة . وقد ذهبت الى فيلا الزمالك لاعلام والديه ، اللذين اصيبا بالذعر . فهذه المرة ليس وارداً ترتيب الأمور بمخابرة من الوالدة . لقد جرى اعلان حالة الحصار والقوانين العرفية . لم يكن معروفاً كيف يمكن ان ينتهي كل ذلك » .

كورتلين أو كافكا ؟

لم تكن ثكنة العباسية القديمة في القاهرة مخيفة الا بسبب قذارتها . كانت الشرطة قد كدست فيها عدة مئات من المناضلين اليهود الصهاينة والشيوعيين الذين تآخوا دون تعقيد لأنه تلا المشادات الجدية فيما بينهم الاتفاق على خطة تقسيم فلسطين . يقول ريمون اسطمبولي : « لم اكن خائفاً لأني كنت أعرف حنان مصر . والواقع انه سرعان ما تعرضت السلطات لمشاكل . فباستمرار كان أمام الثكنة جمهور من الناس الذين كانوا يتظاهرون على الطريقة الشرقية ، أي أن العائلات كانت هناك ، في الأسفل ، مجهشة بالبكاء باتجاه الزوج والابن أو الأخ الذي كان يتحرك في النافذة . كانت هنالك بلبلة مخيفة . وقد وصل هنري في اللحظة التي كان المسؤولون

يحكون فيها رأسهم بعنف ليجدوا حلاً . وجاء الحل متمثلاً بقاعدة هوكستيب الجوية الاميركية القائمة في الصحراء ، على بعد 15 كلم من القاهرة ، وكانت قد اخليت منذ نهاية الحرب . كـان هنالـك أربعة أو خمسـة مبان قـرميديـة ، مع سـطوح من التول* ، محـاطـة بـالأسـلاك الشائكة » .

كان معسكراً . عام 1948 ، كانت هذه الكلمة ومضمونها يحيلان الى صـور عنيفة . لم يكن الحراس المصريون يرتبون شيئاً، مسترجعين اوشويتز وداشو**الى الذاكرة فيما هم يطلقون ضحكات دسمة . راحوا يعلنون بدون كلفة : « لن يخرج أحد منكم حيًّا ! سوف نبيدكم ! » كان الجو ينعطف بوضوح باتجاه كافكا*** . وإذا أردنا ان نكون أكثر ميلاً الى النثر نقـول ان المكان كان مَقيساً . في مرحلة أولى ، جرى تكديس ما بين عشرة موقوفين واثني عشر في غرف معـدة لاستقبال طيّـار واحد . لكن الأقسى من كـل شيء كان اكتشـاف المراحيض . فـوفقـاً للاستخدام على الطريقة الاميركية ، كانت تصطف من دون اي فصل فيـما بينها بحيث كـان ينبغي التبرُّز على مرأى من الآخرين . لم يكن يمكن الحياء اليهودي - المصـري ان يتوافق مـع ذلك الاختلاط ، لذا فإن هنري كوربيل كسب محبة الجميع حين مد أغطية بين المقاعد .

كان الجنود - الحراس متسامحين في نهاية المطاف واسترجعوا ذكرى أوشويتز دون التفكير بالايذاء ، لكن الفوج الذي كان يؤمّن المراقبة الخارجية للمعسكر سرعان ما أثار فضولاً مشوباً بالقلق . كان مؤلفاً من جنود فظّين ذوي هيئة خشنـة يتكلمون عـربية غـريبة . وكـان بعض الموقوفين يؤكدون انهم يمنيون ؛ في حين كـان آخرون يقـولون ان الـوحدة قـادمة من العـربية السعودية . وبعد أيام من وصول السجناء ، هاج الفوج وسُمِعت على الطائر كلمة « ثأر » . لم يكن أحد يفهم شيئاً . ومـا انفك الهيـاج ينمو في الخـارج ، والقلق في الـداخل . ثم تسلح المحاربون وهم يـزعقون واقتـربوا من الأسـلاك الشائكـة . وفي قمة القلق الشـديد ، ذُهـل الموقوفون وهم يرون قائد المعسكر وجنوده المصريين يهربون في الصحراء ، تاركين إياهم هكذا لجنون اولئك الغرباء الذين كانوا يريدون الانتقام من خصم مجهول . ويتذكر ريمون اسطمبولي فيقول : « اعتقدنا حقاً ان ساعتنا قد أزفت . فصرخ هنري : « علينا ان ندافع عن أنفسنا ، فلنقم المتاريس ! » فكدّسنا الطاولات أمام الأبواب والشبابيك ، وحطمنا الأسـرّة لنصنع من العوارض الحديدية هـراوات . وكان الآخـرون ما يـزالون يـزعقون ، وقـد بدأوا يتجـاوزون الأسلاك الشائكة ويصطدمون بالنوافذ . وفجأة ، رن الهاتف في مكتب الكـومانـدان ، فقال

* صفائح من حديد أو فولاذ (م)

** معسكران أبيد فيهما اليهود على ايدي النازيين (م)

*** روائي نمساوي صوّر قلق الانسان الحديث (1883-1924) [م]

هنري : « سوف أجيب » . وقد رافقته . كان المتكلم قائد شرطة القاهرة . فسأل : « من على الهاتف ؟ » - « هنري كورييل » . فاختنق صوت الآخر : « هنري كورييل ؟ هنري كورييل ؟ كيف هذا ؟ اين الكوماندان ؟ » . فصاح هنري : « الكوماندان ولّى الأدبار . وهنا فوج من العرب [!] يهاجمنا ، ونحن نستعد للدفاع عن أنفسنا . إن دفاعنا لا أمل منه لكني احذركم بأن موتنا سيثقل ضميركم وستؤدون حساباً عنه ! » - « دافعوا عن أنفسكم ! واصمدوا فأنا واصل مع تعزيزات ! » وقد جاءت التعزيزات وأنقذتنا . . . كان قد جرى نقل الفوج . وفيما بعد عرفنا أنهم علموا بالهزائم العربية في فلسطين وأنهم كانوا يريدون الانتقام منا . . . »

لحسن الحظ ان كورتلين حلَّ محلَّ كافكا . كان قائد المعسكر ، وهو ضابط برتبة مقدّم ، حيوان في الشؤون العسكرية ، كان يتعهد عائلة كبيرة العدد ولا يقبض اكثر من معاش هزيل مقداره 35 جنيهاً في الشهر . وقد لعب ضده موقوفون صهاينة ، وكانوا أثرياء لكن يركبهم سوء حظ عنيد في البوكر ، فخسروا مبالغ كبيرة ، بحيث ان عنبرهم استفاد فحصل على الكثير من الحلوى . كان قد جرى توزيع السجناء على أساس فئات ثلاث : يهود شيوعيون ، يهود صهاينة ، وشيوعيون مصريون . وكانت تتجمع إذن في العنبر الأول شتى مكوِّنات ح د ت و . إلا أن التوقيف لم يمحُ الفروق . فسرعان ما مُدَّت قماشة عبر العنبر ، جاءت لتجسّد التضاد الصارم . لم يعد هذا التضاد قائماً على المستوى السياسي بل على أساس طريقة استخدام حياة الأسْر . ففي حين كان البعض ينظر اليها على أنها فصل ملائم للراحة واستجماع النفس ، فينام الى الضحى ويحسِّن طعام المعتقل بفضل الرزم المرسلة من الأهل ، كان الكورييليون يتبعون البرنامج المتقشف جداً الذي وضعه هنري في الحال مستفيداً من الحيوية الشيطانية التي وفرها له الاعتقال ، هذا البرنامج الذي تتناوب فيه التمارين الرياضية والدروس النظرية . كانت وجبة الطعام ، البسيطة ، هي وجبة المعسكر، وتتألف من الخبز والجبن والحلاوة الممزوجة بالسمسم . لكن تحسّن الأكل بسرعة بفضل جوزف هازان .

بعد انطلاق مدوٍّ لهازان ، تميّز بنجاحه في غرينيون وببدايات واعدة كمهندس زراعي ، تعرض لامتحان رهيب . ففي عمر الثانية والعشرين ، لم يحصل على العناية اللازمة بعد ان التهبت زائدته ، فأصيب بالتهاب الصِّفاق . وقد اجريت له عملية في اللحظة الأخيرة ، فبقي بين الحياة والموت لمدة أشهر ، إذ فشل الأطباء في إزالة الالتهاب .

« أمضيت ليالي وليالي من الاحتضار وحرارتي 41 درجة . كنت أعرف انهم يعتبرونني ميتاً . كنت أجلس في سريري ، متمسكاً بقضبانه وقائلاً في سري : « لن تموت هذه الليلة . أصمد على الأقل حتى صباح الغد» . كنت قد دخلت المستشفى عام 1939 ، ولم أخرج منه إلا في بداية عام 1943 . » لقد انقذته صلابته الطبيعية . فلقد كان طويل القامة ، متيناً ، وكان أحا

أفضل لاعبي كرة السلة في القاهرة . لكنه غادر المستشفى وهو من الضعف بحيث لم يجد عملاً . لم تكن هناك شركة تقبل تحمّل مخاطر تشغيله . « عشت عالة على أبي عدة سنوات وقد جعلني ذلك أحقد على البطالة . غدوت النعجة الجرباء في العائلة . رحت أراهن على الخيل وأتاجر بها . كانت أخواتي الثلاث شيوعيات . وقد طلبت الانتساب فشرحوا لي أني لست من النوع المرغوب فيه في الايسكرا . أخيراً ، جاؤوا بحثاً عني قبل الوحدة مباشرة : كانت الايسكرا تجمع ما في متناول يدها لتضخيم عدد أعضائها . لكنهم لم يجدوني مثقفاً كفاية وحوَّلوني إلى ح م ت و . »

كان لقاؤه الأول مع هنري كورييل مخيباً للآمال . الا أنه تعلَّم أن يقدره خلال العمل النضالي . ولقد انعقدت حقاً أواصر صداقتهما في هوكستيب ، هذه الصداقة التي صمدت مذاك . كانا يشكلان ثنائياً فعالاً لأنهما كانا يكملان أحدهما الآخر . فجوزف هازان كان يملك حساً عملياً وسهولة غريزية في التعامل مع الأشياء والكائنات. وفيما بعد ، سيكون الرجل القادر على تنظيم مؤتمر يضم فلسطينيين واسرائيليين ، وهو أمر ليس بالسهل . في هوكستيب ، تولى مسؤولية تموين المعسكر . ذهب إلى المعتمد المصري وقال له دون لف أو دوران : « كم تكسب من إطعامنا ؟ » فأجابه الآخر بصورة طبيعية : « اصرف ثمانية واحتفظ باثنين . » فقال له هازان : « ممتاز . من الآن وصاعداً ، تستمر في أخذ الأثنين ، وتعطيني الثمانية . انا اتكفل بكل شيء ، وأنت لا تعود بحاجة للعمل . » وبموجب هذا الاتفاق ، لم يتحسن فقط طعام المعسكر ، بل حقق هازان أرباحاً لبَّت حاجات رفاق نجوا من حملة الاعتقالات واختفوا في العمل السري . كان المسؤول عن المطبخ في المعسكر صاحب مطعم يونانياً ودوداً من السويس ، وهاوي راديو ، وصل إلى هوكستيب لأنه اراد تعلم العبرية ليقرأ التوراة في نصها الأصلي . كانت الشرطة تلقت وشاية بحقه ففتشت بيته ووجدت محطة إرسال ونصوصاً بالعبرية ، فاستنتجت انه جاسوس اسرائيلي .

كان البريد السري الخاص بالمعتقلين يخرج من المعسكر بفضل سائق قائد المعسكر ، الذي كان يكسب منحة شهرية بهذه الطريقة . وقد حسَّن هازان واسطمبولي وتلميذ قديم في البوليتكنيك الاتصالات بأن أمَّنوا خطاً محوَّلاً عن خط الهاتف الأساسي ، فأمكن هكذا سماع كل المخابرات مع سلطات القاهرة وحتى الاتصال عند الحاجة بواسطة الهاتف . كان المكلف بترتيب عمليات الفرار قد اتخذ التدابير الضرورية مع بعض الحراس . سيتم الخروج من المعسكر بدون صعوبة ، لكن المشكلة الحقيقية ستكون العثور على مخابىء في القاهرة والاسكندرية .

ثم عـرف هنري أن روزيت تعـرضت لاعتداء وتم تـوقيفها ـ دائـماً هذا التنـاوب المؤلم للدراما والكوميديا .

كانت تريد تمرير ثياب لزوجها . وكان ضابط من المعسكر حدد لها موعداً في الصحراء كي تسلمه الرزمة . وفي اليوم المحدد ، عرفت روزيت ان المكـان قد أُعلن منـطقة محـظَّرة . فقررت عدم أخذ ذلك بالاعتبار . وكانت النتيجة أن اوقفها أحد الحراس . أودعـت في حجرة صغيرة بحراسة جندي، في حين ذهب منيستدعي أحد الضباط. في هذا الوقت هاجم الحارس روزيت وحاول اغتصابها . إلا أن صيحات الاستغاثة التي اطلقتها نبهت بعض الضباط الذين خلعوا الباب . وقد أوقف الجندي وحكمت عليه المحكمة العسكرية بـالسجن ستة أشهـر . لكن أُبقيت روزيت هي الأخرى قيد التوقيف، وقد شرحوا لها أنه لا يمكن يهودية أن تتسبب بالحكم على جندي مسلم والبقاء دون عقاب . وبالنسبة لمناضلة كـانت قد تعـرضت لمخاطـر حقيقية ، لا سيما اثناء مساعدة الفرقة اليونانية المتمردة ، كان يعني ذلك السقوط بناء على سبب بالغ التفاهة .

جـرى احتجازهـا في البدء في سجن الأجـانب ، وكان فيـلا نـظيفـة لا تشكـو إلا من الازدحام . وقد انضمت روزيت إلى ثماني سجينات في غرفة مساحتها 12 م^2 . وكانت ثلاث من زميـلاتها منـاضلات شيـوعيات (من بينهن من ستصبـح زوجة ريمـون اسطمبولي)؛ أمـا الأخريات فكن عميلات أصيلات للمخابرات الصهيونية .

بعد مرور أيام على ايداعها السجن ، فـوجئت برؤيـة هنري يصـل إلى السجن ذاته ، وكانت مفاجأة سعيدة .

*

* *

أكدت هدنةٌ أولى الهزيمة العربية في فلسطين . وكان الاسرائيليون حددوا كشرط لوقف الحرب إطلاق سراح كل اليهود المعتقلين . وقد طالب سجناء هوكستيب باحترام هذا البند في رسالة مفتوحة إلى رئيس الـوزراء ؛ واستطراداً ، طـالبوا بقمـع جدي لـلاعتداآت المنـاهضة للسامية بواسطة القنابل ضد الجالية اليهودية في القاهرة ، هذه الاعتداآت التي كان الجمهـور ينسبها إلى الاخوان المسلمين . وقد بدأ هنري كورييل وستة عشر من رفاقه إضراباً عن الطعام دعماً لهذين المطلبين .

سـوف يكتشفون بعـد خروجهم من المعسكـر عدم عـدالة المـطلب الثاني . فـالغالبيـة

الساحقة من يهود مصر لم يكونوا يحسون بأنهم معنيون بحرب فلسطين أكثر من الشعب المصري . (يضيف الزوجان لاكوتور بحق ، في الوقت نفسه الذي يلاحظان فيه أن النزاع حقن أوردة البلد بـ « سم العنصرية » : « لا ينبغي مع ذلك تضخيم قوة الموجة التي اكتسحت مصر آنذاك ، وتخيُّل انها بعنف اللاسامية الأوروبية . يمكن حتى أن نقول إن الشعب المصري برهن من جديد على نوع من التسامح حين لم يجعل الأقلية الاسرائيلية تعاني بصورة أقسى من انعكاسات حرب فلسطين[1] . » والمعاملة الحسنة التي لقيها المعتقلون تؤكد صحة كلامهما .) وبالنسبة لليهود ، أكانوا من البورجوازية الكبرى المتأوربة* أو من الجمهور البائس المتكدس في حارة اليهود ، فهم كانوا يشعرون بالحرب على انها كارثة . وإذا استثنينا الأقلية الصهيونية ، لم يكن أحد يشعر بضرورة وجود دولة يهودية ، ولم يكن ثمة شعور بالحاجة لانشاد « العام القادم في أورشليم » ، إذ كان يكفي ركوب قطار العاشرة إلا ربعاً للذهاب إلى هناك . إن الأكثر بُعْدَ نظرٍ بين يهود الشرق ، الذين هزتهم المحرقة بعنف لكنهم نجوا منها ، فهموا فوراً أن إرادة إخوتهم في الدين الأوروبيين الناجين من المجزرة أن يقيموا موطناً لهم كانت تدق نهاية الطوائف السفاردية التي عاشتِ منذ قرون بسلام في العالم العربي . هكذا سيكون الضحايا الأولى لخلق اسرائيل الفلسطينيون المطرودون من وطنهم ؛ أما الثانون فسيكونون اليهود الشرقيين المحكوم عليهم في مدى يقصر أو يطول بهجرة جديدة . ولقد لجأت الأجهزة السرية الصهيونية ، الواعية لقلة حماس يهود القاهرة أو بغداد للالتحاق باسرائيل ، إلى تسريع الحركة عن طريق حملة اعتداآت بالمتفجرات ، الهدف منها إقناع الأكثر تحفظاً باستحالة البقاء في البلدان العربية . أما إخوتهم في الدين ، الذين لم يشتبهوا بهكذا ماكيافلية ، فنسبوا الانفجارات إلى التعصب الاسلامي ، حتى مجيء اليوم الذي جرى فيه اكتشاف الحقيقة ، الأمر الذي أثار في اسرائيل فضيحة سياسية جدية .

تسبب الاضراب عن الطعام بالآلام المعتادة ، لكنه أعطى المسجونين فرحاً غير متوقع : لقد نشرت البرافدا رسالتهم إلى رئيس الحكومة . كانت تلك هي المرة الأولى التي يشير فيها الاتحاد السوفياتي الى وجودهم . تلزم بداية لكل شيء . أما السلطات المصرية ، فأثّر فيها الاضراب لا سيما أن كورييل نظّمه كاختصاصي حقيقي . فبدل أن يرضخ لاغراء الاثارة عن طريق خرط كل المتطوعين دفعة واحدة في الاضراب ، مع ما يعنيه ذلك من خطر تنفيس العمل كلما تراجع من هم أكثر ضعفاً ، كان التكتيك يقضي ببدء الاضراب بحفنة من الرفاق ـ الأشد عزماً والأكثر مقاومة ـ على أن ينضم اليهم الآخرون وفقاً لمهل محددة سلفاً . هكذا وجدت

---

(1) مرجع مذكور ، ص 98 .

* نسبة إلى أوروبا (م) .

السلطات نفسها بمواجهة حركة تتوسع وتتعزز بلا انقطاع . وإذ خشيت الحكومة ما هو أسوأ قررت عزل القياديين . هكذا جرى نقل هنري كورييل وجو ماتلون وداوود ناحوم وأرمان سيتون على ظهر شاحنة (كان كورييل عاري الصدر لكن لا ينفك يرتدي شورته المشهور) واقتيادهم إلى القاهرة . كان قد جرى وعدهم بتدبير مقابلة لهم مع وزير الداخلية ، لكن تم استبدال ذلك بتوزيعهم على مفوّضيات مختلفة ، حيث ناموا في زنزانات وسخة ، قبل أن يجري إرسالهم إلى سجن الأجانب .

كان مدير السجن رجلاً ممتازاً . وتقدر روزيت ، التي كان يشعر نحوها بالود ، أنه : « كان يتصرف ككبير خدم أكثر مما كسَجّان . ففي كل يوم ، كان يأتي ليسألنا عن حاجاتنا ورغباتنا . وكانت الناظرات يرتجفن خوفاً لأنه كان يعطينا الحق دائماً إذا نحن شكونا . » ولقد احتفل هذا المدير الطيب بهنري ، الذي كان نزيلاً عنده في السنة السابقة ، وبذل كل ما في وسعه لارضاء الزوجين ، اللذين كان يتخلى لهما طوعاً عن مكتبه لأجل فترة من العلاقات الحميمة . وحين فاجأ هنري يقوم بغسل الصحون ، كان تأثره المتشكك تأثر مدير فندق كبير يجد زبوناً أميرياً وهو يغسل الأواني في المطابخ . . . واللمسة المثيرة الملازمة لمرور هنري كورييل على السجن قدمها ثلاثة ألمان فارون من الفرقة الأجنبية كانوا قد غطسوا في السويس من المركب الذي كان ينقلهم إلى الهند الصينية . لقد هدى هنري هؤلاء النازيين القدامى إلى الشيوعية ، وفي كل صباح ، كانوا يدورون في ساحة السجن بخطى موقّعة ، خلف علم أحمر ، وهم ينشدون **النشيدالأممي** بالالمانية . وقد تولّى أحدهم ، وهو من قدامى مظليي الصاعقة ، إعطاء رفاقه الجدد دروساً مفيدة في معارك الالتحام . ولم يكن هناك مثيل لأرمان سيتون في الغطس من فوق طاولتين موضوعتين جنباً إلى جنب وتلقيّ نفسه دَحْرَجَةً .

ثم أعيد القادة الأربعة إلى هوكستيب . كان ذلك نصراً . وقد احتفل بهم المعتقلون في عيد انتهى نهاية سيئة : أمر قائد المعسكر ، المتضايق ، الجنود بأن يوسعوا المعتقلين لكماً . ومن الغريب أن الأمر لم يُطَبَّق إلا على المعتقلين المصريين . وقد شهد رفاقهم الاجانب التأديب ولديهم الشعور المحبِط بأنهم في غيتو أوروبي حتى داخل معسكر الاعتقال .

أصيبت روزيت بالسل فانتقلت إلى مصح حلوان على بعد عشرين كيلومتراً من القاهرة . وقد فُصل شرطي بالبزة النظامية لمراقبتها . وسوف يمضيان عامين معاً في المصح . « كان مكاناً مترفاً للغاية : فلدينا جنينة كبيرة معتنى بها بصورة ممتازة ، وغرف مريحة وصالون رائع . كنت أمضي أيامي بالتطريز ، وسماع الموسيقى وقراءة الروايات الفرنسية ـ بالزاك ، ستاندال ، زولا ، مورياك ، جيد . وكان من حقي استقبال زوار : أبي وأمي ، وأهل زوجي ، وأصدقائي . الشيء الوحيد الذي لم يكن في وسعي هو الخروج . »

توفي والد زوجها في شهر تشرين الثاني 1948 . كان يائساً . هذا الرجل الذي سوف يلمّح المشهّرون لاحقاً بهنري إلى انه ربما كان « غواصة » شيوعية تقوم بأعمال سرية لكن مثمرة مع الاتحاد السوفياتي ، لم يتحمل فرار ابنه البكر راوول ، ولا خيانة ابنه الأصغر . ولقد شكل احتجاز هنري في هوكستيب الضربة القاضية بالنسبة إليه . ووفقاً للمقربين جداً ، فهو قد رفض أن يفعل أي شيء لصالح السجين ، وحتى أن يذهب لرؤيته ؛ إلا أن روث غريش تتذكر أنها رافقت الرجل العجوز إلى هوكستيب وإلى سجن الأجانب . لكن أصدقاء العائلة مجمعون على القول : « مات من الحزن » . لا شك أن التزام هنري السياسي لعب دوره ، لكن أبعد من هذا الإحباط الخاص ، كان دانييل كورييل من الذكاء بحيث فهم أن حرب فلسطين قلبت الصفحة الأخيرة لوجود اليهود في مصر على امتداد قرون . كانت فرنسا وطنه المختار عاطفياً وثقافياً ، إلا أن جذوره كانت في مصر ، وكانت العربية لغته الأم وهو لم يتصور يوماً أن يترك ضفاف النيل ، مهد طفولته . مات من دون آلام جسدية . وقد أجّرت زفيرا فيلا الزمالك لسفارة أجنبية وأقامت في نزل عائلي بانتظار عودة هنري .

رفض إطلاق سراحه وسراح رفاقه . فمصر رفعت تدابير الحجز ، تنفيذاً لبنود الهدنة . فأخلي سبيل السجناء الصهاينة ومضوا إلى اسرائيل . أما هنري كورييل فأعلن للسلطات أنه هو وأصدقاؤه لا يريدون أن يدينوا بحريتهم لهزيمة مصر . لن يغادروا المعسكر إلا بقرار من القاهرة وليس بموجب أمر من تل أبيب . وكان الموقف قابلاً للدفاع عنه ، من الناحية السياسية . وهو يندرج في خط التماهي الوطني الذي دافع عنه كورييل منذ دخوله عالم السياسة . إذا كان اليهود الشيوعيون يريدون الحفاظ على امكانية عمل في البلد ، عليهم أن يتمايزوا عن اسرائيل مهما يكن الثمن . لكن السيف كان قد سبق العذل ، مثلما لن يتأخر المستقبل في إثبات ذلك ، وسيأسف هنري كورييل طيلة حياته بسبب خطأ في الحساب عبَّر عن نفسه في ثمانية أشهر اضافية من الاعتقال : « أنا مسؤول عن ذلك بفعل الدونكيشوتية . كانت تلك حماقة لا أزال أحس بالندم بسببها . » لقد وجدت السلطات موقفه ملائماً للغاية ، فأبقت قيد الاعتقال كل اليهود الشيوعيين الذين كانت تعرف انهم ، خلافاً للصهاينة ، لن يغادروا البلد فور اطلاق سراحهم ، بل سيستأنفون نشاطاتهم المزعجة .

جاء دور الأخوان المسلمين ليخلقوا المشاكل . لقد أثارت الهزيمة العربية سخطهم فأثاروا اضطرابات كانت ذروتها اغتيال رئيس الوزراء المصري ، الأمر الذي أدى إلى قمعهم . أوقف المئات منهم ، وانضمَّ قسم من هؤلاء إلى الشيوعيين في هوكستيب . يقول ريمون اسطمبولي : « قال لنا هنري إن ¹ . فرصة رائعة للاتصال بهم ، وإقامة علاقات بين إنسان وإنسان . لم نكن شديدي الحرارة . لا بل خفنا على حياة هنري حين ذهب ليتحدث معهم للمرة الأولى .

حصلت الاتصالات الأولى على قاعدة مادية . أعطيناهم صورة عن تجربتنا : تنظيف المراحيض (عينَّ هنري « ديكتاتوراً عسكرياً » للسهر على نظافتهم) ، تقديم الماء الحار ، التفريع الحاصل على هاتف قائد المعسكر والتنصت على مخابراته ، الفبركة الجارية لجهاز استقبال . وقد اصغوا الينا . لا شك أنه كان بيننا فرق كبير على مستوى الذهنية ، لكنهم تأثروا . وعلى سبيل الشكر ، دعونا إلى حفلة تحشيش كبرى ـ كان قائد المعسكر هو الذي يقدم الحشيش . وقد اذهلهم رفضنا . لم يكونوا يفهمون . فشرح لهم هنري أن هذه مسألة مبدأ : لا يمكن أن يخاطر المناضل بأن يجد نفسه في حالة نقص . فأجابه زعيم الأخوان : « اصغ إلي ، لقد مررت بكل سجون مصر . وقد حصل أن افتقدت الخبز لكني وجدت الحشيش دائماً . »

« جرت الأمسية بدوننا لكن الحوار كان قد بدأ . كان أحد رفاقنا شيخاً أزهرياً اهتدى إلى الشيوعية . وكان هنري طلب منه أن يتخصص في البحث عن الأسس الجماعية في الاسلام . في البدء ، كان الاسلام دين قبائل بدوية يمر بقاؤها على قيد الحياة بالحياة الجماعية . وكان قد بدأ للتو كتاباً بعنوان **التراث الثوري في الاسلام** . وبفضله تمكنّا من الدخول في نقاشات على أعلى مستوى اسلامي مع الاخوان . أعطيناهم دروساً في أصل الملكية العقارية في مصر (جرى تنظيمها وفقاً للنموذج الفرنسي لعام 1875) ، وحول نظام الري في الدلتا ، الخ . ولقد هزّهم حقاً كل ما كنا نعلمهم إياه ، إلى حد أن مسؤوليهم بدأوا يريدون التباعد لحماية رعيتهم من العدوى . هذا كان هنري . كان تأثيره الأدبي عظيماً ، في كل الأوساط ، وكان لديه حسٌّ للحوار لم أعرفه لدى أي شخص آخر . بفضله ، عشنا في المعسكر علاقات أخوّة خارقة . لن أنسى أبداً تلك الأعياد الليلية التي كانت تنظمها لجنة أوقات الفراغ . كنّا نحيي سهرات طويلة تحت النجوم . فيعزف اليونانيون على الغيتار . ونتكلم نحن . كان هناك بيننا شيوعيون إيطاليون يقصون علينا قصص المقاومة ضد الفاشية . وكان الصهيونيون يشرحون الكيبوتزات ـ أدرك الكثير من المسلمين أن الاسرائيليين شعب كالشعوب الأخرى ، مع صراع طبقات وشرائح تقدمية . كان هنالك بيننا تواصل رائع . » سنتان من حياة المعسكر ـ لا بل المعسكرات : سيعرفون 14 مكان اعتقال على التوالي ، وسيكون ذلك اكثر الأشياء إيلاماً لأن الخوف من المجهول يطارد السجين . ففي كل مرة ، كان ينبغي التخلي عن العادات المكتسبة ، والتكيفات المستحصل عليها نتيجة نضال شاق ، وسَبْرغور الادارة الجديدة ، وإعادة بناء شبكة الاتصالات بالخارج . (في عيون موسى ، في صحراء سيناء ، وصلتهم المعلومات الأولى بفضل رسائل زوجة شحاتة هارون . كانت مكتوبة بالفرنسية واضطر المحامي لقراءتها بالعربية أمام قائد المعسكر ، بطريقة « الرقابة الشفهية » . فشحاتة ، شهرزاد عصرنا ، كان يخترع فقرات شهوانية تمتع الضابط ، بحيث سارت المراسلة على قدم وساق .

سنتـان لم تكونـا بالتـأكيد حيـاة في الجحيم ، بفضل مـا يسميـه ريمـون اسـطمبـولي « الحنـان المصري » . فانتهاك النُظُم والتسهيلات المقدمة للمعتقلين لا يمكن عزوها بشكل أسـاسي إلى روح الارتزاق عند المسؤولين، حتى وإن كانت موجودة ، بل إلى انعدام العداء لدى الحراس حيال سجنائهم . لقد مرت سنتان من الحرمان من الحرية ، ومن الحرمان الجنسي ، ومن عدم وجود وسائل الراحة ، ومن قساوة المناخ ـ كان المعسكر الأخير على ضفاف البحر الأحمر حيث الحرارة الشديدة ؛ سنتان من النضالات المتواصلة ، التي تتخللها اضرابات عن الطعام بالغة القسوة لا سيما أن سلطات القاهرة ، التي روضتها العادة ، باتت مذاك تنتظر الأسبوع الرابع لتنظر بهدوء في المطالب .

لقد احتفظ الجميع بذكرى مفعمة بالحنين من تلك الفترة الـطويلة من حياة السجن . كانت فترة تأمل سياسي مكثّف ، واغتناء شخصي بحيث أن معظم السجناء خرجوا وقد لحق بهم التغيير ؛ وكانت بوجه خاص فترة إخاء ، كانـوا يدينـون به لهنـري كوريـيـل : كان روح تآلفهم ووحدتهم . لقد جرى الحديث عن الأخطاء المحتملة للقائد السياسي ، ونقاط ضعفه ، والازعاج الشديد الذي كان يمكن أن يثيره . لكن إذا التـزمنا بـدقة بكشف الحسـاب هذا ، نتعرض لمخاطر التعتيم على اشعاع الرجل . يستحيل علينا أن نفهم أي شيء في حياته إذا نسينا أن خصومه السياسيين بالذات (لا نتكلمنَّ على أعدائه : لقد حقدوا عليه دون أن يعـرفوه) كانوا يميزون بين الانسان والقائد . فهيلل شوارتز ، الذي كان قد تشاجر معه بقساوة ، كـان من بين الذين واكبوا نعشه إلى الـ بير لاشاز* : « كنت مضروباً على رأسي . لا شك أنه كان يجمعنـا تاريـخ مشترك ، وأن هـذا التاريـخ توقف هنـا . لكن يجب معرفـة كوننـا بقينا دائـماً صديقين ، حتى إذا كنا عارضنا أحدنا الآخر على الدوام . حتى وفاة هنري ، كنت أعرف أن في وسعي طلب خدمة منه ، والاعتماد عليه لحل مشكلة شخصية أو عائلية . كنا نعرف ذلك جميعاً . لقد كان هكذا . » لا قرار اتهام واحد ضده ، ولا خطاب تقريع وهجاء واحد ، الا ويتوقف للاعتراف بتأثر بأن كورييل المقيت ، الـذي أُجْهضت الثورة المصـرية بسببـه في حين كانت في متناول اليد (وهذا التأكيد مُرْفَقٌ بالقَسَم) ، عـرف أن يجد في ظـرف خاص صعبٍ البادرة الاخوية والكلمات المعزية . هل كان رجل شبكةٍ سرية ؟ سـوف يحاول المشهرون به لاحقاً أن يثبِّتوا هذه الصورة عنه . والواقـع أنه فشـل في مصر وفي فرنسـا في فرض نفسـه في الميدان السياسي المؤسسي : كانت الشروط التاريخية تعـاكسه . وحتى لـو كانت مـلائمة فـربما كانت شخصيته حالت دون أن يصبح رجل سياسة بالمعنى الكلاسيكي للكلمة . كان مكوّنـاً للجماعات الضيقة ، المتلاحمة إلى أبعد الحدود ، التي لا يتوقف كل مناضل فيها عن أن يكون

* مقبرة فرنسية في باريس (م)

شخصاً . ووفقاً لحكم أصدقائه الشيوعيين ، لم يكن رجل الأنفاق ، بل مسيحيَّ سراديب الموتى . كان المعسكر يمثل بالنسبة إليه المكان المختار حيث لا يكون النجاح المشترك ممكناً إلا لقاء انتصار كل واحد على ذاته . ولم يكن في وسع المناضل الاستمرار فيه طويلاً إلا إذا اجتهد الانسان في أن يكون في أحسن حالاته .

ثم تفتتت الجماعة ؛ كانت الحكومة تقترح على اليهود الشيوعيين اطلاق سراحهم بشرط الرحيل النهائي عن مصر . وما فائدة العناد في حين كانت المشكلة الاسرائيلية ـ العربية ، المعدّة لتكون بالغة الطول ، تحول بينهم وبين عمل نضالي كبير؟ كان هنري كورييل بالذات يعترف بأن يهود مصر الشيوعيين أنجزوا دورهم التاريخي . وقد اجتاز الرفاق البّوابة واحداً بعد الآخر ، وعلى كتف كل واحد منهم صرَّة ثيابه ، في حين كان المستفيدون من التأجيل ينشدون **النشيد الأممي** و **ce n'est qu'un au revoir***. كانت التعليمات تقضي بالذهاب إلى أحد الكيبوتزات والنضال داخل الحزب الشيوعي الاسرائيلي . وقد تصرف البعض بموجبها ، لكن معظم الخارجين من المعتقل التقوا مجدداً في فرنسا ـ « فرنسا الناعمة » حسب تعبير هنري الساخر .

وقد بقي ثلاثة : هو بالذات ، وجو ماتالون ، وشحاتة هارون . وُضعوا مع الشيوعيين المصريين الذين لم يكن يرتسم بالنسبة إليهم أي أفق إطلاقٍ لحريتهم . لكن كان يمكن انتخابات كانون الثاني 1950 أن تعيد الوفد إلى السلطة . فأرسل المحتجزون آلاف الرسائل من المعسكر تدعو للتصويت لصالح الحزب القومي القديم . وقد انتصر الوفد . إلا أن الأمور بقيت على حالها بالنسبة للسجناء . لزمت تظاهرات شعبية ، متواضعة من حيث حجمها لكن عنيدة ، كي تتجرأ الحكومة الجديدة فتعاكس ارادة الملك فاروق بالابقاء على الشيوعيين داخل السجون .

اجتاز الثلاثة الذين لا يُقْهَرون ورفاقهم بوّابة المعسكر بدورهم .

*

* *

كانت روزيت قد شفيت منذ وقتٍ طويل من اصابتها بالسل ، وخرجت من المصح ـ السجن في 6 أيار 1950 ، ومعها الشرطي المكلف بحراستها منذ عامين . وقد عادت الى

---

* ليس هذا أكثر من إلى الملتقى (م)

القاهرة فوجدت نفسها لوحدها ، وأصدقاءها مشتّتين ، الأمر الذي حداها على العودة برضاها الى المصح حيث باتت لها عاداتها . وقد حصلت على الموافقة . يا لمصر الوديعة . . .

كان اجتماع شملها مع هنري محيِّراً . فبدل السجين الزائغ الذي كانت تستعد لتحضنه ، اكتشفت رجلاً قوياً مرتفع المعنويات ، وقد صلَّبته التمارين الرياضية ، ومنحته شمس البحر الأحمر اللون البرونزي ؛ لم تكن رأت زوجها يوماً في مثل ذلك الشكل . وقد استعادا مسكنهما الذي كان وُضع تحت الحراسة ، وغطس هنري من جديد في حياة النضال .

كانت ح د ت و ممزقة شرَّ تمزيق ؛ فأصدقاؤه اليهود رحلوا إلى فرنسا ؛ وخدَّرت صدمة القمع العديد من المناضلين المخلى سبيلهم . وكان هنري توقع كل ذلك ، هو القائل في المعسكر : «من السهل أن يبقى المرء ثورياً هنا لأننا معاً . لكن لدى الخروج ستبدأ المشاكل، حين يصبح كل واحد لوحده . »

كان قد وضع استراتيجية . فلتحرير المناضلين من الخوف الذي يشلُّهم ، كانت خطته تقضي بإعادة تنظيم النشاط انطلاقاً من مشروع تقدمي عريض . كان نداء ستوكهولم ضد القنبلة الذرية يحرك العالم ، وقد جعل حركة السلام تبصر النور . لم يكن في وسع حكومة الوفد أن تقمع منظمة سلمية تطوِّع مئات الألوف من الأعضاء في كل البلدان . إن فرعاً مصرياً لحركة السلام سوف يُعيد تعبئة الشيوعيين المصريين ويَجْعل الشرائح التقدمية تنضم إليهم ؛ واستطراداً سوف يُخْرجهم ذلك من عزلتهم الدولية ويقدم لهم الاعتراف الذي غالباً ما طالبوا به ولم يحصلوا عليه يوماً من المعسكر الاشتراكي .

كانت الحسابات صحيحة ، ما عدا أنه إذا كانت السلطة بدت في الواقع عاجزة عن إخماد النجاح الفوري للحملة من أجل نداء ستوكهولم فلقد أثبتت قدرتها على التخلص من المحرض .

كان الثمن باهظاً ، وإذا كانت السلطة قبلت بأن تدفعه فلأنها كانت تقوِّم تقويماً عالياً مقدرة هنري كورييل على الايذاء . لقد كانت مصر تتمتع بسمعة تستحقها ، هي أنها دولة قانون لا ترضخ أجهزتها القضائية أمام السلطة أكثر من حال مثيلاتها في فرنسا أو إيطاليا أو أقل إلا أن إرادة فاروق الخلاص من كورييل أجبرت قضاته على التوآت لا تتناسب مع سمعتهم وكرامتهم .

كان قد صودر منه جواز سفره المصري عام 1942 خلال أول توقيف له . وكان أقام دعوى لاستعادته ، الأمر الذي كان يستتبع الاعتراف بجنسيته المصرية . وكانت المحكمة قضت بعدم صلاحيتها ، لكن محكمة الاستئناف اعطته الحق ، لا بل حكمت له بعطل

وضرر . وحين راجعت السلطة محكمة التمييز عام 1950 ، عمدت هذه إلى كسر حكم محكمة الاستئناف وأعلنت بطلان اكتساب الجنسية المصرية عام 1934 بحجة أن كورييل لم يتخلّ بصراحة عن الجنسية الايطالية . كان ذلك قلباً للاجتهاد رأساً على عقب ، يعيد النظر بتجنيس آلاف الايطاليين الذين اختاروا مصر بعد إلغاء نظام الامتيازات . فضلاً عن ذلك ، كان القانون الايطالي يعلن أوتوماتيكياً فقدان أي ايطالي جنسيته بمجرد أن يصبح مواطناً أجنبياً . كان يدافع عن هنري ثلاثة من أفضل محامي القاهرة ، من بينهم وزير سابق ، عضو في لجنة الوفد القيادية . وقد اعتذر أحد مستشاري محكمة النقض لهم : كان ضغط القصر الملكي لا يُقاوَم .

ما أن صدر الحكم الجائر ، حتى تمَّ توقيف هنري كورييل ، وكان ذلك في 25 تموز 1950 « بهدف طرده بوصفه أجنبياً خطراً على الأمن العام » . وإذ وصل الخبر إلى شحاتة هارون هرع إلى مديرية الشرطة . « وجدت هنري هناك . كانت على وجهه ابتسامته البلهاء إلى حد ما ، التي ترتسم لديه في الأيام الصعبة . قال قائد الشرطة السياسية ابراهيم إمام إنهم سينقلونه إلى سجن الأجانب . وقد رافقته ، وتعانقنا ، ولم أره من جديد إلا في فرنسا ، بعد عدة سنوات . »

كان قائد الشرطة قد حذَّر كورييل بقوله : « إما أن نطردك أو أن نقتلك . » وحين رد السجين بأن حكومة النحاس باشا الوفدية ليست كالحكومات السابقة ، أجاب ابراهيم إمام مبتسماً : « لكن الشرطة لا تتغير » .

في 15 آب 1950 ، اجتمع مجلس شورى الدولة ، بعد أن احتكم إليه محامو هنري ، وذلك لاصدار حكم بصدد قرار الطرد . وقد اكتشف القضاة عندئذ انه ليس ثمة قرار طرد ، بحيث أن مشكلة إلغائه غير مطروحة . في 24 آب ، جرى نقل السجين إلى سجن بور سعيد بواسطة قطار خاص وتحت حراسة مشددة ؛ وكان طبعاً قد بدأ اضراباً عن الطعام . وإذ جرى ابلاغ روزيت بالأمر ، بواسطة أحد رجال الشرطة ، سافرت إلى بور سعيد ومعها حقيبتان ؛ فلم تحصل على إذن برؤية هنري لكنها تمكنت من تمرير الحقيبتين إليه . وصباح السادس والعشرين من آب ، شهدت تسفيره القسري على متن السفينة **سوريانتو** ، وكانت سفينة ايطالية تابعة لشركة لورو . كان الرصيف يعج بعملاء المخابرات ، وأسطول صغير من زوارق الشرطة يقوم بأعمال الدورية في الميناء .

كان الذي جرى عملاً من أعمال الاكراه . لم يكن هناك اي قرار شرعي يبرر الطرد ، وقد تم ابتزاز تأشيرة مرور من قنصل ايطاليا في بور سعيد ، الى . . . اسرائيل . . . والحال أن

مصر كانت تنكر وجود اسرائيل ، ومجرد كون قائد الشرطة كتب الكلمة على طلب التأشيرة كان يشكل جريمة خطيرة جداً . وكان قبطان **السوريانتو** ، الذي هـزّته جِـدَّة راكبه الاجبـاري ، واقتنع بعد تفحص الـورقة بـأن الاجراآت لم تكن تخلو من الشـوائب ، كان قـد بدأ يـرفض نقل هنري على متن سفينته . فتلقى تهديداً بحظر موانىء مصر على سفن شركة لورو . وحين علمت قيادته بالأمر ، أمرته بالرضوخ . فتم الاقفال على السجين في إحدى الغرف ، وأقلعت **سوريانتو** ، تخفرها زوارق الشرطة إلى خارج الميناء .

حين توقفت السفينة في مارسيليـا ، أفلت هنري من المـراقبة وهـرع إلى مقر الفـدرالية الشيوعية لمنطقة بوش ـ دو ـ رون ، حيث روى قصته . فوجدهـا المتفرغـون مريبـة ، وأمروه بالرحيل . فعاد إلى **السوريانتو** . وفي جنوى صعدت الشرطة إلى السفينة وطلبت منه النزول ، فرفض ؛ لكن دركيين شديدي البأس انتزعاه من حجرته . ووسط عدد كبـير من الصحفيين المتجمعين على رصيف الميناء ، تعرف إلى ريمون اسطمبولي وزوجته ، اللذين كانت روزيت قد أعلمتهما بما حصل . وقد نـزل سلَّم السفينة ، محـاطاً بـرجال الـدرك ، بينما كـان المصورون يلتقطون له الصور .

كان في السابعة والثلاثين ، وهو لن يرى مصر مرة أخرى .

بدأت حينئذ السنوات الحزينة .

كان يرفض من حيث المبدأ الاستقرار في اسرائيل لأن السلطة أرادت إجباره على هذا . وهو لم يكن يرغب إطلاقاً في ذلك .

كانت ايطاليا تفتح له ذراعيها ، حتى ولو كان استقبال السلطات المحلية الودي مبنياً على إساءتي فهم . لقد اعتقدت في البدء انه يهودي مضطهد ، إذ كانت روزيت قد طلبت تدخل أقارب نافذين من الطائفة الاسرائيلية في روما لصالحه : هكذا تسلم على الفور إذناً بـالاقامـة المؤقتـة . ثم إن قائـداً اسطوريـاً للمقاومـة ضد الفـاشيـة ، مسؤولاً عن الشبيبـة الشيـوعيـة الايطالية ، وسقط اثناء المعارك ، كان اسمه اوجينيو كورييل ؛ ففكرت السلطات المذكورة بأن هنري من أقاربه . كان ذلك صحيحاً بلا ريب ، لكن بالعـودة على الأقـل إلى القرن الثـامن عشر . . . وحاصل الأمر أن القانون الايطالي كان يلحظ إعادة المواطنية لأي شخص يرجع من الخارج ويتمكن من إثبات أنه من أصل ايطالي . كانت ستة أشهر من الاقامة كافية للحصول على ذلك .

لكنه كان يرفض بشراسة اقتطاعـه من جسم مصر . وقد فشلت في زحـزحته المـواعظ الأكثر إلحاحاً . لم يكن ذلك عناداً ، رفضاً للرضـوخ للتعسف : كل مـا في الأمر أنـه لم يكن

يتصور لنفسه مستقبلاً خارج البلد الذي كان ينتمي إليه مرتين : لأنه ولد فيه ثم لأنه اختاره في السنة العشرين من حياته . إن هنري كورييل الذي كان يتم النظر إليه في القاهرة على أنه أجنبي ، وكان يقبل بذلك ، اكتشف في الاقتلاع الجسدي استحالة أن يكون غير مصري . كان المنفى يمصِّره .

كلَّف محاميه القاهريين أن يقوموا بإجراآت لدى مجلس شورى الدولة لالغاء طرده . وكانت الدعوى طويلة وكلفته ثروة ، ليخسرها في الأخير . وقد أسرَّ له أحد المدافعين عنه أنه علم بأن مرسوماً ملكياً كان سيصدر ، في حال ربح الدعوى ، يمنعه من العودة إلى مصر .

استقر في روما ، رافضاً ضيافة آل اسطمبولي وناحوم المقيمين آنذاك في ميلانو . كان يريد العمل . وقد رافقه ريمون اسطمبولي إلى مقر الحزب الشيوعي الايطالي ، شارع **الحوانيت المظلمة** . وقد بدا الاسم مزعجاً بالنسبة لهنري . ودهش أيضاً بسبب المبنى الضخم ـ قصر كبير وقديم على الطريقة الايطالية ـ وبسبب الباب الضخم المسمَّر الذي يحرسه رجال حراسة دقيقة . وتمتم هنري : « لكننا أمام قلعة ! . . . » وبعد أن اجتاز الزائران عدة أماكن تدقيق ، جرى توجيههما نحو الفرع الخارجي ، حيث استقبلهما المسؤول عن مصر ، الرفيق ريناتو ميبلي . وقد كان لقاء مزعجاً للغاية . فميبلي ، اللاجىء المناهض للفاشية ، كان قد عاش في القاهرة حيث كان يقصر نشاطه السياسي على الجالية الايطالية ، مثله مثل معظم رفاقه المنفيين ؛ ووفقاً لاسطمبولي ، ليس من دون بعض الازدراء للسكان الأصليين ، والاستخفاف الأكيد باليهود المصريين الذين كانوا يحاولون إدخال الماركسية إلى البلد . كان قد غادر مصر في نهاية الحرب ، بحيث انه لم يعايش خروج الشيوعيين من صالوناتهم البورجوازية ، واندماجهم بالشعب المصري في الشوارع المدمَّاة في شباط 1946 ، وتأسيس ح د ت و وتمصير الحركة التدريجي . يلاحظ اسطمبولي ما يلي : « للحال شعرنا بنفور عظيم . لم يكن التيار يمر فيما بيننا . فنحن لم نكن نهمه اطلاقاً . مع أنه ربما كان بحاجة لضبط ساعته من جديد ، حيث أن مصر تغيرت كثيراً منذ رحيله . كان هناك فشل تام . » ولدى الخروج ، اكتفى هنري بملاحظة انه من الواضح أن الرفيق ميبلي لم يكن في المكان المناسب له في الوظائف التي يشغلها .

هاكم هذا المثل التافه على الحثالة الصحفية التي صُبَّت على هنري كورييل إلى حد تعقيد الأحداث الأكثر بساطة في حياته : فبعد اغتياله بشهر ، في 4 حزيران1978 ، كتبت الأسبوعية الايطالية ، **الاكسبريسّو** ، أن توغلياتي ، زعيم الحزب الشيوعي الايطالي ، كلَّف ريناتو ميبلي بالتقاء كورييل ، الذي « طرده عبد الناصر » للتو ، من أجل معرفة ما الذي يريده : « لم يتم اللقاء في مكان سري ، بل في مقهى بساحة كافور . وسرعان ما طلب كورييل المال والسلاح من الحزب الشيوعي الايطالي لتنظيم عملية مسلحة ضد عبد الناصر . بعد ذلك أمر توغلياتي

ميبلي بوقف أي اتصال ، قائلاً : « أعتقد أن كورييل هذا عميل استفـزازي » O Tempora! O mores! إن الملك فاروق هو الـذي طرد هنـري كورييـل ، وحين استقبله ميبـلي في شارع الحوانيت المظلمة ، لم يكن جمال عبد الناصر أكثر من كولونيل صغير مغمور لا يستـطيع حتى الاختصاصي في شؤون مصر في الحزب الشيوعي الايطالي أن يتكهن بمصيره . وهو لن يستولي على السلطة إلا بعد عامين ، في عام 1952 ، وكان هنري قد غادر ايطاليا في ذلك الحـين منذ سنة ؛ وقد استقبل المنفي ثورة الكولونيلات بحماس ، ولم يكن في وسعه إذن أن يتمنى إطاحتها عن طـريق « عمليـة مسلحـة » . وإن ثـلاثـة اتصـالات بـالهـاتف كـانت سمحت لمحـرر الإيكسبريسو ـ الاسبوعية اليسارية ـ بأن يوفر على نفسه قصة تنطوي على خطأ جسيم في كل سطر من سطورها . لكن ذلك كان يستوجب التخلي عن صورة مُجْزية أكـثر لكورييـل متآمـر ومحرك لانقلابات مسلحة عبر العالم : هذه الصورة بالذات التي حـاول أسوأ المشهـرين به أن يوحوا بصحتها .

عاد المنفي ثلاث مـرات إلى مكتب ريناتـو ميبلي ليسلمـه ملاحـظات حول الـوضع في مصر . ولقد وجد الباب مقفلاً في زيارته الرابعة . لم يكن الحزب الشيوعي الايطالي بحاجة إلى تحليلات قائد ح د ت و .

كان قد نزل عند سيدة مسكينة تربي طفلها لوحدها . وكانت تكـرر أمام الـزائرين أن نزيلها قديس علماني ويساهم في هذا التقديس بنمط حياة متقشف . كل مساء ، كان هنري ينصب سرير المعسكر في غرفة الطعام . وهو لم يكن يستطيع الدخول إلى الحمام الا في ساعة محددة ، ولم يكن يتصرف حتى بطاولة يشتغل عليها . وكان الطعام هزيلاً إلى حد أنـه أصيب بالمرض . وكان في وسعه أن يعيش حياة رخيَّة لأن روزيت كانت ترسل إليه مبلغاً كافياً في كل شهر . لكن كان يقتطع عشرين ألف لير لأغراضه المعيشية ويعيـد إرسال البـاقي إلى الرفـاق المصريين . وحين اكتشفت روزيت إلى أين تمضي حوالاتها المالية استاءت منه كثيراً .

كان يقضي وقته في القراءة وكتابة تحليلات ومقالات بقي معظمها في جراراتـه . وقد عزم على اصدار نشرة ، هو وريمون اسطمبولي وداوود ناحوم . كانت الـرحلة من ميلانـو إلى روما تستمر عدة ساعات وكـان على صـديقيه أن يكسبـا معيشتهما . وقـد انصرف لـدراسة اللغـة الروسية . كانت الوحدة تتكثف حوله . قال فيها بعد : « لقد عشت في عزلة شبه تامة ، بعد أن تركني العالم بأسره . لكنني لا آسف على تلك الفترة . فتلك هي الفترة الوحيدة التي توفر لي فيها وقت لأفكر » . وفي الحقيقة أنه كان يعاني بقساوة من نبذ الحزب الشيوعي الايطالي له . فبالاضافة للظلم الواقع عليه شخصياً ، كان يرى فيه نفي الحركة الشيوعية المصرية ، وعمل رفاقه وتضحيـاتهم . حتى إذا لم يكن معسكر هـو كستيبأوشويـتز أو داشو ، فلقـد كانـوا قد

خرجوا جميعاً من سنتين من حياة المعسكر . كان الخصم قد اخذهم كفايةً على محمل الجد إذ عرّضهم لتلك المحنة ، لكن يبدو انها لم تكن تعني شيئاً بالنسبة للرفاق الايطاليين . لم تكن مصر تهم أحداً . لم تكن بالنسبة للحزب الشيوعي الايطالي غير الميدان المقفل للخصومة الاستعمارية بين انكلترا والولايات المتحدة . كان مييلي قد ابتسم حين أكد له كورييل أن الجماهير المصرية ، في انكبابها التام على العمل السياسي ، سوف تحدِّد بنفسها مستقبل البلد . كان الجهل عميق الغور ، حتى أن المسؤول الشيوعي في ميلانو عن السياسة الخارجية سأل ريمون اسطمبولي إذا لم يكن سكان القاهرة يخافون التماسيح .

في هذه الصحراء السياسية والعاطفية ، كانت كل زيارة من شخص مصري إليه واحة . وقد جاءت ديدار روسانو وروث غريش لتـرياه في منتصف الصيف . تقـول ديدار : « لقد اكتشفته حقاً في تلك المناسبة ؛ فبالنسبة لي ، أنا المعتادة سابقاً على الضباط الأقـوياء ، كـان المثقف المنحرف المزاج ، والنحيف . كلا ، على الاطلاق ! لقد اصطحبنا لزيارة روما من الصباح إلى المساء ـ كان قد بات يعرف كل الآثار ، وتاريخها ، الخ . كنا منهكتين تماماً ، أنا وروث ، نتوقف عند كل نبع لنبرّد قدمينا المغطاتين بالنُّفْخات . . . وكان يضايقنا لنتابع المسير : فثمة شيء آخر ينبغي أن نراه . كانت لديه طاقة خارقة . لقد جعلنا نكتشف جمالات الدين ـ وقد شعرنا بالذهول إلى حد ما . . . كان ينبغي الاستماع إليه وهو يصيح أمام الكنائس : « هل تدركان ما كانت تعنيه بالنسبة لبَنائيها ؟ »

كانت هناك زائرة مثابرة أخرى هي ايليزابيت فايان ـ لم يأت زوجها روجيه ، المصطاف لدى كورزيو ما لا بارتي ، في كابري ، إلى روما إلا في نهاية الصيف . وهي تقول : « أدين له ببعض أجمل ساعات حياتي . كان يستقبلني في قاعة صغيرة جداً ومظلمة تضيئها ابتسامته الساطعة . جعلني اقرأ ماو ، وهوشي مين ، وعدداً كبيراً من الكتّاب الثوريين . وفيما بعد ، كنا نتحدث عنهم من جديد . لم ألتقِ يوماً أحداً يعرف أن يشرح الأشياء بتلك الطريقة الممتازة ، وأن يجعلك تتقدم دون أن يتصرف على طريقة الأستاذ . وكان يتكلم دائماً على مصر . كانت مصر هاجسه . . . »

ثم التحقت به روزيت . كانت صحتها سيئة . وقد تطلبت إصابةٌ بسل جوفي عملية جراحية، فحصلت على فيزا لمدة ثلاثة اشهر. تناقشا في مستقبلهما على امتداد امسيات بكاملها. كان وضع هنري الاداري قد تفاقم. فلقد جرى اكتشاف أن يهوديته لم تكن السبب الرئيسي لطرده وأن قرابته مع اوجينيو كورييل كانت إشكالية على الاقل، وقد توسل إليه آل اسطمبولي وآل ناحوم بأن يستفيد من الامكانية المتوفرة لديه لاستعادة الجنسية الايطالية. ويشرح ريمون اسطمبولي الامور كالتالي: «في تلك الفترة، كانت ايطاليا تعادل ثلاثمئة الف رجل في العام؛ لم

يكن هناك من عمل، وكانت السلطة تشجع على السفر. ضمن هذا السياق، كانت إمكانية استعادة الجنسية الايطالية فرصة خارقة. انا بالذات، المحروم من المواطنية، كنت اكافح كالمجنون للاستحصال على تجنيسي. كان ينبغي إثبات انك تقدم للبلد مواصفات ثقافية او تجارية ـ شيئاً ما ايجابياً. لم تكن السلطات الايطالية تفهم لماذا يتشامخ هنري. نحن بالذات كان يثير غيظنا. كنت أكرر على مسمعه: «هنالك مساومات في كل مكان. اذا كنت تريد أن يكون لك نشاط طبيعي، وفعال، عليك الحصول على الجنسية الايطالية!» إلا أنه كان مستحيلاً. بقي محدقاً بمصر، واضعاً آماله في تلك الدعوى لدى مجلس شورى الدولة، الخاسرة سلفاً. كان علينا فوق ذلك أن نكسب معيشتنا، وقد وجدنا أنه يغرق في المازوشية.» سوف ينتظر داوود ناحوم تجنيسه 25 عاماً، وعلى امتداد ربع القرن هذا، سوف يُمْضي ساعة في مراكز الشرطة الايطالية في كل مرة يعود فيها من رحلة الى الخارج.

ثم توقفت السلطات فجأة عن مضايقة كورييل كي يأخذ قراره ووضعته تحت الرقابة. كان ملف كورييل قد وصل الى روما كما في كل العواصم الغربية. وكان قائد الشرطة المصرية قد قال وهو يبتسم لهنري كورييل، الذي احتج على طرده: «لا تتعب، فنحن نحظى بدعم الانتليجنس سرفيس.» كانت اجهزة المخابرات الانكليزية تعرف كورييل منذ دخوله عالم السياسة ولم تتركه منذ عمله لصالح الديموقراطيين اليونانيين. كان يمكن شرطة اوروبية ألا تهتم بمحرض غامض طرده من مصر فاروق الضخم، المعتبر عالمياً طاغية منفرّاً. الا انها كانت مضطرة للاهتمام برجل يعتبره الانكليز خطراً. في 25 حزيران 1950 اندلعت الحرب الكورية، وهي نقطة حاسمة في المواجهة بين الشرق والغرب التي كان الفصل اليوناني شكل بدايتها. انتقلت الحرب الباردة دفعة واحدة الى درجة الغليان. وللمرة الاولى منذ عام 1945، سوف يتواجه الحلفاء القدامى في الحرب الصليبية الكبرى المناهضة للفاشية، على الارض وسلاحهم بيديهم. وكان العالم بأسره يعيش حالة القلق من كارثة نووية. وقد بلغت مطاردة الساحرات أوجها على جانبي الستار الحديدي. وفي روما، لم يكن المناخ لصالح الرفق حيال أناس يشبهون هنري كورييل.

وفي باريس ايضاً، لم يكن المناخ افضل. فروجيه فيبو، مدير جهاز الـ DST، سوف يفرض الاقامة الجبرية في كورسيكا على ريمون اغيون، مؤسس المجلة الشيوعية **الشرق الاوسط**، ونصيرها. وسوف يمر أغيون فيما بعد على ايطاليا («وجدت فيها شيوعيين احبهم») ولن يعود الى فرنسا الا بعد مرور عامين، في ظل حكومة مانديس فرانس، حيث ان الديغولي لويس فالون تدخل لصالحه لدى وزير العدل، فرانسوا ميتران.

بالنسبة لهنري، الذي اقنعته روزيت بضرورة ان يجد قاعدة على الاقل مؤقتة ينسحب

إليها، كان يفضل فرنسا على اي من البلدان. وقد توجه الزوجان المبعدان بالنداء الى قدامى المبعدين الديغوليين الذين كانا قد ساعداهم في ايام الصداقات الفرنسية. جرى الاستماع لهذا النداء، لكن لم يفد اي مسعى في تليين موقف السلطة. ونقل الاصدقاء، الآسفون، الجملة التي تلفظ بها فيبو: «إذا دخلا فرنسا، سوف أحتجزهما في الصحراء». حتى روزيت، التي كانت حالتها الصحية تتطلب عناية استثنائية، جرى الامتناع عن اعطائها تأشيرة فرنسية. وتحججت المصالح المختصة بأنها لو أصيبت بنوبة قلبية في باريس، سيكون من الصعب حرمان زوجها من الالتحاق بها الى هناك.

كانت المِلزمة تضيق.

بعد انصرام الأشهر الثلاثة، ركبت روزيت الطائرة عائدة إلى القاهرة. وقد رافقها هنري الى مطار فوميشينو ثم رجع إلى بيته، ليعود من جديد وفي الحال الى فوميشينو: فلقد مُنعت زوجته من النزول في القاهرة، واعيدت بالقوة الى الطائرة، التي أقلّتها من جديد الى روما. وهناك رفضت السلطات الايطالية السماح لها بالنزول. وقد خضع هنري لإغراء أن يدفع الوضع الى حدود العبث، لكن لم يكن بامكان روزيت الاستمرار في الذهاب والمجيء بطائرات ليس الضغط مكيَّفاً فيها، إذ ان قلبها غير قادر على المقاومة. ورفض الحزب الشيوعي الايطالي التدخل. فانتزع بييترو نيني، القيادي الاشتراكي، ترخيصاً بالاقامة المؤقتة، لكن السلطات الايطالية كانت عازمة هذه المرة على الحسم. بما أن المنفي كان مصراً منذ عام على رفض الجنسية المعروضة عليه، تُرك له الخيار بين الطرد الى اسرائيل والاحتجاز الاداري. وحين اثار هنري وضع روزيت الصحي، أجاب موظف الكويستورا: «ليس لدينا شيء ضدها. غادر ايطاليا، وسوف نمنحها حق اللجوء. - لكن إلى اين تريد أن امضي من دون جواز سفر؟ ما من بلد يسمح لي بالدخول... - هذه مشكلتك. تدبّر أمرك!»

استحصلت روزيت على جواز سفر الوالدة المتوفاة حديثاً لأصدقاء ايطاليين، وكان جواز سفر نمساوياً. وقد زورته بصورة فظة الى حد أن الغش كان واضحاً منذ النظرة الاولى. اجتاز هنري الحدود السويسرية على قدميه. كانت ديدار روسسانو تنتظره في لوزان، ولم تتمالك نفسها من الضحك حين رأته يصل وفي يده عصا، مرتدياً معطفاً وقبعة أسودين: كانت تلك هي الصورة التي يكوّنها عن بورجوازي نمساوي. وقد ذهب للحال الى القنصلية الايطالية، وفقاً للاتفاق المعقود مع الكويستورا، من أجل التأكد من رحيله عن ايطاليا. وبعد أن اطمأن الى مستقبل روزيت، استقل مركباً الى فرنسا في الجهة الأخرى من البحيرة. وكانت ترافقه ديدار، التي سبقته مقدمة نفسها لرقابة الشرطة، علماً أن جوازات السفر المصرية كانت موضوع انتباه خاص. لم يقم الشرطي حتى بفتح جواز سفر هنري النمساوي. وقد ركبا القطار

الى باريس وقرعا باب جوزف هازان.

إستدعيت روزيت، من جهتها، الى الكويستورا، حيث قيل لها: «لقد اجتاز زوجك الحدود بسهولة محيِّرة، وهذا برهان على انه رجل خطير. نحن آسفون جداً، لكن لا يمكننا السماح لك بالبقاء في ايطاليا.» وبعد ثلاثة أسابيع، دخلت سراً بدورها الى فرنسا.

*

*　*

بناءً على قرار جماعي، كان جوزف هازان الأول الذي يخرج من المعسكر ويأتي الى فرنسا بفضل جواز السفر الفرنسي الذي يدين به لجد قديم مر بالجزائر. وكانت مهمته تقضي بتنبيه الرأي العام التقدمي إلى مصير المحتجزين المصريين، وبلعب دور مفرزة استطلاع لكامل الجماعة.

وصل ومعه مئتا جنيه مصري أقرضه إياها والده. وقد أسكنه عنده أحد أبناء عمه، وللحال انتسب إلى الحزب الشيوعي الفرنسي وبدأ يبحث عن عمل. وقد عمل في البدء كشّافاً لتعاونية حرفيين وتجار تابعة للحزب، ليستقيل بعد عدة أشهر ويؤسس شركة مع ارمان سيتون ورفيق آخر وصل من مصر. لقد اسسوا الباتكس، وهي شركة استيراد وتصدير متخصصة في الورق والنسيج. وكان النجاح فورياً.

كانت هيبة الحزب الشيوعي الفرنسي عظيمة ـ شبه اسطورية، الا أن الواقع كان مخيباً للآمال. كان هازان ينهض في الخامسة صباحاً ليبيع جريدة **لومانيتيه ـ ديمانش** في الشارع، وقد اثارت دهشته النسبة التي كان يدفعها المناضلون كاشتراك حزبي، وهي نسبة ضئيلة جداً مقارنة بالقواعد المصرية. فمن اصل اجره الشهري الذي كان يبلغ 75 ألف فرنك قديم في الباتكس، لم يكن يحتفظ بأكثر من 15 الف فرنك لحاجاته الشخصية، والباقي كان يذهب الى الرفاق المصريين. ومن الـ 990 ألف فرنك قديم كأرباح عادت بها العملية الاولى للشركة، اقتطع ثمانية آلاف فرنك ليقدم دراجة لابن اخيه ودفع الباقي لصندوق الحركة. أما العادات الفرنسية فكانت مختلفة. يقول روبير إيدي، الخارج من سجن الاسكندرية: «أذهلني مستوى المناضلين في فرنسا. لقد درسنا الماركسية خلال خمس سنوات ولم يكن ذلك يتناسب اطلاقاً مع ممارستنا. قلت في نفسي اني سأكون نائباً على الأقل! وسرعان ما أصبحت أمين سر خليَّة ثم أمين سر قسم.» أما هيلل شوارتز فلم يتبع زوجته الى الحزب الشيوعي الفرنسي: «كانت العادات غير مفهومة بالنسبة لي. فمثلاً بعد نهاية عرض لفيلم سوفياتي رديء، مرَّ أحدهم في القاعة وسأل: «من الذي لا يحمل بطاقة حزبية؟» كما لو كان يعرض البوظة بالشوكولا. وقد وجدت ذلك

مثيراً للغضب. ففي مصر، لم يكن يمكن دخول التنظيم كما يدخل المرء مطحنة. وكان هنالك ايضاً موضوع الاشتراكات. فعندنا، كان المناضلون يدفعون كل ما معهم، وكنت أنا ادفع كامل راتبي لأني كنت اعيش مع اهلي. أما في فرنسا فكان الواقع أبعد ما يكون عن ذلك.»

بعد يومين من وصول هنري كورييل، رافقه جوزف هازان الى مقر مكتب المستعمرات، 19، شارع سان جورج. ومثلما حدث في روما، اجتاز الزائران عدداً من نقاط المراقبة قبل إدخالهما الى عند المسؤولين، مينيو وتيفنين. كانا يجلسان وراء مكتبين متقابلين يبعدان 15 متراً أحدهما عن الآخر، مع موقد كبير لتدفئة القاعة. وحين أبلغ تيفنين أندريه مارتي بالأمر، طلب رؤية مضيفه الآتي من القاهرة. وقد استقبله بحرارة واقترح عليه أن يطلب اللجوء إلى الاتحاد السوفياتي او تشيكوسلوفاكيا. فشكره هنري لكنه رفض الاقتراح. كانت الحرب الباردة تقسم العالم قسمين، وكانت إقامته خلف الستار الحديدي تحرمه من اية امكانية للفعل في مصر. لم يصر مارتي وسوّى فوراً مشكلة إيواء المتخفي مذاك هنري كورييل. وقد استقبله زوجان في مسكنهما بالضاحية، وكانا مناضلين موثوقين.

بقي عندهما ثلاثة أيام. فلقد كانا يتصوران التخفّي على أنه مثل أيام الاحتلال النازي. أما هنري الذي لم يكن يشعر بأن غيستابو تطارده، فهرع إلى عند هازان ورجاه أن يجد حلاً. كان هازان يسكن في ستوديو بالغ الصغر، وقد رتب مكاناً لسرير إضافي. لكن حين وصلت روزيت بدورها من ايطاليا، اضطرت للانتقال من فندق إلى فندق، مغيّرة إقامتها كل اسبوع للافلات من رقابة الشرطة. وقد انتهى الانفصال والتجوال بلقاء راوول كورييل، الموجود آنذاك في مهمة عالم آثار في افغانستان، بممرضة فرنسية تابعة للصليب الأحمر. وقد أعطاها رسائل إلى اخيه وزوجة اخيه. فتعاطفت المرأة الشابة مع المنفيَّيْن، وحين عرفت بعدم شرعية وضعهما، عرضت عليهما أن تؤجرهما غرفة في مسكنها. كان هذا في شارع فرساي، في بناية كئيبة في آخر الحوش الثاني. وقد فكّا حقائبهما، إلا أن روزيت كانت تكره الحي، بينما لم يكن هنري حتى يراه.

عاشا كما لو أنهما لم يغادرا مصر أبداً، فعلاقاتهما لم تكن تخرج من دائرة المصريين. لم يكن هنري يولي أي اهتمام للسياسة الفرنسية، وكان يبقى صامتاً حين يعمد اصدقاؤه المنخرطون في الحزب الشيوعي الفرنسي إلى مناقشة قضايا الساعة بالكثير من الحماس. وهو لم يدخل مقر الحزب مرة ثانية، مكتفياً بتسليم جوزف هازان التقارير العديدة التي كان يوحي بها اليه الوضع في مصر. كان بريد متواصل يعلمه بتطور هذا الوضع، كما كان هو بالذات يغدق على رفاقه المصريين الملاحظات والتحاليل. وكانت روزيت تؤمن المسار العلمي للاتصالات، الأمر الذي لم يكن بسيطاً. وبما أن هنري لم يكن يكتب بالعربية، كانت تدق على الآلة الكاتبة،

بالفرنسية، مخطوطاته من أجل تصنيفها في الارشيفات، ثم تكتبها من جديد بالحبر السري ترسلها لرفيق في القاهرة يقوم بتعريبها. وانسجاماً مع القاعدة النضالية التي نقلاها معهما من القاهرة (واحترمها هنري حتى مصرعه)، لم يكونا يمنحان نفسيهما فترة استراحة إلا بعد ظهر الاحد، وذلك لرؤية رفاقهما في المنفى والحديث مرة اخرى ودائماً عن مصر.

كانت مصر تدخل في ثورة.

كان شيوعيان أول الخارجين من مبنى في القاهرة انتهى فيه اجتماع سري. وكانت شاحنات للشرطة واقفة في الشارع. فقوات النظام كانت تستعد للتدخل. تشاور الرفيقان بالنظرات ودون أن ينبسا بكلمة، عادا الى المبنى مع أنه كان لا يزال ثمة وقت للفرار. لقد فضلا التعرض للاعتقال مع الآخرين على أن يتعرضا لشبهة الخيانة. والحادثة تُبرز درجة التلف التي أصابت الحركة الشيوعية الممزقة بالانقسامات، والمتسلطة عليها الشكوك.

كانت حركة السلام قد عرفت مع ذلك نجاحاً لا جدال فيه. فقد جرى الاستحصال على 12 ألف توقيع خلال شهرين لصالح نداء ستوكهولم، من بينها توقيعات معظم اعضاء مجلس شورى الدولة. باتت المنظمة، التي رئسها، ، «الباشا الأحمر» المهيب والمثير للإعجاب، كامل البنداري، يُحسَب لها حساب على المسرح السياسي، ونجحت كما توقع هنري كورييل في إعادة تعبئة مناضلين وأنصار كان القمع ثبّط معنوياتهم.

كان الأكثر تصميماً يحاولون إعادة بناء الجهاز السري. فألبر أرييه، ابن الثمانية عشر عاماً، كان قد نجا من حملة الاعتقالات الكبرى في ايار 1948. وكان مكلفاً بأرشيفات ح د ت و ووثائقها. وقدّ أدى فصل صارم الى حماية هذا القطاع الذي كان اكتشاف الشرطة له سيترك ذيولاً خطيرة، فيما لو حصل. وقد انضم فيما بعد إلى مجموعة من الطلاب والمثقفين القريبين إلى مارسيل اسرائيل والمعارضين بعنف لهنري كورييل. «كلفوني بقضايا الطباعة وتوزيع البيانات. وكانت كل تلك المرحلة خطيرة لأنه كان ثمة مطاردة حقيقية لكل من لهم سيماء اليهود. وكانت الشرطة تلاحق الطبّاعين بوجه خاص. فجرى اكتشاف نشاطي، وجاءت الشرطة الى البيت لتوقيفي. إلا اني لم أكن موجوداً. وقد تعانق مسؤول الشرطة مع والدي بحرارة، إذ كانا صديقين من ايام الطفولة! قال الشرطي: «نظِّف البيت، أما أنا فلم أر ولم أعرف، وسوف أوقف الملاحقة.» وبالفعل، لم يعد هناك ما يثير قلقي. عام 1950، أنهيت إجازة الحقوق، وانطرحت مشكلة الرحيل. كان الجميع يسافرون الى اوروبا. وقد قررت البقاء ومواصلة النضال.»

كان الاستثناء. فلقد فرغت الحركة الشيوعية من الاجانب وبات المصريون يمسكون الدفة في كل مكان. إلا أن حركة الانشقاقات التي لا تتوقف لم تخف سرعتها ـ وذلك برهان اكيد على أن «معركة القادة» بين كورييل وشوارتز واسرائيل لم تكن السبب الوحيد للانقسام. فالآباء المؤسسون الثلاثة كانوا قد اجتازوا البحر المتوسط، لكن الشيوعيين المصريين كانوا يتوزعون باستمرار بين ح د ت و، **ونواة الحزب الشيوعي، ونحو حزب شيوعي مصري، وطليعة العمال، والفجر الجديد، والنجم الاحمر، ووحدة الشيوعيين...**

عام 1950 ظهر تكوين جديد تعمّد باسم بالغ البساطة «الحزب الشيوعي المصري». كان عرابه المكتب الكولونيالي للحزب الشيوعي الفرنسي. وكان يقوده شابان يعدان بمستقبل باهر: فؤاد مرسي واسماعيل صبري عبدالله.

*

* *

كان المصريون في فرنسا قد حذروني من اسماعيل: «ألد خصوم هنري!» واندهشت روزيت: «تريد أن ترى اسماعيل حقاً؟ كان يكره هنري. لن تسمع منه غير كلمات الكراهية». لم يغفروا له تأسيسه وجوده السياسي على الملاحظة التي أبداها ريمون أغيّون: «كان يبدو من الحكمة بمكان الاعتراف بمنظمة يقودها شخص اسمه اسماعيل صبري عبدالله، على انها الحزب المصري، بدل الاعتراف بمنظمة يقودها شخص اسمه هنري كورييل.»

ولد عام 1924 لكنه يبدو كما لو كان بلغ بالضبط الخمسين من العمر. ولقد كان مؤسس الحزب الشيوعي المصري تخطىٰ تجربة الاعتقال الثانية حين استقبلني في مسكنه المشرف على النيل، بعد ستة اشهر من مصرع انور السادات. صحيح أن معتقل السادات كان بالنسبة اليه أقلّ قساوة من سجن عبد الناصر للأشغال الشاقة حيث عانى من اعمال تعذيب مخيفة. واسماعيل صبري عبدالله، الأسمر الوسيم طويل القامة ذو الضحكة المدوية، الذي يمسك بيدٍ فم سجائر وباليد الأخرى كأس ويسكي، يوزع من الفكاهة اكثر مما يوزع الحقد ويحميه ذكاؤه البديهي من العواطف الحزبية المبتذلة. وهو يشترك مع هنري كورييل في الفتنة على الاقل، حتى إن كانت فتنته شيطانية في حين كانت فتنة الآخر ملائكية. قال: «كان هنري رجلاً مرموقاً، وكانت له مثل عليا تفرض الاحترام، لكنه كان محكوماً عليه، بفعل أصله وبفعل السياق، أن يبقى على سطح الواقع المصري، دون أي حظ لديه في أن يعدل هذا الواقع أو حتى أن يؤثر فيه. فلنتخيل شخصاً ككورييل يترشح هنا للانتخابات!»

إنها لغرائبُ مصر: فهذا المتعصب للأرض اقترن بمصرية من البورجوازية الكبرى كان أهلها يتكلمون الفرنسية ليميزوا انفسهم عن «العرب»، وهو المستفيد من خدمات ممرضة سويسرية تتكلم الفرنسية ومربية انكليزية، لا يتكلم إلى اليوم غير عربية مختصرة ويكاد يعرف قراءة سورتين من القرآن. . .

أصله من الصعيد الذي بين من خرجوا منه الفرعون الهرطوقي أخناتون وقَتَلة السادات. ولقد ولد اسماعيل صبري عبدالله لأب نجا من كوسموبوليتية الطبقات العليا: لم يخرج من مصر أبداً، وقد تغذى بثقافة عربية ـ إسلامية، كان يستثمر 120 فداناً[1] لكن أفلس تقريباً بنتيجة أزمة 1929 وهبوط اسعار القطن. إلا أن اسماعيل ذهب مع ذلك الى القاهرة ليتابع دراسته وناضل في صفوف الوفد منذ عام 1937 : كان عمره آنذاك 13 عاماً. تسجل في الجامعة عام 1942، وتردد على دار البحث العلمي التابع للايسكرا، وعلى حلقة دراسات ـ الثقافة الجديدة ـ كان يشرف عليها جاكو ـ ديكومب وريمون أغيون. وقد اصبح عضواً في اللجنة التنفيذية للطلاب اثناء مظاهرات شباط 1946 ، واستدعاه هنري كورييل بعد ذلك بقليل.

«كان ذلك إذن في أيار أو حزيران 1946 ، وقد حصلت للتو على إجازة الحقوق. كنت تجاوزت مرحلة النزعة القومية الصرفة. فمنذ طفولتي، تحسست بؤس الفلاحين. كان يُستأْجَر الحمار لقاء مبلغ يزيد عن ذلك الذي يتم دفعه لقاء عمل انسان. وكنت رأيت على أرضنا بالذات الاستغلال الطبقي الشرس وصدمني ذلك كثيراً. ثم تلقيت مبادىء الماركسية، ليس في كتب ح د ت و الخضراء بل في مكتبة لينين الصغيرة* ، التي كانت تبيع كراريس انكليزية صغيرة يشتريها جنود مونتغومري. لم انتسب لأي تجمع لكن مشاعري كانت مع الناس المتجمعين حول جاكو ـ ديكومب وأغيون.

«استدعاني كورييل إلى الصداقات الفرنسية. لم يرق لي كثيراً بسرواله القصير وحذائه المسيَّر. فهو يعطي انطباعاً مسرحياً حين نعرف عائلته! . . . كلمني بالعربية. وكان يجيد التكلم بها، فتأثرت للجهد الذي بذله من اجل ذلك. امتدحني كثيراً بالطبع ـ فتلك كانت التقنية الخاصة به: «لديك دور عظيم تلعبه في هذا البلد، رجل بثقافتك وذكائك، الخ». وقد اعطاني اسس اللينينية لستالين قائلاً لي: «ادرسه. وسوف نتكلم بصدده من جديد بعد عودتك من العطلة». اغاظني كثيراً بلهجة الأستاذ التي خاطبني بها.

---

(1) خمسة فدادين تساوي هكتارين.

* Little Lenin L (م)

« رأيته إذن من جديد لدى عودتي ، وكان ذلك أيضاً في الصداقات ، وقد أبلغته بحصولي على منحة لمتابعة دراستي في فرنسا ؛ فنصحني بالاتصال بجولييت علوان . وفي باريس ، أقمت عند كونتة عجوز أطلعتني على خفايا حي سان جرمان . ولقد كانت سنواتي الخمس في فرنسا مكثفة جداً وممتلئة للغاية ، لكني أنهيت مع ذلك دراستي للدكتوراه في الاقتصاد مع درجة جيد جداً وتهنئة المشرفين . كما أني اتصلت بجولييت علوان ، وكانت حبيبة قديمة لهنري . كانت قد جمعت حولها كوسمو بوليتيين آتين من مصر كانوا يتقربون من أصحاب المنح الشباب بهدف تنسيبهم . وكان المنسَّبون يتأطرون في ما يسمى بـ تجمع مصريي باريس (ت م ب) . وكان التجمع قريباً جداً من ح ش ف دون علاقة عضوية به . ثم اندلعت حرب فلسطين وتدفق على باريس وعلى التجمع سيل من اليهود الذين كان معظمهم قد تخلوا عن جنسيتهم المصرية . وآنذاك بالذات قمت بالثورة الصغيرة التي لم يسامحني هنري كورييل أبداً بسببها : طرحت على الحزب الشيوعي الفرنسي مشكلة هؤلاء الناس الذين لم يكونوا مصريين ولم تكن لديهم أية نية للعودة إلى مصر . وقد اعطاني ح ش ف الحق وقرر أن عليهم التحول إلى مناضلين فرنسيين .

« وعدت أنا بالذات إلى مصر عام 1951 ، قبل وصول كورييل إلى باريس مباشرة . وقد أذهلتني انقسامات الحركة الشيوعية . كان معظم قادة الشُّلل يعيشون في عالم مجرد ؛ فالماركسية كانت بالنسبة إليهم نوعاً من التعليم الديني . أما أتباع كورييل فلم يكونوا يهتمون بغير السياسة اليومية من دون تحليل أساسي . وكانت المفارقة بين شجاعة المناضلين البسطاء والخصومات المدرسية لدى القادة مدعاة للشعور بالفضيحة . أي تبذير ! وأي حَرْفٍ مخجل للعمل النضالي ! وقد ثبَّتني ذلك في المشروع الذي تحادثت بصدده في باريس مع أصدقائي المصريين والرفاق الفرنسيين . كان ينبغي إعطاء انطلاقة جديدة للحركة الشيوعية . ليس القيام بانشقاق جديد بل الانطلاق مجدداً من الصفر . خلق الحزب الشيوعي المصري ، بكل بساطة . وخلقه انطلاقاً من دراسة أساسية للصراع الطبقي في مصر . هذه الدراسة كانت في متناولنا بفضل فؤاد مرسي . فقبله ، لم يقم أحد بها » .

ولد فؤاد مرسي عام 1925 في الاسكندرية ، وكان قد ناضل في تجمع الطليعة فيما هو يواصل دراسة الحقوق . ولما كان طالباً لامعاً ، وتخرج من الجامعة بتفوق ، فقد حصل هو الآخر على منحة ليعد في باريس دوكتوراه في الاقتصاد السياسي . وخلافاً لاسماعيل صبري عبدالله ، لم يتردد على الأشخاص القديرين في مكتب المستعمرات ، مكتفياً بالنضال القاعدي في خلية شيوعية بالحي اللاتيني . « عدت إلى مصر عام 1949 وأقنعني ما رأيته بضرورة الخلاص من ذلك التعدد في المنظمات ، التي كانت كل منها ترفع شعاراً جذّاباً إلى هذا الحد أو ذاك .

وبالاتفاق مع اسماعيل ، وعبره مع الحزب الشيوعي الفرنسي ، أسست الحزب الشيوعي المصري . على أية قاعدة ؟ كان كورييل يريد تحقيق وحدة القوى الديمقراطية . وقد كان على حق لو أن الهدف المطلوب تحديده كان يقتصر على التحرر الوطني ، وكانت رؤيته في الواقع قومية صرفة ، لكن ألم يكن من الضروري أن نميز ضمن السكان الشرائح المستعدة للتعاون مع الاستعمار ؟ كانت مساهمتي المتواضعة تتمثل في اكتشاف بقايا الاقطاع في المجتمع المصري ، الذي كان الممثل النموذجي له هو الملك . ثمة كان يكمن الخصم أيضاً ـ الخصم الطبقي . ما الفائدة في القتال لأجل استقلال من حيث المبدأ إذا بقينا خاضعين للاستعمار الاقتصادي ؟ »

كانت الايسكرا قالت ذلك من قبل .

*

**

كان الشعب المصري ، قليل الاهتمام بالتحاليل الأساسية ، يتعبأ بصورة متزايدة ليطرد من أرضه آخر المحتلين الانكليز . وفي 8 تشرين الأول 1951 ، لـمَّع رئيس الوزراء ، النحاس باشا ، صورة الوفد من جديد بإلغائه « معاهدة الشرف والاستقلال » التي وقعها بذاته في عام 1936 . وفي الحقيقة أن انكلترا لم تحترمها يوماً . كانت تمنحها الحق في حراسة القناة بواسطة عشرة آلاف رجل ، بينما كان لديها عام 1951 أكثر من 25 ألفاً . وكان يحق لطياريها أن يحلقوا في كامل أجواء مصر ، ومن البديهي أن الطيارين المصريين العسكريين لم يكونوا يتمتعون بالحق المقابل بأن يحلقوا في أجواء المملكة المتحدة الذي أُقِر لهم به عام 1936 بروح فكاهة شديدة البرودة .

بدأت « معركة القناة » في الأسبوع الذي تلا الالغاء . هذه المعركة التي عظمتها الصحافة المصرية معطية اياها أبعاداً ملحمية ، ومجّدها الرأي العام ، كانت تتلخص بأعمال عصابات تتغذى بغارات منتظمة ، واعتداآت ، وعمليات خطف لعسكريين معزولين . من الجهة البريطانية ، نخبة الجيش الانكليزي . ومن الجهة المصرية ، رجال كوماندوس مرتجلون ، بتسليح غريب ، كانت حكومة النحاس باشا تطاردهم دون حماس . كان الصحفي الشيوعي بيير كورتاد ، المراسل الخاص لصحيفة لومانيتيه ـ ديمانش ، لدى « الأنصار المصريين » ، وصل وفي رأسه أفكار بسيطة . وقد وجد صعوبة كبرى في فهم وضع مصري خاص جداً كان يختلط فيه ، في حالة فوضى مخيفة لكن لأجل هدف مشترك هو طرد الاحتلال ، رجال الكوماندوس الفعالون للأخوان المسلمين ، ومجموعات الهجوم التي نظمها

حزب القمصان الخضر الفاشي ، ومجموعات القتال الشيوعية ، بالاضافة لكل من كانوا يطلقون النار دون أن يكونوا منتسبين لأي حزب ـ وكانت تقدم الجزء الأساسي من الأسلحة المنظمة السرية للضباط الأحرار . يقول روبي غرونسبان عن تلك الفترة ، التي كان أثناءها في العشرين من عمره ، طالباً ، وعضواً في ح د ت و : « كانت فترة مجنونة . ذات يوم ، كنت أزور صديقاً على متن سفينة حرب مصرية . حين عرف قائدها أني شيوعي ، قال لي : « هاك ، خذ هذه » . كانت بندقية رشاشة من طراز فيكرز . وقد تقلدتها وحملتها معي إلى البيت بصورة مظفَّرة . وكاد والدي يطير فرحاً . كنا نتجول جميعاً حاملين مسدسات وقنابل . . . فالحركة الشعبية كانت تحملنا . كان « هناك موج هائل من الانتسابات بحيث فاض ذلك كلياً عن امكانات الاستيعاب لدينا . نجحنا في تنظيم مظاهرات ضمت مليون شخص في القاهرة ونصف مليون في الاسكندرية . . .

هاكم هذه المفارقة أيضاً : إن الحركة الشيوعية التي أضعفتها الشلل المتكاثرة ومزقتها ، لم تكن يوماً على ذلك القدر من النفوذ منذ الأيام العظيمة في شباط 1946 ، الا في ذلك العام 1951 . . . ومثلما كان المناضل الموقوف يجهل إذا كان سيسقط من كورتلين ألى كافكا ، فإن المؤرخ ، يتأرجح بين بانيول وميشليه من أجل تذكّر تاريخ حركة متميّعة وكلية الحضور . ماذا كانت الحركة الشيوعية المصرية غير كوكبة بائسة من الشلل التي تكتسحها الخصومات ، إذا ما قارناها بالحزب الشيوعي الفرنسي العملاق ، بمنظمته المزيّتة جيداً ، وآلاف المتفرغين لديه ، وسيوره النقابية لنقل الحركة ، وصحافته الوطنية والاقليمية ، وشركاته التابعة ، وقدرته المالية ، والمقترعين له الذين كانوا يمثلون آنذاك ربع الجمهور الفرنسي الناخب ؟ لكن من من الاثنين كان يدفع بالتاريخ إلى الأمام ، في سنوات ما بعد الحرب تلك ، حين كان العالم يستأنف تحركه بعد الهزة الكبرى ؟

مثلما حدث عام 1946 ، كان يحركُ الجماهير المصرية ، المصرة على اعطاء الحق لكورييل ضد الدكاترة في الاقتصاد ، مطلب الاستقلال الوطني . كان الملك يلقى التشنيع ، والاحتقار بسبب نزواته الطائشة ، وقد فقدَ الاعتبار منذُ كشفت صحافة شجاعة مسؤولية القصر عن الهزيمة العسكرية في فلسطين . وكان الوضع الاجتماعي متوتراً بمقدار ما كان عام 1947 . وللمرة الأولى منذ عقود ، كان الريف المصري يرتجف ، وقد اكتسحت أربع انتفاضات فلاحية أملاك الاقطاعيين الكبار ، ومن بينهم فاروق بالذات . وأودى القمع بحياة عشرة أشخاص . لكن الوجود الانكليزي في منطقة القناة هو الذي كان يقذف بالجماهير مرة أخرى ودائماً إلى شوارع القاهرة والاسكندرية. كتب الشاهدان الثمينان، الزوجان لاكوتور: «كانت «المسألة الوطنية » تنطرح على الجميع كعذاب جماعي . ان احتلال القوات الأجنبية للأرض ، مهما يكن

محدوداً ، كان إهانة ومصدراً دائماً لـلاستنكـار[1] » .

لقد أبرزت الممارسة صحة نظريات كورييل التي كانت ترى أن في وسع الدينامية التي تخلقها المطالبة الوطنية أن تدفع بالحركة الشعبية إلى أبعد بكثير من هدفها الأساسي . كتب الزوجان لاكوتور ، مسترجعين نفوذ الحركة الشيوعية في الأشهر الأخيرة من عام 1951 : « كانت قد نجحت في الإمساك بدفة الموجة القومية التي كانت تجتاح مصر وفي اعطائها تلويناً ثورياً ، وذلك بمهارة مذهلة . في حين كـان الوفـد والإخوان يتفـوقان تفـوقاً عـظيماً من حيث ضخامة العدد ، كان المناضلون الشيوعيون ، قد نجحوا في تحويل هذه القـوى للسير في خط الحزب . كانوا يجعلون من الحشود الزاحفة لإعـلان حقدها على الانكليز وزُمَر القصر جمـاهير متمـاسكة تـطالب بـالسلم ، وبـالصـداقـة مـع الاتحـاد السـوفيـاتي ، ورفض « المعـاهـدات الحربية » . كانت تجري تقنية هياج شعبي في عمل ثوري [2] » هكذا فإن **حركة السلام** ، التي كانت تضم عشرات الألوف من المنتسبين المنظمين في لجان منطقيـة تغطي كـل البلد ، كانت تقود مظاهرات هائلة ضد القنبلة الذرية وضد النزعة إلى الحرب ، في الوقت نفسه الذي تنادي فيه بالكفاح المسلح لطرد آخر المحتلين من البلد ، وهو ما لم تكن تنقصه السخرية من جانب حركة سلام ، وفقاً لملاحظة هنـري كورييـل . وأبعد بكثـير من عام 1951 المحمـوم ، سوف يلاحظ الزوجان لاكوتور « التأثير الهائل للدعاوة الشيوعية في وادي النيل ـ وهو تأثير لا يتناسب بتاتاً مع الحجم الهزيل للحركات الماركسية المحلية[3] » .

لكن حين يلاحظ المؤرخ الماركسي الشاب محمود حسين بصرامته المعهودة حيال أسلافه : « عام 1951 ، وفي حين كـانت الموجـة المعاديـة للاستعـمـار تنطلق من جـديد ضـد الاحتلال البريطاني ، لم يعرف الشيوعيون كيف يخلقون قواعد شعبية للكفاح المسلح في المناطق الفلاحية ويربطون الكفاح المعادي للاستعمار بالكفاح الثوري لأجل الاستيلاء على السلطة[4] » ، لا بد من ملاحظة أنه على حق . ما عدا أننا إذا أخذنا بالاعتبار تلك الفترة والواقع الذي كان قائماً خلالها فإن أياً من أكثر النقاد صرامة حيال «النزعة السياسية المغامرة» لدى هنـري كورييـل وأصدقائه ما كان نسب اليهم ، مهما يكن ، نية خلق « قواعد شعبية للكفـاح المسلح » في ريف مصري يكاد يخرج آنذاك من خدره الدهري ، ولا سيما نية أخذ السلطة بالاستناد لقوى بالغة الضآلة . . .

---

(1) مرجع مذكور ، ص 100 .

(2) مرجع مذكور ، ص 247 .

(3) مرجع مذكور ، ص 200 .

(4) محمود حسين ، مصر ، صراع الطبقات والتحرر الوطني ، دار ماسبيرو ، ص 56 . (محمود حسين هو في الواقع الاسم المستعار الجماعي الذي اختاره مؤلفان شيوعيان مصريان)

كانت « معركة القناة » تمتص لوحدها الطاقة القتالية المتوفرة . كانت تخضب بالدم الصحف المصرية ؛ وكانت إذاعة القاهرة تسترجع دون تردد صورة فردان وستالينغراد . وقد اورد بيير كورتاد في ريبورتاجه وتحت تأثير جو البطولة المحيط ، رقماً يصل إلى ثلاثمئة قتيل انكليزي ، في حين كان العدد أقل في الواقع عشر مرات . لقد ازدهرت الحذلقة . الا انه في 19 كانون الثاني 1952 ، قام رجال كوماندوس مصريون بهجوم في وضح النهار ، وبجرأة نادرة ، على الحامية الانكليزية في التل الكبير . وقد قامر الجنرال أرسكين ، القائد العام البريطاني ، بكل شيء . كان يحتج منذ وقت طويل ضد سلبية الشرطة المساعدة ، البولوك نظام ، التي كان يقضي واجبها مبدئياً بشل مقاتلي حرب العصابات ، في حين كان أفراد منها ينضمون طوعاً إليهم لأجل القيام بعمليات ليلية . كانوا يعسكرون في ثكنتين وسط مدينة الاسماعيلية ، الواقعة تحت الاحتلال البريطاني . وقد عمد ارسكين ، في 25 كانون الثاني الساعة السابعة صباحاً إلى تطويق الثكنتين بواسطة دباباته وتوجيه انذار لكولونيل البولوك نظام معطياً إياه ساعتين لتسليم السلاح .

ما كان يمكن أية حكومة مصرية أن تصمد لو جرى الرضوخ . لذا أمر وزير الداخلية برفض الانذار .

إذا كانت « معركة القناة » غير جدية في الغالب ، الا أن الشجاعة المصرية قد افصحت عن نفسها في 25 كانون الثاني . كانت الأسلحة الوحيدة التي بحوزة الثمانمئة بولوك نظام بنادق قديمة وخمسين خرطوشة مع كل شرطي . وحين استسلموا ، بعد نفاد ذخيرتهم ، كان قد سقط أكثر من خمسين قتيلاً ، وأكثر من مئة جريح بين صفوفهم .

في اليوم التالي ، كانت القاهرة كتلة من النار والدم .

كانت الفترة الصباحية قد جمعت حشوداً ضخمة يختلط فيها البورجوازيون والعمال والعسكريون والموظفون والطلاب ورجال الشرطة والمناضلون من كل الأحزاب . وبعد الظهر ، قامت مجموعات منظمة جيداً بتحويل المظاهرة الوطنية إلى فتنة معادية للأجانب وعنصرية . اكتسح الحريق المطاعم ، وعلب الليل ، والمحلات والكنائس اليهودية والسينمات والنوادي البريطانية ، ومقهى غروبي المشهور ، وفندق شيفردس الوقور ، ومراكز الشركات الأوروبية : تمّ تدمير أكثر من أربعمئة مبنى . وكانت فرق مثيري الحرائق تقطع أنابيب رجال الأطفاء . وفي العديد من الحالات ، كانت النار تلتهم منكودين يحاولون الهرب من المباني المحترقة .

بعد مرور ثلاثين عاماً ، ليس في وسع أحد أن يحدد بدقة المسؤولين عن ذلك الكابوس .

هل كانوا عملاء للقصر الملكي ؟ متطرفين مسلمين ؟ قمصاناً خضراء فاشيين ؟ ليس ثمة دليل حاسم . إن المؤرخ محمود حسين لا يريد أن يرى في الحريق غير « التعبير » عن « حاجة أصيلة لدى الجماهير المحرومة موجهة بشكل أساسي ، وبأشكال متنوعة ، ضد أعداء الشعب[1] » . كان ثمة بدون ريب انفجار معاد للأجانب وارادة إحراق الأمكنة التي ترمز الى الترف الغربي الذي كان اهانة دائمة لبؤس البروليتاريا الرثة المدينية . لكن كيف يمكن ألا نأخذ بالحسبان شهادات من جانب العديد من المراقبين تصف فرقاً متجانسة تدخلت في حينه واستخدمت مثلاً متفجرات حارقة ؟ . . .

شيء وحيد أكيد ، هو أن فاروق لم يتدخل . ففي ذلك اليوم ، كان يولم لستمئة ضابط على شرف ولي العهد . ورغم الحاح وزير الداخلية ، رفض الاستعانة بالجيش على امتداد ما بعد الظهر ولم يعط الضوء الأخضر الا بعد انفجار الإضطرابات وتطورها . كان في وسع الملك الضخم ، الذي طالما تردد على كل كازينوهات أوروبا ، أن يعتبر نفسه في مساء 26 كانون الثاني ، اللاعب المنتصر في حفلة البوكر التي بدأت في اليوم السابق عند الفجر . كان الانكليزي أرسكين قد افتتحها بانذاره بهدف مرجح هو خلق اضطرابات خطيرة لتبرير احتلال جديد للبلد . وقد زادت الحكومة الوفدية الرهان إذ قبلت بالمجزرة بحق البولوك نظام ، الذين سوف يجعل الرأي العام العالمي منهم شهداء الاستقلال المصري . أما فاروق فنهب كل ما على الطاولة بأن تخلص من الوفد ، مقيلاً حكومته العاجزة عن حفظ النظام ، وذلك قبل أن تنطفىء آخر بؤر التوتر .

بادر علي ماهر ، رئيس الوزراء الجديد ، إلى شل الحزب الوطني الكبير بمهارة ، وسجن الشيوعيين ، وإنهاء « حرب القناة » . واستتب النظام الانكليزي ـ الفاروقي .

بعد ستة أشهر ، في 23 تموز 1952 ، استولى الضباط الأحرار على السلطة ووضعوا في قيادتهم اللواء محمد نجيب ، الذي جرح ثلاث مرات في فلسطين .

*

* *

في 2 آب ، امتدح راديو بوخارست « الحركة المنبثقة من الشعب التي ضربت الاقطاع وقوى الحرب المصرية » . لقد وضعت رومانيا ، بذلك ، نوطتها الفريدة في الكونشرتو الاشتراكي . إلا أن ما بثته إذاعة بوخارست توقف عند هذا الحد .

(1) المرجع ذاته ، ص 53 .

أما **الدايلي ووركر** ، جـريدة الحـزب الشيوعي الانكليـزي اليوميـة ، فأيـدت انقلاب الضباط الأحرار . وقد نشر ادريس كوكس ، مسؤول الحـزب عن القضايـا الدوليـة ، تحليلاً داعماً للنظام المصري الجديد في المجلة الشيوعية الشهرية **نيوز اند فيوز** .

في الشهر التالي ، نشر بالم دوت في المجلة ذاتها مقالاً يتناقض مع مقال ادريس كوكس ، يصف فيـه نظام محمـد نجيب بأنـه ديكتاتـورية عسكـرية تقليـديـة ، يجب أن يقـاتلهـا كـل الديمقراطيين .

هذا الانعطاف غير المجيد أعاد الحزب الشيوعي الانكليزي الصغـير إلى الأورثوذكسيـة التي كـان ابتعد عنهـا بدون حـذر ، أما السبب فهـو اتخاذ المعسكـر الاشتراكي مـوقفـاً ضـد الانقلاب . وقد قاد الحزب الفرنسي الهجوم : « ديكتاتورية عسكرية » ، «زمرة عسكرية تستعد لارساء نظام فاشي سافر كخطوة نحو انضمام مصر إلى المعاهدة العسكرية للشرق الأوسط » ، « تفوح من تصريحاتهم الروائح الكريهة للفاشية » . وفي رسالة جدارة ملفتـة للنظر بعنـوان : « الحزب الشيوعي الفرنسي ومصر ، 1950-1956 » ، ابرزت ماري ـ دومينيك غريش المقالات والتصـريحات المعبـرة عن ارادة ح . ش . ف . الواعيـة للخلط بين السلطة المصـريـة الجـديـدة والنازية . ولم يكن ثمة ما هو أسوأ ، بعد ست سنوات من نهاية الحرب العالمية الثانية ، بالنسبة لرأي عام كان لا يزال تحت صدمة الفظاظات الهتلرية . تجد نفسك أمام الاعلان المذهل بأن شاخت ، وزير المال السابق للرايخ الثالث (لكن الذي تمت تبرئته في محاكمات نورامبرغ) هو « ضيف الشرف » لدى اللواء نجيب . أو أيضاً أن « الـ STO سوف يُفرض لمدة عام على كل الشبان المصريين » . وفي **لومانيتيه** ، كانت كاريكـاتورات ميتلبـرغ العنيفة تضـع كاسكيتـات هتلرية نموذجية على رؤوس الضباط الأحرار مقطبي الوجوه .

وما عدا استثناء واحداً، فإن كل أحزاب الحركة الشيوعية المصرية ، وتجمعاتها وشللها ، اتخذت موقفاً ضد السلطة الجديدة . وقد تميز الحزب الشيوعي المصري بقيادة اسماعيل صبري عبدالله وفؤاد مرسي بعنفه الشديد ، لكن الادانة كانت إجماعية ، ومن دون فروق .

أما الاستثناء الوحيد فكان **ح د ت و** .

في حين اكتسح الجيش القاهرة ، قام بدر ، الأمين العام للحركة ، بإبلاغ هنري كورييل في باريس بأنه يتابع تطور الوضع بانتباه . فزمجر كورييل : « ليس المطلوب متابعة الوضـع ، يجب النزول إلى الشارع مع الجيش ! » وقد فعل بعض المناضلين ذلك دون انتظار التعليمات واختلطوا بالجنود على العربات المصفحة التي كانت تقوم بالدورية في شوارع القاهرة . حدث الانقلاب في ليل 22-23 تمـوز . ومنذ فجـر 23 تموز ، أصـدرت **ح د ت و** بيان دعم للجيش

قامت بتوزيعه . ولم تكذب الأيام التالية هذا الالتحاق العفوي . وفي منتصف آب ، صدر في **نشرة الدراسات والمعلومات حول مصر والسودان** ـ وكانت نشرة متواضعة لحدتو تُطبع في باريس ـ مقال طويل ينضح منه أسلوب هنري كورييل . وقد حلل فيه « كتلة الجيش ـ الشعب » وبيَّن الدعم الكثيف الذي قدمته للضباط الأحرار كل شرائح الشعب المصري ، من طلاب الأزهر إلى الجسم التعليمي ، ومن البورجوازية الصغيرة إلى الجماهير العمالية في شبرا الخيمة . لاحظ أن الشارع يبدي حماسه اليومي للنظام الجديد . وقد خلصت ح د ت و إلى القول : « لم تحصل « مؤامرة امبريالية » يوماً على هذا القدر من الدعم الشعبي . إن الجماهير الشعبية لا يمكن أن تكون مخدوعة إلى هذا الحد » .

لكن ح د ت و كانت مخدوعة بالضرورة لأن الحزب الشيوعي الفرنسي ، « الحزب الشقيق الكبير » ، ومجموع المعسكر الاشتراكي وكل المنظمات الشيوعية الأخرى في مصر ، ألصقت تهمة الفاشية بثورة الكولونيلات . إن ح د ت و ، أو « كورييل وشركاه » حسب تعبير الحزب الشيوعي المصري لاسماعيل صبري عبدالله ، وضعت نفسها خارج الحركة الشيوعية العالمية .

الا أن مأساةً وحادثةً جاءتا لتبررا في الظاهر اللعنة المنصبة على ح د ت و .

حدثت المأساة في 12 آب في مصنع نسيج بكفر الدوار ، على بعد عشرين كم عن الاسكندرية . ولا شك انها كانت نتيجة استفزاز مدروس جيداً : منذ العاشر من آب ، حذرت النقابات المصرية المتسببين اليها من دسائس عملاء القصر الملكي ، بعد أن جرى تنبيهها . وقد أدت مطالبة كلاسيكية بزيادة الأجور إلى إطلاق « غوريلات » الادارة النار على العمال . فعمد هؤلاء الأخيرون إلى إحراق عدة مبانٍ ، فأطلقت الشرطة النار وقُتل أحد العمال . ثم تدخل الجيش في فجر 13 آب ، مسقطاً ثمانية قتلى وعشرين جريحاً ، وأتبع ذلك باعتقالات جماعية . وقد جرى تحويل قائدَيْ التحرك العمالي منذ صباح اليوم التالي إلى محكمة عرفية قضت بإعدامهما . فهتفا لدى سماعهما بالحكم : « لقد سرنا وراء محمد نجيب ، عاشت الثورة! » أما الحكم فتلي في ساحة المصنع أمام العمال المتجمعين . وقد دافع عبد الناصر ، وعبد الحكيم عامر وخالد محيي الدين ، من بين الضباط في السلطة ، عن العفو بحماس . إلا أنهم بقوا أقلية ، وهكذا جرى إعدام المحكوم عليهما . و« الثورة البيضاء » ، أي غير العنيفة ، التي مجَّدها صانعوها ، تخضبت بالدم ، وبالدم العمالي تحديداً . ألم يكن ذلك تأكيداً للطابع الرجعي الشرس للسلطة الجديدة القائمة في القاهرة ؟

أما الحادثة فتسبب بها روجيه فايان . كانت النشرة الفرنسية ، **الدفاع عن السلام** ، التابعة للشيوعيين ، قد ارسلته في الأيام الأولى من شهر آب ليقوم بتحقيق في مصر . وبالطبع

كان فايان التقى هنري كورييل قبل رحيله ليحصل منه على عناوين يكون مفيداً الاتصال بها عند وصوله . وقد استقبله في القاهرة الشاعر كمال عبد الحليم ، الذي غدا أحد قادة حركة السلام ، فجرى القاء القبض عليهما معاً في إحدى قرى الدلتا . وبعد نقل الرجلين إلى القاهرة ، أخلي سبيلهما بسرعة ، لكن النبأ ترك أثراً عميقاً (نشرته البرافدا) وأثار احتجاجات عنيفة . ألم يكن نظام يلقي في زنازينه كاتباً فرنسياً تقدمياً كبيراً يكشف عن وجهه الحقيقي ؟

جرى الاحتفال في باريس بفايان كناج من الفاشية ؛ وقد روى هو مغامرته بالغنائية التي كان مفعماً بها في تلك الفترة ، لكن الجميع فهموا بسرعة أنه وقع ضحية حادث طارىء : فوصول شخصين لامعين مثل كمال ومثله إلى قرية مصرية كان لا بد أن يستنفر الموظفين الصغار المكلفين بحفظ الأمن في الأرياف . كانت القضية على مستوى ناطور الحقول لا على مستوى الكولونيلات ـ خدم الأمبريالية . لا سيما أن الكاتب رسم لوحة غير متوقعة للوضع المصري . فالسكان كانوا يدعمون الفريق الحاكم بكثافة ، ذلك أنهم شعروا بالانقلاب كثورة . كان لا بد للتساؤلات حول المستقبل ـ ولم تكن قليلة ـ أن تأخذ بالحسبان واقع أن صفحة من التاريخ قد طُويت ، وأن الشعب المصري بكل طبقاته هو الذي طواها ، وليس حفنة من الضباط الانقلابيين .

ابرزت الصحافة الشيوعية ريبورتاج روجيه فايان بصورة محدودة . أما الكتاب الذي كتبه في قلب الاحداث ، بعنوان **Choses Vues en Egypte*** ، فقد أتلف حريقٌ منكِّدُ القسم الأكبر من أعداده المسحوبة لدى ناشره الشيوعي ، بحيث بقي المؤلِّف سرّياً . ووفقاً لما تقوله ايليزابيت فايان ، فإن سوء الحظ بادٍ للعيان لأن النار تفادت الكتب الأخرى ولم تهاجم غير نسخ الكتاب الخاص بزوجها .

لكن الحزب الشيوعي الفرنسي لم يضطغن على المؤلف بسبب شططه في الحكم فلقد كانت صداقته حيال هنري كورييل معروفة ، ومن البديهي أن يكون وقع تحت التأثير المشؤوم لزعيم ح د ت و .

لكن سرعان ما سيأتي الوقت الذي سينتزع فيه رسامو لومانيتيه كاسكيت جمال عبد الناصر ذات الشكل النازي ليطوقوا جبينه بأكاليل الغار التقدمية في حين ستمتدح العديد من الافتتاحيات شجاعة الحكومة المصرية وبعد نظرها السياسي . أما فؤاد مرسي واسماعيل صبري عبدالله فسيغدوان كلاهما وزيرين لعبد الناصر ؛ وسوف يحتفظ اسماعيل بالوزارة في ظل السادات .

* *
*

* أشياء رأيتها في مصر (م) .

كان فؤاد مرسي متكوماً في مقعده ، هو الذي يتناقض جسمه الثقيل المربوع مع روعة صالونه البديع للغاية : خنزير بري في علبة جواهر . وقد راح يقول : « أجل ! كان كورييل على حق ، وكنا مخطئين . لكن لماذا كان محقاً ؟ لماذا ساير الضباط الأحرار ؟ لأنه كان له رجاله بينهم . كان له أحمد فؤاد ، وأحمد حمروش ، ويوسف صدِّيق، وخالد محيي الدين ، وحتى عبد الناصر إلى حدٍّ ما . لقد قال في نفسه : « بما أنهم مشاركون في الأمر ، فهذا يناسبنا » . وأنا أسمّي ذلك انتهازية . وكنت أقول هذا في تلك الفترة » . وحين غامرنا في الايحاء لمرسي بأن تفسيره مختصر قليلاً ، قال تلك الكلمة الفخمة ، المرفقة بحركة امبراطورية : « ثمة من يصنعون التاريخ ، وأولئك الذين يكتبونه . ولا يهمني إطلاقاً أن أكتبه » . ويبقى محاوره صامتاً ، فهو لم يحلم أبداً بصنع التاريخ وليس متأكداً جداً من معرفة كتابته . . .

أما اسماعيل صبري عبدالله فذكي كما كان دائماً : « لقد ارتكبنا أخطاء . وقعنا في الانحراف اليساري والعصبوية . وكردّ فعل على الوضع الذي وجدناه ، رفضنا أن ننسِّب غير المصريين ، لا بل كان لدينا تحفظ أكيد في تنسيب نساء . وكنا نرى أن درجة تطور البلد تبرر هذا التحفظ . فالخصم كان يقرن الشيوعية بالالحاد والحرية الجنسية . كانت الستالينية سائدة ، ولم نكن بريئين منها . وكان تحليلنا للطبقات يبخس البورجوازية الصغيرة دورها الكامن . والحال أنها تتحرك في البلدان المتخلفة أكثر بكثير مما تفعل البروليتاريا . يبقى اننا نجحنا في بناء منظمة صلبة ، تحميها تدابير أمنية صارمة ـ الأمر الذي تميَّز عن الحماقات السابقة . كان فؤاد مرسي أميناً عاماً ، وكان اسمه الحزبي خالداً . خلال ثمانية أعوام كانت الشرطة السياسية تجهل من هو خالد . وقد جرى توقيف أربعة قياديين ، أنا أحدهم ، واتهامهم بأنهم خالد . وعلى الصعيد السياسي ، كان لدينا برنامج من إحدى عشرة نقطة لقي صدى عظيماً ، بما فيه لدى الضباط الأحرار . كان يتضمن إعلان الجمهورية ، وإجراء اصلاح زراعي وتأميم الاحتكارات ، ومن بينها قناة السويس .

« لكن المأساة الكبرى للحركة الشيوعية المصرية كانت عجزنا عن القيام بتحليل معمَّق للتركيب الطبقي للجيش المصري ولعلاقاته بالمجتمع المصري . كنا عاجزين عن أن نفهم أن في وسع عسكريين أن يلعبوا دوراً ايجابياً ، تقدمياً . ولقد وقعنا في ذلك ضحايا زيغ الشيوعيين الغربيين الذين يشتبهون بكل ما هو عسكري . وكان باقياً علينا أن نتعلم أن دروب الثورة ليست الدروب ذاتها في أوروبا وفي العالم الثالث . هكذا تعاملنا مع الضباط الأحرار بتشكك . وينبغي الاعتراف بأن قضية كفر الدوار لعبت دوراً كبيراً في ذلك . فأنا لا أؤمن بالثورات ، التي تشنق عمالها . لكن عبد الناصر كان قد صوّت ضد الاعدام ، وكذلك خالد محيي الدين . وكنا نجهل ذلك ، أما اليوم فنرى بوضوح أنه لم يكن ينبغي أن نجعل من شنق العمال

منطلقاً للقطيعة مع النظام . كان ينبغي أن نكون قوة اقتراح وتأثير . وكان من الضروري التفكير بأن المثل الأعلى الاشتراكي لم يعد حكراً على الماركسيين، واستخلاص النتائج مما كنا نردده حول عدم وجود طريق تطور رأسمالي في العالم الثالث . كان يمكن أن نتوقع ، عن طريق الربط بين هاتين العبارتين ، إمكانية وجود اشتراكيين غير ماركسيين . يمكن أن يكون للبورجوازية الصغيرة في العالم الثالث مثل أعلى اشتراكي . وكان يجب أن نفهم أن الضباط الأحرار كانوا بورجوازيين صغاراً مع الكثير من التشوش في أفكارهم . كانوا يبحثون عن طريقهم ، ولقد كان علينا أن نساعدهم بدل مناهضتهم .

« صحيح أن كورييل كان على حق ، لكن هل كان ذلك لأسباب جيدة ؟ كان يعوِّل على الضباط الأحرار الأعضاء في ح د ت و أو القريبين إليها . كانوا أقلية كما أثبتت الأحداث فيما بعد . فلقد كانت عبقرية عبد الناصر تكمن في جمعه حوله الضباط من كل الاتجاهات ، من الاخوان المسلمين وصولاً إلى الشيوعيين ، وفي جمعهم حول أصغر قاسم مشترك : إطاحة الملك ، ورحيل الانكليز . فيما بعد ذلك ، كانت تبدأ الالتباسات . كان لا بد أن تنفجر نزاعات داخلية ، ولقد أثبتت أن غالبية أعضاء مجلس الثورة لم تكن إلى اليسار . وهو أمر أخطأ كورييل بصدده » .

من المؤكد أن هذا التفسير مقتضب بعض الشيء . فهنري كورييل وأصدقاؤه لم يختاروا تأييد الانقلاب لأنهم اكتشفوا فجأة في جريدتهم المفضلة أسماء عدة ضباط أحرار أعضاء في ح د ت و أو متعاطفين معها . وإذا كانوا قد فهموا على الفور الطبيعة الثورية لأحداث القاهرة ، فلأنهم قاموا بهذا « التحليل المعمَّق للتركيب الطبقي للجيش المصري » ، الذي يأسف اسماعيل صبري عبدالله لأن جماعته كانوا يفتقدونه . ذلك أن كورييل « الأجنبي » ، كورييل « الكوسموبوليتي » ، الذي خرج بالشورت والحذاء المسيَّر من قصره في الزمالك ، كان يعرف جيشه المصري أفضل مما يعرفه أي من منافسيه الشيوعيين ، لسبب بسيط هو أنه كان يلتقي منذ قرابة عشر سنوات نواب ضباط وضباطاً تقدميين . لم يكن يمكن الآخرين أن يجهلوا الوضع الاجتماعي البائس للجيش (تتذكر امرأة اسماعيل صبري عبدالله الفضيحة التي أثارتها ثلاث صديقات لها ، من بنات البورجوازية الكبرى ، وقعن في حب ثلاثة ضباط : « الوقوع في حب ابن فلاح ! ») لكنهم كانوا يعتبرون كل من يرتدي الزي العسكري رجعياً بطبيعته ومآله . وهاكم التحليل الطبقي الذي كان ينقص الدكاترة الماركسيين في الاقتصاد : « لا يشكل مِلاك الضباط المصريين فئة مغلقة كما في بعض بلدان اميركا الجنوبية أو تركيا . فمعظم الضباط يأتون من البورجوازية الصغيرة الدنيا . يحصلون على أجر بائس ؛ ويعانون في كل لحظة ، عبر والدهم واخوتهم وأهلهم ، من أنواع البؤس والمطالب الخاصة بأصحاب

الدكاكين ، والموظفين ، وصغار القضاة ، وباختصار كل الطبقة الدنيا من الشعب المصري . ليس هناك من سد منيع بين جسم الضباط وضباط الصف الذين يشكلون هيكل الجيش : لقد كانوا ضحايا الاهانات ذاتها من جانب المدربين الانكليز في فترة غير بعيدة . وينتمي الجنود إلى أكثر الشرائح فقراً لأنه يكفي دفع أربعين جنيهاً للحصول على إعفاء من الخدمة العسكرية . ثم إن ورش الجيش التي كان يعمل فيها إبان الحرب عشرات الألوف من الناس ، هي التي باتت تقدم مذاك للطبقة العاملة المصرية أفضل مناضليها النقابيين والسياسيين . ليس الجيش المصري منفصلاً إذن عن الأمة ، ولا هو عاجز عن التعبير عن التطلعات الشعبية والدفاع عنها » . هذه السطور كتبها روجيه فايان لدى عودته من مصر ، وهو دكتور في الفجور وليس في الاقتصاد لم يكن يعرف أزقة القاهرة جيداً ، لكن هنري كورييل أنار رؤيته السياسية ووجّه ريشته[1] .

فلنتذكر الجملة الواخزة التي تفوه بها صف الضابط الميكانيكي بدر : « لو أن هنري وُلد لأب مصري ، لكانت تغيرت خارطة الشرق الأوسط . . . »

كانت ح د ت و قد فعلت أكثر وأفضل من وضع بيادقها بين الضباط الأحرار . كانت حركتهم بالطبع مستقلة ، والتاريخ هو الذي حدد مراحل تقدمها : اليمين الرومانسية بتحرير الوطن التي أقسمها ثلاثة تلاميذ ضباط في العشرين من العمر ، هم جمال عبدالناصر ، وزكريا محيي الدين ، ومحمد أنور السادات ؛ إذلال 4 شباط 1942 ، حين انحنى فاروق أمام الدبابات الانكليزية ؛ حرب فلسطين ، حيث تصرّف المتآمرون بشجاعة (تلقى عبد الناصر رصاصة قرب قلبه) لكن التي انتهت بهزيمة ؛ « حرب القناة »وحريق القاهرة ؛ تطهير الجيش الذي بدأته شرطة فاروق السرية ، والذي دفع المتآمرين للانتقال إلى العمل عام 1952 في حين كانوا حددوا عام 1954 كموعد حاسم . لكن إذا لم يكن لـح د ت و سيطرة على سرعة الحركة ، فإن فعلها السياسي كان قد ساهم إلى حد بعيد في تطويرها ضمن منحى تقدمي . إن اسماعيل صبري عبدالله على حق ، فلقد كان الضباط بورجوازيين صغاراً لديهم « الكثير من التشوش في الأفكار » . فكلهم ، وعبد الناصر في مقدمتهم ، كانوا قد تذبذبوا بين الأخوان المسلمين والقمصان الخضر مروراً بالجناح اليميني للوفد . والجميع اقتربوا من الارهاب . وكان دور ح د ت و التاريخي تسييس حركة انبثقت من الحماس القومي (التسييس بالمعنى الأفضل للكلمة) . ولقد قام بهذا الدور خالد محيي الدين ويوسف صدّيق وأحمد حمروش ـ وهم ضباط كبار أعضاء في ح د ت و أو قريبون جداً منها ـ وقاضٍ ماركسي ، هو أحمد فؤاد ، انضم إلى

---

(1) روجيه فايان ، Choses vues en Egypte ، Boroboudour مطبوعات غاليمار ، ص 165 .

فريق المتآمرين وكان عضواً هو الآخر في ح د ت و (إن فؤاد هذا هو الذي كان ينبّه هنري كورييل إلى مذكرات الجلب الصادرة بحق المناضلين) . كانت قراءات مستفيضة وتجربة نضالية تعطيهم نفوذاً لا جدال فيه لدى اندادهم . هكذا كان خالد محيي الدين يحرر كل بيانات الضباط الأحرار ، وكانت تسحبها مطابع ح د ت و السرية . وكانت تصل إلى مقر الحزب الشيوعي الفرنسي نسخة عن كل بيان بإيعاز من هنري كورييل . ولو أن متفرغي مكتب المستعمرات أولوها الاهتمام الملائم ، فربما كانوا تحسسوا بعض المطالب (الاصلاح الزراعي ، العدالة الاجتماعية ، دمقرطة التعليم) التي نادراً ما رفعها انقلابيون فاشيون .

أخيراً فإن رجال ح د ت و لم يكتفوا بدور المنظّرين لحركة الضباط ، بل كان فعلهم على الأرض حاسماً . ففي ليل 22-23 تموز ، كان خالد محيي الدين ويوسف صديق أول من خطوا خطوتها بإخراج فوجها من الثكنة .

فجر 23 تموز ، وفي حين كانت مستشاريات العالم أجمع وأجهزته السرية ، الواقعة تحت المفاجأة ، تتساءل بشكل محموم حول شخصية المنتصرين على فاروق ، كان في وسع هنري كورييل ورفاقه في ح د ت و أن يعللوا النفس بآمال عظام . لم يكن للفريق الحاكم وجه أبي الهول بالنسبة إليهم ، ومن المرجح أن الأمين العام لمنظمتهم كان المسؤول السياسي المصري الوحيد الذي جرى إنباؤه بقرب وقوع الانقلاب . ولا شك أن الفوز لم يكن مضموناً سلفاً لأن حركة الضباط الأحرار لم تكن متجانسة إطلاقاً . لكن المستقبل كان مفتوحاً وكان الشيوعيون يملكون أوراقاً أساسية مع صدّيق ، ومحيي الدين وحمروش وفؤاد . حتى جمال عبد الناصر بالذات كان مشاراً إليه على بطاقات كورييل على انه « عنصر متعاطف ، ينبغي تنسيبه » ، وسوف يصبح صديقه صلاح سالم شيوعياً فيما بعد .

لكن لا يمكن اللعب مع فاشيين . كان الحزب الشيوعي الانكليزي صفّق للانقلاب تبعاً للمعلومات التي قدمها هنري كورييل ، الذي بقي على علاقة وثيقة ببعض الضباط البريطانيين التقدميين أو الشيوعيين الذين التقاهم في القاهرة خلال الحرب . لكن هذا الحزب الانكليزي بدّل موقفه بصورة فظة حين قرّر عرّافو المعسكر الاشتراكي ان النظام الجديد ذو طبيعة ديكتاتورية . ووصل الأمر بـح د ت و ، التي انحنت للعاصفة ، إلى حد الشك بتحليلها . يقول جوزف هازان : « كان ح.ش.ف. الحزب الشقيق الكبير الذي لا يمكن أن يخطىء . وبعد شهرين على وصول الضباط الأحرار إلى السلطة ، بدأت نشرة هنري كورييل نقدها الذاتي : « نحن مستعدون للاعتذار بصدد بعض الصياغات التي جرى اعتبارها مؤسفة ، كما لطلب الرأفة من قرائنا . فهذه النشرة تصدر بهمة مناضلين ينطوي تكوينهم ، لا سيما في هذا الميدان ، على ثغرات جدية . . .لذا فنحن متأكدون من أن الديمقراطيين الذين يمنحوننا شرف

قراءة كتاباتنا ويعرفون الصعوبات التي نعاني منها سوف يقدرون جهودنا أكثر مما يتوقفون عند نقاط ضعفنا . فليكونوا على قناعة بأننا سنبذل قصارى جهدنا لتخطي هذا الضعف » .

لكن هذا التواضع سيبدو غير مُجْدٍ : سوف تبقى ح د ت و ، « نصيرة الديكتاتورية الفاشية » ، مستبعدةً عن الحركة الشيوعية المصرية . أما هنري كورييل ، فسوف يتولى « الحزب الشقيق الكبير الذي لا يمكن أن يخطىء » تصفيته السياسية .

****

لم تُثَرْ قضية بخصوص كورييل ، بل أثيرت قضية بصدد مارتي . كان كورييل إحدى الحجارة التي تم التقاطها لأجل رجم مارتي ، وبضرب مارتي،كان كورييل يتحطم . وهذه هي احدى الطرق لاصابة عصفورين بحجر واحد . ولقد كان لدى الحزب الشيوعي الفرنسي في الخمسينيات خبراء في الموضوع مكوّنون على أيْدٍ ماهرة .

في 21 تشرين الثاني 1952 ، ظهر مقال في لومانيتيه بعنوان « الحزب والنشاط التكتلي للرفيقين مارتي وتّيون » . وقد ذكرت إحدى الفقرات بالتخصيص ما يلي : « اضطر اندريه مارتي للاعتراف بكل هذه الوقائع امام لجنة التحقيق ، مثلما اضطر للاعتراف بأنه أقام اتصالاً بزوجين مصريين مشبوهين تعرّف اليهما خلال مروره بالقاهرة عام 1943. والحال ان هذين المصريين مرتبطان بأحد اقربائهما ، وهو تروتسكي متهم بأنه كان « مخبراً » خلال العمل السري » .

كان ذلك تكثيفاً للجبن والخطأ والافتراء في قليل من السطور . جرى الامتناع بجبن عن تسمية الزوجين كورييل في حين ان التاريخ والمكان كانا يشيران اليهما بالنسبة لكل من لديهم اطلاع أولي .لكن إغفال الاسماء ، حتى الشفّاف ، سوف يسمح لا يلي مينيو ، مسؤول مكتب المستعمرات ، بأن يتظاهر بالدهشة حين جاءه المصريون ، وعلى رأسهم هازان ، طالبين ايضاحات : « لا أفهم يا رفاق ، فكيف بوسعكم التأكيد بأن الأمر يتعلق بالزوجين كورييل ؟ » .

وكان الخطأ والافتراء يطولان « القريب » ، الغُفْل هو ايضاً ، الذي كان الزوجان المشبوهان « مرتبطين » به . ويتعلق الأمر بأندريه فايل ـ كورييل ، المحامي في باريس ، الذي كانت امه ليوني أخت دانييل كورييل . غدا اندريه فايل ـ كورييل هكذا أول ابن عمة يجري استخدامه ضد هنري ؛ ولن يكون الأخير .

كان فايل ـ كورييل مناضلاً اشتراكياً ، انضم قبل الحرب الى اتجاه مارسو بيفير ، ولم يكن يوماً تروتسكياً . لكن لم يكن يمكن تصور قرار اتهام ستاليني من دون الصاق تهمة التروتسكية ، كنوع من اللمسة الفنية الأخيرة . وفي الخمسينيات ، كانت الصيغة المكرسة هي « الرعاع التروتسكيون » . الا أن المحرر الغُفْل للأومانيتيه اعتقد ان في وسعه عدم ايراد الموصوف التحقيري لأن التروتسكي متهم ، والحالة هذه ، بأنه كان « مسَلِّماً »* خلال المقاومة ، وهو ما يحيل بصورة نافعة الى الصيغة المكرسة في الثلاثينيات : « هتلري ـ تروتسكي » .

لبعض العائلات عبقريتها الخاصة . وأقل ما يمكن قوله عن الزوجين كورييل انه ليست لديها عبقرية البساطة . ومن المؤكد انه من المبالغة بمكانٍ القول بأن المسافة الأقصر بين نقطة وأخرى تمر لديهما دائماً بسرداب ، لأنه لا شيء عن سابق تصور وتصميم . إنهما في المسرحية المعقَّدة مثل سمكة في قفّة الصيد ؛ والقفّة لا تخطئهما أبداً . هذا قدر محتوم .

كان اندريه فايل ـ كورييل احد اوائل مقاومي فرنسا الحرة . انتقل من دنكرك الى انكلترا مع الوحدة البريطانية التي كان ملحقاً بها كضابط ارتباط، والتحق بديغول في اللحظات الأولى ، وهو ما عاد عليه بفرادة أن تصدر محكمة عسكرية فيشية ، تعمل في معسكر أروا بارك ، على مرأى من السلطات الانكليزية ، حكماً فورياً عليه بالسجن لمدة شهر . . . في اعقاب ذلك بدَّل المحكوم عليه موقفه دون حشمة واستقلّ المركب الذي اعاد الى فرنسا من كانوا يفضلون بيتان على ديغول . كانت تلك حيلة . ففايل ـ كورييل كُلِّف بتنظيم المقاومة الديغولية . لكن لأجل المزيد من إرباك مغامرةٍ لم تبدأ ببساطة ، كان قد جنّده رئيس ديوان ديغول ، الملازم أول هيثييه دو بوالامبير ، الذي لم يكن هذا دوره ، بحيث ان الكولونيل باسي ، المسؤول عن الأجهزة الديغولية ، كتب في مذكراته لاحقاً : « أبرق لي مراسل من فرنسا قائلاً ان واحداً باسم فايل ـ كورييل يزعم انه يعمل لفرنسا الحرة ، فأُجبت بحسن نية بأن ما يزعمه باطل ، وهو ما قد يكون سبَّب للمسكين ذيولاً جدية[1] » . كان القضاء والقدر الكورييلي يواصل المسير .

كعميل سري مرتجل ، قام اندريه فايل ـ كورييل بعدة اتصالات وارتكب اعمالاً يشوبها انعدام الحذر على غرار رفاقه في المهمة : فالمقاومة بحد ذاتها كانت من قبيل عدم الحذر ؛ إذ إن التحري لاكتشاف مقاومين لاحقين وتجنيدهم كان يجبر المرء على الاصطياد في ماء عكر . وقد

* donneur ، أي الذي يسلِّم أحداً للعدو (المعرب)

(1) الكولونيل باسي ، مذكرات ، مطبوعات راوول سولار .

وقع في الفخ بسبب سمكة قرش بأسم غافو له في احتراف الخيانة تاريخ استثنائي ، حيث قدَّم للمشانق النازية عشرات الضحايا . وإذ كانت الغستابو تفتش في مكتب المحاماة الخاص به ، عثرت على رزمة رسائل موضوعة على مكتبه . وكان المرسل هو اوتو ابيتز ، سفير المانيا في باريس ، الذي يرفع الكلفة في حديثه مع صديقه القديم اندريه . ولقد اوقف فايل ـ كورييل في شارع دي سوسي .

كان قد التقى أبيتز قبل احد عشر عاماً ، عام 1930 ، في نزل للشبيبة في فوريه ـ نوار حيث كان ينعقد لقاء فرنسي ـ الماني . كان أبيتز آنذاك داعية نشيطاً للسلام وقد قامت صداقة أصيلة بين الرجلين خلال نزهاتهما في الغابات ، واستمرت بعد انضمام أبيتز الى النازية ، لأن فايل ـ كورييل حضر الألعاب الأولمبية في برلين ، عام 1936 ، بناء لدعوته . ثم انقطعت علاقاتهما ، لكن في تشرين الثاني 1940 ، شاءت الصدفة ان يلتقي في صالة شاي باريسية سفير ألمانيا والعميل السري لفرنسا الحرة . وكان يصحب فايل ـ كورييل زميله ليون ـ موريس نوردمان ، الذي سيقع هو الآخر ضحية غافو إبان تفكيك شبكة متحف الانسان ، ويسقط بالرصاص في مون فاليريان . وقد كان سرور فايل ـ كورييل عظيماً بسبب هذا اللقاء المفاجىء . كان قد حاول إعادة الصلة مع ابيتز منذ عودته من انكلترا ، لكن سفير ألمانيا ترك رسالة ، ومخابرة هاتفية ، وتدخُل شخص ثالثٍ ، دون جواب . وقد تداول الرجلان بالوضع خلال ثلاثة أرباع الساعة ، والتقيا مجدداً بعد ثمانية ايام في المكان ذاته لأجل جولة افق جديدة .

يتحدث هنري نوغير ، مؤلف كتاب عظيم الأهمية في خمسة اجزاء ، بعنوان **تاريخ المقاومة** ، عن هذه اللقاآت بريشة الكولونيل نوغير ، القائد المقاوم الذي لم يحاور العدو يوماً إلا بالرصاص : « لم تكن تلزم الارادة فقط ، بل القدرة ايضاً على فعل ذلك فيزيائياً . والحال انه لا يبدو أن فايل ـ كورييل ، إذ التقى هكذا أبيتز مرتين ، شعر بالتغلب على أي نوع من الاشمئزاز ، في خدمة المصلحة العليا لمهمة لم تكن تتطلب اطلاقاً البحث عن اتصالات من هذا النوع[1] . . . » يا له من رد فعل مدهش ! فأي عميل سري ـ وهل كان فايل ـ كورييل شيئاً آخر ؟ ـ كان اجتاز باريس خَجْلاً لأجل محادثة مع سفير ألمانيا ؛ ومن كان تردد في تناول الشاي مع ادولف هتلر بحجة ان هذا يثير نفوره ، كان استحق الاحالة امام المحكمة العرفية ، او على الأقل النقل ضمن الادارة او سلاح المطاردة الجوي . ان العميل السري الذي يستحق هذا الاسم ، بدل ان يشعر بالاشمئزاز ، يحس على العكس بحنان عظيم تجاه العدو اللدود الذي هو بصدد الاحتيال عليه ، وتدميره فيما هو يدغدغه . لكن هذه قصة اخرى . . .

---

(1) هنري نوغير ، تاريخ المقاومة ، منشورات روبير لافون ، الجزء الأول ، ص 345 .

لم يكن وارداً تعذيب صديق ابيتز ، فكيف تعليقه على المشنقة حيث سينتهي المعتقلون معه ، ضحايا الخائن غافو مثله . عرض النقيب (في الإس. إس.*) دورينغ على فايل ـ كورييل ان يطلق سراحه لقاء قبوله بأن يعطيه معلومات عن الأوساط الفيشية : « أريد ان أكوّن فكرة موضوعية عن الجو الذي يسود فيها ، كما أود ان تقرأ كل صحف فيشي وتقتطع منها كل ما يخص العلاقات الفرنسية ـ الألمانية . هل تعتقد ان في وسعك القيام بذلك ؟ هذا مضحك . فصحافة فيشي تصل الى باريس وليست الاستخبارات الألمانية بحاجة لشخص كفايل ـ كورييل كي يفرز مضمونها . لذا يلاحظ هنري نوغير بفطنةٍ الشيء التالي : « في غياب اية شهادة اخرى ، يلزمنا بما يخص تحديد « المهمة » المقترحة على فايل ـ كورييل اعتماد الرواية التي يقدمها لنا هذا . حتى اذا كانت تبدو غير قابلة كثيراً للتصديق[1] » . وهو على حق . لكنه لا يلاحظ الى اي حد كان دورينغ غير مهتم بفايل ـ كورييل : فأبيتز هو الذي كان يثير حماسه . كان سفير ألمانيا يمارس سياسة مختلفة عن سياسة الاس . اس . ، وفي حالة تصادم شديد معهم . وعام 1941 ، كان لا يزال الإس . إس . بعيدين عن الهيمنة التي سيبلغونها عام 1944 ؛ وفي باريس بوجه خاص ، كان يمكن دبلوماسياً او جنرالاً أن يقف في وجههم بقوة . والحال ان أبيتز وضع نفسه في الحالة الكريهة المتمثلة بانكشاف صحبته القديمة مع يهودي يشتغل لصالح الاستخبارات الديغولية ، كان يسرّ اليه بتحليلاته السياسية حول فنجان شاي . إن محاكمةً لفايل ـ كورييل(كان الألمان لا يزالون يستخدمون في تلك الفترة الجهاز القضائي ، مع مناقشات امام المحكمة العسكرية ، ولجوء للمحامين ، الخ) كان لا بد ان تكون بالغة الازعاج بالنسبة لسفير المانيا . لذا تقرر الا تكون هناك دعوى . لكن دورينغ اعطى سجينه كل الوقت الضروري لكتابة « بروتوكول » عن علاقاته منذ عشر سنوات مع اوتو أبيتز . سوف يغذي الملف ارشيفات الاس . اس . ، لاجراء ما يلزم . وهكذا أمكن فايل ـ كورييل أن ينسحب . واذا كان « سلَّم » أحداً ، فقد سلَّم أبيتز .

انتقل الى المنطقة المحتلة ، واستعاد مع بعض المقاومين صلات غير حذرة بتاتاً ، لكن أيّاً منها لم يكن لها ذيول سيئة . وقد بحث بصورة يائسة عن طريقة للعودة الى انكلترا ، وانتهى الى العثور عليها في كانون الأول 1941 ، فاجتاز البيرينيه (آه ! بفضل شبكة تروتسكية اسبانية . . .) وبلغ لندن دون مشاكل . وحين تمت مخاصمته بعد التحرير بصدد موقفه وهو بين ايدي الألمان ، طالب بتشكيل هيئة محلفين مثل أمامها حاملاً رسالة من الجنرال ديغول يؤكد له فيها تقديره وثقته . وهكذا تمت تبرئته من كل شبهة .

* تشكيلات من الشرطة في المانيا النازية ، غدت عام 1940 وحدات عسكرية حقيقية تحت اسم Waffen S.S. ، أو الاس . أس . (المعرب) .

(1) مرجع مذكور ، ص 347 .

بعد ثماني سنوات، نبش ح ش ف القضية. وصف فايل ـ كورييل بالـ « مسلِّم » . وحتى إن كان فايل ـ كورييل خائناً فلماذا يجب أن يتأثر ابن خاله في مصر بسبب ذلك ؟ إلا أن هذا السؤال لن ينطرح . ينبغي توسيخ سمعة فايل ـ كورييل للوصول الى كورييل وضرب مارتي بطريقة غير مباشرة . يا لها من فترة قاسية .

في الخامس من كانون الأول 1952 ، بعد 15 يوماً على صدور مقال لومانيتيه ، قام ليون موفيه ، عضو المكتب السياسي ، باستعادة الموضوع بإسهاب امام اللجنة المركزية . وفي فقرة بعنوان « العلاقات المشبوهة » ، يوجه تقريره الاتهام التالي : « إننا نعرف ان اندريه مارتي كان على صلة بعناصر مشبوهة التقاها في مصر وفي الجزائر وفي أمكنة اخرى . . . لقد احتفظ أندريه مارتي بصلات ، وارتباطات ، و « صداقات » مع مشبوهين او أعداء معلنين » .

احتج مارتي ـ ليس ضد الشبهة بصدد كورييل بل ضد النتائج التي تترتب على ذلك بالنسبة اليه : « لقد كتبوا في لومانيتيه : « أقام اندريه مارتي في الجزائر وفي باريس علاقات مع مصريَّيْنْ قريبَيْنْ لخائن » . لكن أمانة السر تعرف مع ذلك انه في عامي 1943 -1944 كان كورييل وامرأته يديران في القاهرة المكتبة الوحيدة التي تتلقى من الاتحاد السوفياتي كل الكتب الصادرة باللغات الأجنبية ، وبناء على طلبنا ، كانا يزودانا بها [في الجزائر] . ان أمانة السر تعرف تماماً انه لدى وصول كورييل الى باريس ، قبل حوالي عام ، استقبلته في مكتبي بالمبنى رقم 44 ، في حضور فايكس ، المسؤول عن الفريق في جمعية الاتحاد الفرنسي . وهي تعرف تماماً أني بعد أن اصغيت الى معلوماته ، رفضت ان اعطي ادنى توجيه ، إذ ليس من حق اي شيوعي فرنسي ان يقدم لشيوعي مصري نصائح بصدد بلده .

« تعرف أمانة السر تماماً أني لم أر كورييل بعد ذلك بتاتاً . وتعرف أمانة السر تماماً اني دبرت ثلاث مرات لقاآت لزوجة كورييل في المدينة ، بناء لطلبها ، لتلقّي معلومات منها بصدد مصر ، جرى نقلها في الحال الى الفريق الشيوعي في جمعية الاتحاد الفرنسي .

« مذ اعلمني فايكس بقرابة كورييل الى الشخص المعني ، قطعت أية علاقة معه . لكن فريق الاتحاد الفرنسي رأى الزوجين كورييل بانتظام عشرات المرار . وهذا مثل من بين عشرين على تشويه الوقائع لافقاد اندريه مارتي حظوته » .

هذه المرافعة البائسة من جانب رجل في وضع بالغ الحرج تخلط الحقيقة بالكذب . فصحيح ان مارتي لم ير هنري كورييل غير مرة واحدة منذ وصول الأخير الى فرنسا وأنه لم يُسمح لروزيت حتى بدخول مقرات الحزب . لكن ليس صحيحاً ان الفريق الشيوعي في جمعية الاتحاد الفرنسي استقبل الزوجين كورييل « عشرات المرات » . فكل الاتصالات مع المراجع الشيوعية

كانت تتم بواسطة جوزف هازان . وإذا كان مارتي يقدم هذه الحقيقة ـ المضـادة ، فلأن رئيس الفريق الشيوعي في الاتحاد الفرنسي هو ليون فايكس ، مساعده سابقاً في العلاقات الدولية ، الذي انتقل الى معسكر خصومه ؛ وكوفىء فيما بعد بمركز عضو احتياطي في المكتب السياسي . ان مارتي يبذل جهده إذن لتوريط ليون فايكس باتهامـه بأنـه كانت لـه اتصالات متتـابعة مـع الـزوجين كـوربيل . ولنُشِرْ عـابرين الى أن مـارتي المأخـوذ بحالتـه الشخصيـة ، لم يتـردد في « تسليم » الـزوجين كـوربيل . لقـد كانـا متخفِّيَيْن ، وهـا هي ذي الشرطـة ، المتنبهة طبعـاً لتطورات قضية مارتي ، تأخذ علماً بوجودهما في فرنسا . . .

ثم إن الرُّتب الدنيا أخذت على عاتقها ، بانصياع ، ما اتخذته الرّتب العليا من قرارات مشينة ، هذه القـرارات التي اخذت طـريقها الى القـاعدة ، وذلـك وفقاً للطريقـة الستالينيـة الكلاسيكية . هكذا فإن جوزف هازان ، الذي التقى في احد شوارع باريس احد انسبائه الآتي مثله من القاهرة ، فوجىء به ينتقل الى الرصيف الآخر تحاشياً لإلقاء التحية عليه . ثم عاد هذا الأخير الى الوراء وتمتم بشكل مثير للرثاء : « اصغ إليَّ ، أفضـل ان اقطع عـلاقاتي بـك » . ويقول هازان : «كان هذا الرجل ، مع ذلك ، رجلاً شريفاً » . هذا الرجل الشريف ، الذي نهشته الآلية الستالينية العنيدة ، سلم الحزب الشيوعي الفرنسي تقريراً يتهم فيه هنري كوربيل بأنه استضاف في بيته في القاهرة مسؤولاً رفيعاً في المخابرات البريطانية . وفي الخمسينيـات ، كانت « الصلة » بجهاز سري امبريالي هي جريمة الجرائم : لقد جرى فيها بعد شنق سلانسكي وراجك والآخرين في الشرق بهذه التهمة . ولقد كـان تقريـر ابن العم يتسم بالخبث البشـع (وكان على علم بذلك) لأن رجل المخابرات المشار اليه كان الكـولونيـل روبرت بـراونينغ ، الجامعي المميّز الذي دفعته آراؤه التقدمية للاتصال بالمقاومة اليوغسلافية التيتوية ؛ وقد انضم الى الحـزب الشيوعي الانكليـزي في نهاية الحـرب (ولا يزال عضـواً فيـه لحـظة كتـابـة هـذه السطور) ، بحيث ان التقرير يأخذ على هنري كوربيل صداقة مع احد أفضل ما ضمته الحركة الشيوعية البريطانية . . . لكن التقرير يغفل هذا الانضمام . كما انه يمتنع عن الاشارة الى أن روبرت براونينغ عرَّض نفسه في القاهرة لخطر الاحالة امام المحكمة العرفية حين اخرج من شقة هنري كوربيل المطوَّقة فاراً يونانياً من الجيش كانت الشرطة الانكليزية تطارده . .

أليس جوزف دو ميتر هو الذي كان يقول : « لا أدري ما في قلب مجرم لكني أعرف ما الذي في قلب رجل شريف : إنه لأمر مخيف » . . .

*

* *

إن وضع « زوجين مصريين مشبوهين » موضع الإتهام في فرنسا ، لم يُثر بـالتأكيـد يأس

بيلانكور ، وأبقى اعضاء اللجنة المركزية على الأرجح جامدين كالرخام . كانت أهميته شبه معدومة في محضر الاتهام الذي جرى وضعه بحق مارتي ، الذي تعرض في الأخير لتهمة إطلاع الشرطة على أسرار الحزب . ولا بد أنه بدا غريباً ، اذا لم يكن غير مفهوم ، بالنسبة للاختصاصيين بالذات . فمن كان يعرف ان اندريه مارتي توقف لوقت قصير في القاهرة عام 1943م ؟ ومن كان يتذكر الغليان الخاطف الذي أثارته قبل سنوات قضية فايل ـ كورييل ؟

في مصر ، كان لمقال لومانيتيه وقع القنبلة . لم يكن ينطوي على الغاز بالنسبة لأي كان لأنه لا احد نسي ، في اوساط الشيوعيين ، توقف مارتي المفاجىء ، مارتي الذي نزل من السماء الاشتراكية كمسيح أحمر ، والهيبة التي اكتسبها كورييل لمجرد انه استضافه . هكذا فان قائد ح د ت و ، الوحيد الذي دعم انقلاب 23تموز ، والذي هاجمته الحركة الشيوعية بالاجماع لهذا السبب ، يتعرض لتشهير « الحزب الشقيق الكبير » به كعنصر « مشبوه » ، وهو ما كان يشير في لغة تلك الفترة الى عنصر مرتبط بالشرطة . كان ذلك حكماً سياسياً بالاعدام ، كانت هيبة الحزب الشيوعي الفرنسي عظيمة الى حد أن أحداً ـ خارج حلقة المقربين جداً من كورييل ـ لم يكن يستطيع التشكيك بالحكم الذي تلفظ به الوحي الالهي . كان مؤدّى الصدمة الماكيافلية التي أعدها خبراء ح ش ف إزاحة احد المضايقين ، أصحاب المواقف الهرطوقية ، من الطريق .

اندفعت المنظمات المنافسة لـ ح د ت و في الحملة ضده . وكانت عضّة الحزب الشيوعي المصري بقيادة اسماعيل صبري عبد الله فعالة بوجه خاص ، لكن الشتائم جاءت من كل الجهات . جرى وصف كورييل بـ « الجاسوس العالمي من طراز تروتسكي » ، و « الأفعى » و « المجرم من النوع الدنيء » . واهتزت ح د ت و بالذات حتى أعمق اعماقها ، فعمد مناضلون صادقون ، اشتغلوا مع هنري كورييل منذ سنوات ، الى جحده بين ليلة وضحاها . وانفجرت القيادة ، إذ رفض بعض المسؤولين البقاء في منظمة أسسها وقادها خائن . والباقون لم يستطيعوا إلا أن يطردوا كورييل من كل الهيئات « بانتظار أن يقدم ح ش ف التوضيحات المطلوبة منه » . أما الأكثر اخلاصاً فظلوا يلتقون الملقى عليه الحُرْم خلال سفراتهم الى باريس ، لكن خِفْيَةً ومع الامتناع عن ذكر أي شيء عن زيارَاتهم أمام رفاقهم .

لطَّخ الخزي الذي رُمِي به هنري كورييل حتى يهود مصر ذوي الجنسية الفرنسية ، أو الذين حصلوا عليها ، ممّن التحقوا بالحزب الشيوعي الفرنسي . يقول روبير إيدي ، أمين سر احد الفروع : « تم اتخاذ القرار بسحب بطاقات الانتساب من « المصريين » جميعاً . قيل لنا ان ثمة حاجة للتحقق من سيرة كل واحد وأن علينا إبداء التفهم . فرفضنا . كان الأسلوب مهيناً وغير قابل للاحتمال . ذهبت للاحتجاج في مقر الحزب . فشرح لي عضو في اللجنة المركزية ان

للقرار طابعاً مؤقتاً . واحتج بالنظام . ولقد كانت خليتنا رائعة (تم حلها فيها بعد لأسباب أخرى) : رفض الرفاق اعادة بطاقاتنا محتجين بأننا لسنا جواسيس . لأن الأمر وصل الى ذاك الحد : يكفي ان يكون المرء مر بمصر حتى يُشتبه به بأنه من رجال الشرطة » .

لقد جرى تسجيل الحُرْم ، الذي أُلقي في باريس ، في عواصم العالم الشيوعي ، وذلك لوقت طويل . فبعد سنوات ، طلب شيوعي مصري كان يزور برلين الشرقية الاتصال هاتفياً بجوزف هازان ؛ فأمّن له رفاقه الألمان المخابرة بعد وقت من التردد ، قائلين له : « أنت تعرف أن لديه مشاكل مع الحزب الشيوعي الفرنسي » ؟ وفي عام 1950 ، هرب محمد الجندي ، وكان مناضلاً شيوعياً شاباً ، من معسكر الاعتقال ، وبلغ فرنسا ثم لجأ الى بودابست بمساعدة ح ش ف . وقد عمل في الاتحاد العالمي للشبيبة الديمقراطية ، حيث مثّل شبيبة ح د ت و . وبعد الانقلاب وقضية مارتي ، بات وضعه غير قابل للتحمل واضطر للاستقالة . كان يتراسل باستمرار مع هنري كورييل . (« تلك هي الفترة التي كان له خلالها اكبر قدر من التأثير عليَّ . كانت كل واحدة من رسائله درساً في السياسة ») . وقد رفض الشيوعي الفرنسي جاك دوني ، مسؤول الاتحاد العالمي ، ان يسلم الرسائل بعد اتهام كورييل .

كان ذلك موتاً سياسياً .

ضاعف المخلصون في صفوف المصريين مساعيهم لدى مكتب المستعمرات ، لكن دون جدوى . وكان مكسيم رودنسون ، عضو ح ش ف ، والخبير في شؤون الشرق الأوسط ، قد قاس مدى تأثير الاتهام على الشيوعيين المصريين : « كان لديهم احترام عميق للحزب الشيوعي الفرنسي ـ لكنه لم يكن يبادلهم الاحترام بالاحترام . كان حزباً كبيراً « معصوماً عن الخطأ » . وقد ذهبت لرؤية مكتب المستعمرات لأقول لهم : « أصغوا إليَّ . لقد كان لمقالكم دوي عظيم . إذا كان لديكم وثائق تثبت ان هذا الرجل خائن ، قدموها . . . وإلا ، اكتبوا كلمة صغيرة تقولون فيها شيئاً ما وتتحاشون بذلك الخصومات التي هناك » . وأعتقد أنه قيل لي : « سوف نفكر » ، أو شيء من هذا القبيل ، وأنه بناء على إلحاحي كي احصل على جواب ، قال لي عضو في مكتب المستعمرات في احد الأيام : « كان للحزب أسبابه » [1] .

لم يتلق الحزبان الشيوعيان اللبناني والاسرائيلي اي جواب عن طلبهما الحصول على توضيحات . وقد ذهب الأمين العام للحزب الشيوعي السوداني ، عبد الخالق محجوب ، تلميذ هنري كورييل ، ذهب بنفسه الى مقر ح ش ف للحصول على توضيح ، لكنه عاد بخفّي حنين .

(1) مقابلة أجرتها ماري دومينيك غريش لأجل أطروحة الجدارة الخاصة بها .

عام 1971 ، قام رفاق مارتي القدامى بتبرئة ذكراه من الاتهامات الكاذبة بالخيانة البوليسية . الا انه استحال على اصدقاء هنري كورييل ان يستحصلوا على تبرئته رسمياً من الشبهات ، التي رُمي بها . وخلال عشر سنوات ، سوف تعرف الحياة المضطربة باستمرار للحركة الشيوعية المصرية ثابتةً واحدة على الأقل : إبقاء كورييل ، « الذي لم تتم تسوية وضعه » ، على حدة .

لم يجتز مرة واحدة بعد ذلك باب مركز من مراكز ح ش ف . وقد دفعته نشاطاته اللاحقة الى ان يلتقي مرتين مسؤولين شيوعيين فرنسيين ، وهما لقاآن خاطفان ، ملائمان لاعادة الاعتبار ، لكنهما لم يؤديا الى اي شيء . وبعد عشرين سنة ، وفي حين لم تعد المساجلة التي افتتحها الانقلاب المصري غير موضوع للاطروحة الجامعية ، وبات الأكثر ستالينية بين الشيوعيين يرسلون تنهدة حزينة وهم يتذكرون قضية مارتي ، بقي اسم كورييل من المحرَّمات .

في 11 أيار 1978 ، يوم الدفن ، ميَّز أصدقاء المحرَّم في الموكب الجنائزي ممثلين اثنين للحزب الشيوعي الفرنسي ، من بينهما نائب . فعرفوا عندئذ أن هنري لم يعد مشبوهاً .

*

* *

ليس الحقد من شيمي ، لكن كان بودي ان استطيع الحقد على ايلي مينيو .

بعد عدة مواعيد ألغاها بنفسه في اللحظة الأخيرة ، استقبلني في مقر معهد الأبحاث الماركسية ، بولفار بلانكي . جلسنا على طرفي طاولة طويلة جداً موضوعة في آخر قاعة المحاضرات . هذه المواجهة المتوحدة في مكان مخطط له أن يكون للقاء جمعيات حاشدة كانت غريبة بعض الشيء . كان صوتانا يدويان كما في مغارة . لكنه كان الحزب الذي لا يحصى عدد أعضائه ، المكرر على الدوام ، وكان الى جانبي كل اولئك الذين كانوا يكرهونه لأنه أيأس الرجل الذي سبق أن أحبوه ، غير مرئيين لكن حاضرين . من النادر التمكن من تسمية الشقاء بالنسبة لهنري كورييل ، تَسَمَّى الشقاء ايلي مينيو .

رجل عجوز في الرابعة والسبعين يسحق المرض هيكله الكبير الذي سبق ان هزَّه معسكر داشو . لقد دخل في المساء ذاته العيادة . كان محموماً ، شارد النظر ، يقلِّب بعناية أكداس الوثائق التي تمترس خلفها : مجلات مُصْفَرَّة اختفت منذ عقود ، تقارير ذات تجليدات مخلعة ،

صحف قديمة متلاشية . لم يكن رجلاً في وِضْعَة المتَّهَم (لا يشعر قائد شيوعي أنه قابل للمثول إلا أمام محكمة أنداده) بل ربما طالباً ثانوياً قديماً على عتبة امتحان شفهي دقيق . وهذا مشرِّف جداً . كان بوجه خاص رجلاً متضايقاً للغاية . نظر الي وتنهد : « انت شاب . . . » لم يعد هذا صحيحاً لكنه كان يريد ان يقول : « أنت شاب جداً لأنك عشت تلك الفترة . كيف عساك تفهم ؟ » .

لحياته ألوان صورة لإيبينال. ولد في تورين عام 1929 في عائلة تضم ستة أولاد . كان الوالد إسكافياً ، يعيش وذويه حياة بؤس شديدة . وكان يود ايلي ان يصبح مدرّساً ، لكن اهله كانوا شديدي الفقر بحيث لم يكونوا قادرين على دفعه الى الدراسة . فشغّلوه خادماً لدى احد الأطباء. وردَّ على ذلك بالتمرد . وفي الرابعة عشرة بدأ يتدرب على النِّجارة . وقد تعلق به احد العمال ، واهتم برعايته . سوف يغدو حرفياً جيداً للغاية . وفي السادسة عشرة والنصف ، مضى مع نجّار عربات ، يكبره بعشرة اعوام ، كان يجوب فرنسا . وقد توقف في تور حيث اشتغل عاماً متابعاً دروساً مسائية في الرسم . ثم بدأ رحلته حول فرنسا ، حيث امضى 30 شهراً في التجوال . وقد توقف لدى « الأمهات » اللواتي كن يدرن نزلاً عائلياً يرفع شعار الصَّحْب* : « معرفة وأُخوَّة » . وصل الى باريس عام 1929 ، قادماً على رجليه من ليون ، وأنتج « رائعته » : درجاً الى الطابق العاشر . أدى خدمته العسكرية عام 1930 ثم عاد الى باريس . وفي الخامسة عشرة من عمره كان في حالة تمرد ، وفي السابعة عشرة فوضوياً نقابياً . وقد اصطدم برجال الدرك الممتطين احصنتهم خلال المظاهرات احتجاجاً على إعدام ساكو وفانزيتي . وعام 1934 ، كان في الطليعة اثناء الصدامات الدموية في باريس بين الروابط الفاشية ومناضلي اليسار . وفي 10 شباط 1934 ، في مساء يوم رهيب من المشاجرات (عدة قتلى في كليشي) ، انضم الى الحزب الشيوعي . كانت مقالات لومانيتيه ، التي قرعت جرس الإنذار ضد صعود النازية ، قد سحبته من صفوف الحركة الفوضوية . وقد ترك عمله إثر مشاجرة مع رب العمل ، الذي استاء لرؤيته يترك المشغل كلما حصلت مظاهرة ، وسافر الى الجزائر مع ثلاثة اصحاب . كانوا يسعون وراء الشمس وفرح الحياة على ضفاف البحر المتوسط ؛ وقد وجدوا على رصيف الميناء في الجزائر العاصمة جمهرة من العرب الصغار رثي الثياب المتسولين قطعة من العملة . « قلت في نفسي : « يا الله ، هذه ليست فرنسا ! » وبقيت تلك الصدمة الكبرى في حياتي . صورة ظلت محفورة في نفسي . وقد اهتممت بالعالم الثالث انطلاقاً من ذلك » .

---

* compagnons du tour de france ، أصحاب يقومون بالتجوال في مختلف أنحاء فرنسا (المعرب) .

اعادته الحرب الى فرنسا فتم الحاقه بالبحرية في لـوريان ، حيث راح يبني طـائرات من ورق تُستخدم للرماية التدريبية عليها . وكان من حظه انـه لم يتم اكتشاف حقيقتـه كمناضل سياسي : لقد ضيَّع الجيش ملفَّه . . . وقع في الأسر عام 1940 ، واعيد الى الوطن بعـد ذلك بعام ، وفقاً لاتفاقات هتلر ـ بيتان القاضية بإطلاق سراح كل رجال البحرية . وقـد مضى الى أحد مراكز المقاومة في كوريز . وفي آب 1943 ، حين أوقف ، كان يقود القنَّاصة والأنصار في 17 محافظة .

إنها مسيرة مثالية .

في اللحظة التي وقَّع فيها بطاقـة انتسابـه إلى ح ش ف ، انتصب الصاحب الفـوضوي للرحلة حول فرنسا، جاف الحلق، وسأل امين سر الخلية : «هل سأبقى طليقاً؟» .

هاجم في العمق، ببرودة القوات القديمة، قائلاً : «لقد اقتـرف كورييـل خطأ جسيـماً : فلحظة وصوله الى فرنسا، لم يسع للاتصال بالحزب. حين يستقر في باريس قيادي في منـظمة تنتسب الى الشيوعية، ويبقى هكـذا على حـدة، عن سابق تصـور وتصميم، كيف تريـد ألا تنطرح الاستفهامات بصدده؟» وقد راح يصغي، بشجاعة، الى رواية الزيارة التي قام بها هنري كورييل الى 19 ، شارع سان ـ جورج، بعد مرور يومين على وصـوله الى بـاريس، واستقبال مكتب المستعمرات له (وكان مينيو في ذلك المكتب) ومقابلته مع مارتي، واقامته عند مناضلين شيوعيين موثوقين. «على أي عنوان؟» ـ مناضلين؟ لا ادري. . . » ـ «عجباً! بودي ان اعـرف العنوان، بهدف التحقق من صحة الموضوع، لأني لا اخفي عليك ان كل هذا يدهشني جداً» .

إنه مدهش.

«مقال لومانيتيه؟ أجـل، لقد سمعت بهـذه القصة. هـل انت متأكـد من أن هذا ليس اختراعاً؟ قبل أن آتي الى هنا ، تطلعت الى مجموعة لوما(*) في تلك الفترة، فلم اجد شيئاً من ذلك. هذه نقطة يجب توضيحها. » وتحت وطأة الحيرة، قلت انه يمكن اعتبار وجود المقال ثابتاً. «هل هو بحوزتك؟ ـ «لا والله!، لم أكن اعتقد ان من الضروري حمله اليك!» وإذ رحت أتلوه عن ظهر قلب، رد قائلاً: «عجباً! في كـل حال، لا بـد أنه ظهـر ضمن سياق معـين. يجب التحقق من ذلك؟» .

وماذا عن طلبات التوضيح من جانب الحزبين الشيوعيين اللبناني والاسـرائيلي؟ شـطب السؤال بحـركة من يـده. وماذا عن المسعى الشخصي لعبـد الخالق محجـوب، الامـين العـام

* اختصار لومانيتيه . (م)

للحزب الشيوعي السوداني؟ راح يسخر بصراحة: «أبداً! ابداً! كل هذه ترهات!» اما محجوب المسكين فلن يقول العكس، ذلك انهم شنقوه في الخرطوم.

عبثاً جرى الاستعلام، وقراءة روايات الرحّالة في الستالينية، وتوقع الاسوأ: يبقى هامش جميل للمفاجأة. لم يكن الرجل في احسن احواله... في الخمسينيات، لا بد أن القاضي مينيو كان برع في محكمة التفتيش.

بعد كل ذلك، كان نوع من الخشونة التي تقارب الفظاظة من عادات مكتب المستعمرات، بحيث ليس على المحاور أن يستاء إذا جرى اتهامه باختراع مناضلين غير موجودين او مقال في لومانيتيه لم يُنشر أبداً. كان ذلك هو الاسلوب الفظ لاندريه مارتي. كان محارب شيوعي قديم متقاعد في كانتوني النورماندي يستعيد قبل أيام نادرة حصلت بالضبط عام 1952 . كان مارتي يضع اللمسات الاخيرة على تنظيم مظاهرة في الشارع ، وهو ميدان كان يتقنه اكثر مما يتقن العلاقات الدولية. وكان شاب شيوعي يصغي الى التعليمات فأجاب بصورة آلية: «أوكي» فرفع مارتي نظره تحت تصميم مدينة باريس، وهو في حالة الغضب الشديد، وتفحص المجموعة الصغيرة التي كانت تحيط به سائلاً: «من قال ذلك؟» رفع الجاني يده. فانفجر مارتي: «مطرود!» وفي الواقع، جرى طرد المسكين بسبب خيانة لغوية طبقية. ويتذكر أحد المصريين القدامى، وكان مع ذلك مقرباً جداً من مكتب المستعمرات، يتذكر ببعض الضيق المعاملة التي عامل بها باربيه، مساعد مينيو، سوداً غدا بعضهم رؤساء دول: «كان تاجر عبيد حقاً. كان يزعق فيهم كما لو كانوا حمقى بالكامل.» ويروي مناضل دخل فيما بعد في جو هنري كورييل أن قيادياً شيوعياً من جزر الانتيل، رفيع الشأن ، كان قد استدعي الى باريس ووقع مريضاً، فعامله مكتب المستعمرات معاملة من السوء بحيث مزق بطاقته . والمصريون، الذين لم تكن الخصومات الايديولوجية تلغي لديهم لطفاً غريزياً، كانت تلك الفظاظة تخنقهم. فالدكتور شريف حتاته، المعتدل جداً في احكامه، يحتفظ بذكرى مرة عن اتصالاته بمسؤولي مكتب المستعمرات: «كانوا محترسين، وهذا أمر يمكن فهمه. لكن لم يكن بالامكان فهم احتقارهم. كنا امامهم كموظفين صغار امام مديرهم. بالرغم من كل شيء، وبالرغم من كل نقاط ضعفنا وتقصيرنا، كنا مناضلين يحاولون فعل شيء ما. ونيتنا الطيبة على الاقل كانت لتستحق بعض التقدير . لقد عاملونا بفظاظة . وكانوا عديمي التهذيب حقاً . حين حضر هيلل شوارتز بدوره الى مقر اللجنة المركزية ليلتقي سادة مكتب المستعمرات ، عاد الحارس الشرس ، بعد ان أخبر بقدومه ، بالجواب التالي : « لا يريدون استقبالك . امض من هنا ! » كان شوارتز خارجاً من ثلاثة أعوام سجن ومعسكر اعتقال .

هاكم إذن ايلي مينيو وقد تعرض بدوره لمحاكمة خبيثة، هو الذي قاد محاكمات مثيرة

للاشمئزاز. لم يكن شيء او أحد يجبره على القبول بالدخول في حوار. ليس له صيت ثرثار وهو لم يضرب يوماً في الطرق بهدف الاستكشاف: من يعرفه، باستثناء بعض الاختصاصيين؟ بعد ان احيل الى التقاعد، تمترس خلف ذاكرته المديدة. لا أحد يضمن الوصول إليه، لا سيما من دون المفتاح السحري المتمثل ببطاقة الحزب. ومع ذلك فهو هناك، كريهاً وسيىء النية، مبلبلاً بفعل ارادة طيبة تحت الشراسة البليدة للإنكارات. يود ان يفهمه الآخرون، إذا لم نقل أن يبرر نفسه. هذا مستحيل. المشكلة مطروحة بشكل سيىء. يسألونه عن الاسباب المبررة للظلم اللاحق بهنري كورييل، والانسان كورييل لم يكن يوماً بالحسبان. فالناس ليست لهم اهمية.

استعاد كمسؤول سياسي المشكلات التي طرحها الموضوع المصري المعقد: «كان ذلك بالغ الصعوبة، حوالي عشر منظمات تنسب نفسها الى الشيوعية وكل منها تطالب بحصر الصفة بها. وفي حالة من هذا النوع، كانت القاعدة عندنا دائماً ألا نتدخل. لم يكن وارداً في اي من الاحوال أن نحابي واحدة من المجموعات، حين كان هذا او ذاك من هؤلاء الرفاق يمر في باريس، كنا نستقبله، ونصغي اليه، ونكتفي بالدعوة الى الوحدة.»

كان في وسعه ان يضيف أن الشيوعيين الفرنسيين النادرين الذين يذهبون الى مصر كانوا يتزودون بالتعليمات ذاتها القاضية بالاحتراس. وصل جاك ـ فرانسوا رولان الى القاهرة عام 1947، في حين كانت تجري المفاوضات المهيئة لتوحيد ح د ت و ـ الإيسكرا: كان يحمل تعليمات بالحث على الوحدة دون التدخل في خصومات الشلل. وبعد ذلك بسبع سنوات، دعي ماكسيم رودنسون للالتزام بالاحتراس ذاته: «ذهبت الى مصر لقضاء شهرين، وقد دفعت الـ **CNRS** كلفة رحلتي لأقوم بتحقيق حول السحر. وقبل السفر، طلبت الحصول على توجيهات من الحزب، اي من مينيو. وبعد أن فكر اعضاء مكتب المستعمرات، قالوا لي: «لا تقل شيئاً، ولا تلتزم بشيء». وكان بودهم ألا أتصل بأي من الشيوعيين المصريين: «فما ستقوله سوف يفسرونه على أنه آت من ح ش ف، ونحن لا نريد أن يظهر أننا نشجع احدى المجموعات، الافضل أن تلتزم الصمت». كانت العلاقات مع المنظمات المصرية تنطبع بالحذر التام.» هذه القاعدة لم يتم خرقها إلا لصالح فؤاد مرسي واسماعيل صبري عبد الله: كانا مصريين من النخبة تكوّنا في باريس وفقاً لقواعد السراي، وقد أصبحا بلا جدال ربيبي مكتب المستعمرات وايلي مينيو، دون ان يتوصلا مع ذلك لجعل حزبهما الشيوعي المصري القطب الوحيد في الحركة الشيوعية.

اما بصدد الخطأ التاريخي في التقدير الذي جرى ارتكابه بخصوص انقلاب 23 تموز، فمينيو لا ينكره بل يعتبره أمراً طبيعياً: «كان ذلك وضعاً معقداً جداً» مصر! مصر! هل تعتقد على سبيل الصدفة أننا كنا نعيش وأعيننا مثبتة على مصر؟ لم تكن بالتأكيد في المقام الأول

من اهتماماتنا ! كانت لدينا مسؤوليات بوجه خاص حيال شعوبنا المستعمرة . وحين يكون المرء بعيداً يجب أن يكون حذراً . إن غير المسؤولين هم الذين يندفعون . ونحن لم نكتشف إلا بعد ردح من الزمن من كان أولئك العسكريون الذين استولوا على السلطة في القاهرة. . . »

مارتي ، فايكس ، مينيو : ثالوث « كولونيالي » يجسد « الأخ الشقيق الكبير المعصوم عن الخطأ » . مارتي ، المحدود كبغلة ، والذي سوف يشير قرار اعادة الاعتبار له ، بحس أكيد بالتورية ، إلى « انه لم يكن معداً ، دون ريب ، ليشغل مراكز المسؤولية السياسية التي شغلها » ؛ وفايكس ، الذي كان يعرف المغرب جيداً لكن لم يكن يعرف باقي العالم العربي إلا عن طريق السماع ؛ ومينيو ، الذي لم يأت إلى مصر الا بعد وفاة عبد الناصر. . . هنالك الكثيرون من أصدقاء هنري كورييل الذين يدينون ادانة صارمة مسؤول مكتب المستعمرات ؛ أما الآخرون فيقولون : « مينيو ؟ ربما ليس شخصاً سيئاً ، وهو مناضل صادق بالتأكيد ، الا انه لم يكن يعرف كوعه من بوعه . كان كارثياً بسبب الجهل » .

هل يكفي الجهل بحركة الضباط الأحرار لتفسير الخطأ في تأويل انقلابهم ؟ ينبغي أن نهمس في اذن الطالب الثانوي مينيو ، من أجل وضعه على الطريق : « ألم تلعب معاهدة الشرق الأوسط دورها ؟ » فتتوقد عيناه ويرفع ذراعيه إلى السماء : « بالتأكيد ! كانت هنالك المعاهدة ! وكل شيء كان يدعو للتفكير بأنه عبر ايصال عسكريين الى السلطة ، كان الانكليز والاميركيون يستهدفون ادخال مصر في معاهدة الشرق الأوسط التي كانت تشكل امتداداً للحلف الأطلسي ! هذا هو السبب في اننا تصرفنا بالشكل الذي تصرفنا به. . . »

من أجل إرجاع اشكال السلوك الستالينية إلى فتنة شبه شيطانية ، كما يفعل الناجون بالذات ، يكفي طمس الديكور التاريخي والغاء الحبكة : لا يعود في المسرح غير مهرجين لا كرامة لهم يتلفظون بتحريمات شاذة حين لا تكون لهم القدرة على الاحتجاز أو القتل .

على امتداد تلك السنوات الجليدية ، كان الديكور الأوروبي حقل أنقاض مادية وأخلاقية تملأه بشرية خرجت مسلوخة حية من أهوال لا سابق لها . إن التوتر اليومي كان كامناً في هذا السؤال المخيف ببساطته : هل ستقع الحرب العالمية الثالثة في الغد ؟ لقد عبأ النضال لأجل السلام الشيوعيين الغربيين . وهو لا يبرر الانحرافات الجائرة ، إنه يفسرها . إذا كان هذا العدد الكبير من المناضلين ذوي النوعية الانسانية النادرة قد قبلوا بما لا يمكن القبول به ، فلأنهم كانوا يعتقدون أنه يستمد مشروعيته من الالتزام السامي بحماية العالم من الكارثة النووية . واذا كان النضال لأجل السلام تماثل لديهم مع الدفاع عن الاتحاد السوفياتي ، فتلك بداهة . سيقول التاريخ انهم لم يخطئوا دائماً ، فلقد طالت السنوات التي كانت واشنطن واقعة فيها تحت إغراء تفوقها الساحق في السلاح النووي .

كان عام 1952 أحد أعوام القلق الشديد تلك . فالولايات المتحدة ، الواقعة فريسة الفيروس الماكارثي ، بدت مستعدة لخوض حرب وقائية . وقد أثارت المجلة الكبرى **كوليرز**Collier's انفعالاً عالمياً حين نشرت ، تحت عنوان « الحرب العالمية الثالثة كما رأيتها » التحقيق الخيالي بصدد هجوم نووي على موسكو . هذا التحقيق الذي نُشر في تشرين الأول 1951 ، اعلن ببرودة أن الحرب الذرية ستندلع في 10 أيار 1952 الساعة الواحدة و 58 دقيقة . . . كان القادة الأميركيون يطوقون الاتحاد السوفياتي بشبكة كثيفة من القواعد العسكرية ويسّرعون توقيع أحلاف يسمونها بالدفاعية : الأطلسي في أوروبا ، والأنزوس في أوقيانيا ، وفيما بعد الأوتاز في جنوب شرقي آسيا . وكانت ج د . أ . (جامعة الدفاع الأوروبي) في حالة مخاض متسارع ؛ كانت ستتيح ولادة جيش أوروبي مندمج يضم الفرق الالمانية الغربية . وفي فرنسا ، كان شهر أيار 1952 مطبوعاً بمظاهرات عنيفة للشيوعيين . في 28 منه ، أدى وصول الجنرال الأميركي ريدجواي إلى نزول عشرات الألوف من المتظاهرين إلى الشوارع . وكانت الصدامات هي أعنف ما شوهد منذ شباط 1934 . اطلقت الشرطة النار ، وجرى توقيف عدة قياديين شيوعيين ، من بينهم جاك دوكلو ، ضحية « مؤامرة الحمامات » البشعة . كانت الهستيريا المعادية للشيوعية في الذروة في كل مكان . وسوف يتذكر كاتب الحوليات بيير دوران ذلك الزمن بإعطاء فصوله العناوين التالية : « السلام في خطر شديد » ، « حرب وقائية ؟ » « أشد النذر سواداً» ، « زمن نهاية العالم » ، « نحو المباراة الكبرى ؟ »[1] .

ضمن هذا الشفق الرؤياوي انفجر انقلاب الضباط الأحرار . والحال انه قبل تسعة أشهر ، في تشرين الأول 1951 ، كانت الدول الكبرى الغربية اقترحت على مصر فاروق ان تصبح عضواً مؤسساً في « قيادة للشرق الأوسط » معدة للاندماج في نظام الاحلاف المعادية للسوفيات . الا أن «حرب القناة» والتقلبات الداخلية وضعت المشروع في حالة الرقاد ، لكن كيف السبيل إلى عدم الاعتقاد بأن الضباط الذين استولوا على السلطة لن يوقظوه وسط الطبل والزمر ؟ ليسوا معروفين ـ وهذه هي الغلطة التي لا تغتفر ـ وكل واحد يماثل بينهم وبين الضباط الانقلابيين في أميركا الجنوبية . كان هنالك اعتقاد بأن المخابرات الغربية تمسك خيوطهم . هكذا إذ كان ماكسيم رودنسون يشرح لايلي مينيو كيف أن الوضع المصري الخاص يستلزم أخذه بالحسبان ، اجابه الأخير : « هل سبق أن رأيت في الشرق الأدنى أو في الشرق الأوسط شيئاً لا تقف وراءه دسائس الأميركيين أو الانكليز ؟ اذا لم يكونوا دمى بين يدي المخابرات المركزية ، فهم يبقون عسكريين . ومن ذا الذي رأى يوماً عسكريين يقاومون اغراء قيادة ذات سطوة ومصدر لتوريدات عجيبة ؟ سوف يتذكر روجيه فايان ذاته « الطائرات الجميلة النفاثة»

---

(1) بييردوران ، عشرون سنة ، حوليات 1945-1965 ، المنشورات الاجتماعية .

الأميركية المغرية جداً بالنسبة للضباط الأحرار. . .

في وضع يشهد أقصى التوتر ، وفي حين كان يمكن الحرب النووية أن تندلع بين اليوم والآخر ، حدَّد موقف المعسكر الاشتراكي والشيوعيين الغربيين اليقين وحده برؤية النظام الجديد ينخرط في الحرب الصليبية المعادية للاتحاد السوفياتي ، كانت اللازمة في كل مقالات لومانيتيه : « زمرة عسكرية تستعدلإرساء نظام فاشي صرف، بمثابة إعداد لانضمام مصر إلى المعاهدة العسكرية للشرق الأوسط » (23 آب 1952) ؛ « يتأكد بصورة أكثر فأكثر وضوحاً أن قيام الديكتاتورية العسكرية يهدف إلى تسهيل مشاركة مصر في حلف عدواني في الشرق الأوسط » (9 أيلول 1952) ، الخ . « لم نكن نعيش وأعيننا مثبتة على مصر » . كان ايلي مينيو على حق : لم تكن مصر غير قطعة في البازل* العالمي . وإذا قيس التحليل الدقيق لحركة الضباط الأحرار الذي اقترحته ح د ت و بمقياس الرؤى الجيو- استراتيجية التي كانت تطارد القادة الشيوعيين ، فهو يبدو تافهاً . من جهة أخرى ، كانت موسكو قد حزمت أمرها وحسمت الموضوع : « في ليل 23 تموز ، استولى على السلطة فريق من الضباط الرجعيين بقيادة اللواء نجيب ، على صلة وثيقة بالولايات المتحدة » . ما كان يمكن أي تفسير آخر أن يأتي إلا من معسكر الامبريالية وأنصار الحرب . كان صوت هنري كورييل الناشز يستوجب الخنق ، وقد جرى خنقه .

أما مصر فرفضت الانضمام إلى معاهدة الشرق الأوسط .

الحياة كلها حنان .

في خريف عام 1976 ، قرع ألان غريش ، ابن الثامنة والعشرين ، باب أصدقاء باريسيين . فقالوا له : « عجباً ! لقد مر والدك للتوّ » . فابتسم . هذا مستحيل . « بلى بلى ! كان هنري هنا قبل عشر دقائق » . هنري كورييل .

إنه صورته الحيّة . لو انه ألصق على جواز سفره صورة لهنري في الثلاثين من عمره ، لما كان انتبه الشرطي الأكثر يقظة .

تم أول لقاء يتذكره في جنيف عام 1958 . بالنسبة لألان ، ابن العشر ، كان هنري الرجل الذي أمّن له اشتراكاً في فايان **Vaillant** ، المجلة التي سبقت **Pif** بزمن .

كان كشْف بنوّته الحقيقية أمراً هزَّه بعمق . فوالده الشرعي كان قد احبه كثيراً بحيث لم

* لعبة معقدة مؤلفة من قطع كثيرة ينبغي جمعها بالشكل المناسب (م)

يكن وارداً أن يحلم بآباء خياليين ، كما يفعل الكثير من الأولاد الشرعيين . أما هنري فلم يشغل مكاناً فارغاً : ففي حين كان قد بات لألان وَلَدٌ ، كان هنري أباً آخر هبط من السماء .

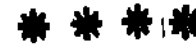
لم يترك القتلة لهما أكثر من عامين ليعيشا علاقتهما الجديدة . قال هنري لألان : « عشت لحظات صعبة ، فساعدتني أنت على المقاومة . كان عندي ابن ، وكان عليَّ أن أكون جديراً به ، وأكون قُدْوة بالنسبة إليه » .

إن متاع ألان كورييلٌ بصورة نموذجية : جدارة في الرياضيات ، وديبلوم بالعربية من معهد اللغات الشرقية ، ودوكتوراه في العلوم السياسية ، مع اطروحة مخصصة للفلسطينيين .

من الناحية الانسانية ، يتماهى مع هنري إلى حد أن جريمة الرابع من أيار 1978 لم تعد بهذا الاكتمال .

حين فكَّر إيلي مينيو أخيراً في التقاعد ، كان ألان غريش هو الشخص الذي تم تعيينه للحلول محله . وقد سرَّ هنري بمعرفة ذلك قبل أن يموت . وسوف يكتشف ايلي مينيو لدى قراءته هذه السطور أنه سلَّم سلطاته لابن هنري كورييل .

الحياة حلوة .



ربما كان ما جرى الامتناع عن كسبه تاريخياً . فجوزف هازان يقدّر انه « لو جرى تبني تحليل كورييل ، لو أن مجمل الحركة الشيوعية المصرية اتخذت الموقف ذاته الذي اتخذته ح د ت و ، لبات لدينا في مصر كاستروية ناصرية . كان قدر الشرق الأوسط تغيَّر بالكامل » .

لا شك أن الاضرار كانت عظيمة . فالضباط الأحرار الذين تم الحكم عليهم حتى قبل أن يكونوا تمكنوا من التعبير عن انفسهم ، انتقلوا بسرعة من الذهول إلى مرارة يمكن فهمها . لم يكونوا يشكلون فريقاً متجانساً . وإن تنوع الآراء وتباين المشاريع السياسية ، بالاضافة إلى التنافس المعتاد بين الطموحات الشخصية الذي كان ينفخ على نار ذينك التنوع والتباين ، سرعان ما كانت ستصدِّع الكتلة العسكرية . لكنهم كانوا قبل كل شيء وطنيين تحركهم ارادة الاجهاز على مَلَكية فاسدة ومتواطئة مع المحتل الأجنبي . وحين حصل جمال عبد الناصر على جلاء آخر جندي انكليزي ، بات أول مصري يحكم مصر حرة منذ الفرعون بسميتيك الثالث ، الذي هزمه ملك الفرس عام 525 قبل المسيح . والرجال الذين وضعوا حداً لخمسة وعشرين قرناً من الاحتلال والرضوخ لسلالات أجنبية ما كان في وسعهم أن يقبلوا بالخلط بينهم

وبين ضباط انقلابيين مبتذلين في « جمهوريات الموز » . كان يكفيهم أن يجتازوا الأحياء الشعبية من دون حراسة وسط البهجة العامة كي يقدروا الاتهامات بـ « الديكتاتورية الفاشية » حق قدرها .

أصابت الطعنات أكثر ما أصابت عبد الناصر ، الأكثر بروزاً على المستوى السياسي . لقد أذهله عنف الهجمات الشيوعية قبل أن يثير سخطه . « كان شديد الاستياء » ، يقول خالد محيي الدين ، رأس حربة الانقلاب ، ورئيس التجمع الوحدوي اليوم ، الحزب اليساري الوحيد المرخص له في مصر . « لم يكن جمال يفهم لماذا يصفنا الشيوعيون بالفاشيين في حين كنا نعمل منذ زمن طويل مع ح د ت و . كنت أتولى بنفسي العلاقة بين الضباط الأحرار و ح د ت و . وقد كانت النتيجة إرباك الضباط التقدميين وتسليم أوراق مهمة لأولئك ، الذين كانوا إلى اليمين . كانت آرائي معروفة . فكيف يمكن الدفاع عنهم وكسب الانضمام اليهم في حين كانت الصحافة الشيوعية في العالم بأسره تشتمنا كل صباح ؟ سرعان ما خسرنا مواقع في مجلس الثورة . وهكذا اضطررنا للقيام بردود فعل متطرفة سهّلت تصفيتنا » .

خرج الكولونيل صدّيق بصورة مدوّية بعد مرور ستة أشهر على الانقلاب ، وكان عضواً في ح د ت و . وجرى توقيف أحمد حمروش ، المناضل منذ عام 1947 ، في كانون الثاني 1953 . وقد سيق بعد خمسين يوماً من السجن إلى مكتب عبد الناصر . وهو يقول اليوم : « كان المقصود إرهاب العسكريين الشيوعيين . لقد أدى توقيفي إلى حل الفرع الذي كان يجمع داخل ح د ت و ضباطاً ورتباء وعمالاً في مصانع الأسلحة . لم يعد عبد الناصر يتحمل مهاجمته كما كان يحصل . كان قد بدأ يعجز عن فهم أي شيء من ذلك . أنا بالذات كنت على موعد مع هنري كورييل في مارسيليا في 25 تموز . وكنت اشتريت بطاقة السفر ، وحزمت حقائبي . وقد التقيت عبد الناصر في 22 منه ، وأبلغني أنه تم تسبيق الانقلاب بحيث يحدث في الليلة التالية . لقد سرنا يداً بيد ، وفجأة انهال علينا ذلك السيل من الشتائم . . . »

أما خالد محيي الدين ، فما يسميه اليوم « ردَّ فعلٍ مفرطاً » تمثّل في لعب ورقة محمد نجيب ضد عبد الناصر واحتجاز هذا الأخير - إلى حدٍ ما - في ثكنة الخيّالة الخاصة به خلال ليلة لا تُنسى شهدت المنتصر لاحقاً ينهار بصورة عصبية كما لن يحدث له الا عام 1967 ، في نهاية حرب الستة أيام الكارثية . وبعد إزاحة نجيب ، غفر عبد الناصر لرفيقه القديم إهانة لا تتم إزالتها في مكان آخر إلا بالدم ؛ وقد تخلص خالد محيي الدين من الورطة بنفي مؤقت في سويسرا . .

أما مصير المناضلين فكان قاسياً . يقول جوزف هازان : « لقد كلّف مينيو الشيوعيين المصريين عشرة آلاف سنة سجن » . والأمر يتعلق هذه المرة بملاحظة وليس بتقويم افتراض

لكاستروية ناصرية . ولا شك أن المسؤولية المعزوّة إلى ايلي مينيو وحده تقع على هيئات أعلى منه . لكن الواقع ماثل هنا : إن ألف شيوعي ، كانت تطاردهم شرطة عبد الناصر ويتعرضون بالمناسبة للتعذيب الوحشي (توفي العديد منهم تحت التعذيب) ، أمضوا عشر سنوات في معسكرات اعتقال لم يكن من علاقة بين النظام الذي ساد فيها وذلك الذي سبق أن ساد في معسكر هوكستيب .

*
* *

عمد هنري كورييل ، اليائس لكن المنضبط ، إلى تطبيق الخط . فمطابع ح د ت و السرية أصدرت كالمطابع الأخرى نداآت إلى الشعب تندد بديكتاتورية الكولونيلات الفاشية . وذهب مناضلوها حتى إلى باندونغ ، عام 1955 ، ليوزعوا على المؤتمرين الآتين من العالم الثالث بيانات معادية للناصرية بعنف : لم يكن في وسعهم أن يتوقعوا أن يشكل مؤتمر باندونغ نقطة التحول في تقدير العالم الشيوعي للنظام المصري . هذا الانعطاف الجذري سيؤدي إلى المشهد العجيب لمعتقلين شيوعيين يكتبون عرائض دعم حماسية للسلطة التي تنكل بهم ، فيما الاصفاد تكبل اقدامهم وتبدو على ظهورهم المخططة آثار الندوب التي تركتها ضربات السياط . . .

وقد مضى هنري كورييل في التضحية إلى حد أنه خلق في باريس جبهة وطنية للمعارضة . إلا انه لم يستطع أن يجمع أكثر من خمسة منتسبين من بينهم أحد انصار الملكية . فعبرت ديدار روسانو عن استيائها بالقول : « هذه مزحة حقيقية ! » وتنهد هنري : « وكيف تعتقدين أن الأمور تبدأ ؟ . . . »

امرأتان أضاءتا تلك الليالي الحالكة .

بقيت ديدار ، ابنة الثلاثين وأم الولدين ، مخلصةً للمراهِقة المغامرة المندفعة نحو أميركا اسطورية . كان زواجها بعثمان الجميل قد تفكك . فهي كانت تتناقض كثيراً مع صورة الزوجة المسلمة التقليدية ، وكانت عائلة الضباط تستشيط غيظاً بسبب عملها النضالي . أما عثمان فكان يعتبر أمراً ممتازاً أن يكون المرء تقدمياً ، لكنه كان يقدِّر أن تقدميته كافية عن الاثنين . عام 1951 ، سافرت إلى أوروبا مع ولديها ، وبعد أن قضت أسبوعاً في روما مع هنري كورييل ، التقت شريف حتاتة في باريس .

كان شريف قد مرَّ قبل أشهر ، وسافر مع محمد الجندي ، وهو فار آخر كان عثمان وديدار خبآه في بيتهما ، لحين تمكن من الابحار سراً على متن سفينة شحن فرنسية ، ثم مضى ليعمل في بودابست في الاتحاد العالمي للشبيبة . وقد وقعت ديدار في حب الطبيب الشاب المنفي (ومن لم يكن ليقع في حبه ؟ فبعد ثلاثين عاماً ، لا يزال شريف أحد الرجال الأكثر فتنة الذين

يمكن التقاؤهم : سحر حنون وذكاء نادر) . تركته لفترة قصيرة لتسهِّل اجتياز هنري الحدود الفرنسية ـ السويسرية ، ثم خلافاً لنصيحة هذا الأخير (« لا تستعجلي الأمور ! لا تمضي بها إلى نهاياتها ! ») ، كتبت لعثمان رسالة بالحبر السري لتعلمه بنكد حظه : « كان ذلك هو الشرف » . حين عادت إلى القاهرة ، حصلت على الطلاق حبِّياً ثم انغمست مجدداً وبحماس في حياة النضال . وبرباطة جأش مدهشة ، خططت لفرار مسؤولَيْن في ح د ت و ، أحدهما محمد شتّي ، القيادي المشهور في ضاحية شبرا الخيمة العمالية ، وضمنت تنفيذ هـذا الفرار . وكانت تلك مناسبة لأعنف مشهد مع زوجها السابق الذي بقي رفيقاً لها : كان عثمان يعتبر أن عملاً خطراً من الناحية المادية هو امتياز للرجال ؛ وقد وصفها بـ « « الضرَّاطة » .

كان شريف ضجراً في باريس . لقد كان سيىء التنكر ، ومزوَّداً بجواز سفر يفقأ تزويرُه العين ، فأبحر سراً إلى مصر وناضل في الدلتا . وكانت ديدار تلتحق به كلما أمكنها ذلك . لكن مسؤولياتها كأم والأخلاق الثورية وقفت حائلة . إن عثمان الذي خاطر بحياته أكثر من مرة لأجل نجاح الضباط الأحرار ، لم يكن يفهم شيئاً بخصوص النضال لأجل السلطة الذي كان دائراً داخل المجلس الثوري . ولقد ضجر سريعاً ، ثم أصيب بالقرف ، ليُعين فيها بعد ملحقاً عسكرياً في سفارة مصر بموسكو . وقد عرض على ديدار أن تسافر معه لضمان حياة عائلية منسجمة لابنتيها . أما الرفاق في ح د ت و فارتأوا أنه ليس في وسع مناضلة مسؤولة أن تتهرَّب ، وأن شريفاً ، عضو المكتب السياسي ، لطَّخ صورة الثوري إذ « خطف » زوجة رفيق . وهكذا تزوجت ديدار بعثمان من جديد ، وطارت معه إلى موسكو . وبعد رحيلها بثلاثة أيام ، اقتحمت الشرطة السياسية شقة والدتها ، حيث كانت تسكن . كانت ح د ت و قد وزعت في الذكرى الأولى للانقلاب هجوماً عنيفاً على الضباط في السلطة . وكانت الوثيقة ، الحاملة عنوان « عام أسود » تأسفِ للدعم المقدم بدون حذر لانقلاب « دفعت ثمنه الأمبريالية الاميركية» . وقد أصيب رجال الشرطة بدهشة حقيقية حين علموا إلى أين طار العصفور ، لكن زوجة عثمان ، الضابط الحر ، كانت حصينة لا تُمس .

وقد انتقموا لأنفسهم على شخص شريف حتاتة ، الذي وقع في الاعتقال قبل أيام من سفر ديدار ووُضع في السجن الانفرادي . أكد له رجال الشرطة أن ديدار هي التي سلَّمتهم إياه ، وكانت المظاهر تشهد لصالحهم : « هل تعتقد أننا كنا تركناها تسافر إلى موسكو لو لم تعطنا رَهْناً ؟ كنت أنت الثمن المدفوع لقاء جواز سفرها الدبلوماسي . . » وقد بقي شريف تحت التعذيب لمدة شهرين ، وكان يعاد بين جلستين إلى زنزانة وهو مقيد اليدين والرجلين ، ويقضي حاجته تحته ؛ وقد صارع الجنون باذلاً جهده كي يتذكر أغاني ايف مونتان التي سمعها مع ديدار في مسرح الايتوال ، والتي اشتريا اسطوانتها . كان يرفض تصديق رواية الخيانة ، وثابر على

ذلك حتى حين اجتهد رفيق له صادقٌ كي يقنعه بها . لكن الشك ، مهما يكن عابراً ، كان اسوأ من التعذيب .

أثار الاتحاد السوفياتي حماس ديدار ، لكن موسكو كانت تضجرها كثيراً ، إذ كانت تتلخص بالنسبة إليها بالطقوس الاجتماعية للغيتو الدبلوماسي . لم تكن العودة إلى عثمان نجاحاً باهراً ، لا سيما أن تقديره للاشتراكية بقي متحفظاً ، لا بل كان يزعم حتى انه يلتقي شيوعيين سوفياتاً ينتقدون ذكرى ستالين المتوفى قبل عام . فتصيح ديدار في وجهه : « أنت لا ترى غير مجانين ! » كانت قد بكت لدى وفاة ستالين . وجاءت نوبات الربو لابنتها الصغرى تشكل أكثر من حجة للانفصال : كان من الضروري حقاً أن تغيِّر الطفلة مناخاً . وقد اقفلت ديدار حقائبها وهي منشرحة الصدر .

وضعت بنتيها في مدرسة داخلية في فانس ، واستقرت في باريس في أيار 1954 للعمل هناك مع هنري كورييل .

كانت أياماً طويلة مضجرة تقضيها في كتابة تحليلات ، وتقارير ، وفي دفع بيانات وكراسات للطباعة . اجتماعات للمصريين . إحساس بالمرارة لأن ح د ت و كانت على حق في تموز 1952 ضد مجمل الحركة الشيوعية العالمية . قلق لرؤية هذه الأخيرة بالذات تنعطف بصورة كاملة وتضفي على النظام الناصري كل الفضائل الاشتراكية التي لم يكن يملكها ، الى حد أن كورييل وأصدقاءه باتوا يتعرضون للنقد لافتقادهم الحماس . قلق ضمني لدى ملاحظة أن الهوة تتوسع بين جماعة الداخل وجماعة الخارج ، وأن المنفيين - قصة قديمة - باتوا أقل فأقل قدرة على ايجاد لغة مشتركة مع المناضلين الباقين في البلد . وعذاب دائم بسبب الألف رفيق المحتجزين في معسكرات الاعتقال .

كانت أياماً لا تُنسى بالنسبة لديدار . فلقد اكتشفت شخصاً كان مجهولاً بالنسبة اليها . كان هنري يلقي لها على امتداد ساعات شعراً لفيكتور هوغو وآراغون ، شاعريه المفضَّلين . وكان يغني بصوته المبحوح الأغنيات الثلاث التي يعرفها . كان يجعلها تقرأ ويعلِّق معها على قراآتها . تقول ديدار : « أعتقد أنه ما كان أمكنه الاهتمام بامرأة أكبر سناً منه لأنه ما كان حصل إسهام من جانبه . كان بحاجة إلى عجينة يشتغلها » .

وصلت جويس بلو في كانون الأول 1953 . كانت في الواحدة والعشرين من عمرها ، شقراء وجميلة ، ولم تكن خبيثة آنذاك . ومع انها كانت من عائلة متواضعة فقد تبعت المسار الكلاسيكي لشابة يهودية قاهرية ، ما عدا انها انتقلت من مدرسة الاخوات الفرنسية إلى دير انكليزي حيث درست أربع سنوات . كانت قد التحقت بالايسكرا عام 1947 في نهاية

محاضرات سياسية كان يعطيها يوم السبت أساتذة ماركسيون في الليسيه الفرنسي . وقد حملوا اليها بوجه خاص كشفهم عدم وجود الله ، وهو الأمر الذي تلقته باهتزاز عميق على طريقة كلوديل . احتجزها أهلها خلال حرب فلسطين ، وحدَّت بعدئذ من نشاطاتها السياسية ، بالاتفاق مع خطيبها ، قاصرة إياها على سماع إذاعة موسكو : « كنا نستمع لبرامجها باللغة الفرنسية ، تقول ديدار ، كما لو كنا نحضر قداساً » . ولما كانت تعمل على الآلة الكاتبة المختزلة في مؤسسة استيراد وتصدير ، فلقد كان أجرها الهزيل يؤمِّن كيفما اتفق معيشتها ومعيشة أهلها في حدود الكفاف . وكانت تشعر بالكثير من الاحباط لأنها لم تذهب إلى الجامعة ، وتحلم بأن تصبح غنية . وقد قال لها خطيبها في باريس : « سوف تلتقين شخصاً عظيم الأهمية ينبغي ألا تتحدثي عنه لأحد . إنه هنري كورييل » . فهتفت جويس : « ماذا ؟ الصهيوني ؟ » فصفعها خطيبها ، وهجمت هي عليه ، فسقطا أرضاً . عند ذلك ، دخل كورييل إلى الغرفة ، وبعد أن استعلم عن الأمر ، قابل نعت « الصهيوني » دون انفعال ولفت النظر إلى انه لا يبرر بأي من الأحوال ضرب فتاة في مقتبل العمر . في اليوم التالي ، التقى جويس في مقهى قريب من الأوديون . وقد وجدته مؤثراً بقامته الطويلة كيوم الجوع ، وقميصه الرياضي الرث ، وسعاله المثير للرثاء ، لكن في الأخير كان سيداً عجوزاً في الأربعين من عمره . سألها لماذا هي شيوعية ، فأجابت : « لأني لا احب الحرب » وهو ما كان اجاب به آنذاك الكثير من الشيوعيين . فقال كورييل مؤيِّداً : « جواب ممتاز » ثم اقترح عليها القيام بنزهة ومضى بها الى نهر السين المحبوب . وقد حصلت جويس على شرح تاريخي بصدد شارعي بوشي ومازارين ، وشرح مفصَّل لجسر الفنون وزيارة بصحبة دليل لمتحف اللوفر : لقد أعجبته . سألها هنري تحت ابراج نوتردام إذا كانت تقبل أن تؤمِّن الاتصال ، لدى عودتها الى مصر ، بين الشيوعيين المنفيين وشيوعيي الداخل .

أبحرت من مرسيليا في كانون الثاني 1954 على متن سفينة يونانية كانت الدرجة الثالثة فيها رخيصة . وكانت علبة الشوكولا التي كُلِّفت بتسليمها لرفيق في القاهرة تحتوي على تقارير وتحليلات وبيانات مدقوقة على حرير الستنسل ، موضوعة تحت قطع الحلوى . في منتصف الطريق ، سلَّمها موظف الارسال في السفينة برقية تأمرها بأكل الشوكولاتة . وقد وجدت اللفتة رائعةً لكنها لم تكن تحب الشوكولاتة ، وسلمت العلبة للمرسلة إليه كما لو أن شيئاً لم يحدث . وقد ابلغوها فيما بعد أن تحذيراً جدياً كان يدعو لتوقع الأسوأ . وكانت عبارة « كلي الشوكولاتة » تعني بالطبع : « إرمي العلبة في البحر » . فهتفت : « بشرفي ، لم أفهم ! » وقد وبخها هنري كورييل بقساوة ، لكن براءةً بتلك الندرة لم تحبطه . كان على حق فجويس كانت قابلة للكمال .

وقد أثبتت ذلك في غضون أسابيع ، حيث نظمت بصورة ممتازة نظاماً جديداً للاتصال وغمرت فريق باريس بنهر من التقارير المكتوبة بالحبر السري . وأرسلوا لها خطيبها على وجه السرعة ، بمثابة تعزيز وعون . فنزل إلى اليابسة وهو يقول برصانة : « من الآن وصاعداً ، أنا أفكر وأنت تعملين » . فتخاصما ، وحسمت الشرطة الخلاف بتوقيفهما . جرى إرسال الخطيب إلى المعسكر (حيث سيفكر خلال سنوات ثمانٍ) ، بينما زُجَّ بجويس في سجن القلعة .

تقول جويس : « لقد التقيت مصر للمرة الأولى في السجن . لم أكن أتكلم العربية ولا كنت أعاشر مسلمين . اكتشفت ما يمكن أن يكون البؤس بالتكلم مع مساجين عاديين . كان ذلك أمراً لا يُصَدَّق » . وقد اكتشفت أيضاً ما كان يسميه الأكبر منها : « الحنان المصري » : « كان المدير يحار كيف يمكن أن يسرُّني . وحين أصبت باليرقان ، جاء يلازمني في غرفة التمريض . وكان الطبيب رائعاً . كنت أشعر بأني محاطة بالتقدير والود »

لكن الأيام تبدلت . حتى إذا لم تكن السجينة تشعر بذلك ، فلقد كان الموت يجول حول زنزانتها . كان قد جرى اكتشاف شبكة تجسس اسرائيلية حقيقية في القاهرة . وقد انتحر قائدها ، وجرى فيما بعد شنق اثنين من أعضائها . وعبد الناصر الذي كان يضرب في كل الاتجاهات ، كان قد ساق إلى المشنقة ستة إخوان مسلمين ، معتمرين قلنسوة حمراء ، ومرتدين قمصان نوم سوداء ، حفاة ، ومقيّدي اليدين ، أدينوا في نهاية محاكمة مثيرة للرثاء . وفي باريس ، كان المصريون يرتجفون خوفاً على جويس . لم يكن في وسعهم أن يعرفوا أن الشابة ، فيما هي ذاهبة إلى عند الرفاق ، حذرها البواب من وجود الشرطة ، فعادت سريعاً إلى بيتها وأتلفت كل الوثائق الخطرة ، بحيث بقي ملفها فارغاً . وقد أرسلوا المحامي جاك ميرسييه للدفاع عنها . فاستقبلته بدهشة وإعجاب : « لا يمكنك تصور الهيبة التي كانت تمتلكها فرنسا . فالفرنسي كان إلهاً ، وها هم يرسلون إليَّ محامياً باريسياً كبيراً ، أنا عاملة الستينودكتيلو الصغيرة ! وكان جميلاً ، جميلاً ! . . . كنت مذهولة . أدخل أصابعه عبر قضبان الحديد ولمست يده : كان ذلك رائعاً » . (يا لجاك المسكين ، لقد مات في السنة الماضية ، ولو عرف أن طلعته الجميلة المخددة أثرت في نفس السجينة الصغيرة لكان ذلك سرَّه . شخص رائع ، حسب تعبير جويس . كان في السابق مظلياً في قوات فرنسا الحرة ، ثم محامياً صدامياً ، مستعداً على الدوام لأن يمضي ويترافع أمام واحدة من تلك المحاكم ـ المسالخ التي لم يكن يتوقع المدافع أن يحصل لدى خروجه من جلساتها على مقابل غير لبطة في القفا ، لا بل رصاصة غُفْلة في الظهر . كان ديغولياً يسارياً ، أي واحداً يتأكد المرء من أنه سيتواجد معه يوماً وراء المتراس ذاته . كان يكره الهدوء السطحي . وحين كان يطلب مني أن أمر بمكتبه ، كنت أجده يشحِّم مسدسه الضخم ، الكولت 45 ، وكانت تلك طريقة في الاشارة إلى أنه لا يزال على استعداد للهجوم .

كـان ذلك الجـانب الشقيّ فيه . وفي القـاهرة ، استضـافه الـزوجان لاكـوتور ، المراسـلان الصحفيان ؛ وفي النهاية تشارك مـع الأستاذ هنـري نوغـير ، القاضي المتغـطرس لابن العمة فايل ـ كورييل : العالم صغير .)

جـرى اطلاق سـراح جويس بسبب الافتقـار للاثبـاتات ، وهـو أمر يشـرِّف العـدالـة المصرية . ساقوها إلى إحدى مفوّضيات الشرطة كي تنتظر فيها قرار الطرد . كانت الحجرة تعج ببنات وردان . وبما أن ذلك أرعبها ، فقد حَصلت على الأذن بالعودة إلى سجن القلعة. وقد استقبلها المديـر بالبسمـة المفروغ منهـا لمديـر فندق كبـير يعي تفوّق مؤسستـه على المؤسسـات المنافسة . بعد ذلك بفترة قصيرة ، أوصلتها الشرطة إلى سفينة متجهة إلى فرنسـا . وقد جـاء جوزف هازان يستقبلها في محطة ليون . أما هنـري كوريـيـل فرفـع ذراعيه إلى السـماء بدل أن يفتحهما لها ، وتـأملها غـير مصدِّق وتمتم ، ووجهـه متشنج : « لكن مـا الذي حصـل ؟ هذا مستحيل ! » إن جويس ، التي كانت تتخم نفسها بالطيبات ، ولا سيما بساندويشات الموز التي طالما أحبتها بشغف ، زاد وزنها خمسة عشر كلغ . والحال أن المصريين كانوا قد خططوا لتقديمها إلى الصحافة الفرنسية على انها الشهادة الحية على العذاب الشديـد الذي يعـاني منه السجنـاء السياسيون في مصر . لقد فشل المشروع .

سألها هنري : « ما تنـوين فعله ؟ » كان النضـال أمراً بـديهياً . وكـانت جويس تتمنى دراسة الكيمياء ، وترى نفسها قادرة على أن تكون يومـاً كماري كـوري . فقال مـرشدهـا : « هذا يستلزم وقتاً طويلاً . يجب أن تجدي عملاً نصف دوام ، وتتعلمي العربية ، وتناضلي في ما يبقى من الوقت » . كان اليوم العادي بالنسبة إليه يتألف من 16 إلى 18 ساعة نشاطات مهنية ونضالية . هكذا دخلت جويس حياة مجنونـة ، ومثيرة للشغف لكن منهكـة ، سوف تقـطعها رصاصات القتلة بعد 23 عاماً . ستخرج حائزة ديبلوماً من مدرسة اللغات الشرقية في باريس ، وتحصل من بروكسيل على ديبلوم في الالسنية بالفارسية والكـردية ، وتعـود إلى باريس لأجـل حلقة دراسات ثالثة . أول مرة تلفظ هنري كورييل أمامها بكلمة « كردي » ، كانت تجهل ما يعنيه ذلك . وعاملة الستينودكتيلو الصغيرة القاهرية تُعلِّم اليوم الكـردية في مدرسـة اللغات الشرقية وتُعَدّ بين الاختصاصيين العالميين النادرين في أمة يجري حجبها . وقد طُردت شقيقتها سارة من مصر عام 1960 . كانت مصابة بداء السكّري ، في الدرجة الأخيرة ، وقد وضعوها في الطائرة كي تمضي وتموت في فرنسا . كان عمرها 25 عاماً . وقد نصحها هنري بالانصراف إلى الدراسة . فحصلت على إجازة بالكيمياء ، ثم على الجدارة ، وأخيراً على دوكتوراه دولة . والأكثر إثارة للعجب أن هنري كورييل رافقها بدقة في دراستها ، مساعداً إياها حتى في كتابة اطروحة الدوكتوراه الخاصة بها : وهي رشاقة فكرية مذهلة أبداها أيضاً راوول كورييل الذي

كرس ، في السبعين من عمره ، تقاعده النصفي كعالم آثار لدراسة البيوكيمياء . . . وديدار روسانو ، الحائزة شهادة بروفيه مصرية حلقة أولى (BEPC) ، سوف تحصل على دوكتوراه دولة في التاريخ بعد دخولها اللغات الشرقية .

صحيح أن نوعاً من الورع كان يحيط بكورييل . لم يكن يثير فقط حنق خصومه . لكن إذا كان القريبون منه يؤمنون به إلى هذا الحد ، فلأنهم تلقوا منه الكثير الكثير . كانوا يناضلون معاً لتغيير الحياة ؛ وفي الطريق ، كان يغير حياتهم . كم من المناضلين تركوا حزبهم ، ربما دون أسف على الوقت المضحّى به ، لكن مع الشعور بأنهم أفقروا شخصيتهم ، وبدّدوا فرصاً عائلية أو مهنية ، ويبّسوا في ذاتهم كل ما لم يكن مفيداً للحياة النضالية ؟ أما هنري كورييل فلم يكن يفهم النضال السياسي على أنه بَضْعٌ (أو تشويه) . كان يصر على انه لا يمكن أن يعطي المرء الآخرين إلا ما يملكه . وكان تفتح شخصية المناضل مفيداً للثورة . كان قدر أكبر من الثقافة يجعله أكثر فعالية . تقول جويس بصورة مضحكة : « لقد دفَعَنا جميعاً إلى الدراسة » . وطويلة هي لائحة اللواتي والذين اكتشفوا ، بفضله ، أن لديهم طاقات كامنة لم يكن أحد يشتبه بوجودها . والقاعدة الوحيدة كانت أن النضالية لأجل الغير لا ينبغي أن تتأثر سلباً بالاهتمامات الشخصية بإغناء الذات . لقد استحصلت ديدار روسانو ، التي لم تكن حتى حائزة الباكالوريا ، على « عطلة نضالية » لمدة شهرين من أجل أن تهيىء امتحان الدخول للغات الشرقية وتنجح فيه . وقد كرست نفسها لذلك ، قرب ابنتيها في فانس . وفي كل يوم كانت تتلقى رسالة من هنري تحفّز طاقتها . واجتازت جويس المرحلة الجامعية في زوبعة من النشاطات السياسية التي كانت كافية لانهاك أكثر من واحدة . تقول ديدار : « كان يريد أن نتقدم دائماً ، ونكسب الكمال . وكان ذلك منهكاً » . والكثيرون سوف يتخلون عنه مضيفين على القطيعة حججاً ايديولوجية أو سياسية : كانوا مرهقين فقط ، تستنفدهم الطاقة الهائلة المنبثقة من ذلك الرجل سريع العطب ، غير قادرين على الاستجابة أكثر لضرباته المستحِثّة . تقول جويس التي كانت تشعر نحوه بشغف كلي ، لا ظلال فيه : « عشت في قلق ألا أكون جيدة كفاية ، ألا أفعل ما فيه الكفاية . وحين قتلوه ، كانت تلك بالنسبة لي نهاية توترٍ لكل اللحظات » .

*

* *

بعد مرور ثلاثة عقود ، يبدو الغضب المجنون الذي أثاره تأميم القناة عام 1956 غير مفهوم . كان رأي الحقوقيين أن قرار الحكومة المصرية فيه شيء من الفروسية ، لكنهم لاحظوا

أن استغلال القناة المائية كان سيعود إلى مصر عام 1968 وفقاً لاتفاقات 1854 و 1856 ، وأن عبد الناصر عرض تعويضاً عادلاً على أصحاب أسهم الشركة . كانت حرية العبور مضمونة لكل السفن ، باستثناء السفن الاسرائيلية (لم تحرم بريطانيا العظمى نفسها خلال الحربين العالميتين من حظر القناة على السفن الالمانية) . كان يمكن الوصول بسهولة إلى اتفاق مقبول لو لم يأخذ الهوى كل شيء في طريقه .

لقد لجأ عبد الناصر إلى التأميم كي ينتقم من إهانة غربية . فبعد أن كان الأميركيون وعدوه بالقروض الضرورية لبناء سد أسوان ، حجبوها عنه ضمن شروط تنطوي على الاذلال . كان ذلك يعني التلاعب بصورة خطرة بأعصاب أمة متعطشة إلى الكرامة لأنها تعرضت للاهانة مدة طويلة من الزمن . ولقد وجدت الجماهير المصرية الهائجة الرد رائعاً . سوف تفيد القناة ، رمز الامبريالية الأجنبية ، في تمويل إقامة سد على النيل ، الذي هو مصر .

كان الجنتلمانات المحافظون الموجودون في السلطة في لندن يصفّون حسابات قديمة جداً . فلا يمكن الاتيان باليونيون جاك إلى عشرين إقليماً في عشر سنوات دون الشعور بحكّة هجوم انتقامي . كانت القناة ، الطريق السابقة المقدّسة للامبراطورية ، المكان الصالح لتوجيه صفعة إليها . ولمزيد من الوضوح ، كانت لندن قد عانت من نكسات متتالية في الشرق الأوسط (من بينها فشل حلف بغداد) وكانت تلقي مسؤولية ذلك على القادة المصريين . فبالنسبة لايدن ، رئيس الوزراء ، كانت العودة إلى الوضع السابق تمر بإزاحة عبد الناصر . لكن المحافظين كانوا الوحيدين الذين أرادوا القتال . فالمعارضة العمالية ، والصحافة والقسم الأكبر من الرأي العام العملية اعتبروا « غير أخلاقية ومجنونة » .

كانت فرنسا تأمل أن تربح في القاهرة حرباً تخسرها في الجزائر . و« التمرد » كان مستمراً منذ عامين ولم يكن أحد يرى نهايته . ولم يغيِّر إرسال الفرقة العسكرية إلى الجزائر شيئاً : كانت المطرقة الآلية الحربية تعرض نفسها للسخرية لأنها تعجز عن إصابة الذبابة المتمردة . والحرب تتسخ كلما حدثت الاعتداآت الارهابية ، وأعمال الانتقام العمياء ، وأعمال التعذيب . وفي كانون الثاني 1956 ، أدى وصول الاشتراكيين إلى السلطة ، ـ وكان تم انتخابهم بناء على وعد بإعادة السلام ـ إلى مضاعفة الجهد العسكري . لا شك إن مبعوثين غير رسميين كجورج غورس ، ممثل فرنسا الحرة سابقاً في مصر ، كانوا يحاولون بدء الحوار مع القادة الجزائريين ، لكن انصار امتحان القوة كانوا متفوقين إلى حد بعيد على القائلين بحل متفاوض عليه. كانت فرنسا مصابة بالعصاب ، ثائرة بسبب عجزها ، تفتش عن حارفٍ لاحباطاتها . وقد كان عبد الناصر كبش فدائها . كان يدعم حرب الاستقلال بصراحة ، وكانت الحكومة الجزائرية المؤقتة قد اقامت مراكزها في القاهرة. . وكانت البحرية الفرنسية فتشت للتو **أتوس2** ، سفينة القرصنة

التي كانت تنقل لحساب « المتمردين » سبعين طناً من الأسلحة المشحونة من الاسكندرية . وفي 22 تشرين الأول ، ألهب الطبقة السياسية والرأي العام إلقاءُ القبض الأحمقُ على بن بلا وأربعة قياديين جزائريين آخرين ، الذين جرى خطفهم فيما هم على متن طائرة مراكشية اعترضتها المطاردات الفرنسية في الجو . كان ممسوكاً بالطرف المناسب ، ويكفي توجيه الضربة من أجل الكسب . وقد أدى تأميم القناة إلى الارتفاع باستنكار ممزوج لدى الكثيرين بالابتهاج إلى الذروة . كانت مصر ، القاعدة الخلفية لـ « التمرد » ودعامته الفضلى على الصعيد الدبلوماسي ، على وشك أن تعاني من ضربات السلاح الفرنسي . وكانت خُطَبٌ هستيرية تُلقى من على منابر مجلس النواب ، واصفة عبد الناصر بـ « هتلر الجديد » وبـ « العدو العام رقم واحد » و « الرجل الذي ينبغي تصفيته » . . . وفي حين كانت مؤتمرات سرية تخطط لعملية مشتركة فرنسية ـ بريطانية بالتنسيق مع هجوم اسرائيلي ، كان الرأي العام ، المستثار لأقصى الدرجات ، يتهيأ لتنفيذ حكم الاعدام .

إن النمو المتصاعد للهلوسة الجماعية أرعب المنفيين المصريين . كان مسقط الرأس والوطن المختار مرتبطين بصورة وثيقة إلى حد أن الاضطرار للاختيار بين مصر وفرنسا كان أمراً يشبه الكابوس . لم تكن حرب الجزائر تعنيهم . وحتى إذا كانوا يعتبرونها جميعهم جائرة ومجنونة ، فما من أحد منهم تدخَّل فيها بصورة من الصور . لكنهم لم يكونوا يفهمون بأيِّ نوع من الضلال كان يمكن الشعب الفرنسي الأمل بالانتصار في الجزائر عن طريق سحق القاهرة . كانوا يعرفون أن عبد الناصر يستند إلى دعم الشعب المصري ، ولم يكونوا يصدقون أن الحكومة الفرنسية قد تخاطر بقطع الألف رباط التي كانت تجمع بين مصر وفرنسا ، من أجل إرضاء هزيل لحب الذات . كان الرهان مهماً ، على الصعيد المادي . فأربعمئة مليار فرنك من الاستثمارات و 15 شركة كبرى تعمل في مصر كانت تعطي فرنسا هيمنة اقتصادية لا جدال فيها . وعلى المستوى الروحي والأدبي ، ستكون الكارثة بمقاس المواقع المكتسبة منذ قرون . وكان مئة وخمسون ألف شاب مصري يدرسون في مدارس فرنسية ، وكانت انتليجنسيا ضفاف النيل تتغذى من الثقافة الناشئة على ضفاف السين . هل سيؤدي عَمًى بعض المتبجحين إلى الاجهاز على كل ذلك ؟

تعبَّأ المنفيون بنشاط معادل للشغف الذي كانوا يحسون به حيال وطنِهم . وقد جعلهم الخطر ينسون الخصومات القديمة ، وبدا الإخوة الاعداء يصارعون يداً بيد كي يحولوا دون حصول مالا يمكن علاجه . أرسل هنري كورييل ديدار روسانو إلى انكلترا على وجه السرعة ، حيث التقت فينر بروكواي ، رئيس الحركة لأجل حرية المستعمرات ، وتوصلت حتى للقاء نهرو ، الذي كان يزور لندن ، من أجل التوسل إليه كي يتدخل ؛ وجرى تقديم الالتماس

ذاته لتيتو عن طريق التراسل . وفي باريس ، كان المصريون يضاعفون الاتصالات بالمسؤولين الاشتراكيين الفرنسيين محاولين بذلك أن يفتحوا لهم أعينهم . ولقد كانت خيبة الأمل على قدر الأمل . فالهستيريا المعادية للناصرية أصابت حتى الصحفيين اليساريين . وتحتفظ ديدار بذكرى مشادات ملحمية مع واحد كجيل مارتينيه مستعد للاشتراك في حملة صليبية . حتى « العادلون » كانوا يستسلمون . تلك هي حال جول روا ، الذي سيأخذ بعد سنوات مواقف شجاعة ضد حرب الجزائر ، وألبير كامو ، الذي من الرائج اليوم امتداح حزمه وبعد نظره . كان البائسان في حانةٍ صباحَ الهجوم الفرنسي ـ البريطاني ، وكانوا يحتفلون بالنبأ السعيد بشرب الويسكي : « كانت حرب السويس تخلصها. لم يعد ثمة مجال للاختيار ، فالاحداث هي التي كانت تقرر ، والانتصار يسوّي كل شيء . وفي القاهرة حيث كانت الدبابات على وشك الدخول ، قد يتم قطاف زهرة التمرد الجزائري في الفنادق الفخمة . كانت المطالب المجنونة لهؤلاء السادة والتوسوس بصدد العدالة تأخذ أحجامها الحقيقية . وتحل مظاهرة القوة في المتوسط محل الحقوق : لم تفرض روما الحضارة بطريقة أخرى[1] » . روا ! كامو ! (كنت بائساً صغيراً ، أخدم في فوج للمظليين قادتني إليه ، بين عوامل أخرى ، الذكرى التي لاتُنسى لأمثال جاك ميرسييه ، أبطال التحرير . . . قوبل الاعلان بأنه لم يتم اختيار الفوج للانقضاض على السويس بشعور الاحباط . لكن نبأً رائعاً أنعش الحماس : رداً على الضغط الوقح الذي مارسه الأميركيون والسوفيات لفرض وقف للنار على امتداد القناة ، أعلنت فرنسا الحرب عليهم . وقد كان التكذيب قاسياً بالنسبة الينا . كان عمري عشرين عاماً ولن أدع أحداً يقول إن هذا هو العمر الأذكى في الحياة .)

حتى اللحظة الأخيرة ، استخدم مصريو باريس كل الأساليب المتاحة . كان يجاور آل اسطمبولي في فانف وزير الخارجية كريستيان بينو . وقد قامت بالرحلة خِصّيصاً ، السيدة روسو ، مديرة الصفوف الدنيا في الليسيه الفرنسي بالقاهرة ، وتمكن ريمون اسطمبولي من ان يستحصل لها على مقابلة مع بينو . كانت في القاهرة شخصية قادرة على الدخول في كل الأوساط ، تلقى الاحترام لإخلاصها . حيث أنها عرّفت ثلاثة أجيال من المصريين على الثقافة الفرنسية . وقد ارتمت المسكينة عند قدمي الوزير متوسلة إليه كي يمنع الجريمة الثقافية التي تنجم عن نزاع فرنسي ـ مصري . فبادرها الامبريالي ـ الاشتراكي بينو بحركة حاسمة ، قائلاً لها : « فات الأوان : لقد قُضي الأمر ! » كان يتصور نفسه قيصر : في الواقع كان قيصر الذي صوّره بانيول .

---

(1) جول روا ، La saison des za ، غراسيه ، ص 175 .

بما أنه كان يجب الاختيار في النهاية ، فقد اختار هنري كورييل مصر .

كان على اتصال مستمر بخالد محيي الدين ، المنفي الى سويسرا بعد محاولته الانقلابية الصغيرة الفاشلة ضد عبد الناصر . كان يجتاز الحدود السويسرية مرة كل شهر ، بصحبة ديدار ، كي يلتقيه في جنيف . كانت اوراقه المزوّرة من صنع روزيت ، التي حققت تقدماً متواصلاً منذ محاولتها الأولى على جواز السفر النمساوي . وقد اتفق ان التقيا عند روجيه فايان ، في ميّونا Meillonas. كان محيي الدين واعياً مقدار رعونته لكنه كان يجتر باستمرار حقداً شديداً على عبد الناصر . وقد بذل كورييل جهده لاقناعه بضرورة تلب الصفحة : كانت سياسة عبد الناصر الخارجية تستحق دعم التقدميين حتى إذا كانت سياسته الداخلية تبرر انتقاداتهم . وانتهى خالد محيي الدين الى كتابة رسالة لعبد الناصر يقترح عليه المصالحة . وقد تلقى الأمان وعاد الى القاهرة . وكانت صلة مضمونة تؤمّن الاتصال بهنري كورييل .

من النافل ، بلا ريب ، أن ندخل في تفاصيل الطرق والوسائل التي حصل كورييل بواسطتها على الخطة العامة للحملة الفرنسية ـ البريطانية . ولم يكن هذا خيالياً ، حيث ان المعلومات بهذا الصدد لم تكن تستقر في قعر صندوق مصفّح بل كانت متداولة في كل باريس السياسية لشدة ما كان يسود اليقين بالقدرة على ابتلاع الجيش المصري بسهولة بالغة . (لم يكن الشبان ، حتى الحمقى ، المعدون للارتماء فوق الأرض المصرية وعلى ظهرهم رزمة من الحرير ، لم يكونوا يستحقون معاملتهم بخفّة جانية الى هذا الحد . . .) وسوف يبقى الكتمان يحيط بالواسطة ، غير المهمة في كل حال ، التي أتاحت إيصال الخطط الى محيي الدين .

يتذكر هذا الأخير ان « الفكرة العامة كانت موجودة فيها . فلنقل ان 90%من العملية كانت مكشوفة ، الأمر الذي كان يسهّل اعادة تكوين العشرة بالمئة الباقية . كانت الخطة الاجمالية ذكية : هجوم اسرائيلي لاجتذاب الجيش المصري الى سيناء ، ثم قصف كثيف لقواعدنا الجوية ، وإنزال بحري للقوات الفرنسية ـ البريطانية شرقي بور سعيد لعزل القوات المصرية وأخذها بين فكّي كمّاشة مع الاسرائيليين . وكانت الفكرة الاساسية هي تحاشي الاحتكاك بالسكان قدر الامكان .

« تلقيت الخطط قبل عشرين يوماً تقريباً من بدء الهجوم ، وقد أطلعت عبد الناصر عليها . تفحّصناها بأكبر قدر من العناية . فلم يصدّقها ، ولا هيئة الأركان صدّقت هي الأخرى . كانت العملية تبدو حمقاء بالكامل لأنها كانت تستند الى إرادة ضمان حرية الملاحة الدولية في القناة ، بينما كانت نتيجتها الأكثر وضوحاً إيقاف كل ملاحة . فلقد اغرقنا في الواقع اربعين سفينة تقريباً في القناة منذ الساعات الأولى للهجوم . واعترف عبد الناصر فيما بعد في

لخطاب علني أنه كان على علم تام بالهجوم لكنه لم يصدِّق المعلومات التي وصلته . وبالطبع ، كنت قد أخبرته كيف حصلنا على الخطط ، وحدثته عن هنري ، وعن وطنيته ، والظلم الملازم لطرده . وكان جمال موافقاً على عودته الى البلاد » .

كان قد دار في خلد هنري كورييل العودة مع الحملة العسكرية الفرنسية ـ البريطانية . وهو مشروع مجنون ، في حدود الشذوذ ، لكنه يعطي صورة عن مبلغ عشقه لمصر . لم يكن يتحمل الانفصال عنها ، وكان يكرس لها كل ساعة من حياته ، وكل فكره . وقد كتبت إليه ديدار روسانو ، التي عادت الى القاهرة قبل أسابيع ، أن سجناء شيوعيين استطاعت إقامة اتصال بهم يطلبون عودته لانهاء الخصومات وتصفية قضية مارتي ، فقرر السفر بأوراق مزورة ، وببطاقة صحافة مزيّفة ، مختلطاً بمراسلي الحرب الحاظين بقبول هيئة الأركان ؛ وكان صديق صحافي يزعم أنه يمكن لعب هذه اللعبة . وقد قام طبيب بتركيب طاقم اسنان له يغير هيئته بصورة ملائمة ، وبدَّل سحنته شخص محترف . واعتبر القريبون منه انه لا تسهل معرفته ، لكن فيما كان ماراً في جادة جورج الخامس على قدميه ، فوجىء بأن أحد المشاة المتحمسين يناديه من الرصيف الآخر . كان احد زملاء الدراسة في معهد الفجّاله . وكان مر عليهما عشرون عاماً لم يريا خلالها أحدهما الآخر . وقد أشاع ذلك الحرج . ووافق الأقربون على انه إذا أمكن تغيير ملامح وجه هنري ، فإن قامته الطويلة المقبَّبة وطريقة سيره الخاصة جداً سوف تخونانه دائماً . إلا أنه اصر على قرار السفر وتقدم حاملاً حقيبته في الموعد المحدد. وبدل الصحفي المتواطىء معه ، وجد كل اصدقائه المصريين ، الذين عبّروا عن رأيهم بصراحة قاسية : « هذا عمل مغامر . سوف تقتل نفسك ، إذا كنت ستسافر ، فاعلم بأن ذلك دون موافقتنا » . وقد تراجع هنري عن قراره ملتزماً بانضباط المناضل ، لكنه وقع مريضاً من الاحباط .

ظل لوقت طويل مقتنعاً بإمكانية عودة شرعية . فبما هو وطني مصري ، كان قد فضل بلد الولادة على الوطن المختار ، لكنه مثله مثل اصدقائه لم يشعر يوماً بأنه يخون الوطن الثاني . وقد قدَّم معهم البرهان على ذلك غداة العودة المهينة للقوات الفرنسية ـ البريطانية . كانت حملة السويس جنوناً غير مفهوم ، وطعنة سيف في حبكة صداقة دهرية : كان ينبغي رَتْق مِزَقِها الآن من جديد .

ثروت عكاشة ضابط حر قديم ، يحمل دوكتوراه دولة من جامعة باريس ، وكان مسؤولاً في إحدى الفترات عن المخابرات المصرية ، ووزيراً سابقاً للثقافة ، وسفيراً لمصر في عدة عواصم ، وهو يسكن اليوم فيلا فخمة بعيداً عن ضجيج القاهرة . ما أن يفتح الباب الخادم المدرَّب حتى تعيد الموسيقى الراعدة لاحدى سمفونيات بيتهوفن الزائر المطَّلع الى الساعات

الحاسمة لانقلاب عام 1952. فلقد جرى اتخاذ القرار التاريخي في بيت عكاشة المولع بالموسيقى . كتب فيها بعد : « في العاشر من تموز ، جاءني جمال وخالد محيي الدين وطلبا مني ، كما كان يحصل في الغالب، أن أسمعهما «شهرزاد» لريمسكي كورساكوف . وسرعان ما راحت السمفونية تظهر مفاتنها . كان جمال يصغي وعيناه حالمتان ، وأذناه مرهفتان . عند النوتة الأخيرة ، نهض وأوقف البيك ـ آب ، وأعلن فجأة : « سوف نتصرف في بداية الشهر القادم » .

أطفأ ثروت عكاشة ، المميَّز والودود ، الذي يشبه يونسكو بصورة مدهشة ، والمتمرس بالأعمال ، أطفأ البيك ـ آب ، وحدثني عن هنري كورييل ـ « ذلك الجنتلمان » : « لقد نذر حياته لقضية لم تكن قضيتي لكني كنت اكن له الاحترام والاعجاب . كان كائناً يضحي بنفسه كلياً . ولقد وقع ضحية هجمات شيطانية . اني استنكر كلياً الصورة السلبية التي حاولوا إشاعتها عنه . غالباً ما كنت أقصده ، ولأجل مشكلات معقدة دائماً . في كل مرة ، كان يتصرف بحس إنساني نادر . كانت الشهامة والانسانية صفتيه الأوليَين . ومن الناحية السياسية ، كان رجلاً من طراز رفيع . وأنا اعتبر أن اضطراره للحياة والفعل ضمن نطاق السرية كان مأساة حقيقية . لو تمكن من تكريس نفسه للأعمال، لكان قدَّم خدمات جُلَّى . لكنه كان شيوعياً ولم يكن ذلك يفتح له مستقبلاً ملائماً جداً . وفي رأيي أنه كان شيوعياً رزيناً ورجلاً صادقاً على الدوام تجاه مصر . في كل مرة كنت أمر بباريس ، كنت استشيره بصدد سياستنا الدولية . وقد أعطاني جملة من الأفكار النافعة التي لم تكن مماثلة للسوفيات بصورة منهجية . لو انه كان عميلاً لموسكو ، كما اتهموه عندكم ، ما كانت تولدت لديّ الرغبة او الحاجة لالتقائه . ينبغي معرفة ما هو العميل ، وأنا اعتقد اني أعرف ذلك قليلاً . هذا الجنتلمان كان رجل سياسة من طراز رفيع . انه مختلف جداً .

التقيته للمرة الأولى بعد مشكلة السويس ، حين كنت عضواً في المكتب التنفيذي للاونيسكو في باريس . كانت القطيعة مع فرنسا كلية ، ولم تكن لدينا أية اتصالات . وبفضل هنري كورييل تمكنت من الاقتراب من شخصيات مرموقة وإعادة الحوار. وأذكر هنا بيار كوت ، وموريس كوف دو مورفيل ، ولوي جبيه ، ولوي جوكس . وقد بدأنا معاً سيرورة مصالحة نافعة لبلدينا وكانت الخدمات التي قدمها هنري كورييل في ذلك الظرف عظيمة لدرجة اني ألححت على عبد الناصر لاعادة جنسيته المصرية اليه . وفي وسعي ان اؤكد لك ان عبد الناصر كان موافقاً . وللأسف ، انه كانت هناك عوائق على مستوى المحيطين به ولم يحصل ذلك . وأنا أشعر بالأسف » .

ولأن كوريل لم يستطع العودة الى مصر ، استمر في العمل لصالح من كان بودّهم ان يخرجوا منها .

*

**

كان هناك الف سجين شيوعي يخضعون لنظام اعتقال يتراوح بين الجحيم والمطهر . وكانت سنوات الجحيم اكثر عدداً من السنوات التي كان الحنان المصري والتساهل خلالها يلطفان من مصير المحتجزين . تلك كانت حال البير أربيه ، الذي أوقف في سن الثالثة والعشرين وحكمت عليه محكمة عرفية بثماني سنوات سجن (بقي عشر سنوات) . طالما ظل والده حيًّا ، أتاحت له عطايا سخية للحراس بأن يتلقى زيارات وطروداً وكتباً ؛ لا بل حصل على نقله من سجن طُرّه (للأشغال الشاقة) إلى سجن في القاهرة لأجل ترصيص إحدى أسنانه : دامت العملية أربع سنوات . ثم مات الوالد وأخضع أربيه للمصير المشترك .

كان السجناء في طُرّه مصفّدي القدمين ليل نهار . وكانت الحرارة مضنية . كان لكل تقلّب سياسي أثره ، الجيد أو الرديء ، على نظام السجن . فثورة موالية للسوفيات في العراق أو عداء الشيوعيين السوريين لعبد الناصر ، كانا يدفعان الأخير لتصليب موقفه حيال الاتحاد السوفياتي ؛ وكان يُظْهر مزاجه السيىء بتَقْسية شروط الاعتقال . وفي طرّه ، جرى تنظيم معسكر خاص من النموذج النازي داخل المعتقل . وقد احتج الحزب الشيوعي الفرنسي ، الذي كان دعمه للمعتقلين ثابتاً مع أن سياسة عبد الناصر الخارجية كانت تلقى تأييده ، احتج بشدة وكتبت لومانيتيه بحق : « ثمة أناس مهدّدون بالموت في طُرَّه ، الموتهاوزن* المصري . إنهم يتعرضون لعذاب مقالع الحجارة ، الذي تخيّله النازيون في موتهاوزن . كان السجناء السياسيون يسيرون كل صباح مسافة كيلو مترين ، والحديد في قدميهم ، تحت الشمس الحارقة . وفي المقلع ، على امتداد ثماني ساعات ، وفيها الشمس تحرقهم ، عليهم نقل كتل صخرية ثقيلة ، وضربات السياط تنهال عليهم ، محرومين من الطعام ، وحتى من قدح ماء » . لن ينسى اي من معتقلي طرّه ابداً مقلع البازلت المشؤوم .

وقد حدث ما هو أسوأ . فقد أظهر اسماعيل صبري عبد الله خلال محاكمته آثار التعذيب الذي تحمّله بشجاعة مدهشة . وخرج روبي غرونسبان بعد عشر سنوات من

---

* معسكر اعتقال نازي (م)

السجن ، الذي دخله وهو في العشرين من العمر ، خرج وظهره مخطط بسبب الندوب الناجمة عن ضربات السوط . وكانت شيوعية في الستة والعشرين من العمر قد دخلت مصر سراً لتأمين اتصالات ، فجرى اعتقالها كما حصل لجويس بلو ، لكنها لم تسحب الرقم ذاته في اليانصيب الجزائي : عانت من أحد عشر عاماً من الاحتجاز القاسي الذي طبعها الى الأبد جسدياً ونفسياً . وفي سجن أبي زعبل ، كان يجري استقبال الواصلين بصف مزدوج من الحراس المسلحين بالهراوات . كان شهدي عطيه ، المثقف المرموق المتخرج من كامبردج ، اول مصري ينضم للايسكرا ، ثم غدا قائد أول انشقاق بعد الوحدة ؛ وكان اصبح مجدداً أميناً لسر اللجنة المركزية في فترة توقيفه . وقد انهى عبوره بين « سياج الشرف » وهو يختلج ، فأوقفه الحراس عديمو الشفقة مجدداً على قدميه وفرضوا عليه عبوراً ثانياً . فتوفي تحت الضربات قبل أن يصل الى الطرف . اعلن طبيب المعسكر انه توفي بسبب ضربة شمس ، لكن الطبيب الشرعي المحلي كان شجاعاً ورفض المصادقة ، ثم وقّع تقريراً يخلص الى ان الوفاة نجمت عن التعذيب . فيما بعد ، كان عبد الناصر في زيارة رسمية الى يوغسلافيا ، فدعاه تيتو لحضور المؤتمر الشيوعي . وقد وقف مندوب يوغسلافي وسط الجلسة الاحتفالية وحيّى« ذكرى الرفيق شهدي ، الذي مات تحت التعذيب في مصر » . فأمر عبد الناصر بوقف أعمال العنف ضد السجناء .

كانت الطبيعة كافية لمعالجة آلام البشر . كان معسكر الخارجه* ، حيث مر كل الشيوعيين تقريباً ، وسط الصحراء الجنوبية ، القريبة من حدود السودان . يتذكر شريف حتاته فيقول : « النار واللهيب . كانت الحرارة ٤٧° في الظل » . ويكمل ألبير أرييه اللوحة : « كانت تهب علينا عواصف رمل رهيبة ، والعقارب ، والعناكب . . . كان الوضع قاسياً الى حد أن الضباط كانوا يُنقلون كل ثلاثة اشهر ، والجنود كل ستة أشهر . رأينا جنوداً ينهارون ، يصابون بالجنون » . وقد أراني رسوماً له أنجزها احد رفاقه في المعتقل . تعود الرسوم إلى ما قبل عشرين عاماً ، لكنه يبدو فيها اكبر سناً مما هو اليوم . وجه من الحجر المتكلس ، ونظرة قاسية لا يمكن تحمُّلها، التعبير ذاته عن القتاليّة اليائسة الذي كان يبدو على وجوه منفيّي تلك الفترة .

« صمدنا بفضل التضامن العالمي ، لكن قبل كل شيء بفضل هنري كورييل . انا لم اكن اعرفه شخصياً . فلقد كنت منتسباً باستمرار لمجموعات تقف منه موقف المعارضة الشرسة . غداة الحكم عليّ من قبل المحكمة العسكرية كضابط ارتباط متواضع ، فوجئت بملاحظة أني كنت أتصدر الصفحات الأولى للصحف المصرية : ذلك انهم كانوا يقرنون اسمي باسم هنري كورييل ، « اليهودي الصهيوني ، والقيادي الشيوعي المطرود من مصر » . وفي

* اسمه الكامل معسكر الواحات الخارجة ، ويعرف أيضاً باسم معسكر الواحات (المعرب)

المعسكر ، التقيت رجالاً كبدر ، وشريف حتاته . حدثوني عنه وتراجعت عن تقويمي الأول له . وتكفّل تضامنه الخارق بالباقي . لقد تولى هو وأصدقاؤه دعمنا خلال سنوات عشر دون تهاون وبكل الطرق . تلقينا ألبسة وأغذية . حتى في سجن الخارجة ، وسط الصحراء ، تدبروا أمرهم لايصال الشوكولا والسكر إلينا . كان هنري يتفنن كي يرسل الى القاهرة محامين فرنسيين من أمثال ميشال بوفيلار، وغاستون آمبلار . وكانوا يُبْعَدون لكننا كنا نعلم بذلك ونعرف أننا لسنا وحدنا . لقد استحصل على ان يطلب بيار كوت رؤيتنا بمناسبة زيارة رسمية للقاهرة ؛ وعجز عبد الناصر عن الرفض . وكانت زيارة لا تُنسى لأن كوت سلّمنا سرًّا جهاز الترانزستور الذي عهد به كورييل إليه . لم تكن الترانزستورات تُباع آنذاك في مصر ولم يكن معنا غير راديو ضخم يصعب اخفاؤه . لقد بدّل جهاز كوت الصغير حياتنا . لكن الأهم كان الدعم المالي . فالسجين لا يستطيع الصمود إذا عرف ان عائلته تموت من الجوع في الخارج . تلقينا اعانات ضخمة وكنا ننظم بأنفسنا توزيعها داخل المعسكر . وكانت هناك اخيراً رسائل هنري الأخوية . فالمراسلة بيننا لم تنقطع رغم رقابة الحراس والشرطة السياسية . كنا نتكاتب بالحبر السري على ورق القُشارة وكانت الرسائل تمر في أشياء يتم تسليمها لزائرين أو جنود مرتشين. وفي الخارجة ، ذلك المعسكر النائي جداً ، كان ضابط الشرطة السياسية يمضي كل سبت الى اقرب مدينة . وهو لم يعرف أبداً ان بريدنا كان يذهب معه ، بعد إخفائه تحت المقعد الأمامي لسيارته » .

أبدت الجماعة المصرية خلال تلك السنوات العشر نضالية لا مثيل لها على الأرجح من حيث الثبات ، والمقدرة والفرادة . إما أن الالتزام السياسي يتعلق بأشخاص موهوبين ، أو أن حياة النضال تشكل مدرسة جيدة للحياة العادية ، فالواقع ان اعادة انخراط المنفيين اجتماعياً كانت ناجحة بقدر ما ستكون كذلك اعادة انخراط محاربين مُرْد* وطويلي الشعر بعد أيار 1968. كان ريمون اغيون قد غدا تاجر لوحات ناجحاً جداً في حين فرضت امرأته نفسها كخياطة مشهورة ؛ وأسس الفرد كوهين وريمون اسطمبولي (الذي استقر هو ايضاً في باريس) شركة مزدهرة متخصصة في النسيج ؛ ونجح ارمان سيتون نجاحاً باهراً في النشر ، وفي ميلانو ، نجح داوود ناحوم في صناعة التعدين . اما جوزف هازان، الذي دخل في شراكة مع الناشر فرنان ناتان ، فاقتطع لنفسه اقطاعة يُحسد عليها في ميدان الفنون التخطيطية . ويلاحظ الفرد كوهين ما يلي : لم تحصل يوماً مشكلة مع هنري . فلقد كان في تلك الفترة يقوم بالعمل النضالي من السابعة صباحاً حتى منتصف الليل . لكنه كان يتفهم تماماً انشغالاتنا المهنية ويحثنا حتى على

* لم تنبت لحاهم (م)

النجاح . كان يردد امامنا : « اشتغلوا دائماً اكثر ، واربحوا اكبر قدر ممكن من المال كي تفيد منه النشاطات النضالية » .

يقول جوزف هازان ، وزير مالية الجماعة : « كنا حوالي الخمسين من ذوي الاشتراكات المنتظمة . وكان كل واحد يدفع ما بين 30 و50% من مداخيله ، ويجد ذلك طبيعياً . هل كان بالإمكان مقارنة تضحية مالية بآلام رفاقنا ؟ هل كان يمكن ترك عائلاتهم بين أنياب الحاجة في حين تعيش عائلاتنا دون هموم في فرنسا ؟ عشر سنوات من حياة المعتقل ، هل يمكنك تصور ذلك ؟ ولو اننا فعلنا غير ذلك لكنا أحقر من لا شيء . لكن الشائعات ظلت تلاحقنا : « من أين يأتي المال ؟ » انطلقت من الحزب الشيوعي الفرنسي منذ عام 1954 وكان بيار كورتاد هو الذي أطلقها . كان يردد : « لا يمكن وضع الثقة في جماعة كورييل . فمن أين يأتي بموارده ؟ من أين يأتي المال ؟ » إلا أنه كان ثمة على الأقل سابقة في الثورة البلشفية ، متمثلة بليتفينوف . كان رجل أعمال كبيراً في لندن ، وملك التجارة الدولية . ولقد ارسل بمفرده سفينة محملة بالسلاح لثورة 1905. لماذا ما كان واضحاً بالنسبة اليه لا يكون كذلك ايضاً بالنسبة الينا ؟ هو يؤمن سفينة سلاح، ونحن الخمسين لا نكون قادرين على تمويل النجدة للسجناء وعائلاتهم ؟ كنا نعتبر أنفسنا اصحاب امتيازات لأننا لم نكن نفعل غير تقديم المال بينما كان رفاقنا البؤساء يقدمون للقضية عشر سنوات من حياتهم ! » .

تحدد حسابات جوزف هازان مجموع المبالغ التي أرسلتها الجماعة المصرية الى مصر بمليار ونصف مليار من السنتيمات (بقيمة العملة عام 1948) . ومن المفضل اضافة التكاليف لارسال مندوبين الى العديد من المؤتمرات العالمية ، ونفقات طبع بيانات وكراسات معدَّة للتعريف بمصير المحتجزين ، وإمداد العديد من لجان الدعم . كما ان الجماعة اضطلعت ايضاً بتكاليف معيشة هنري وروزيت علماً ان راتبهما المتواضع لم يكن يهدد بالاخلال بتوازن الموازنات .

مليار ونصف .

ولقد كان العقوق متناسباً مع السخاء .

إذا كان جرى استبعاد كورييل بصورة منهجية فلقد نجم ذلك عن قضية مارتي . وإذا كان البعد والزمن صعّبا عاماً اكثر من عام الحوار بين المنفيين وشيوعيي الداخل فلقد كان ذلك ظاهرة محزنة لكنها تافهة . لكن ما لم يكن متوقعاً ، ولا يمكن القبول به إنما هو ذلك التمييز العنصري الذي شعر الشيوعيون اليهود انهم عرضة له من جانب رفاقهم المصريين الذين ظلوا

داخل البلد ، سواء كانوا طليقين او في المعسكرات . وكانت العلامات الأولى ظهرت بعد حرب فلسطين عام 1948. كان الكثير من المناضلين يعتبرون « أن على اليهود البقاء على حدة » ، وهو أمر كان يمكن تبريره تكتيكياً . لكن حين سمعت ايميه سيتون عضواً في اللجنة المركزية يقول : « بوصفك يهودية ، انتهى دورك . وكل ما تستطيعين عمله هو أن تقدمي لنا دعماً مالياً » ، فكرت كالتالي : « لم يعد ثمة أمل فيهم . هذه هي الخطوة الأولى وستليها خطوات » . وحين عادت ديدار الى القاهرة واعادت الاتصال بالمناضلات ، شعرت بأن أصلها اليهودي يثير نوعاً من الضيق . فطرحت بنفسها المشكلة ، وجاءها الجواب : « هناك اجتماع هذا المساء للتداول في هذا الموضوع » . وفي اليوم التالي ، قيل لها : « من الأفضل إن تستنكفي* . . » وكان شريف حتاته قد استفاد من الدعم الكثيف للغاية ، وقد استحصل كورييل من بن بلا على ان يتدخل لدى عبد الناصر بهدف اطلاق سراحه . وحين التقى هازان شريفاً في الجزائر قال له الأخير : « أفضل ما يمكن ان تفعلوه هو ان تنسحبوا . لا يمكنكم ان تفهموا الوضع في مصر . انتم اجانب» . وقد تذكر هازان حادثة تافهة سبقت توقيف رفيقه . كان قدم للحركة مبلغاً كبيراً جداً واعتقد شريف حتاته ان من الضروري شكره بإعطائه الجنسية المصرية « الكاملة » . اما هازان ، الذي لم يكن يشعر بأنه أقل مصرية من شريف ، ابن انكلترا عن طريق أمه ، فقد انفجر ضاحكاً ، ناظراً الى الموضوع على انه مزحة . الا ان الضحكة انتهت تكشيرة مُرّة .

وقد اتخذت الضربة القاضية شكل رسالة صادرة عن الحركة الشيوعية المصرية المعاد توحيدها للمرة السادسة او السابعة ، بانتظار الانشقاق اللاحق المحتوم. لقد أبلغت اللجنة المركزية الجديدة المنفيين بإقصائهم بصورة جماعية . فبما انهم اجانب ، عليهم ألا يتدخلوا في الشؤون المصرية ، وانضمامهم الى الحركة الشيوعية مرفوض. وتشدد الفقرة الأخيرة من الرسالة على ان المساهمات المالية من جانب المنفيين سوف تبقى مع ذلك تلقى القبول ، لا بل ستكون في حكم المتمنّاة . كانت الرسالة واضحة : « لا سياسة ، بل شيكات » .

اجتمع اركان الجماعة في مطعم الجُزُر restaurant des Iles ، على بحيرة غابة بولونيا . وكان العشاء عاصفاً . إن أيًا من المنفيين لم يكن يعتبر أن تضحياته المالية تمنحه نفوذاً سياسياً خاصاً ، أيٌّ منهم لم يكن يقبل تجريده من صفته كمناضل وتحويله الى بقرة حلوب . وقد طلب البعض ، من مثل الفرد كوهين ، أن تتم معاقبة فظاظة الأسلوب بالقطيعة الكاملة . فرد هنري كورييل بأنه لا ينبغي تحميل المسجونين ذيول قرار جائر . وتابع قائلاً : « علينا الاستمرار في

* المقصود : عن المشاركة في الحياة التنظيمية(م)

المساعدة كالسابق لا بل اكثر . علينا المساعدة الى حد جعل الرفاق في اللجنة المركزية يشعرون بخطئهم » . وقد تم اتخاذ القرار بالمواظبة على الدعم ، وهو الأمر الذي بقي قائماً حتى اطلاق سراح آخر سجين .

لكن أمر مصر كان مقضيًّا .

* * * *

غادروها الواحد تلو الآخر ، وفي أوروبا ، انضم الجيل الشاب لمعتَقَلِيْ طره والخارجة لقدامى هو كستيب وأمكنة أخرى ، لكن لم يتوصل احد منهم لنزعها من قلبه . بعد ثلاثين عاماً على الفراق ، لا يزال جوزف هازان يحلم بالعربية ؛ ولا ينفك اصدقاؤه يسترجعون الوطن المفقود . (ويلاحظ اسماعيل صبري عبد الله ، الذي كان المحامي النشيط في الدفاع عن طردهم ، يلاحظ برضى لكن بحق ، ان ذلك أمر طبيعي ، « فكل الذين يأتون الى مصر يرحلون وهم يعشقونها ») . يحتفظون بالمرارة لخصوماتهم القديمة ، ولتصفية الحسابات الداخلية التي لم يشملها مرور الزمن ؛ اما مصر فيخصونها بعشق لم تؤثر فيه التقلبات .

إذا كنا نحكم على السياسة بالنتائج ، فإن نجاحهم ليس بديهياً . لم يكونوا غير حفنة من الضُّمَّات* ضمن الجمهور المصري ، الذي سارع الى استئصالهم . لكن إذا كانت السياسة أيضاً قدراً جماعياً ، فلقد كانت مغامرتهم عظيمة . كانوا الأولاد البعيدين لشتات قديم جداً وجد في العالم العربي مكان تفتحه . وكان آباؤهم قد نقضوا المعاهدة بالالتحاق بالبورجوازية الاستعمارية الأوروبية . اما الأبناء ـ الأفضل بينهم ـ فتعرّوا من امتيازاتهم ومضوا باحثين عن الشعب الذي تم فصلهم عنه . وهو أمر لم يحدث في أي مكان آخر ، إلا بصورة فردية . ارادوا ان يكونوا شيوعيين وهم يسمعون مدافع ستالينغراد ولأن الكتب الماركسية كانت تقدم التفسير والدواء للبؤس غير المحتمل الذي عبَّأهم . وبصفتهم شيوعيين ، حلموا بأنفسهم في الجيش النضالي ذاته الذي يضم فلاح الدلتا وعامل شبرا الخيمة . إلا أنهم استيقظوا فإذا هم أجانب ويهود : ابناء البورجوازية الامبريالية التي أخضعت مصر سابقاً ، وإخوةً رغماً عنهم للجنود العبريين الذين تسببوا لها بصعوبات مهينة . وإذا كان النشيد الأممي توقف عن ان يكون صيحة ليصبح همساً آلياً ، فعلى ضفاف النيل ، في الخمسينيات ، حين أقصى شيوعيين شيوعيون شيوعيين لأنهم لا يملكون جوازات سفر . وهو أمر فاجأهم بقدر ما جرحهم ، وكان الجرح يتوسع بسبب عدم

* أنواع من البكتيريا القوسية (م) .

التفهم . لم يكن أحد يتصور آنذاك أن جنود الجيشين الأحمرين ، الروسي والصيني ، سيتقاتلون على نهر أمور Amour* ؛ وان فيتنام ستنزل عن صليبها وتنتعل أحذية الفاتحين ، وأن الأمم الأكثر رصانة سوف تمزقها الصراعات الدينية والعرقية واللغوية . . . لقد ماتت الروح الأممية الفسيحة والحمراء . وكانوا بين اوائل من تلقوا اعلان الوفاة .

ثلاثة اشهر في الألوية الأممية ، وستة اشهر في الأدغال ، او سنة في زنزانة ، تسمح لآخرين بالشعور بأنهم شرعيون حتى خريف حياتهم . إن ليانصيب الحياة النضالية أرقامه الجيدة . أما هم فقد بسحبوا الأسوأ بينها . فنضالاتهم التي خاضوها ضمن ظروف بالغة التعقيد بقيت مجهولة ، وبقيت تضحياتهم غير معروفة . إلا أنهم كانوا مصر في 21 شباط 1946 ـ احد الأيام الخمسة التاريخية في القرن المصري . طره ، الخارجه ، الأقدام في اصفاد الحديد ، مقلع البازلت ، « سياج الشرف » ، الزردات الداميات المزرودة بالسوط على ظهورهم المتكلسة : من يتذكر فعل الاستشهاد غير الشهداء ؟

لقد كانوا طائشين أيضاً ، وعديمي الصبر ، وغير حذرين ؛ وكان لبعضهم مطامح ؛ وهم ما كانوا بمصريين لو أنهم لم يناضلوا احياناً الى جانب كورتلين . لكنهم قدموا البرهان على نوعيتهم في أشد المحن سوءاً : محنة الانكار السابق ، والحاضر، واللاحق ، لوجودهم السياسي . لأن ما هو مكتوب هنا لم يقله احد منهم . وعظمتهم تكمن في كونهم قبلوا كل شيء من دون التأسف على أي شيء . لقد خَدَموا ، وهذا كافٍ .

ليس التشبيه بحجة ، وسوف تظهر لهم هذه الحجة غير ماركسية . قبل خروجهم من الغيتو الأوروبي بمئة وخمسين سنة ، كان جيش بونابرت الصغير قد بلغ شاطىء مصر ، واحتل البلد ، وفكر بطيب خاطر ان يدخل في الاسلام ، وبدأ إصلاحات مَلاّك مهتم بالمستقبل ؛ ثم توارى من دون ضوضاء . كانت تلك الغزوة ، من بين كل الغزوات التي تعرضت لها مصر ، احدى اكثرها خطفاً . خفقة هدب للتاريخ . مغامرة على صورة تلك الأنهر الناتجة عن عاصفة ، والتي سرعان ما يبتلعها الرمل . من كان صدّق ، في تلك الفترة ، أو بعد خمسين سنة ، أن الأعظم بين المصريين منذ الفراعنة ، جمال عبد الناصر ، سيكتب عن الحملة التي سرعان ما جرى صدُّها : « كانت بداية النهضة » ؟ كان الأبعد نظراً بين رفاق هنري كورييل يعرفون ان دورهم ، الانتقالي بشكل أساسي ، سيخدم كأبدال relais**. فبواسطة جامعاتهم الشعبية ، وتعريبهم مؤلفات سياسية ، ومحاضراتهم ، وصحفهم ، كانوا يحملون رسالة

---

* نهر يفصل سيبيريا عن شمال شرقي الصين ، ويصب في بحر أوخوتسك (م) .

** الابدال كلاب أو أفراس معدة سلفاً لاراحة كلاب أو أفراس متعبة (م)

ثورية . وسيقول التاريخ ما تدين فرادة مصر التي لا جدال فيها ضمن العالم العربي ، ما تدين به لعملهم الايديولوجي .

في صيف عام 1981 ، وفي معسكر السادات للاعتقال ، طلب شيوعيون مصريون في العشرين من العمر من محمد الجندي ، المحارب القديم ابن الخمسين في الحركة ، أن يحدثهم عن هنري كورييل ورفاقه .

*

**

الجميع ذهبوا ، الا اثنين .

كان اصدقاء شحاته هارون المنفيون يسمونه « آخر الموهيغان »* . وليس هذا دقيقاً ، لأن ألبير أرييه بقي هو الآخر في مصر . وفي سجن الاشغال الشاقة ، كان مكلفاً بالعناية بمساكب الزهور التي تزيّن محيط البيت الصغير الخاص بالكوماندان ، وهو ما كان يتيح له سماع أشياء كثيرة . وقد وقع في حب الزهور وانصرف للمتاجرة بها بعد اطلاق سراحه ، مصدّراً إياها بالأطنان الى اوروبا الباردة . لكن أرييه وقع أيضاً في حب مسلمة هدته الى الاسلام ، وإلا لما كان تمكن من الاقتران بها حسب قانون البلد ، بحيث أن المسلم أرييه لم يعد من الموهيغان تماماً كالآخرين . يقول القاهريون عن شحاته : « صاحبنا اليهودي » .

إنه اليهودي الأقل تجوالاً بين يهود العالم . لقد اختفى مجتمع من تحت نظره في حين كانت القاهرة تنتقل من مليون نسمة الى 13 أو 14 مليوناً ؛ شهد تشتت جالية يهودية تعدادها مئة الف نسمة ، كانت موجودة منذ الأزمنة التوراتية ولم يبق منها غير ثلاث دزينات من العجزة المريضين جداً بحيث لا يمكن ان يرحلوا ، والشائخين جداً بحيث لم يعودوا يعرفون من هم ؛ رافق الى الطائرة او السفينة كل رفاق طفولته الذين تشتتوا في شتى انحاء العالم ، اما هو فلا يتحرك من مكانه . منذ ولادته ، تنحصر الشقق المتتالية التي سكن فيها ضمن دائرة لا يزيد محيطها عن مئتي متر . فاذا اجتزت معه حيَّهُ ، فأنت تقوم بجولة المالك . كل الناس يعرفونه لأنه يجيء مما قبل الطوفان : وجدوه في المكان ، مع المباني والتماثيل . ولقد رأى شحاته تاجر الخضار البدين الذي يملك اليوم بيتاً على الشارع ، رآه يتضور جوعاً ، ويجيء من قريته ليجلس على الرصيف خلف خسّاته الثلاث . ويعرف المتسول الصغير القصير القامة انه تصدّق على الجد . وبين مسكنه ومكتب المحاماة الخاص به ، يحيِّي مئتي صديق ، أي أنه يكتشفهم بانفجار الفرح الخاص برجل تم إنقاذ نهاره ، يلمسهم ، يقلِّبهم بعناية ، يتبادل معهم اسراراً

* قبيلة من الهنود الحمر في أميركا الشمالية (م)

مهمة همساً ، ينتزع نفسه من نقيب محامي القاهرة ليقع في أحضان بائـع صحف ، ويتدخـل بسلطان في زحمة سير إذا ارتأى أن الشرطي ليس على مستوى مهمته . عند الصباح ، يرتدي طقماً رمادياً ، وربطة عنق ويحمل محفظة ، ويبحر بين مكتبه ، حيث تلقي زوجته مراسيها طوال النهار ، ومقر حزب التجمع . وبعد الظهر ، كان يأتي ، لابساً على عجل ، فيعرفني على المدينة التي يجهلها السواح كما فعل قِدْماً مع روجيه فايان .

وجهه كوجه لوي دو فونيس معبر جداً الى حد انـه حين كـان يلعب دور المترجم أثنـاء محادثاتي مع مناضلين لا يتكلمون غير العـربية ، كنت أقـرأ الشهادة عـلى وجهه حتى قبـل ان يترجمها . كل شيء يتحرك : العينان ، الفم ، الجلد المتموج . وجهٌ كشاشة يُعرض عليها فيلم اجنبي بديهي لدرجة ان الترجمة تصبح نافلة .

أراد نفسه مصرياً حتى الموت . وحين انفجرت حرب 1956 ، مضى الى مركـز تطوع . كان يتوقع ان يجد مركزاً رزيناً وأحس بركبتيه تصطكان حين اكتشف جمهوراً هائجاً . قال في نفسه : « سنوف يتعرفون إليّ ، ويقبضون عليّ كالجاسوس اليهودي الآتي لمراقبة الـوطنيين » . وقد رفض الجيش المصري ترشيحه .

وعام 1967 ، خلال حرب الأيام الستة ، لم يتركوا له فرصة ليتقدم كمتطوع ، وأوقفوه منذ الليلة الأولى . وفي سيارة الشرطة التي كانت تنقله الى المفوضية ، قـال لحارسـه : « المهم الا تقصف اسرائيل سد أسوان . . . » كان ذلك هو هاجس الجميع . فثقبٌ واحد في السد كاف كي يكنِّس موج هائل كل وادي النيل حتى المتوسط ، شاطباً مصر من الخـارطة . وفي مـركز الشـرطـة ، همس الحـارس في أذن المفـوَّض . فشحب هـذا ، ورمق شحـاتـه بنـظرة غضب وتهديد ، قائلاً : « انت اليهودي الذي يتمنى ان تقصف اسرائيل اسـوان ؟ » . ثم حطم لـه نظارتيه ، وكسر ساعته ، وبهدوء مزّق ثيابه وأوسعه لكماً . وألقي بشحاته في قاعة الاعتقال ، حيث كان يتلقى الضرب في كل مرة كان رجال الشرطة يُدخلون فيها سجيناً جديداً . وقد وجد الليل طويلا . بعد ذلك جرى نقله الى معسكر اعتقال ، حيث قُدِّم الى الكوماندان ، القديم قِدَمَ مصلحة السجون ، وكان استقبله اكثر من مرة وراء أسلاكه الشائكة . وقد صاح الـرجل الطيب : « يا استاذي العزيز ! كيف تجرأوا ! هـل تريـد الاعتراض ؟ ـ فيـما بعد » ، اجـاب شحاته بحس أكيد بالفرصة الملائمة . وبعد اطلاق سراحه بثلاثة اشهر ، طلب مقابلة وزيـر الداخلية وحصل على نقل مفوض الشرطة . إنه يتمتع بروح قتالية عنيدة . بدونها كان حـزم حقائبه مئة مرة . كل يوم من أيام حياته فعل إرادة .

في حين كان يتعرض للضرب المبرّح في المركز ، غرقت القاهرة في الظلمة بسبب إنذار

جوي . فنزلت زوجته ، المولودة ليهودي من حيفا ويهودية من إزمير ، نزلت مع ابنتيها لتنضم الى المستأجرين الآخرين في ردهة المبنى. وفجأة ، هزت الجدران قرقعة زناجير ، فشدت زوجة شحاته ابنتيها اليها مرعوبة وهي تقول في نفسها : « إنهم الاسرائيليون ! سوف يقتلوننا جميعاً ! » يا للأقدار . .

إن سنوات نضاله الخمس والثلاثين جعلته يمر على كل سجون مصر ومعسكراتها ؛ يمكنه إذا شاء ان يكتب دليلاً ، ويمنح نجوماً . لديه دائماً دعويان أو ثلاث مع اتهامات من مثل « اعتداء على أمن الدولة » ، « تآمر ضد الدستور » ، الخ ، لكنه يقبل بطيب قلب بهذه الاهتياجات الحقوقية . لا بل هي تطمئنه . « حين تصبح الأمور هادئة جداً ، فلنقل : حين لا يكون حدث شيء منذ ثلاثة أشهر ، أقول في نفسي : « شحاته ، خذ حذرك ، سوف يلقون القبض عليك » .

عنيد كأهل الاوفرني* ، صلب كمنهير** في مقاطعة بريتاني ، مرحٌ مثل لاعب كرة من مرسيليا ، ذو شجاعة فائقة في أسوأ حالات الانفجار السياسية ، مصري اكثر من كل المصريين : هذا هو صاحبنا اليهودي .

*

* *

بالنسبة لما هو أساسي ، كان هنري كورييل على حق. فعلى عكس القائلين قصيري النظر بالجبهة الطبقية ، وبالحزب الخالص والصلب ، كان قد فهم ان المعطى السياسي الأساسي هو المطالبة بالاستقلال الوطني : لقد تمفصل تاريخ مصر في هذا القرن حول هذا المطلب . وكانت رؤيته واضحة بصدد المسألة السودانية . . . وكان على حق ضد الجميع في تحليله لحركة الضباط الأحرار .

إن صفاءً موهناً على المدى الطويل وقدرة نادرة على الإغاظة يفسران جزئياً استمرار النقد . يحيّي الخصوم القدامى طوعاً الرجل الذي تحركه نوايا ممتازة ، والمناضل المخلص للثورة حتى التضحية بحياته ، لكنهم يعتبرون كشف حسابه المصري سلبياً . فبوصفه قيادياً جعله الطموح غير قابلٍ للعزل ، حتى ولو اضطر لممارسة سلطته وراء الكواليس ، عمد ، حسب تحليلهم الى تبديد فرص الحركة الشيوعية . ولو كان ذلك صحيحاً ، فان طرده من البلد وإبعاده

* مقاطعة فرنسية (م)

** نصب حجري عمودي عالٍ (م)

عن الحزب كان يجب ان يسمحا بتفتح تلك الحركة ، التي تخلصت أخيراً من العائق وهو ما لم يحصل . فمع مرور الوقت ، بدأ عبد الناصر مفاوضات مع القادة الشيوعيين للمنظمتين الباقيتين ، عن طريق احمد حمروش . تظاهر بالموافقة على ان تتأسس لاحقاً منظمة شبه رسمية الى هذا الحد أو ذاك تجمع الشيوعيين خارج الاتحاد الاشتراكي ، الحزب الواحد للنظام . وقد جرى الانشغال بوضع النظام الداخلي ، لكن مع البدء بحل البنى الموجودة ، تنفيذاً لارادة عبد الناصر . وبعد ان تم التدمير ، رأى الشيوعيون المصريون الأكثر موهبة انهم امام الخيار بين الالتحاق غير المشروط والتصفية السياسية . غادر اسماعيل صبري عبد الله وفؤاد مرسي رمل المعسكرات الى الموكيت الوزارية . كانا قد سخرا بشراسة من جملة بائسة لهنري كورييل يقول فيها ان تعدد المنظمات الشيوعية المصرية يعبر عن غنى الحركة . ومعهما ، أعقب الفراغ المطلقُ الطِّفاحَ ، فأين التقدم ؟

إلا أن فؤاد مرسي هو الذي أطلق الحكم الأكثر بعد نظر ، والأكثر عدالة في نهاية المطاف ، بصدد القدر المصري لهنري كورييل : « كانت مأساته أنه اجنبي ويهودي في الوقت الذي كان البلد يحدد لنفسه فيه مهمة طرد الاجنبي ويرى العالم العربي يعهد له بقيادة النضال ضد الصهيونية . وان يكون ابن صاحب مصرف يهودي من اصل اجنبي استطاع انجاز ما انجزه هو بحد ذاته امر خارق ، لكن كان من غير الممكن تخطي العقبة » .

لقد بلغ سن النضج بعد غرق ابتلع اكثر بكثير من شخصه السياسي . هذا الرجل في البحر كان محاطاً بالصخور . وأيٌّ غيره ، أقل إقداماً ، كان مصيره الغرق .

كان التزامه السياسي فصله عن ذويه . فلقد تسبب بيأس ابيه ، الذي توفي اثناء احتجازه في هوكستيب . وامه التي لم تجحده توفيت في القاهرة عام 1965. حملها الى القبر شحاته هارون ، وألبر أربيه ، وفؤاد حبشي والشاعر كمال عبد الحليم . رآها مرة واحدة على امتداد 15 عاماً ، بفضل بن بلا الذي استحصل من عبد الناصر على إذنٍ لها بالسفر الى باريس .

كان مصرياً ، وطرده الملك فاروق بصفته يهودياً وشيوعياً .

وكان شيوعياً ، فشهّر به رفاقه الفرنسيون ودمروه سياسياً . وبعض هؤلاء ربما لفتوا نظري الى انه لو استقر في براغ مستجيباً بذلك لنصيحة مارتي ، لكان تعرض على الأرجح للشنق . وهذه في الواقع تعزية .

كان مناضلا تاريخيا في الحركة الشيوعية المصرية ، ومؤسسا للحزب الشيوعي السوداني ، وقد أقصاه رفاقه المصريون لكونه أجنبيا .

كان غير المرغوب فيه ، الى اقصى الحدود .

وبصدد هذا الرجل المصاب بجرح خطير، يجب ان نفهم ان حياتـه تنتهي هنا بصـورة ما . وما سينجزه مذاك ، سوف ينجزه لغياب مصر . سوف يجهل قتلته ذلك ، ولو كانوا على علـم به لما أثار اهتمامهم ، أما مغتابوه فكانوا أبعد ما يكونون عن تصوره ، ولم يكن رفاقه في المعارك التي خاضها في السنوات العشرين الأخيرة على معرفة به ؛ لكن دعونا نفصِّـل الكلمة الرائعة : لو فتحوا قلب هنري كورييل المقتول غيلَةً ، لوجدوا كلمة « مصر » محفورةً فيه .

ملحق

رأينا أن نورد نصّين قصيرين لأحد رموز الحركة الشيوعية المصرية في الفترة الأهم من حياة هذه الحركة، فترة الاربعينيات واوائل الخمسينيات. وهذا الرمز، لطف الله سليمان بالتحديد، يلمِّح بيرو إليه في الصفحة 175 من كتابه (الأصل الفرنسي)، دون ذكر اسمه. أما النصان، فأولها كتبه سليمان بعد أيام من مقتل كورييل وصدر على صفحات مجلة Politique Hebdomadaire ، العدد 311 ، من 15 إلى 22 أيار 1978 ، والثاني كتبه بعد صدور كتاب بيرو، ونشره في مجلة «فرنسا والبلاد العربية»، العدد 120 ، تموز ـ آب 1984.

(المعـرب)

موت ثوري

(السياسة الاسبوعية، عدد 311 ، 15 - 22 أيار 1978)

مذ انتشر خبر اغتيال هنري كورييل، انهالت عليّ المخابرات الهاتفية. وكان معظم المتصلين بي صحفيين، كما لو أن الصحافة اكتشفت فجأة انها لم تكن تعرف شيئاً، او كانت تعرف القليل، عن الرجل الذي سقط برصاصات من العيار الثقيل لقتلة محترفين يعملون في اطار «عمل دقيق ومنتظم». لكني كنت احد الذين يستطيعون الادلاء بشهادتهم حول الفترة المصرية من حياة ذلك الذي سبق ان صوّرته أمية الحمقى بأنه، في آن معاً، عميل الكاجي بي K G B والرأس المفكر للارهاب الدولي.

وقد بلغ الفحش ذروته حين لفت أحد المتصلين بي نظري، بعد أن أبلغته مدى تأثري، إلى أننا (المقصود كورييل وأنا) «لم نكن، مع ذلك، نتشارك الرأي».

كما لو أنه لم يكن من الضروري توجيه التحية للصدق، والاستقامة، والشجاعة لدى رجل لم أقاسمه يوماً بشكل كامل لا آراءه ولا طرقه، لكنه كان مخلصاً أبداً لالتزاماته، وأحب مسقط رأسه، مصر، بشغف، واحترم بدقّة مؤسسات بلد الاختيار، فرنسا، ولم يتهرب يوماً من الاستجابة لنداء يطلقه معذبو الارض.

في المساء ذاته، اذاعت القناة 2 ، في جريدة الساعة الثامنة، مقابلة مع هنري كورييل، ايام كان تحت الاقامة الجبرية في ديني Digne : أية شهامة في موقف رجل كان عرضة لقرار طرد، ويالها من شهامةٍ في أقواله! كان ثمة ما يستوجب إعادة بعض المسيحيين، الذين لا يزالون يمتدحون انفسهم لكونهم يواظبون على حضور القداس، إعادتهم إلى أحجام بالغة الصغر!

كوربيل «جبهوي»

لقد تعرفت على هنري كورييل في القاهرة، عام 1939 ، وكنت آنذاك لا أزال ريفياً، دعاني إلى محاضرة ونقاش في «الاتحاد الديمقراطي». وانا لم اعد اذكر لماذا لم يكن هنري كورييل حاضراً. اما ما اتذكره فهو أني اضطررت لمغادرة المنصّة بسبب صيحات الاستنكار لفريق صغير من النشاطيين. كنت قد اعتبرت ان على كل القوى الديمقراطية الانخراط في الحرب ضد الفاشية، وذلك باسم الدفاع عن الاتحاد السوفياتي بالذات، ومن دون ان أهاجم مباشرة المعاهدة الالمانية ـ السوفياتية.

التقيت هنري في الصباح التالي. وقد اضطررنا للاعتراف، منذ البدء، أنه ما عدا هدفاً مشتركاً، فكل ما تبقى يفصل ما بيننا كنا كلانا شيوعيين، لكن في تلك الفترة كان من جانبه ستالينياً وكنت مصنّفاً كتروتسكي. واذا كانت ذاكرتي لا تخونني، فأنا لا اعتقد انه تولد لديَّ الانطباع بأن هنري اعتبرني ، من جهته، «أفعى سامة». لا شك انه حاول ان يثبت لي أن ثمة تناقضاً بين موقفي النظري و «ادعائي» العملي بـ «الدفاع غير المشروط عن الاتحاد السوفياتي»، لكنه لم يتلفظ بكلمة واحدة يمكن أن تبدو مشككة بـ «التزامي الثوري» او جارحة لي شخصياً. وهو ما لن يكون حال معظم أعضاء حركته الذين لم اكن بالنسبة إليهم «تحريفياً يمينياً» وحسب، بل كذلك «خائناً» و «عميلاً للامبريالية».

ذلك اللقاء في تشرين الأول او تشرين الثاني 1939 ، كان اللقاء الجوهري الوحيد، بين هنري كورييل وبيني. لا شك أنه ما بين ذلك التاريخ وطرد هنري كورييل من مصر عام 1950 (وليس في ايام عبد الناصر الذي لم يستول على السلطة الا عام 1952)، وحتى بعد تلك الفترة، غالباً ما كنت ألتقيه لا بل اصطدم به، لكن دائماً عبر التنظيم الذي قام بتأسيسه، «الحركة المصرية للتحرر الوطني»، الذي اندمج في ايار 1947 مع حركة اورثذكسية اخرى، هي الايسكرا، فغدا «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني»(حدتو) .

بخلاف شيوعيين مصريين آخرين ، كان هنري كورييل « جبهوياً » على الدوام . طبعاً كان على الشيوعيين ، في نظره ، ان يكونوا « النواة القائدة » للجبهة ، لكن كان على هذه النواة ان تتغذى أثناء العمل وعبر الاحتكاك الدائم بالجماهير المتحركة . هكذا مقاربة جعلت من ح.م.ت.و. حركة اكثر انفتاحاً وشعبوية من الحركة الاخرى، الايسكرا، التي كانت تريد لنفسها ان تكون اكثر نخبوية. لكن سياسة انفتاح جبهوية تتطلب دائماً يقظة متواصلة ووعياً شديد الوضوح لأجل معرفة الى اين يمكن، او لا يمكن، الذهاب. فخطر الانزلاق قائم. كما ان خطر الدوغمائية قائم هو الآخر أيضاً.

تعود إلى ذاكرتي حادثة في هذا الصدد، حدثت عام 1945 . كانت الحركة الوطنية المصرية آنذاك في أوج غليانها. وكانت تطالب بجلاء كل القوات وازالة كل القواعد الاجنبية، واعادة النظر بالمعاهدة الانكليزية- المصرية لعام 1936 . وبالطبع كانت كل الحركات الشيوعية مشاركة في هذه الحركة: حدتو بشقيها، حمتو والايسكرا، بالاضافة الى «الفجر الجديد»، و«الطليعة» الخ: ، ومجموعتنا المؤلفة بشكل اساسي من المثقفين، من دون بنى تنظيمية حقيقية. وكان يشارك فيها أيضاً بعض الاحزاب التقليدية ، كالوفد، الممثل بشكل خاص بـ «طليعته» و «شبيبته»، ومنظمات اصولية ، كالاخوان المسلمين. لكن في تلك الفترة بالذات، كان يوجد «وضع» داخل الطبقة العاملة خلقه تحويل ورش عسكرية للحلفاء أو إغلاقها وتسريح عمالها الذين جرى الالقاء بهم في سوق العمل فغدوا يشكلون جيشاً سرعان ما التقطه ارباب العمل في شبرا الخيمة محاولين أن يخرسوا بذلك مطالب عمالهم.

كان الوضع آنذاك عبثياً. فمن جهة، المظاهرات «الوطنية» المؤلفة عموماً من الطلاب الذين كانوا ينطلقون من جامعة القاهرة ويتجهون الى عابدين (القصر الملكي) هاتفين «فليحيَ الجلاء»، «عاش الاستقلال». ومن جهة اخرى، المظاهرات العمالية التي كانت تنطلق من شبرا الخيمة، غير متمكنة ابداً من اقتحام حواجز الشرطة والوصول الى وسط العاصمة، وتطالب بشكل اساسي ««بضمان العمل».

في ذلك الحين بالذات، بدا لنا من المفيد لا بل الملح أن نوجه نداء الى الطلاب: «لا إلى عابدين، بل الى شبرا الخيمة»(*). وقد لقي نداؤنا تأثيراً أكيداً في جامعة القاهرة، لا سيما انه حظي بالدعم الحماسي للطليعة الوفدية.

بعد ظهر اليوم ذاته الذي اطلقنا نداءنا خلاله، تلقيت زيارة احد مساعدي هنري كورييل (الذي سيلعب فيها بعد دوراً مهماً في السودان). وكانت المقابلة صاخبة، فبحجة أنه لا يمكن الاخوان المسلمين القبول بأن يجري « حَرْف » الحركة الوطنية ، جرى اتهامي بـ « الخيانة في خدمة الامبريالية » وتهديدي بالتعرض لـ « العقوبة » نفسها التي تعرَّض لها « عرّابي » ، تروتسكي ـ الخائن . وقد اكد لي هنري كورييل بعد انقضاء زمن طويل ، وبالتحديد عام 1966 ، وفي باريس ، بأنه لم يكن على علم بزيارة مساعده وبتهديداته . وليس لديَّ اي مبرر للشك بصحة كلامه . في كل حال ، كان قد بات ذلك بعيداً جداً !

---

* أي فلنتوجه إلى شبرا الخيمة ، تضامناً مع العمال ، لا إلى عابدين ، حيث قصر الملك . (المعرب) .

عام 1947/1948 ، تجابهت مجموعتنا من جديد مع ح.د.ت.و. . فالحركة المذكورة دعمت آنذاك مشروع تقسيم فلسطين، انطلاقاً بلا شك، من ولائها للاتحاد السوفياتي. اما نحن فكنا ضد التقسيم وشرحنا يومئذ موقفنا في بيان طويل بعنوان «لسنا مع سلامكم، ولا مع حربكم»، اوضحنا فيه أن تقسيم فلسطين هو اسوأ الحلول وأن مفهوم «العمل اليهودي» هو رجعي من حيث الجوهر. كما رفضنا ايضاً التضامن مع الحرب التي خاضتها الانظمة العربية القائمة آنذاك. وقد جرى توقيف هنري كورييل بسبب موقفه، وأسقطت عنه الجنسية وطرد من مصر. وكان ذلك ظلماً مبيناً، لأن كورييل كان يحب بلده وشعبه بشغف. ورغم الافتراءات التي لم تنفك تلصقها به اسوأ الرجعيات، بقي على حبه لهما. وفيما بعد، كرّس نفسه للسلام العربي ـ الاسرائيلي ، وربما كان ذلك سبب مصرعه.

مرة اخرى، كانت طريقانا تتقاطعان. كان في وسعي ان أؤيد الطريق التي سلكها للوصول الى ذلك السلام، او ان اقف على العكس، ضدها. لكن يبقى ان كورييل بقي مخلصاً لذاته إذ تصرف بالطريقة التي اعتمدها. وهكذا إخلاص يستدعي الاحترام ، والسخط على كل الذين جعلوا منه، إما مباشرة او مداورة، هدفاً لقتلة مأجورين. وبالنسبة للصحفيين الذين شاركوا في هذه المهمة، فذلك أسوأ من جريمة: إنه خزي وعار.

دفتر مذكرات
لطف الله سليمان

مجلة «فرنسا والبلاد العربية»، العدد 120 تموز - آب 1984

ما كنت كتبت هذه السطور حول كتاب جيل بيرو لولا ادعاء الاخير - عبر كتابة سيرة «الرجل من طراز فريد» الذي مثّله بلا شك شخص هنري كورييل، - انه يضع «كشف حساب نقدياً» لمرحلة انتمي اليها، ولبلد هو بلدي.

لن أتوقف كثيراً عند خمشة بيرولي، دون ذكر اسمي، على الصفحة 175 من كتابه. ففي سياق حديثه عن «المؤامرة الشيوعية الكبرى» التي اثارت موضوعها حكومة اسماعيل صدقي في تموز 1946 من اجل تحطيم اندفاعة الحركة الوطنية المصرية، كتب ما يلي: «كان زعيم «المؤامرة الشيوعية الكبرى» (المقصود كورييل(*))، قبل الاخير بين من جرى اخلاء سبيلهم، إذ ان الاخير كان تروتسكيا (المقصود لطف الله سليمان(*)) حمّل نفسه قدر ما استطاع. فبما انه كان في تلك الفترة التروتسكي الوحيد المعروف في مصر، ساد تصوّر مفاده انه اراد التعويض من صغر العدد بالتضخم النشاطي.» ولو ان بيرو كلّف نفسه عناء استجوابي حول هذا الموضوع او العودة الى مقالي المنشور في «بوليتيك -ايبدو(**)» غداة اغتيال هنري، لكان وفّر على نفسه تقويماً متسرعاً الى هذا الحد. لقد كان لكل منا، أنا وهنري، طريقتان مختلفتان في النظر إلى «الجبهوية». ودون أن يكون هدفي «تحميل نفسي قدر ما استطيع»، فإن روايتي، التي لم تكن سراً بالنسبة لأحد، بدت اكثر إذهالاً للمحققين، لأنها كانت تستبعد بعض التحالفات وتعطي الاولوية لاخرى. اكثر من ذلك، كان بإمكاني ان أعلِمه بأنه في اليوم الذي جرى فيه تمديد فترة

---

* ملاحظة من المعرب.

* المقال المنشور قبل هذا النص مباشرة (المعرب).

اعتقالي 14 يوماً ، بمقتضى ما يسمح به القانون، وتم فيه اطلاق سراح هنري كورييل، مرَّر لي هذا الاخير كلمة مفادها انه يستطيع، إذا شئت، ألا يدفع كفالة المئة جنيه، وان يبقى معي خلال ذينك الاسبوعين الاخيرين. فكان جوابي أن ذلك من قبيل الحماقة. نكتة مقابل نكتة، مع الفرق المتمثل في ان هذه لا تضفي القتامة على صورة كورييل. لا بل العكس.

كما لن اتوقف ايضاً عند بعض الجمل عديمة الذوق تماماً، مثل تلك التي تقول بصدد ماكسيم رودنسون «أن احداً لن يغتاله ابداً، ولله الحمد.» (وان اعترف بيرو بعد صفحات قليلة بما تنطوي عليه من غدر)، او مثل تلك الجمل، المكرَّرة، المتعلقة بريمون أغيون وزوجته! فريمون ينتمي لتاريخنا، بقدر هنري، لا بل مع نقطة اضافية لصالحه: تلك المتمثلة بكونه اعترف في الوقت المناسب، مثله مثل شوارتز وبوجه خاص مارسيل اسرائيل، أنه آن الأوان بالنسبة لبعض الرواد أن «يتنحوا». فبسبب تقسيم فلسطين وخلق دولة اسرائيل، لم تعد مصر بعد عامي 1947 / 1948 ـ ولم يعد بامكانها ان تكون ـ مصر قبل ذلك التاريخ.

إن «التنحي» لا يعني اطلاقاً أن يكون المرء غائباً. فريمون اغيون وغيره من «رعيل المصريين» لم يكونوا غائبين يوماً، لكن بخلاف «يونس» (اسم هنري المستعار) لم يزعموا يوماً انهم يقودون انطلاقاً من منفاهم اقدار الحركة التي ساهموا في تأسيسها. وايّاً تكن خياراتهم والمآخذ التي يستطيع هؤلاء او اولئك أن يأخذوها على «خطوط سيرهم»، فإن في وسع أسمائهم ان تندرج في تاريخ الحركة الشيوعية المصرية، دون ان يستدعي ذلك تحفظات من جانب اي كان. لقد كانوا ضمن تلك الحركة، وهذا واقع تاريخي. وبقوا حاضرين دون زعم القيادة. وهذا ايضاً واقع تاريخي. وكان هنري كورييل هو الآخر جزءاً من تلك الحركة، إذا لم يكن اكثر من غيره فعلى الاقل بمقدارهم. وهذا ايضاً واقع تاريخي لا يمكن احداً ان يجادل فيه. لكن هنري أراد مواصلة لعب دور «الآلهة النازلين بواسطة آلة» deus ex machina . وهو بذلك لا يمكن أن يفلت من التحفظ إزاءه، لا بل من الاعتراض.

لقد كان ثمة مع ذلك العديد ممن «نصحوا» هنري بأن «يتنحى»، لمصلحة الحركة التي كان قد خلقها، بالذات، وذلك غداة نشر «اخبار اليوم» صورته على صفحتها الاولى مع مانشيت كريهة في حقدها وعدائها للسامية. اما هو فلم يرد الاستماع لاي شيء. ويود جيل بيرو أن يجعلنا نصدق ان ذلك عائد لكونه لم يشأ يوماً التسليم بـ «أنه غير مصري». ولا شك ان ثمة ما هو حقيقي في هذا التأكيد. حقيقي ولكن ليس كل الحقيقة، فثمة ايضاً واقع ان «يونس» كان ستالينياً بشكل اساسي ـ رغم طيبة قلبه الظاهرة ـ، بمعنى انه لم يكن يستطيع الامتناع عن الخلط بين التاريخ وزعامته الخاصة به.

إن جيل بيرو يتحامل على التاريخ حين يكتب ان هنري لم يقع في فخ المعاهدة الالمانية ـ

التروتسكية وان مدافع ستالينغراد هي التي جعلت منه شيوعياً. وبصفته ستالينياً حتى العظم، كان ضد «الحرب الامبريالية» مثلما ايد فيما بعد «تقسيم فلسطين». وبالطبع، يمكن الادعاء بأن هذا التأييد كان ناتجاً عن رؤية حادة للحد الاعلى الذي سيستطيع العرب والفلسطينيون المطالبة به بعد ثلاثين او اربعين سنة. وإنه لمن السهل كتابة التاريخ لاحقاً aposteriori ، لا سيما حين يندرج هذا التاريخ على خلفية اخطاء وهزائم وخيانات متتالية. من السهل، بعد السادات وكامب ديفيد، كتابة ان مصر والشعب المصري لم يكونوا يريدان حرب 1948 وان الفلسطينيين لم يكونوا يريدون ان تتدخل مصر فيها، في حين ان تاريخ عمليات عام 1948 يثبت ان مصر كانت الوحيدة تقريباً بين الدول العربية التي خاضت تلك الحرب جدياً وحصدت كل نتائجها.

لقد ماتت الحركة الشيوعية المصرية، في شكلها الاول، اسوأ ميتة عام 1947-1948. وإن انحيازها الى السياسة السوفياتية في تلك الفترة زاد من حدة اجنبيتها حيال المجتمع المصري والمجتمع العربي عموماً. اننا في حين لا ننكر على الآباء المؤسسين جدارتهم، نقول انه كان عليهم ان يسلموا «السلطة». وقد فهم ذلك البعض، بينما لم يفهم آخرون. لم اكن يوماً متفقاً مع الحزب الشيوعي المصري الذي كنت اعتبره اكثر دوغمائية واكثر «سوفياتية» من هنري كورييل، وحمتو، وفيما بعد حدتو، المتصفين جميعاً بالنزعة التجريبية. الا اني متفق معه على القول بأنه كانت هنالك حاجة في نهاية الاربعينيات لـ «انطلاقة جديدة».

أما ما آلت إليه تلك «الانطلاقة الجديدة» فقصة اخرى لكن الرواد، وأنا من بينهم، كانوا قد غدوا لا أكثر من كائنات منقرضة.

لطف الله سليمان